سرنديبية

© حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

اسم الكتـــاب: سرنديبية
تـأليـــــــف: د. محمد عزب
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع
القـطـــــع: 21X14
سنـة النشـر: 2025

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 27813 / 2025
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 663 - 0

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-663-0

سرنديبية

رواية

د. محمد عزب

إهداء

إلى الروائية مها حسن التي كتبت:

"في البدء كانت الحكاية... عشت لأروي، يقول ماركيز... خلقت لأروي، أقولها، وأنا أعيش داخل الرواية، اصطحب أبطالي معي أينما حللت... أتأمل الوجوه... آخذ أرواحهم... أجمعهم من الشارع، من المترو، من المقهى، من الفيسبوك، من السهرات والاحتفالات والمناسبات الكبيرة... أصهرهم داخل مخيلتي، يخرجوا كائنات جديدة، لا تشبه النسخ الأصلية... حياة واحدة لا تكفي الروائي."[i]

صورة الغلاف:

جميع الصور المستخدمة في الغلاف وفي المتن سقطت عنها حقوق الملكية بالتقادم ودخلت نطاق الاستخدام العام. وتمثل صور الغلاف من الأعلى للأسفل ومن اتجاه اليسار إلى اليمين كل من:

- "الكيديفا"،[ii] أمينة هانم إلهامي ابن الوالي عباس الأول ابن أحمد طوسون باشا ابن محمد علي باشا.[iii]
- الخديوي عباس حلمي الثاني ابن الخديوي توفيق ابن الخديوي إسماعيل ابن الوالي إبراهيم ابن محمد علي باشا.[iv]
- إقبال هانم.[v]
- "الكونتيسة" جويدان.[vi]
- الأميرة صالحة بنت الأمير إبراهيم حلمي ابن الخديوي إسماعيل ابن الوالي إبراهيم ابن محمد علي باشا.[vii]
- "البرنسيس ألكساندرا إفيرينو".[viii]

توطئة:

"السرنديبية"، كلمة دخلت اللغة الإنجليزية[ix] عام ١٧٥٤. تشير الكلمة إلى انطلاق المرء بحثا عن شيء فيعثر على آخر بمحض الصدفة يُدخل البهجة إلى قلبه. يعود اشتقاق الكلمة إلى ثلاثة أمراء اكتشفوا أشياء طيبة دون قصد في جزيرة "سرنديب"، الاسم القديم لسيلان أو سريلانكا.

حدث هذا لاحقا مع علماء ومكتشفين أمثال "أرشيميدس" و"نيوتن" و"كولومبس" و"وليم كونراد رونتجن"، مكتشف أشعة إكس؛ ومع أشخاص عاديين مثل الراعي "ماغنيس" التي قادت منسأته إلى اكتشاف المغناطيسية؛ وعنزة عبد الرسول التي تعثرت في حفرة فأماطت اللثام عن خبيئة الدير البحري عام ١٨٨١، وشاة من قرية خربة قمران كانت سببا في اكتشاف مخطوطات البحر الميت؛ والحمار الذي وقع في سرداب عام ١٩٠٠ فكشف النقاب عن مقابر كوم الشقافة؛ وأما "كالدي" فهو شاب حبشي لاحظ أن ماعزه تنشط عند تناول ثمار شجرة معينة فكانت تلك بداية قصة القهوة.

يُقال إن آدم لما هبط إلى الأرض سجد على جبل بالهند مائة عام وهو يبكي حتى جرت دموعه في وادي "سرنديب". و"سرنديب" مذكورة أيضا في شعر أبي العلاء المعري وابن الرومي.

نُفي بعض قادة الثورة العرابية إلى "سرنديب"، وللشاعر، محمود سامي البارودي، قصيدة تحمل نفس الاسم يقول في بيتين منها:

وكيف يعي سر الهوى غير أهله ويعرف معنى الشوق من لم يفارق

كفى بمقامي في سرنديب غربة نزعت بها عني ثياب العلائق

(١)

"البروفسير جورج"

بقليل من الإحجام والمهابة وكثير من التطلع والفضول طرق "جونا" باب أستاذه ورئيس قسمه، العصور الوسطى، في كلية التاريخ بجامعة أكسفورد العريقة ثم دلف في غرفته. رحب به "البروفسير جورج" وأشار له بالجلوس على طاولة الاجتماعات. لم يهدر الوقت كديدن الإنجليز، ودخل في الموضوع مباشرة.

- تعرف يا سيد "هامستر" أن أكسفورد من الجامعات القليلة في العالم التي تُخصص كلية للتاريخ، وليس قسما في كلية الآداب أو العلوم الإنسانية أو خلافه كما في دول أخرى.
- ذلك لأننا نؤمن بأهمية التاريخ في حياتنا وحاضرنا ومستقبلنا.
- مؤكد صحيح. تعلم أيضا أننا نعتمد على الأسئلة المقالية، ونتأكد أن طلابنا لديهم القدرة على التفنيد والبحث والدحض، لذلك ألغينا في قسمنا الأسئلة الاختيارية.
- قرار حكيم.
- الإجابات الجاهزة السهلة لا تريح عقول النابهين، لا بد أن تمحص وتفند وتدقق.
- يشيع بين الطلاب مقولة: حين تقع في حيرة اختر (أ) أو (ب) أو (ج) في جميع أسئلة الاختبار.
- خاصة الإجابة (ج) لاعتقاد الطلاب أن واضع الاختبار يبدأ بالإجابات الخطأ.
- مهزلة.

- يذكرني هذا الأمر أيضا بالحاسب الآلي الذي حين تنطفئ شاشته يطلب منك أن تنقر أي زر للاستمرار. لطالما أخبرت طلابي بأن الأهم من زر الاستمرار هو الرغبة في الاستمرار.
- فعلا، بالضبط.
- حسن. ناقشنا أمس في مجلس الكلية اقتراح بإضافة كلمة Herstrory بجوار كلمة History في اسم الكلية لأن التاريخ ليس ذكوريا فقط، بل قصة الرجل والمرأة.
- تقصد تاريخ الإنسان؟
- بالضبط. صحيح أن "البروفسير روزنبيرج" اعترض قائلا إن الرب لم يرسل نبيّات، لكننا صوتنا وماضون في عزمنا.
- بالتوفيق.

قام "البروف جورج" من جلسته وتوجه نحو مكتبه. تناول كتابا من عليه وعاد إلى "جونا" مردفا:

- لقد ارتكبت الأمة الإنجليزية أفعالا مشينة في حق المرأة.
- إنجلترا ودول أخرى.
- أجل يا "جونا". تعرف هذه الرواية؟

قالها وهو يُري "جونا" غلاف الكتاب. اشرأب عنق "جونا" قليلا ثم أجاب:

- بالطبع هذه رواية "عمدة كاستربريدج" للكاتب "توماس هاردي".
- هل تذكر مشهد بيع الزوجة؟
- من دون شك.

- بين ١٧٨٠ و ١٨٥٠ أُقيم في إنجلترا أكثر من ثلاثمائة مزاد لبيع الزوجات.
- شيء مخزي حقا!
- على أي حال وعودة إلى تغيير اسم الكلية، سنرفع بهذا الاقتراح إلى مجلس الجامعة.
- ممتاز. بوركت جهودكم. هل هذا ما استدعيتني لأجله؟
- لا بالطبع. أحببت فقط أن أطلعك على آخر المستجدات.
- الشكر لك يا بروف.
- أعلم أنك تستعد لمناقشة رسالتك لنيل درجة الدكتوراة، والأمر متوقف على بعض الإسهامات البحثية. صوبني إذا كنت مخطئا؟
- أبدا يا سيدي. تماما كما ذكرت. انتهيت من المقررات وتقريبا من الرسالة، وأبذل كل ما في وسعي.
- "كل ما في وسعك" ليس كافيا يا سيد "هامستر". بلغني أنك منزعج من الأبحاث المطلوبة منك.
- ليس تماما. كل ما في الأمر أنها غير محسوبة لي ولا تدخل في الترقي لأني لم أحصل على درجة الدكتوراة من الأساس لأفكر في الترقي، ولا تضيف للموضوع الذي أعمل عليه أي جديد، بل تستهلك وقتي ومجهودي وتركيزي. الأشد والأنكى من ذلك أن البروفسير "ونستون" رفض البحث الأول بحجة أنه مُستل من الرسالة.
- ما رأيك في الأبحاث الجماعية؟

- إذا لم يكن الفريق متجانسا ومتفاهما فلن يصل لنتيجة مرضية؛ وفي هذه الحالة الفردية أفضل. يُمكن للاعب كرة قدم موهوب وباحترافية فردية إنهاء مباراة متأرجحة.
- لن يسعد عميد الكلية لو سمعك تتحدث بهذا الكلام، لا سيما ونحن بصدد تجديد رخصة الجودة.
- هل سمعت يا سيدي عن "متلازمة دلو السلطعون"؟
- كلا، منك نستفيد.
- عندما توضع واحدة منها في دلو تستطيع الهرب، أما في حالة وجود العديد منها فإن الآخرين لا يسمحون للهارب بأن يحقق مبتغاه، بل يجذبوه للأسفل ليواجه نفس المصير معهم.
- حقا؟! لم أكن أعرف ذلك.

(٢)
"نوستوس"

قام البروفسير من مقعده متوجها إلى مكتبه، ثم أمسك بمجسم صغير للملكة "نفرتيتي" كان قد أهداه له أحد طلابه من مصر ثم قال:

- لدي عرض لك يريحك من قصة الثلاثة أبحاث المتبقية دفعة واحدة.
- إليّ به يا سيدي أرجوك.
- في مطلع يناير ٢٠١٩ يا سيد "هامستر" يحتفل العالم بمرور ٢٣٥٠ عاما على تأسيس مدينة الإسكندرية الأم عام ٣٣١ قبل الميلاد. وبهذه المناسبة تعتزم الجامعة إصدار كتاب شامل عن هذه المدينة الفريدة بالتعاون مع المجلس الثقافي البريطاني بالإسكندرية. ينقسم الكتاب كما أخبرني العميد إلى عشرين فصلا. أحد هذه الفصول معنون "الإسكندرية مدينة الحب". واضح طبعا.
- نعم يا سيدي. حابي وإيزادورة وأنطونيو وكليوباترا و..
- نعم يا "جونا"، لكن قصة حابي وإيزادورة أتوقع جرت في الصعيد، زد على ذلك أننا لن نتوقف كثيرا عند القصص المعروفة؛ هناك قصص حب مغمورة نريد أن نميط اللثام عنها وهناك قصص نرغب في إكمال أحداثها بالبحث والتنقيب عن نهاياتها.
- قصص مغمورة مثل ماذا يا سيدي؟
- الإجابة تجدها في الإسكندرية.

- موافق.
- هل جواز سفرك صالح؟
- أجل.
- جميل جدا. اعمل حسابك تكون في الإسكندرية منتصف الأسبوع المقبل. نحن الآن في يونيو ٢٠١٨. هذا يعطينا فرصة لطبع الكتاب قبل العام الجديد. ستمنحك الجامعة "ساباتيكال"، لمدة شهر مع وجود لإمكانية للتمديد البسيط. هذا التفرغ من أجل إنهاء المهمة المطلوبة في الإسكندرية، وهناك ميزانية مرصودة لمثل هذه الأعمال البحثية سواء فردية أو جماعية كما تعلم، بمعنى السفر والإقامة والنثريات على نفقة الجامعة. أي استفسار؟
- لا يا "بروف" واضح.
- بالتوفيق.

بالرغم من رد "جونا" خرج من مكتب رئيس القسم بعلامات استفهام كثيرة تدور في عقله.

رفع رأسه قبل نزول الدرج فوجد على الحائط لوحة كبيرة تضم البطل الأسطوري "أوديسيوس" و"إيثاكا" وزوجته "بينوبلي" التي تنقض غزلها و"سيرينات" البحر المتوسط وآكلي اللوتس. في أسفل اللوحة وإلى اليسار وقع الرسام بكلمة "نوستوس".[x] دفعت غرابة الاسم "جونا" ليخرج هاتفه ويبحث عن الكلمة. صدق حدسه. لا يوجد رسام بهذا الاسم. تشير الكلمة اليونانية إلى "الحنين للأوطان"، وهو الجذر الذي خرجت منه كلمة "نوستالجيا".

وقف للحظات يرمق الصورة. مرت عليه سكرتيرة القسم فسألته:

- سيد "هامستر"، هل أنت على ما يرام؟!

أعاده سؤالها من شروده فرد قائلا:

- أجل، أجل، بالطبع. هل جلبتم هذه اللوحة مؤخرا؟
- هذه الصورة هنا منذ أن كنت أنت طالبا في الكلية.
- غريبة! لم أنتبه لها.
- لا عليك، هذا يحدث كثيرا. طاب يومك.

(٣)
"فيليستي"

انطلق "جونا" من أكسفورد حيث يستأجر مسكنا إلى مسقط رأسه في لندن. المسافة بين المدينتين تستغرق قرابة الساعة والنصف بالسيارة. عليه أن يُسرع حتى يلتقي خطيبته "فيليستي" في الموعد. اليوم هو الجمعة وأمامه عطلة نهاية الأسبوع ليرى "فيليستي" ويطمئن على والديه وينهي الكثير من الأعمال.

في الطريق لم يستطع "جونا" درأ التفكير في مهمته القادمة. كيف سيبرر لخطيبته الغياب لمدة شهر؟ ربما من المناسب أن يعرض عليها الصحبة. الإسكندرية مدينة قديمة وحتما ستجد المتعة فيها. ربما يجدر به أيضا تحديد موعد الزفاف.

وصلت "فيليستي" قبله، وجلست تمارس هوايتها في تقطيع الأوراق. تشعر براحة عجيبة حين تفعل ذلك. مزقت نسختين من قائمة الطعام قبل أن يصل "جونا". انفجرت فيه. أحس "جونا" بالحرج ورواد المطعم ينظرون إليه. استدعت "فيليستي" كل المرات التي خذلها فيها بسبب دراسته وكتبه. كانت متحفزة له ومستفزة بشكل واضح.

حاول تهدئتها، لكنها قالت إن حبل الصبر قد بلغ معها منتهاه، وأنها تريد أن تعيش وتخرج وتستمتع بوقتها. عرض عليها مرافقته إلى الإسكندرية فرفضت أن تسافر معه في مهمة بحثية. قالت إنها لا تستهويها القراءة والكتب وهذه الأشياء التي لا تفهمها. أضافت:

- لا أستطيع أن أمضي عمري في المتاحف والمكتبات. أحب الفراغ. لا بأس ببعض التفاهة والعبث. هذا اللاشيء يعني الكثير

بالنسبة لي. لا أستطيع أن أعيش بلا لهو وضحك وشرب ورقص وانطلاق و..

- وتدخين ومخدرات.
- لا يضير.
- وصحتك وعملك؟
- صحتي جيدة. اكتسبت بعض الوزن الزائد، لكن لا بأس فأنا راضية عن جسمي وشكلي وحياتي، وأما عملي فلم يتأثر. أنا أصدر التذاكر في إستاد نادي "تشيلسي". لا يحتاج الأمر كثيرا من التركيز والانتباه.
- الإجابة (ج)!
- ماذا تقول؟!
- أستغرب من كلامك حقا يا "فيليستي"!
- وفر هذا الاستغراب لنفسك. أنت من تستحق الرثاء حقا. هل تذكر أول مرة خرجنا معا؟
- أجل، تواعدنا في برج لندن.
- ألا تخجل من نفسك؟ ما هذه الكآبة؟ هل من المنطقي أن يتواعد شخصين ليستمعا إلى قصص السجن والإعدام والدماء؟!
- لكن لم يبد عليك الضيق وقتها.
- قلت مرة ولن تتكرر، لكنها أصبحت السمت العام. أنت غائب دوما، وحضورك وغيابك شيء واحد.

- ولكنك ارتبطت بي وأنت تعرفين طبيعة عملي. لم أُخف عليك شيئا. وما زلت في أول الطريق.
- أنت تحتاج يا عزيزي إلى دكتورة في الجامعة مثلك أو طبيبة، أما أنا فلا. أريد الذهاب للسينما والحفلات والتخييم. اسمع يا "جونا" لقد تسرعنا في الخطبة.
- هل قابلت شخصا آخر؟

(٤)

"الماء خمرك وعصيرك"

أشاحت "فيليستي" بوجهها. ثبتت نظرها تارة على نادل ممتن لبقشيش معتبر وتارة أخرى على زجاجات الخمر متعددة الألوان في "البار" ثم قالت:

- ليس تماما...

لم تمهل "جونا" ليطلق زفرة ارتياح فعقبت من فورها:

- الحقيقة "أجل". صحيح أنه مهاجر من كينيا، لكن عقله ملكه. لا يعكس وجه كل هذه الهموم التي تحملها. لا يبدو أكبر من عمره. لا يستنزف تفكيره فيما لا يفيد. يستمتع بوقته، وليس في سباق مع الزمن.
- ليس هذا من الإنصاف.
- لم نُخلق لبعض يا "جونا"؛ طريقنا مختلف وحياتنا مختلفة. أنا أنام عشر ساعات، ولا أكترث بقضاء وقتي وأنا لا أفعل شيئا، أما أنت فتنام أربع ساعات ودائما منهمك في فعل شيء ما. تهوى تنظيم متاعك وأغراضك ووضعها في مكانها. التلفاز عندك لا يفتح إلا على قنوات الأخبار وعالم الحيوان والوثائقيات. تسمع الموسيقى الكلاسيكية، وتحب الأفلام القديمة. طعامك تقليدي. تميل إلى العزلة ودائرة أصدقائك محدودة. لا ترد على الأرقام التي لا تعرفها. لا تخرج من المنزل إلا لحاجة. لا تستطيع العيش في الفوضى والفراغ. تتحدث بطريقة مختلفة. لغتك منضبطة. تذكر أشياء وأشخاص لا يعرفهم أغلب الناس. تتسبب في تشويشهم وبلبلة عقولهم وإرباكهم. لا تدخن ولا

تشرب. تحرص على الذهاب للكنيسة يوم الأحد. تستشهد بالإنجيل كثيرا. صفحاتك على وسائل التواصل الاجتماعي تضم عشرة أصدقاء. لا تقبل طلبا للصداقة من شخص لا تعرفه. تحب زيارة القبور. تعيش في الماضي. تستهويك الأشياء القديمة. تلوم نفسك أكثر من اللازم. لا تشاهد فيلما مرتين. لست مهووسا بالنساء، وترفض المساكنة. تصلي قبل أن تأكل. تحب الألوان الكئيبة. لا تضع وشما. تبالغ في تقصير شعرك. لا تحب الملح ولا السكر. لا تحب الصوت المرتفع. تحتفظ دوما بقلم وورقة في جيبك. تضيع نقودك على الكتب والأنتيكات والأعمال الفنية اليدوية. تتكلم مع نفسك أكثر مما تتكلم مع الناس. تهاب البشر. تحب الشتاء والمطر. تلبس الحلل والمعاطف. ترتب سريرك ودولابك كل يوم. تبالغ في قص أظافرك. تحلق ذقنك وتلمع حذاءك كل يوم. تمشي بالساعات وتحسب سعراتك الحرارية. تغسل أسنانك أربع مرات يوميا. تحب الليل والظلام. تغلق النوافذ وترخي الستائر في النهار. تلعب من نفسك الشطرنج. سيارتك وساعتك وأحذيتك عتيقة. لا تحب لبس الخواتم. لا تمضغ العلك ولا تحب الأكلات السريعة. لا تورط نفسك ولا تتدخل فيما لا يعنيك. دائم النظر إلى الساعة. الماء خمرك وعصيرك.

- كل هذا؟! لم أدر أني سيء إلى هذا الحد.
- أنت مثالي وتأخذ الحياة بجدية أكثر من اللازم.
- وما الضير في ذلك؟!

- لست أنا. على أي حال لم تجمعنا قصة حب مشتعلة. تعارف صالونات كما يقولون عن طريق جارتي، أمينة المكتبة بكليتك. بالمناسبة هذه هي النوعية التي تناسبك. لولا أنها متزوجة لقلت لك واعدها. إلى اللقاء؛ أقصد حظا طيبا.

(٥)
"أنا ملجأك ومخبأك"

قالتها "فيليستي" وهي تمسك بحقيبتها ثم تقف مضيفة بنبرة عالية نسبيا وهي على وشك الانصراف:

- هل تتذكر في بداية صداقتنا حين استأجرنا غرفة في فندق وتشاركنا الفراش؟

هز "جونا" رأسه بالإيجاب. تابعت "فيليستي" وقد ظهرت ملامح الغضب والعبوس على وجهها:

- يومها ترددت في معاشرتي، ثم فعلت مضطرا حتى تدرأ عني الاعتقاد بأنك مثلي. أدرت "الأوتو-بايلوت" وواقعتني بلا إحساس كبندول ساعة حائط قديمة. وعندما كنت تُغمض عينيك لتستمتع بالأنوار الداخلية لقبتك السماوية كنت أعرف أن عقلك في مكان آخر. ليس عقلك فقط، بل عقلك وقلبك.
- لكن.
- لا مجال للجمل الاعتراضية هنا. لقد شاهدت "نوتة" الفندق في غرفتنا وقد امتلأت بملحوظات رسالة الدكتوراة.
- وما العيب؟! أشياء عنّت لي فسجلتها ريثما أفتح حاسبي المحمول.
- أنت مسكين يا "جونا". دمر والداك حياتك حين أفهماك أن الحياة دراسة وعلم وبحث فقط. كم من الآباء ألقوا بأطفالهم إلى الرهاب والتوحد والتقنفذ والأمراض النفسية دون أن يشعروا.

- ماذا تقولين؟! ما هذا الهراء؟! ثم لا توجد لفظة اسمها "التقنفذ"؛ ليست في المعجم. تقصدين "التقوقع" أو "التشرنق"؟
- التقنفذ، التقوقع، التشرنق، لا يهم. كلهم يعبرون عن نفس الفكرة، وليذهب القاموس إلى الجحيم. نحن من نصنع القاموس. لم أذهب إلى الجامعة، لكني أسعد منك. من عاش بالحكمة مات بالحسرة لأنه ببساطة يغفل عن الاستمتاع بالحياة.

أخرجت "فيليستي" مظروفا من حقيبتها ووضعته على المائدة مضيفة:

- هذه أشياءك.

ظهر الضيق على وجه "جونا". جلس لدقائق بعد مغادرة "فيليستي" ينظر إلى الأرض ويتلافى نظرات رواد المطعم، ثم شرب كوبا من الماء أمامه، ووضع حساب القهوة على المنضدة.

فتح المظروف وكاد يُفرغه على الطاولة، لكنه أمسك عن ذلك. مد يده داخله فأخرج ورقة فضها وراح يقرأ بضع سطور منها:

أنا رجلك وصاحبك. أنا أميرك وفارسك. أنا ظهرك وسندك. أنا ملجأك ومخبأك. قولي إنني الرجل الوحيد في عالمك. أنني ماءك وإكسير حياتك. أنني دنيتك وجنتك. أخبريني أنني حبيبك وعشيقك. أخبريني أنك مغرمة بالجلوس والتحدث معي. افهميني من نظرة واحدة. امتدحي خلقي ولباقتي وثقافتي وأناقتي وبساطتي. أخبريني أن أفكاري تبهرك. أخبريني أنني مكافأتك. شاركيني اهتماماتي وأحلامي وآمالي وطموحاتي. تجاوزي عن هناتي. كوني لي يا حبيبتي، لي وحدي.

أعاد "جونا" الوريقة إلى المظروف. خرج من المطعم إلى حيث صف سيارته. توجه نحو صندوق القمامة وألقى بالمظروف فيه.

أطبق عليه الصمت وعلى المكان والكون الرحيب حوله. لم يسمع إلا صوت أنفاسه ودقات قلبه المتسارعة وهذا الصفير الذي استحوذ على أذنيه.

(٦)

"السيد والسيدة هامستر"

ذهب كل منهما إلى حال سبيله: "فيليستي" إلى صديقها الجديد، الوافد من كينيا، لمشاهدة مباراة لكرة القدم، و"جونا" إلى منزل والديه. حكى لهما عن المستجدات في حياته هذا الأسبوع: المهمة العلمية في مصر وعن انفصاله عن "فيليستي". عقب والده:

- كل ما قالته "فيليستي" صحيح. أنا لا ألومها. تحتاج يا "جونا" إلى امرأة ذات طبيعة مختلفة، أليس كذلك يا "هاريت"؟
- أجل يا "جورج". الحقيقة لم أشعر بالارتياح لهذه الفتاة.
- لا نريد أن نظلمها يا "هاريت". المرأة بشكل عام تحب بصفة دائمة سماع الكلام الجميل والشعور بالاهتمام الزائد. اسمع يا "جونا" عائلتنا ورثت هذا الشغف بالعلم والحركة والنشاط والإنتاج. من أجل ذلك نلنا لقب "هامستر". أنت بالطبع تعرف هذا النوع من القوارض الذي لا يمل ولا يكل.
- عائلتنا! أين هي عائلتنا يا أبي؟! لا أرى أحدا منهم. هذا ما جعلني أتجه للكتب والعزلة. وبسبب كوني الطفل الوحيد بالغتما في الخوف عليّ، والنتيجة أني ترعرعت أيضا بلا أصدقاء.
- كان لديك أصدقاء وأنت صغير، وما زال لديك صديقك "توم".
- "توم" يا أمي أنت تعرفين حكايته، لكن على أي حال سأقوم بزيارته غدا. لم أزره منذ شهور ولم أتواصل معه. أشعر بالتقصير الشديد معه.

- هون عليك يا بني. هل يروق لك صيد السمك غدا في نهر "التيمس"؟
- لا يا أبي، لا أشعر برغبة في ذلك؟
- بالمناسبة يا "جونا".
- نعم يا أمي.
- فقط أردت إخبارك أن أحد أقاربي واسمه، صمويل سيليج كوسل،[xi] ذهب عام ١٨٦٣ إلى مصر للعمل. "كوسل" اسم ألماني، وأنت تعرف أن أصول أسرتي من المهاجرين الألمان.
- أعرف ذلك، لكن هذه أول مرة أسمع عن "كوسل". مهلا.. تقولين ذهب إلى مصر "للعمل"؟!
- أجل. كانت مصر وقتها واعدة وأرضا للأحلام.
- هذا يُقال عن الولايات المتحدة اليوم، أليس كذلك يا أبي؟
- حتى الضباط الأمريكان سعوا إلى الحصول على وظائف في جيش الخديوي إسماعيل.
- جميل، أكملي يا أمي.
- في ليفربول حيث وُلد "كوسول" قابل طبيب مصري أظن اسمه "مصطفى" وزوجته الإنجليزية. أخذه مصطفى هذا إلى مصر حيث عمل في مصنعه للغزل والنسيج. خط كتابا[xii] عن رحلته تلك التي قاربت الربع قرن. تزوج من امرأة إيطالية أظن اسمها "ألفيرا كليتو تشيني".[xiii] كانت "ألفيرا" تقيم في القاهرة مع أسرتها التي عملت في الخدمات البريدية. كان زواجا ناجحا.
- سحرته مصر.

- أجل يا زوجي العزيز.
- لكن هل أنت ذاهب إلى القاهرة يا "جونا"؟
- لا يا أبي. الإسكندرية.
- هذه كانت عاصمة مصر قبل القاهرة. مدينة عريقة. قرأت رباعيات "لورانس داريل" عنها. أضرت بالإسكندرية أكثر مما أفادتها، علاقات فاشلة بين قبطي وإنجليزي ويهودية ويونانية. "داريل" أحب الإسكندرية ونقم عليها لأنه لم يرها مثلما رآها "قسطنطين كفافيس". قال الأخير فيها:

قلت: سأرحل إلى أرض أخرى.

إلى بحر آخر.

...

لن تجد بلدانا ولا بحورا أخرى.

ستلاحقك المدينة وستهيم في الشوارع نفسها.

وستدركك الشيخوخة في هذه الأحياء بعينها.

وفي البيوت ذاتها.

...

ستصل على الدوام إلى هذه المدينة.

لا تأمل في بقاع أخرى.

ما من سفين من أجلك

وما من سبيل.[xiv]

(٧)

"لكن السنجاب والرطراط لا يتزوجان"

قام "جونا" من جلسته ليشرب بعض الماء وهو يردد في أعماق نفسه: "آكلو اللوتس". عاد إلى جلسته مع والديه قائلا:

- أتدري يا أبي حوارنا هذا وحوارات أخرى هو ما جعل "فيليستي" تتركني؟
- "جونا" صغيري، هناك عقول تنزف من عمق التفكير، وهناك عقول تصدأ من قلة الاستخدام. المفكرون والدهماء. القصة قديمة ومعروفة ومحفوظة. هل تذكر البروفسير "هيجنز" في رائعة "بيرنارد شو" "بيجماليون".
- "سيدتي الجميلة"؟
- أجل.

تنهدت السيدة "هامستر" عند سماع اسم المسرحية والفيلم الشهير. وضعت يدها على صدرها وهي تقول "أودري هيبورن" ثم صدحت بالغناء:

كل ما أريد هو غرفة في مكان ما
بمنأى عن هواء الليالي الباردة
غرفة بها مقعد كبير
أليس هذا شيئا رائعا؟
قطعة كبيرة من الشيكولاته لي وحدي
فحم وفير يصنع طعاما كافيا.
وجه دافئ وقدمان ويدان دافئتان.

أليس هذا شيئا رائعا؟

احتضنها السيد "هامستر" معلقا:

- بلى يا حبيبتي.
- هل مازال صوتي يعجبك يا عزيزي؟
- بكل تأكيد.

تابع "جونا" متعجبا من حوار والديه ومتأملا كلمات الأب والأم وما تحمله من حب ومعزة وعشرة ومودة وأشياء أخرى، ثم قال:

- لنعد لموضوعنا يا أبي.
- هذا هو موضوعنا. العلاقة الصحية الصحيحة التي تدوم وتثمر. القواسم المشتركة.
- تقصد...
- فقط قارن بين "البروفسير" ووالد "إلايزا".
- "دوليتيل"؟
- أجل، الذي لا يفعل شيئا؟ هل بمقدورك أن تعيش هذه الحالة من التشرد والصعلقة.
- لا بالطبع، لكن لاحظ يا أبي أن "ديوجين" الذي عاش في برميل جعة فارغ كان لديه فلسفته الخاصة.
- وهل لعدمية "دوليتيل" فلسفة؟!
- لا أدري، لكنه كان أسعد من البروفسير الذي أتلفت دراسة اللغويات أو الصوتيات عقله. تباهى أنه يستطيع تحديد مسقط رأس رجل على بعد ميلين من لندن، وأحيانا على بعد شارعين فقط. هل لهذا فائدة يا أبي؟!

- أستغرب منك هذا الكلام يا "جونا". أقدر الظرف الذي تمر به، لكن السؤال هل تستطيع أن تعيش في خواء عقلي وبيئة فوضوية، مفصول عن الواقع، ليس لك بصمة إيجابية في محيطك؟
- مستحيل. لست أنا.
- بالضبط، يا بني، من يزداد علما يزداد وجعا وحزنا. هذا هو ثمن الوعي والمعرفة. اصغ إليّ يا "جونا"، ما حدث بينك وبين هذه الفتاة أمر عادي؛ لست وحدك وليست وحدها. ألا تتفقين معي يا "هاريت"؟
- أرى أن علاقة "جونا" بهذه الفتاة تندرج تحت صراع الإرادات والشخصيات. أرادت أن تفرض قواعد اللعب الخاصة بها. قد تكون تافهة وضحلة التفكير وتهتم بسقط المتاع وسفاسف الأمور، لكن لديها أنا أنثوية عالية وقوية.
- اسمحي لي أن اختلف معك يا زوجتي العزيزة.
- لا بأس. هذا من حقك. استمع إليّ يا "جونا".
- نعم يا أمي.
- الحياة يا بني فيها "السنجاب" والرطراط.
- الرطراط؟!
- حيوان الكسلان. الحياة تتسع لهذا وذاك، لكن السنجاب والرطراط يا بني لا يتزوجان.

(٨)

"جونا"

في المساء حاول "جونا" كتابة أي شيء بقسم النتائج المستخلصة في رسالته، لكن تذكر كلمات "فيليسيتي" عن "نوتة" الفندق فتملك منه الضيق وقام.

على أي حال ولكي يكون منصفا مع نفسه والآخرين، حق لفيليستي أن تغضب. جلس على حافة فراشه لفترة ثم قام من جلسته مطلقا زفرة من الأسى. "فيليستي" جميلة، لكن طباعها سيئة. إنها النسخة المتأخرة والأكثر رداءة من امرأة سقراط.

وقف أمام النافذة ينفخ بخار زفيره الساخن على لوح الزجاج البارد ثم يرسم قلبا ويراقبه حتى يختفي. كتب اسمه أيضا. "جونا" هو الاسم الإنجليزي لنبي الله يونس.

نظر "جونا" من النافذة إلى الحندس الذي لف المكان والأضواء الخافتة لأعمدة الشوارع، والحشرات التي تتجمع حولها.

يقولون إن هناك نوع من العثاثِ لا تضع البيض إلا عندما تعيش الصدمة وتلسعها هذه الأضواء الساخنة. الشاهد أن الضربات التي لا تكسر ظهورنا تقويها والصدمات التي لا تقتلنا تدفعنا إلى الأمام، وأنه لكي تنتج وتزدهر وتثمر عليك أن تكد وتكدح وتتحمل النصب والعنت. هذا هو "جونا" بلا أدنى مبالغة أو مواربة.

الوجه الإيجابي من العملة يشي بأنه سيستريح من هذه الإنسانة المزعجة المبتذلة. سيستريح من مشاكستها وسلاطة لسانها. إلى

الجحيم يا "فيليستي". اسم على غير مسمى فلا هي مبهجة ولا شيء يُسعدها.

أثناء نومه تلك الليلة رأي جونا نفسه في حديقة غناء تحلق فوقها عشرات الكتب. كان في حالة من السعادة الغامرة، لكن فجأة ظهرت "فيليستي" بصحبة مجموعة من الأفاقين راحوا يطلقون النيران على هذه الكتب فتمزق بعضها واحترق، وطار الآخرون إلى غير رجعة. تسربت الكلمات والحروف. سقط أحد أمهات الكتب على رأس "جونا" ففقد الوعي. قام من نومه فزعا يتحسس رأسه.

تقول الشبكة الدولية للمعلومات "الإنترنت" إن الأفكار التي تحملها بعض الكتب تقتل، وإن الكلمات تفتك بأصحابها فالمتنبي قتلته بضعة أبيات. كلمة من ثلاثة حروف قهرت عالم اللغة، سيبويه، وجعلته يصرح وهو ينازع: أموت وفي نفسي شيء من "حتى"؟!

في عشرينات القرن العشرين صدح شاب مجري لأول مرة بأغنية "الأحد الكئيب".[xv] انتحر الشاب بعدها مباشرة. بعد ذلك غنتها "أولجا كيركس" في أحد المسارح الشهيرة فأبكت الحاضرين. قبل الوصلة الثانية وجدوها منتحرة بالسم في غرفتها. يقال إن عشرين شخصا انتحروا بعد سماع كلمات هذه الأغنية؛ بينهم مؤلفها "لازلو يافور".

وبشكل مادي، إذا سقطت الكتب نفسها فوق رأس إنسان قد تميته. هذا على الأقل ما حدث للعالم المسلم "الجاحظ". يُقال عطس فاهتزت مكتبته وتساقطت الكتب فوق أم رأسه فأردته. على الأقل مات محاطا بالأشياء التي أحبها.

(٩)

"سأغادر نحو الربيع"

أسبت "جونا هامستر" وهو يرتب المرآب ويقلم الحديقة ويدهن أجزاء من سقف المنزل. ثبت شاخصاه على سنجابين جميلين راحا يقفزان هنا وهناك. ابتسم قائلا بصوت خفيض: السنجاب يتزوج سنجابة والرطراط يتزوج رطراطة. أنت رطراطة يا "فيليستي". أنت من تستحقين الرثاء حقا لأنك حرمت نفسك من لذة العلم ومتعة البحث ودهشة الاكتشاف.

هل سألت نفسك عن إحساس هؤلاء الذين أوقفوا حياتهم على البحث فسهروا وتعبوا ودققوا وحاولوا وأخفقوا وتابعوا ثم وصلوا؟ يا تُرى ما شعور هؤلاء الذين ارتادوا واكتشفوا واستنبطوا وطوروا أو حتى تحدثوا عن أشياء لفها العدم أو الغموض قبل أن تنجلي أسرارها: الثقب الأسود والانفجار الكبير والجزيئات والنظائر المشعة والضغط الجوي والكهرومغناطيسية والأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية والنسبية وسرعة الضوء و"الترانزستور" والبكتريا وانقسام الخلية وفصائل الدم و"الأنسولين والليزر والكورتيزون" والحامض النووي؟

يُقال إن القس "جيرونيمو" أمضى عشرين عاما في القدس ليترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية! كم من السنين أمضاها "برزويه" في الهند متسللا كل يوم لمكتبة الملك ليترجم كتاب "كليلة ودمنة" للفارسية؟! كم من السنين أمضاها "شامبليون" وهو يحاول فك طلاسم حجر رشيد؟! كم من السنين أمضاها "ماجلان وفاسكو دا جاما" في المحيطات والبحار بحثا عن الأرض الجديدة؟! كم من الوقت والجهد أُستنفذا لاكتشاف "البنسلين" والمخدر وترياق الكوليرا والبلهارسيا؟!

يقول "إديسون": إن أشقى لحظات حياتي وأضيعها هي التي لا أجهد فيها عقلي بالتفكير. جرب الرجل مركبات كيمائية على نفسه فتعرض للحرق والصعق والتسمم!

كيف كان شعور "وليم ديفرايز" حين نجح في زرع أول قلب صناعي؟ كيف شعر الكابتن "سكوت" ورفاقه بخيبة الأمل حين وصلوا إلى القطب الجنوبي بعد معاناة ثلاثة أشهر ليجدوا خيمة "أموندسن" وخطابه، ويدركوا أن ثمة من سبقهم؟ لقوا مصرعهم الواحد تلو والآخر. كتب "سكوت": من العسير أن نأمل في قادم أفضل. أصابنا الوهن، لكن سنصمد حتى النهاية التي لا يمكن أن تكون بعيدة. يبدو الأمر مؤسفا، لكن لا أعتقد أنه بمقدوري كتابة المزيد.

لماذا استمرت "ماري كوري" في مختبرها الذي أودى بحياتها؟! لماذا كتب "بيتهوفن" السيمفونية التاسعة بعد أن فقد سمعه؟!

كيف تسرب الشك إلى "فان جوخ" حول منجزه وأودى به إلى أن يكتب لأخيه: إلى أين تمضي الحياة بي، وما الذي يصنعه العقل بنا؟ إنه يُفقد الأشياء بهجتها ويقودنا نحو الكآبة. أتعفن مللا لولا ريشتي وألواني. أعيد بهم خلق الأشياء من جديد، لكنها تغدو باهتة وباردة بعد أن يطويها الزمن. ماذا أصنع؟ أريد أن أبتكر خطوطا وألوانا جديدة غير تلك التي يقع عليها بصرنا كل يوم. كل الألوان القديمة تترك مسوحا حزينة في قلبي... هذا الصباح رسمت وجهي المكرر، وجه "فنسنت" القبيح. بصقت في المرآة. أعدت رسمه كما أريد... كانت أذني ناتئة فأزلتها بشفرة الحلاقة وأرسلتها للمرأة الثرثارة التي ظننت أني أحبها، لكنها لم تعرف قيمتي... إنه الإخفاق من جديد. لن ينتهي البؤس أبدا. وداعا يا "ثيو"، سأغادر نحو الربيع.

(١٠)

"توم"

في المساء ارتدى "جونا" ملابسه وقصد بيت صديق الطفولة الوحيد، "توم".

كان "توم" شابا رياضيا تفوق في كمال الأجسام وأهّله ذلك للحصول على منحة من جامعة لندن. كان متفوقا في دراسته ونال إعجاب الكثير من الفتيات اللاتي سعين للتقرب منه. اختار أجملهن "فيكي".

استيقظ "توم" صباح ذات يوم ليكتشف أنه أصيب بمرض "الفيتيلجو". مع انتشار بقع البهاق في جسمه ترك "توم" الدراسة والرياضة وأمسى حبيس غرفته.

آثرت "فيكي" السلامة وتركته دون وداع. لم تُخلق لمثل هذه التحديات والتضحيات، وليست على استعداد لهذه الحياة.

مما زاد من وجعه رحيل أمه فجأة. منذ صغره تولد لديه خوف من فقدانها. من تخشى فقده تفقده بالفعل. أمسى يجلس على الأرض ويكور جسمه وكأنه في رحم أمه وينهنه.

صار النوم هو العمل المحبب إلى "توم". ينام ثم يستيقظ لينام. يهرب بإخفاقاته وخيباته، أو هكذا ظن.

تذكر "جونا" حوارهما معا وهو يحاول التخفيف عنه:

- عزيزي "توم" ما لا يمكن دفعه يجب علينا احتماله.
- "جونا" صديقي، تحول إنسان فجأة إلى رقعة شطرنج أو حمار وحشي أو بقرة من السلالة الهولندية أمر صعب!
- لا تقل ذلك عن نفسك يا "توم". هذه تشبيهات مخيفة ومهينة.

- هذه هي الحقيقة، وإني لأتساءل يا "جونا": لماذا أبرأ المسيح البعض وترك الآخرين؟!

سرح "جونا" قليلا في قضية الابتلاء. صحيح أن كلنا مبتلون، لكن بدرجات. خسارته "فيليستي"، لو جاز أن ننعتها بالخسارة، هي لا شيء بجانب ابتلاء "توم" ونوازل أخرى. ها هو "توم" يسأل: لماذا لم يبرأ المسيح الجميع؟! لسان حاله يردد:

قل: من صنع الموت؟

قل: من صنع العلة والداء؟

قل: من وسم المجذومين والمصروعين؟

قل: من سمل العميان؟

من مد أصابعه في آذان الصم؟

من شد لسان البكم؟

من سود وجه السود؟

من صفر وجه الصفر؟[xvi]

نظر "جونا" على توم قائلا:

- لا تجعل الحكمة تغيب عنك يا "توم" كما غابت عن صديقنا "روبرت".
- السلام لروحه. تنمر الكثيرون على مهقه. لم يكن ذنبه أنه وُلد "ألبينو". ماذا أقول لك: قلبه كان أبيض من بشرته. أتفهم أن تنأى الحيوانات عن المهق منها لأنه يتسبب في كشفها وتعريض حياتها للخطر، أما أن يُنبذ إنسان ويُمارس ضده هذا القدر من التندر والتنمر فهذا أمر لا أفهمه.

- أجل.
- قال لي يوما: أعلم أن عمري قصير وأخاف من الموت. هل تعتقد يا "توم" أن الموت أمر شاق؟
- شيء محزن.
- عن نفسي يا "جونا"، أفكر جديا في الذهاب إلى هولندا والشروع في إجراءات "الموت الرحيم". شاهدت مقطع "فيديو" عن هذا الموضوع. يبدو بسيطا للغاية.
- ماذا؟!
- بعض الأوراق توقعها وينتهي الأمر، وإذا تبرعت بأعضائك قلت التكلفة.
- ماذا تقول يا رجل؟! هل جننت؟

ضحك "توم" وبكى في الوقت ذاته وهو يجيب:

- جنون البقر.
- ما هذه الترهات؟!
- هولندا أولى بأبقارها. عدني وساعدني على اتخاذ هذا القرار؛ "بروتوكول هانيبال".
- "بروتوكول هانيبال" هذا في الوغى وعند الوقوع في الأسر.
- ومن قال لك إني لست أسيرا؟
- أنت أسير أوهامك. هل تذكر يا "توم" حين أعددنا سويا في الصف الثامن بحثا عن ملك أورشليم، "بلدوين الرابع".
- المجذوم؟

- القوي، العنيد، المحارب.
- هل تريدني أن أموت موتته؟!
- بل أريدك أن تحيا مثله وتتحلى بالإيمان.
- الإيمان! أي إيمان؟
- "توم" أرجوك توقف. لا تدع الحكمة تغيب عنك. الناس تدفع أموالا طائلة لتُبقي جسمها في النتروجين السائل بعد موتها وأنت تريد أن تنحر نفسك! لا أحب أن أسمع منك هذا الكلام. تمسك بالأمل، واخرج من هذه الدائرة الشيطانية.
- ساعدني يا "جونا". أنا أتفتت.

بالفعل ساعد "جونا" "توم" في الحصول على وظيفة "موظف اتصالات" من البيت. يرسلون له الراتب على حسابه فيتصل بالمتجر الكبير الذي يرسل له احتياجاته. تغير الحال نسبيا.

(١١)
"داليسي"

دق "جونا" جرس منزل "توم" فسمع صوتي نسائي، وفتحت له فتاة ملامحها أسيوية. سأل عن "توم" فدعته للدخول. عانقه "توم" وهو يقدم له الفتاة قائلا:

- "داليسي"، زوجتي.

ذهبت "داليسي" تعد القهوة فواصل "توم":

- كانت تأتيني لتنظيف البيت وشراء بعض الأغراض. لم يكن لها إقامة دائمة في إنجلترا. عرضت عليها الزواج. في البداية تفاهمنا على أنه زواج مصلحة تحصل هي بمقتضاه على الجنسية وأحصل أنا على طلباتي ونظافة منزلي وشخص أتكلم معه. كما يقول الأمريكيون: أنت تحك لي ظهري وأنا أحك لك ظهرك.

دخلت "داليسي" بالقهوة مكملة الحكاية، ويبدو أنها سمعت كلمات "توم":

- مع مرور الوقت اكتشف كل منا ما في الآخر من جمال. كل هذا حدث في أسابيع.
- هذا أجمل خبر سمعته في حياتي.
- "داليسي" يا "جونا" هي ملاكي الحارس؛ هي الشخص الثالث الذي يسير دوما بجانبك كما كتب "ت. س. إليوت" في "الأرض اليباب"؛ يمسك لك المجداف حين تغرق ويمد لك يده حين تقع ويقيلك من عثرتك وكبوتك.
- رائع!

- من كان لك سكنا، كن له وطنا.
- تماما.
- هي أيضا حامل. سيكون لديّ طفل يا "جونا"؛ لا أستطيع تصديق ذلك.
- الحمد لله. قلت لك تمسك بالأمل.
- أخبرنا الطبيب أنها فتاة. لا أستطيع الانتظار. هل لديك اسما جميلا لها؟
- لا أدري. سأرسل لك بعض الأسماء على الهاتف.
- حسن، سنتناول العشاء معا يا "جونا". ستطهو لنا "داليسي" طعاما "فليبينيا" جميلا.
- لا بأس.
- هل تعرف يا "جونا" أن "داليسي" أيضا لديها خبرة في التمريض؟ نفكر في استغلال هذا الأمر لاحقا؛ ربما استطعنا أن نعثر لها على وظيفة في إحدى المستشفيات.
- جميل. جميل جدا.

في طريق العودة تنهد "جونا" وهو يتذكر "فيليستي" ثم ابتسم وهو يتذكر "داليسي". كل منا يحصل على التعويض المناسب، لكن في الوقت والمكان المناسبين. قد تمنحك الحياة الشخص الذي تحتاجه، لا الشخص الذي تحبه. الحياة فيها "فيليستي" و"فيكي"، لكن فيها أيضا "داليسي".

إنها الألطاف الخفية تلك التي أعادت جنديا من الجبهة كفيفا ليقترن بحبيبته التي تشوه وجهها بالنار أثناء غيابه. هل توجد كلمة في قاموس آدم، أبي البشر، تعبر عن هذه الحالة؟

(١٢)

"ناكوس"

يوم الأحد اصطحب "جونا" أباه وأمه إلى الكنيسة. سرح "جونا" أثناء الموعظة في انفصاله عن "فيليستي" وعثور "توم" على "داليسي". عاد من شروده على هذه الكلمات التي ختمت الموعظة: اسأل تُعطى؛ اطلب تجد؛ اقرع يُفتح لك.[xvii]

انتهت عطلة نهاية الأسبوع. ودع "جونا" والديه قبل سفره وعاد بمشاعر مختلطة من الحزن والسعادة.

في طريقه إلى "أوكسفورد" لوحت له فتاة ممن يقفن على قارعة الطريق. توقف فحاصرته برائحة المواخير و"التوباكو". كانت الفتاة شقراء، لكنها ترتدي "باروكة" خضراء اللون وسروالا ضيقا جدا يجسم فخذيها. تضع في أصابع قدميها خواتم من الفضة وطلاء أظافر أزرق اللون! على كتفيها العاريين وشما لفراشة وتضع قرطا في أنفها وشفتها السفلى وسرتها العارية.

قبل أن تهم الفتاة بالكلام وتقديم عرضها انطلق "جونا" بسيارته وتجاوزها وهو يسمع سبابها. نعتته بالخنزير. بالرغم من ذلك شعر "جونا" بأنه ارتكب خطأ. لا أحد يعرف ما الذي أوصل الفتاة إلى هذه الحالة؟! توقف بعد عدة أمتار وعاد للخلف. قبل الوصول إليها كانت سيارة أخرى قد توقفت لها وركبت فيها. تجاوزت سيارة الشخص الآخر سيارته. أخرجت الفتاة لسانها له وهي تصنع إشارة غير مهذبة. مستنسخات "فيليستي" غزون الكوكب!

شعر "جونا" بجوع شديد في الطريق. اشترى خبزا من بقالة جديدة. استوقفه الاسم التجاري للخبز، "ناكوس".[xviii] أجرى بحثا عن الكلمة باستخدام هاتفه. تبين أنها "يديشية" وتعني: السعادة والقناعة والرضا وصفاء البال. هذه هي الكلمة التي ظل يبحث عنها. مطلب كل إنسان، لكن الغريب أن هذه الأشياء وغيرها مثل تحقيق الذات والإنجاز والرضا عن النفس لا تأتي بالشبع وتناول الخبز فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

سأل نفسه مستغربا: ما حكايتك مع الكلمات؟! أدرك أنه ربما يكون مصابا بمرض "اللوجوفيليا" والذي يعنى الغرام بالكلمات. أخذ قضمة من "الناكوس" وشرب قليل من الماء، ثم قال بصوت مسموع: "ناكوس". يا لها من كلمة!

تذكر زميله في الجامعة، "جاك" الذي أمضى شهرين لتأصيل كلمة واحدة! حين ظهرت الكلمة أخيرا في معجم أوكسفورد احتفل مع زملاؤه كما لو أنه وصل إلى زحل. استنبط "جاك" مؤخرا نظرية لغوية دعاها "الانفلاق اللغوي" وربطه بالانفلاق القاري وانبرى يحاضر عنها في جامعات مختلفة في شتى أرجاء المعمورة. الشهرة لم تغيره؛ مازال على بساطته في الطعام والشراب والملبس، كما أنه قليل الخلطة بالناس.

العلماء والباحثون بشكل عام فاشلون اجتماعيا. لديهم ذكاء متقد، لكن ذكائهم الاجتماعي في أدنى المستويات. لا يعرفون كيف يتكلمون أو يلبسون أو يجاملون. هم كلاعب البيسبول يأخذ الكرة ويجري بها إلى نهاية الخط، وغيرهم مثل فريق السلة يتناوبون الكرة بينهم.

يتمنى كثير من المفكرين الذين ابيضت شعورهم ونزفت عقولهم وتيبست وجوههم وضاع نظرهم وهم يبحثون في مسألة ما لو امتلكوا

هذا العقل البسيط الذي يقبع في رؤوس العامة والدهماء ويستمتع بوجوده هناك. عقل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.

أحد العلماء وجد حرفوشا يأكل الخبز والجبن قرير العين. جلس يحاوره. سأله لحاجة في نفسه: ماذا تعرف عن "نسبية آينشتين ونظرية فيثاغورث ومتلازمة إستكهولم وضفدع داروين وهرم ماسلو وعقدة إلكترا؟" نظر الرجل إلى العالم ثم مد يده إليه بقطعة من الخبز الخشن الذي ظل يجاهد لمضغه ولم يعلق.

عقل خال من عبء المعرفة وطغيانها وعلوم اللاهوت وأطروحات العلم وسفسطة الفلاسفة. ارتبك الحرفوش من كلام العالم الذي لا يفهمه، وارتبك العالم من صمت الحرفوش وبساطته. كان الأمر أشبه ببرنامج من الكوميديا السوداء استضافت فيه المذيعة أستاذ جامعي في تقنية "النانو" جنبا إلى جنب مع مغني مهرجانات شعبية.

هؤلاء البسطاء هم ملح الأرض، لكن ليس "جونا" على أي حال. أمثال "جونا" يفتقدون القدرة على قبول الأشياء كما هي، والتسليم والانقياد والإذعان لما هو خارج نطاق الممكن. أمثال "جونا" يشقون بعقولهم المؤرقة ويأبون أن يعطلوها أو يتركوها للتراب والصدأ يتراكم عليها.

ما أقسى الوجع الذي تسببه المبادئ والآراء والنظريات والأفكار عن الحق والعدل والإنسانية لأصحاب تلك النهى والألباب.

لم يمت سقراط بالسم؛ أرداه وعيه.

(١٣)
"سَمَّها تمارا"

أنهى "جونا" إجراءات السفر وخلافه يوم الاثنين. بينما يرتب حقيبته سرح في المهمة التي تنتظره. لا يعرف طبيعتها، لكنه يدرك أن البحث في حد ذاته محض مغامرة أو هكذا شعر. في الحقيقة، يحتاج إلى هذه الإثارة وإطلاق "الأدريالين" في حياته من جديد. يحتاج لغزا يغير الإيقاع "الميكانيكي" الرتيب لحياته.

الحياة لغز والموت لغز. الروح لغز والإنسان لغز والمرأة لغز. كم من الألغاز عجز العلم عن الإجابة عليها؟! كم من الألغاز لم يفلح التاريخ في حلها: مثلث برمودة ولغة قرص فايستوس[xix] الذي عُثر عليه في كريت، زرقاء اليمامة وكفن "تورين"[xx] الذي نُسب للسيد المسيح، خطوط "نازكا"[xxi] وجماجم كنيسة "سيدليك"،[xxii] الهرم الأكبر ومكان يأجوج ومأجوج، الأطباق الطائرة والرؤوس الحجرية بجزيرة الفصح في شيلي، دوائر المحاصيل[xxiii] و"ستونهنج"[xxiv] في بريطانيا، قارة "أطلانتيس" وسر اندثار كوكب بلوتو، جيش قمبيز واختفاء الحاكم بأمر الله... إلى آخره.

انطلق "جونا" إلى مطار "هيثرو" ومنه استقل الطائرة إلى أثينا ثم واصل على متن طائرة أخرى إلى مطار برج العرب في الإسكندرية.

في مطار أثينا أخذ "جونا" يتفرس في ملامح المسافرين. في انتظار طائرته جلس "جونا" يراقب الوجوه حوله. خارج الحاجز الزجاجي للمطار وضعت فتاة كف يدها مقابل يد فتى يقف بالداخل، بالقرب من المشهد انهمك عامل نظافة في مسح الزجاج. انطبق الكفان تماما. رسمت الفتاة قلبا على الزجاج الذي استقر عليه بخار الماء. اضطر الفتى للرحيل، ربما ليلحق بطائرته. لم تُحرك الفتاة ساكنًا. وقفت دون حراك

أمام اللوح الزجاجي. بدأت الحرارة تتلاشي عن انطباع كفيهما. ظل "جونا" كمصور يتابع المشهد. تحرك عامل النظافة ليجلي باقي ألواح الزجاج، توقف أمام انطباع الكف، ناشده "جونا" في سره ألا يزيله، لكنه فعل. فجأة ظهر الفتى خارج صالة المطار. أغلب الظن أنه تخلى عن فكرة السفر، نادى على حبيبته، التفتت إلى مصدر الصوت، طارت نحو ذراعيه المفتوحتين، عانقها وهو يطوحها في الهواء. أي شيء في الدنيا يعدل هذه اللحظة؟ لا شيء. ما أجمل العشق؟

في الرحلة من أثينا إلى الإسكندرية وجد رواية في جراب المقعد مع بطاقة تعليمات الطيران. أمسك بالرواية وأخذ ينظر حوله. كانت الكتابة فيها بلغة غريبة عليه.

فقط وفي الصفحة الأولى وجد كلمة "تمارا" باللغة الإنجليزية. جلست بجواره سيدة يونانية مسنة. نظرت إليه قائلة بإنجليزية مكسرة:

- لا أعتقد أنه يمكنك قراءة هذا الكتاب لأنه بالعربية.
- فقط كلمة واحدة باللغة الإنجليزية وبقلم رصاص.
- دعني أرى. "تمارا". هذا اسم سامي يعني "نخلة كثيرة التمر". في الغالب هذا اسم من ابتاعت الرواية أو بالأحرى اسم من...
- نست الرواية.
- لم تنسها؛ تركتها عمدا لشخص ما.
- جزمت إذن أنها رواية.
- قرأتها.
- عن ماذا تتحدث؟

- عام ١٩١١ ألقت "أوجيني فيليبس"، بريطانية تعيش في الإسكندرية، بنفسها من شرفة منزلها بالدور الثالث لأنها شكت في خيانة زوجها، "ألفريد وليم فيليبس"، لها. في نفس العام، أطلق "توماس براون"، بريطاني آخر يعيش في الإسكندرية ويعمل كيمائي في شركة الملح والصودا، النار على نفسه تاركا وريقة كتب فيها: "بين المرض والوحدة تحطمت أعصابي... لقد كانت حياتي في الشهور الأخيرة تعيسة للغاية، وليس في مقدوري تحمل المزيد."[xxv] مؤلف الرواية تخيل نهاية مختلفة بأن جعل "أوجيني" تقابل "توماس" فتعافت هي نفسيا بفضل الحب الحقيقي وشُفي هو من مرضه الجسدي.
- فكرة عبقرية.
- صحيح.

بعد مرور دقيقتين استغرقهما "جونا" في التفكير فيما روته السيدة اليونانية أخرج هاتفه، ورغم عدم وجود اتصال بشبكة "الإنترنت" كتب إلى صديقه "توم": "تمارا... سَمَّها (تمارا)".

(١٤)

"الآنسة هنريتا"

كان في استقبال "جونا" في مطار برج العرب موظف من المجلس الثقافي البريطاني أوصله إلى فندق "المتروبوليتان" في وسط الإسكندرية على البحر مباشرة بين محطة الرمل والمنشية.

في الطريق تذكر "جونا" ما درسه عن منطقة برج العرب أو "أبي صير" التي تضم معبد "تابوزيرس ماجنا". توجد بعثة مصرية "دومينكانية" تنقب في هذا المكان. يعتقد أفراد البعثة في وجود نفق تحت المعبد، وأن هذا النفق، لو قُدر لهم إماطة اللثام عنه، قد يحوي قبر كليوباترا و"ماركوس أنطونيوس".

في الطريق ومع ظهور بحيرة مريوط شعر "جونا" أنه حلم بهذا المشهد من قبل غير مرة. يسمون هذه الظاهرة "ديجا ريف"،[xxvi] وهي عبارة فرنسية تعني الشعور بأنك تعاين مشهدا رأيته في الحلم آنفا، وأن رؤية هذا الشيء يتكرر.

فتح "جونا" شرفة غرفته بالفندق العتيق ثم توقف مبهورا بمنظر السلسلة في الغروب. تُشبه إلى حد كبير فكي سرطان البحر. ظل ينظر إلى بعض هواة الصيد وهم يرمون أو يسحبون صنانيرهم، ويستمع إلى أبواق السيارات التي تحتفي بدنو المساء أو هكذا ظن.

اندفع بحر "الإسكندرية" بين مد وجزر في قلوب ساكنيها حاملا الدماء النقية إلى شرايينهم. بينما راحت أمواج البحر تُفرغ ما في أحشائها من الأعشاب والرمال السوداء وكسر المحار وسقط المراكب على الصخور البائسة.

إلى هنا هربت مريم الزنارية، بنت ملك فرنسا، وعلي نور الدين في "ألف ليلة وليلة"، وليس بعيد من هنا كتب خليل مطران:

متفرد بصبابتي، متفرد بكآبتي، متفرد بعنائي
شاك إلى البحر اضطراب خواطري فيجيبني برياحه الهوجاء
ثاو على صخر أصم وليت لي قلبا كهذي الصخرة الصماء
ينتابها موج كموج مكارهي ويفتها كالسقم في أعضائي

نظر "جونا" إلى الشمس وهي تغطس كليا في البحر عند خط الأفق. تأمل المشهد فإذا به يرى "جيسون" بسفينته "الأرجون" ينشد "الفروة الذهبية. شاهد "أوديسيوس" وأكلة اللوتس، وتابع البحارة وهم يقتلون "بومبي" غيلة.

في الصباح انتظره نفس الموظف وأقله إلى المجلس الثقافي البريطاني في منطقة كفر عبده الراقية، وهناك التقى الآنسة "هنريتا"، مديرة المجلس، التي رحبت به قائلة:

- أنا أيضا خريجة "أكسفورد"، لكن درست فيها اللغات الشرقية.
- تتحدثين العربية إذن؟
- أجل، وأعيش هنا منذ خمس سنوات.
- مؤكد تشتاقين إلى إنجلترا.
- أنا على أعتاب سن التقاعد. أنتظره بفارغ الصبر لأعود إلى "كنت". الحياة في الإسكندرية تخطفك وتحتويك وتغيبك. لا أريد أن أتكلم كثيرا عن انطباعاتي تجاهها؛ سأتركك أنت تحكم عليها في نهاية مهمتك ولو أن الفترة قصيرة للغاية.
- أجل.

- أتمنى أن تكون مستعدا لها.
- لا أعلم عنها الكثير؛ أحتاج المزيد من التفاصيل.
- لا بأس، سأضعك في الصورة تماما. فقط دعني أستدعي رفيقتك في البحث، السيدة فدوى.
- حسن.

(١٥)
"فدوى"

استدعت الآنسة "هنريتا"، زميلته في المشروع البحثي. تشغل فدوى وظيفة باحثة بالمجلس، وتعد رسالة الماجستير في الأدب الإنجليزي. بعد تعارف سريع أخرجت مديرة المجلس ملفين مكتوب عليهما "السيد/ هامستر" وملفين آخرين كُتب عليهما "السيدة/ فدوى". وضعت الملفات على المكتب قائلة:

- تدركان طبعا أن الدراسات البينية هي من أهم الاتجاهات البحثية الحديثة. نحن هنا بصدد دراسة بينية بين الأدب الذي تمثله فدوى والتاريخ الذي يمثله السيد "جونا". "فدوى" ستكون الباحث الرئيسي في الملف المعنون "كيث دوجلاس وميلينا" بينما "جونا" باحث مساعد.

قاطع "جونا" وكأنه يحدث نفسه:

- "ميلينا"!
- نعم يا عزيزي. هل يذكرك الاسم بشيء؟!
- شيء غير لطيف له علاقة بالجهاز الهضمي.

تدخلت فدوى قائلة:

- لا هذا Melena، لكن اسم السيدة المذكورة هنا Milena من أصول سلافية ويعني "عزيزة" أو لطيفة".
- تمام.
- و"ميلينا" يا سيد "هامستر" كانت حبيبة الروائي "كافكا".
- حقا؟ المعذرة يا سيدتي على المقاطعة. يمكنك الاستمرار.

- بالعكس. كان ذلك استدراكا لطيفا منكما. في الملف الثاني المعنون "عبد الله عمر أبو حلاوة" سيكون "جونا" هو الباحث الرئيسي وفدوى باحث مساعد. البداية حسب الترتيب الذي ذكرته. بعد أسبوعين من الآن انتظر تقرير المهمة الأولى جاهزا للنشر. في نهاية الشهر أنتظر تقرير المهمة الثانية. أرجو أن تنتبها إلى ضرورة الانتهاء من المشروع في غضون شهر. ما زال أمامنا هنا وفي أكسفورد مراجعات وتصويبات وخلافه. نريد إصدار الكتاب في الموعد المحدد. إذا صادفتكما أي مشكلة تواصلا معي. يسعدني تذليل أي صعاب أمامكما. أتمنى لكما التوفيق. آه، شيء آخر. خصصت لكما مكتبا هادئا هنا به "لاب توب" وطابعة وشبكة "الإنترنت" وأدوات مكتبية وماكينة لصنع القهوة وكل وسائل الراحة.

جاهد "جونا" واجتهد ليستوعب كلام الآنسة "هنريتا" لأن عقله ونظره كانا في الناحية التي تجلس فيها فدوى. حاول غض الطرف حتى لا تنزعج الآنسة "هنريتا". نجح وفشل، لكنه سعى.

فدوى هي كل شيء أنيق وجميل. عينان لوزيتان واسعتان كبحيرة "فيكتوريا". شفتان مترعتان بالكريز وفراولة "كاليفورنيا" ورمان منفلوط. أذنان صغيرتان كقطعتين من الماس. حاجبان دقيقان كالهلال أو القمر في كسوفه الجزئي. قد ممشوق كشجرة "المورينجا" المعروفة بغصن البان. خصر يشبه عود "الكمنجة" كما تقول الأغنية الشعبية المصرية. ساقان طويلان كفرعي النيل. شعرها شلال متلألأ ينسدل على كتفيها كطريق الحرير. أنعم من الدمقس وشديد السواد كريش الغراب. أسنانها مرصوصة كما الذرة في كوزها. يشبه بياضها لوز القطن وغزل

البنات. أنف قوقازي نبيل كسلة السيف أو أنف "صوفيا لورين". رقبة طويلة كعنق ظبية أو جمار النخل أو عمود من الرخام الروماني الأبيض المشوب بالحمرة. دقة حسن مثيرة كبرزخ النيل عند المصب في رشيد. أهداب كسعف النخيل.

كل من أتى مصر ساهم فيها بجزء: حنكة اليونانيين ونبل الرومان واعتداد الفرس وبلاغة العرب. فيها رقة الشوام وطيبة السودانيين وصدق الليبيين وعزم الأمازيغ وذكاء الأندلسيين. فيها همة الأرمن وحصافة المالطيين وعراقة الأتراك وبسالة القبارصة وتواضع الكريتيين.

إذا استحق شخص أن يقول: "أنا مصر" بعد كليوباترا فهي هذه المرأة. كل المعاجم المتخمة بالمفردات من اللغات الطبيعية والصناعية، الحية والمنقرضة، والتي لم يُفك شفرتها بعد لن تُفلح في وصفها.

فدوى هي فدوى. واحدة من نوعها. لا تعقيب ولا تفنيد ولا تعليل ولا تبرير لهذه الظاهرة الكونية الفريدة. نقطة ومن أول السطر.

(١٦)

"الرواية والتاريخ"

عاد "جونا" من شروده على صوت الآنسة "هنريتا" وهي تقول:

- أعلم أن التاريخ يقوم على حقائق وأن الأدب في شق كبير منه يعتمد على الخيال، لكن يمكن المزج بينهما بشكل متوازن. قصة تاريخية يتم صياغتها بشكل أدبي، ولا بأس ببعض الخيال الذي لا يشط كما في الروايات العجائبية. هل أنت معي يا "جونا".
- نعم، لكن لم أسمع بهذا المصطلح من قبل. ماذا يعني؟
- روايات تخرج عن جادة المنطق وتخرق قوانين المادة والطاقة.
- وصلت الفكرة آنسة "هنريتا". شكرا لك. أحببت أن أضيف حاشية هنا وهي أن الرواية قد تشوه التاريخ، لكن التاريخ لا يشوه الرواية.
- ما رأيك في هذا الكلام يا فدوى؟
- المصريون المسلمون هنا متعلقون بسورتي يوسف والكهف لأنهما مترعتان بالحكي.
- لندع الكتب الدينية خارج النقاش.
- الحقيقة يا آنسة "هنريتا" لم ينجح التأريخ إلا عندما صُبغ بشكل سردي.

قاطع "جونا" قائلا:

- تقصدين بشكل غير موضوعي به كثير من التلفيق الذي يخرج من خيال المؤرخ.

- هل يمكنك أن تعطيني مثالا على هذا التشويه؟
- بكل تأكيد يا أستاذة فدوى. خذي مثلا ما كتبه "جون ماندفيل" عن طائر العنقاء في مصر. من حسن الحظ أن معي نسخة من الكتاب كنت أطالعها هذه الأيام منذ عرفت بموضوع سفري.

فتح "جونا" حقيبته وأخرج الكتاب، ثم قلب في صفحاته حتى وصل إلى المقطع المطلوب:

- ها هو ذا. صفحة رقم ٨٠ من أسفاره: "في صحراء مصر كان يوجد رجل جدير بالاهتمام، وكان ناسكا مقدسا، قابل يوما وحشا... في هيئة رجل له قرنان حادان على جبهته وله جسم كجسم الإنسان حتى السرة، وتحت السرة له جسم ماعز. سأله الناسك عما كان عنه قبل ذلك، فأجاب الوحش بأنه كان مخلوقا مميتا حيث إن الله جعل هيئته كذلك وسكن في الصحاري ليصطاد ويحصل رزقه. وتوسل إلى الناسك بأن يصلي لله من أجله، وبالذي أتى من الجنة لينقذ الجنس البشري كله، وكان وُلد من عذراء وقاسى من العذاب والموت (كما نعرف جيدا) اللذين بهما نعيش ونكون. ومازال الرأس مع قرني الوحش في الإسكندرية كمعجزة".[xxvii]
- "ماندفيل" كان رحالة وليس مؤرخا يا سيد "جونا".
- حتى "هيرودت"، أبي التاريخ، له سقطاته يا سيدة فدوى. أليس هو من كتب عن خراف الجزيرة العربية بأن لها أذيال كبيرة لدرجة أنها تحتاج إلى عجلات لدعمها.

مع احتدام النقاش تدخلت الآنسة "هنريتا" قائلة:

- سأحسم هذا الجدل بينكما بشكل عملي. أخبرني يا "جونا" عن آخر بحث تاريخي قرأته أو لنقل موضوع رسالة الدكتوراة الخاصة بك؟
- "حملة الأطفال الصليبية".
- وأنت يا فدوى؟ موضوع رسالة الماجستير خاصتك؟
- "إعادة تدوير الأجسام البشرية في الشعر الأنجلو-أمريكي".
- والآن يا فدوى هل يمكن صياغة العنوان الذي ذكره "جونا" بشكل أدبي؟
- مؤكد.
- وأنت يا "جونا" هل يمكنك تناول العنوان الذي ذكرته فدوى بشكل تاريخي؟
- سأحتاج بعض الشروحات.
- تناقشا في هذا الموضوع، وأراكما في الغد لأسمع منكما.

(١٧)

"شيبل"

كانت فدوى تعشق القراءة، بل هي في الحقيقة موسوعة تمشي على الأرض، ودودة كتب كما يقول الإنجليز. تحب الروايات والشعر والمسرح والأوبرا والباليه والسيمفونيات. تحب المتاحف والمعارض والأشياء العتيقة والمباني القديمة والآثار. لبسها محتشم وكلامها منضبط.

توجها إلى المكتب المخصص لهما ووضعا أشيائهما وأعدا قدحين من القهوة. قطعت "فدوى" صمت الخجل قائلة:

- يقولون إن التاريخ يكتبه المنتصر وإنه كذب متفق عليه.
- أما العبارة الأولى ففيها كثير من الصحة، وأما العبارة الثانية فالمراد بها علم الأساطير، لا التاريخ.
- تمام.
- هل سمعت شيئا عن حملات الأطفال الصليبية؟
- للحق لم أسمع بها.
- قصة من قصص انتهاك براءة الأطفال، واستغلالهم دينيا وسياسيا وحربيا و...
- وجنسيا والزج بهم في العمل وفي التسول وخطفهم وبيعهم والإتجار بأعضائهم.
- ليس إلى هذا الحد. نحن نتكلم عن القرن الثالث عشر.
- تمام.
- هل سمعت عن "فئران هاملين"؟[xxviii]

- أجل. حكاية الأطفال الذين ساروا خلف عازف المزمار كالمُنَوَمين مغناطيسيا ثم اختفوا بالكلية.
- وهل سمعت عن "خراف بانورج"؟[xxix]
- أجل. حكاية الخراف على متن سفينة مبحرة وكيف انطلقوا وراء كبش سقط في الماء وانبروا يقفزون خلفه.
- الدرس المستفاد من الحكايتين هو "لا تكن شيبلا".[xxx]
- وما هو "الشيبل"؟!
- هي كلمة مركبة من مقطعين متجزئين من كلمة "خراف" و"ناس" باللغة الإنجليزية، والمعنى المقصود هو "البشر الخراف" أي الأشخاص الذين يسمحون لأنفسهم بالانقياد والتقليد الأعمى وراء الآخرين.
- جميل.

قالتها فدوى وهي تفكر في لفظة عربية مناسبة. "تيس مستعار"، لا هذه قصة أخرى. "مرياع"، نعم "مرياع" هي الكلمة المناسبة. المرياع كبش مخصي ضخم يُقصى عن أمه ويُجبر على الرضاعة من أتان. يُعلق في رقبته جرس كي يسمعه باقي القطيع فيمشون خلفه وكأنه يرشدهم، لكنه في الحقيقة يسير وراء أتان، أي أنثى حمار. وتواترت قصة أن أحد المراييع انزلقت قدماه وسقط في واد سحيق فما كان من الخراف والشياه إلا أن ألقت بنفسها وراءه، ولعمرك هذه القصة قريبة بخراف السفينة، أو لنقل النسخة العربية منها.

وأحيانا لا يحتاج الأمر إلى أتان ولا مرياع. الأسبوع الفائت، وتحديدا في الثالث عشر من يونيو ٢٠١٨، وفي قرية "توبيلدز" بمقاطعة "جوربينار" التركية قفز خروف من قمة تلة ارتفاعها عشرين مترا أو ربما انزلق وسقط. تبعه خمسمائة خروف فيما يشبه الانتحار الجماعي.[xxxi]

أعاد "جونا" فدوى من تأملها قائلا:

- حسن، في مطلع عام ١٢١٢ ميلادية وفي مدينة "كلوي" الفرنسية. ظهر قسيس، قيل يعمل لحساب البابا، لفتى يرعى الغنم يُدعى "ستيفن". طلب القس من الفتى ذي العشرة أعوام كسرة خبز وشربة ماء ثم جلس يحدثه عن أورشليم. حين استشعر القس حماس الفتى ورغبته في سماع الحكايات عن فرسان المعبد والداوية و"بلدوين الأول" و"ولتر المُفلس"، طلب منه أن يبشر بحملة صليبية. اعتقد "ستيفن" أن من ظهر له هو المسيح. انطلق يروج للحملة التي استقطبت آلاف الأطفال من شتى أرجاء فرنسا. جاءوا يحملون الطبول والأبواق. نجحت الحملة في الوصول إلى مارسيليا. انتظروا هناك انشقاق البحر كما أخبرهم بذلك "ستيفن"، مستوحيا ما حدث مع نبي الله موسى، لكن شيئا لم يحدث. عرض اثنان من النخاسين الأوربيين لبسا ثياب التقوى والعفاف على الأطفال أن يرافقوهم إلى الشرق دون أجر طلبا لبركات المسيح والعذراء. وافق الأطفال بسلامة نية. في الطريق هبت عاصفة فطوحت بسفينتين من أصل سبع نحو جزيرة "سان بيترو" الإيطالية. مات كل من فيهما وجرفت الأمواج الجثث إلى الشاطئ .أما الأطفال على متن السفن الخمس الأخرى فقد بيعوا في سوق النخاسة في بجاية بالجزائر وهنا في الإسكندرية.[xxxii]
- قصة حزينة ومؤثرة.
- بالفعل. والآن حان دورك يا فدوى؛ سمعت عن تدوير المخلفات البشرية، أما تدوير أجسام البشر فلم أسمع عنه.

(١٨)

" لست هنا. أنا لم أمت"

ألقت فدوى بأقداح القهوة الورقية في سلة المهملات وهي تقول:

- ألم تقرأ التعبير الاصطلاحي "يُخرج الأقحوان من أكمامها"[xxxiii] والذي يرتبط بالاعتقاد بأن الأقحوان يتغذى وينمو على جثث الموتى؟
- حقيقة لم أسمع به.
- في مقبرة رشيد ينمو التين الشوكي الأحمر على أجساد الموتى. ثمة من يرى مقاربة بين لونه ودماء الراحلين.
- مقاربة بها بعض المبالغة.
- ألم تقرأ "هاملت"، الفصل الخامس، المشهد الأول: قيصر الجبار قد آل إلى ثرى وطين، وبه نسد ثقوب الحائط في مهب الريح؟
- من الصعب أن يتحول شخص إلى سدادة!
- ألم تقرأ في مسرحية "العاصفة" لشكسبير:

على عمق خمس باعات
يرقد والدك كما يرغب ويشاء
وعظامه إلى مرجان تتحول
وعيونه اللؤلؤية حوله تتجول
لم يتلاش منه شيء
لكن البحر بدله

- هذا من باب المواساة ليس إلا. أراد أن يقول له والدك مازال حيا ويعيش حولنا، وأنه لم يمت، بل يحيا فيك لأنك تمثل امتدادا له.
- وماذا عن "وردسورث" الذي كتب:

طرحت فلا حول لها ولا قوة
وذهب عنها السمع والبصر
ولحقت بدورة الأرض اليومية
مع الصخر والشجر والحجر

- هنا التحول إلى نفط ربما.
- أنت تسخر؟
- أبدا.
- إذن دعني أجيبك بالإثبات؛ فقط تخيل أن تسير سيارتك بوقود أصله أجدادك.
- فكرة شيقة!
- لعل أفضل من عبر عن هذه الفكرة الأمريكية، "ماري إليزابيث فراي".
- ماذا قالت؟
- كتبت:

لا تقف على قبري وتنتحب
لا أرقد فيه. أنا لم أمت
أنا زخات المطر الناعمة

أنا حقول الحَب الناضجة
أنا في سكون الصباح
وخفق الطيور الرشيقة الجميلة
أنا في نجوم السماء ولمعانها
وتفتح الورود وازدهارها
لا تقف على قبري وتنتحب
لست هنا. أنا لم أمت[xxxiv]

(١٩)
"المتوسطون"

في الصباح توجه الباحثان إلى مكتب المديرة وتناقشا معها في موضوع الأدب والتاريخ. عبر كل منهما عن وجهة نظره. شعرت الآنسة "هنريتا" أنهما على الطريق الصحيح، وأنهما سيقومان بعمل جيد. قررت تسليمهما الملفات في اليوم التالي.

ركب "جونا" في سيارة المجلس لتوصله إلى الفندق وفدوى لتنزل في أقرب نقطة لمنزلها القريب. في الطريق لم يحتاج "جونا" إلى وسيلة أو حوار لكسر الثلوج. سكان البحر المتوسط أو المتوسطون كالعادة وبحرارة قلوبهم ودفء مشاعرهم قادرون على إذابة ثلوج سيبيريا. انطلقت فدوى قائلة:

- كنت أتمنى لو تبنت جامعة الإسكندرية هذا الكتاب أو شاركت فيه مع أكسفورد.
- ألست خريجة جامعة الإسكندرية؟!
- بلى، ودراستي العليا بها.
- إذن فقد حصلت المشاركة.

سادت برهة من الصمت قطعه "جونا" سائلا:

- ماذا تفعلين في المساء؟ هذه آخر أمسية قبل بدء المشروع غدا.
- معهد دراسات البحر المتوسط ينظم أمسية سيحاضر فيها مجموعة من الأساتذة. يوجد عدة محاور وأكثر من ندوة في كل محور، مع وجود ترجمة للغتين: الإنجليزية والفرنسية. سألقي محاضرة في محور الأدب، هل ترغب في الحضور؟

- بكل تأكيد. ما عنوان محاضرتك؟
- الغرب في الرواية العربية.
- جيد. يبدو عنوانا شيقا.
- حسن، سأطلب من السائق المرور عليك، ونلتقي هناك.

التقى الباحثان في المساء. توجها لمحور التاريخ لحضور جلسة حول ضرب السفن البريطانية للإسكندرية عام ١٨٠١ فيما يُعرف بحملة "نيلسون/ أبركرومبي" وعام ١٨٠٧ خلال حملة "فريزر" وعام ١٨٨٢ أثناء حكم الخديوي توفيق مما مهد لاحتلال إنجلترا مصر لفترة طويلة.

حين دلفا في القاعة كان المحاضر يعالج النقطة الأخيرة. أكرى مصري يُدعى "السيد العجان" حماره لمالطي من رعايا بريطانيا. اختلفا حول الثمن وتطور الأمر إلى شجار. طعن المالطي العجان حتى القتل. تطور الأمر واندلعت المواجهات بين المصريين والأجانب مما حدا بالأسطول الإنجليزي إلى التدخل وضرب الإسكندرية وتخريب المدينة الجميلة التي أمست ركاما.

(٢٠)

"إني أرى أيام عمري كلها باريس"

توجها بعد ذلك إلى محور الأدب حيث حضرا آخر ثلاث دقائق من محاضرة بعنوان "روايات بأقلام مذيعين ومذيعات"، بعدها اعتلت فدوى المنصة لإلقاء محاضرتها. رحبت بالحاضرين ثم بدأت قائلة:

لدي عشر دقائق لعرض الشرائح وخمس دقائق لتلقي الأسئلة. لن أتحدث هنا عن الغرب من منظور الروايات المشهورة مثل "الحي اللاتيني" لسهيل إدريس أو "عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم، لكن سأتحدث عن الغرب من منظور "متلازمة باريس".

أود أن أشير هنا إلى أن باريس تمثل المدينة الغربية سواء كانت لندن أو روما أو برلين أو خلافه. تعرض هذه المتلازمة للاضطراب الذي يُصيب الشرقيين أثناء زيارتهم لعاصمة النور الفرنسية وما على شاكلتها، وانبهارهم بأضوائها ونمط الحياة بها.

كتب فاروق جويدة على لسان الخديوي إسماعيل:

إني أرى أيام عمري كلها باريس
الناس والطرقات والزمن الجميل
عطر يطارني... حلم يعاندني
شوق يهدهدني... جرح يعذبني
باريس يا حلمي الجميل[xxxv]

حين نُسقط هذه المتلازمة على الشرقيين نقول إنه بينما خلبت أوروبا عقول بعضهم فتاقوا للعيش فيها، فشل بعض المبتعثين والمهاجرين بل والسائحين في الاندماج مع البيئة الأوروبية والتصرف كما يفعل الرومان في روما فتعرضوا للتخبط والحيرة.

يجسد هذه الفكرة ما أوردته هنرييت عبودي في روايتها "وداعا يا ماردين":[xxxvi] ما الذي يربطنا بكندا أو بالتشيلي أو بأي واحد من تلك الأقطار النائية؟ كيف نعيش فيها وليست لنا جذور في أرضها؟

ويقابل هذا الرفض ميل آخرون إلى الاستغراب وتقليد المتفوق في لباسه وشرابه وطعامه ونمط حياته. تُسمى هذه الظاهرة في مصر بعقدة الخواجة.

"الهوس بالأجانب" والذي يعني الولع بكل ما هو أجنبي (غربي تحديدا) من ملابس إلى تقاليع إلى مباريات كرة القدم واقع مشهود. وقد أشار ابن خلدون من قبل أن المنهزم (حضاريا) يميل إلى تقليد المتفوق.[xxxvii]

في رواية عبد العزيز بركة ساكن "الرجل الخراب"[xxxviii] نقابل هذا الشخص الذي يسمح لنفسه بالذوبان في المجتمع الغربي ويغير اسمه من "درويش" إلى "هاينيش"، بل ولا يمانع من أن تتخذ ابنته صديقا لها.

نموذج آخر تقدمه "حوراء النداوي" في روايتها "تحت سماء كوبنهاجن":[xxxix] "كان الدين بالنسبة إلينا شيئا ثانويا ويكاد يكون منسيا، ولم نكن نشهد مظاهره في بيتنا إلا فيما ندر... كان بيتنا خاليا من المظاهر الدينية!

في المنتصف بين هؤلاء وهؤلاء تقف جماعة حائرة بين الشرق والغرب عرتها وكشفت تناقضاتها "ساندرا" في رواية أحمد إبراهيم الفقيه "سأهبك مدينة أخرى"[xl] وهي تقول لخليل: إنك دائما تريد أن تكون ما هو لست أنت؛ تريد أن تكون فاسقا وأخلاقيا، متدينا ومتحررا من الدين؛ تريد أن تعيش في العصور الوسطى والعصر الحديث؛ تنتمي إلى الشرق وتنتمي إلى الغرب؛ تضع قدما في الواقع وقدما في الأسطورة.

(٢١)

"ستانلي"

في الصباح استلم الباحثان المظروفين. انطلقا في سيارة فدوى هذه المرة صوب منطقة "ستانلي". صفت فدوى السيارة وترجلا نحو المقهى حين استوقفها "جونا" قائلا:

- منظر رائع! هل يمكن أن نتمشى على الجسر قليلا قبل الذهاب إلى المقهى؟
- بالتأكيد.
- "ستانلي" هذا اسم إنجليزي؟!
- أتوقع أمريكي من أصول "ويلزية". اسمه بالكامل "هنري مورتون ستانلي".[xli] كان مكتشفا ارتاد أفريقيا. كلفته الحكومة المصرية بالبحث عن "أمين باشا"، حاكم إقليم المديرية الاستوائية أثناء الثورة المهدية. وأمين باشا هو "إدوارد شنيتزر"،[xlii] أتوقع يهودي "بروسي" غير اسمه، لكنه لم يُسلم. دخل في خدمة السلطان العثماني. تزوج امرأة من مدينة "عنتيبي" بأوغندا، وأنجب منها بنتا سماها "فريدة"، وقُتل على يد تجار العبيد في الكونغو.
- معلومة شيقة، والمكان جميل حقا يا فدوى: الجسر والكبائن وكل شيء. هل تسكنين هنا؟
- لا، أسكن في "ونجت". ليس بعيدا عن هنا.
- هذا أيضا اسم إنجليزي. أتوقع اسم قائد عسكري.
- أجل. لدينا أيضا "بولكلي" التي أخذت اسمها من العميد الإنجليزي "تشارلز بولكلي".[xliii] وعلى أي حال، منطقة "ستانلي"

كلها كانت تُعرف بحي الإنجليز، وغالبية أحياء إسكندرية تحمل أسماء أجنبية. خلط كبير من الأجانب عاشوا هنا. اعتبروا الإسكندرية وطنهم وموطنهم. أسهموا في نهضتها، ولم يبخلوا عنها بالغالي والنفيس. المغترب عادة لا يفعل ذلك. يكنز أمواله لنفسه ولأسرته إلى حين عودته.

- والبريطانيون؟!
- لم يكن لهم نفس تأثير الجريك والطليان والأرمن خاصة بعد الاحتلال، لكن كان منهم من مشى على الدرب وأجاد وفاق الآخرين.
- مثل من؟
- "أوزولد فيني" على سبيل المثال عاش هنا في الإسكندرية وتزوج من الإيطالية "جوسا"، وكانت مجرد فتاة تربت في ملجأ، ورغم فارق السن الكبير بينه وبينها إلا أن حياتهما كانت مثمرة وسعيدة. أسهم "فيني" بتشجيع من زوجته الصغيرة في النهضة العقارية حتى أن أحد ميادين القاهرة يحمل اسمه، "ميدان فيني" بالدقي. الرجل أسهم في تأسيس صحيفة "الإيجبشن جازيت" وتبرع بألف ومائتين جنيه من الذهب لإنشاء مستشفى "الماتيرنتيه" المتخصصة في الولادة والأمومة.
- تعرفين يا فدوى، أجريت بحثا عن أول من وطأ الإسكندرية من البريطانيين فأخذتني الرحلة إلى عام ٧٦٢ لميلاد السيد المسيح حين زارها رجل اسمه "فيديلس".[xliv] تخيلي كان هذا من ألفية وربع.
- هذا أمر شيق حقا.

- الأكثر تشويقا أنه عام ١١٠٢ زارها شخص يُدعى "إديلار الباثي".[xlv] هذا الرجل هو من عَرّف الأوربيين بالأرقام العربية، تلك التي نستخدمها حتى يومنا هذا.
- جميل.

(٢٢)

"أقفال الحب"

راح "جونا" ينظر إلى قصر "سباهي" على خليج "ستانلي"، ثم قال فجأة وهو يشير بيده إلى سياج عُلقت عليه بعض الأقفال صائحا:

- أقفال الحب. لديكم أقفالا للعشق كما في لندن وغيرها.
- الحب ليس حكرا على مدينة بعينيها. هل نسيت مشروعنا: الإسكندرية مدينة الحب؟
- هي كذلك فعلا، وكل هذه الأقفال هي في الحقيقة قصص للحب تستأهل أن توضع في الكتاب. دعينا نعاين هذه الأقفال.
- كما تحب.

يُقال إن أقفال العشق ظهرت أول ما ظهرت فوق قمة جبل "هوانج شان"[xlvi] في الصين تخليدا لذكرى شاب وفتاة قفزا معا من هذا الارتفاع الشاهق بعد أن حِيل بين زواجهما. وأقفال العشق هي التطبيق العملي لفكرة خيوط القدر التي ظهرت أيضا في الصين وتقول بوجود خيط أحمر خفي يربط أولئك الذين قُدر لهم اللقاء، وأنه بغض النظر عن الوقت أو المكان أو الظروف فإن الخيط قد يطول ويتشابك، لكنه أبدا لن ينقطع.

يميل الأوروبيون إلى الاعتقاد بأن أقفال الحب ظهرت في "صربيا" وتحديدا في مقاطعة "راشكا".[xlvii] اعتادت معلمة بمدرسة ثانوية تُدعى "نادا"[xlviii] مقابلة حبيبها "ريلجا"[xlix] على أحد الجسور هناك. اندلعت الحرب العالمية الأولى وذهب "ريلجا" ليحارب في اليونان فوقع في غرام امرأة من الأرض التي خرجت من رحمها "أفروديت" و"فينوس" و"هيلين". قرر ألا يعود. لم تتعاف "نادا" مطلقا من صدمتها. حزنت

الطالبات لحال مدرستهن. قررن كتابة حروفهن وحروف فتيانهن على أقفال وضعنها على نفس الجسر الذي شهد لقاءات "نادا" و"ريلجا"، ثم قمن برمي المفاتيح في القناة وكلهن أمل ألا يحدث لهن مثل ما حدث لمعلمتهن. يُمثل القفل الحب فعندما نحب بإخلاص نُغلق على من نحب أهدابنا وأذرعنا وقلوبنا، ثم نُطوح بالمفتاح.

أقفال ومفاتيح وقلوب وحروف، هذا كل ما تبقى من قصص الحب. حروف كثيرة تمثل أبجدية العشق الأبدي. سار "جونا" وفدوى معا لمسافة يرقبان الأقفال التي حل بها الصدأ بفعل رزاز الأمواج. قطعت فدوى الصمت قائلة:

- بين أقفال العفة وأقفال العشق قصة طويلة.
- مجنون هو الأوروبي الذي ظن في العصور المظلمة أنه يمكن الحفاظ على عفة زوجته بقفل، وأما قفل العشق فهو نوع من العناق السرمدي.
- جملة جميلة.

الموت يفشل أحيانا في أن يفك الأذرع المتشابكة والأحضان المتشبثة. في الخامس عشر من إبريل لعام ١٩١٢ غرقت السفينة "تيتانك". شُوهد بالقرب من قارب النجاة رقم (٨) السيد "إزيدور" وزوجته "إيدا". سُمحا لهما بركوب القارب، لكن الزوج رفض لأنه كان هناك أطفال ونساء على السفينة. قررت "إيدا" المكوث مع زوجها قائلة: لقد عشنا معا لسنوات طويلة. حيث تذهب أذهب معك. تعانقا حتى النهاية. نُقش على المقبرة الافتراضية الفارغة للزوجين بنيويورك: لا يمكن لمياه المحيطات أن تُخمد جذوة الحب، ولا للطوفان أن يغرقه.

في أوائل فبراير لعام ٢٠٠٧ وقبل عيد الحب بأيام اكتشف الأثريون هيكلين عظميين لرجل وامرأة في العشرينيات في عناق أبدي يعود إلى ما يقرب من ستة آلاف سنة. أطول عناق في التاريخ بحق. كان هذا في مدينة "مانتوفا"، نفس المدينة التي اختارها شكسبير لنهاية قصته الخالدة "روميو وجوليت". أُطلِق على الهيكلين "عاشقي فالدارو". قررت بلدية "مانتوفا" نقل الهيكلين إلى بيت صغير من الزجاج في أحد المتاحف يوفر لهما نوعا من الخصوصية. ربما لم يتمكنا من الحياة معا في الدنيا فلا أقل من أن يعيشا معا في الموت.

أخذ "جونا" يقلب الأقفال ويتخيل أسماء لتلك الحروف التي نُقشت عليها، بل وأحيانا قصصا. نظر إلى فدوى قائلا:

- وماذا عن قفلك أنت؟

أشارت فدوى إلى صليب يتدلى من عنقها قائلة:

- هذا هو قفلي الوحيد.

أخذ "جونا" يحملق في صليبها الفضي الصغير ولسان حاله يردد مع الشاعر، "جورج متى":[i]

لما رأيت صليبها يزهو على الصدر الفسيح[ii]

ناديت من ألم الجوى ياليتني كنت المسيح.

لكن فدوى لم تكن كاثوليكية وليس على صليبها مُجسم للسيد المسيح؛ فدوى وجه من "بورتريهات" الفيوم. سأل "جونا" من جديد:

- هل زرت لندن من قبل؟

- أجل، لجمع المادة العلمية الخاصة برسالتي، وحاولت كذلك أن أحصل على موافقة أحد الأساتذة الإنجليز للإشراف الخارجي

على الرسالة. إشراف مشترك كما يسمونه هنا، لكني فشلت. كانت زيارة قصيرة، ولم أتمكن من رؤية كل شيء.

- ربما في المرة القادمة، وأتولى أنا إرشادك كما تفعلين معي الآن.
- من يدري؟
- لكن ما الذي حرصت على مشاهدته في لندن؟
- قصر "وستمنستر" وساعة "بيج بن" وبرج لندن بالطبع.
- برج لندن؟! قلت "برج لندن"؟! هل أنت متأكدة؟!
- أجل. ما الخطب؟!
- لا شيء. لا شيء يا عزيزتي.
- حسن، هيا بنا إلى العمل.

(٢٣)

"الملف الأول- كيث وميلينا"

في المقهى فتحت "فدوى" الملف الأول بعد تناول القهوة. اشرأب عنق "جونا" ليرى الصور في صدارته. قرأ الأسماء بصوت خفيض:

نورمان إليت Norman Ilett	ميلينا جوتيرش بيجنا Milena Guiterrez Pegna	كيث دوجلاس Keith Douglas ١٩٢٠-١٩٤٤

علقت فدوى:

- جميلة، أليس كذلك؟
- بلى، وشابان وسيمان أيضا.
- فعلا. دعني أقرأ المكتوب.

أثناء الحرب العالمية الثانية قابل ضابط إنجليزي يُدعى "كيث دوجلاس" فتاة من أصول إيطالية وأسبانية تُدعى "ميلينا" على شاطئ ستانلي بالإسكندرية.

قاطع "جونا" وهو ينظر إلى الشاطئ الذي بدا من المقهى كحدوة الفرس:

- ماذا تقولين؟! شاطئ ستانلي؟! ما هذه المصادفة؟!
- فعلا صدفة عجيبة حقا.
- هل كنت تعلمين شيئا عن المهمة، ولذلك قصدتي هذا المكان؟
- البتة. مطلقا. لا ينبغي أن تفكر بهذه الطريقة! أنا فعلا مندهشة، لكن سمعت اسم "كيث دوجلاس" من قبل، واعتقد أنه شاعر. قرأت له شيئا، لكن لا أتذكر الآن.
- حسن، ما المطلوب إذن؟
- المطلوب: تجميع كافة المصادر المتاحة عنهما وكتابة مقال عن علاقة الحب التي جمعت بينهما.
- قرأت ذات مرة عن قصة جندي أسترالي قابل فتاة في ميلانو خلال الحرب العالمية الثانية وظل معها ثلاثة أيام من أجمل أيام حياته قبل أن يُعاد تمركزه ويفقد أي صلة بها. بعد أربعين عاما من نهاية الحرب...
- تقصد عام ١٩٨٥.
- أجل، تخيلي! بعد أن ماتت زوجته وتزوج أولاده دفعته الوحدة إلى البحث عن تلك الفتاة التي قابلها في ميلانو، فاستقل الطائرة إلى إيطاليا وواصل البحث حتى اهتدى إليها. كانت قد كبرت وانفصلت عن زوجها ولم تنجب أطفالا. تذكرته على الفور بالرغم من مظاهر الشيب وانتهى المطاف بهما زوج وزوجة.[iii]
- جميل!

مالم يعلمه "جونا" وفدوى حينها أن هذه القصص وقعت وتحدث وستتكرر مرات عديدة أثناء الحروب ونتيجة لغربة الجنود وعزلتهم وتأجج رغبتهم في الحب وخلافه.

حدث هذا مع النقيب البريطاني، "آرثر هنري سيتون هارت سينوت"[liii] الذي اقترن باليابانية "سوزوكي ماسا"[liv]. وحدث هذا مع البريطاني "لازلي هيث"[lv] والألمانية "ليزيلوت هيبرلي".[lvi] وحدث هذا مع الضابط البريطاني "إريك نيوبي"[lvii] والإيطالية "واندا بوبولوفا".[lviii]

شارك الجندي الأمريكي "كارا تروي روبنز"[lix] بالإنزال الكبير في "نورماندي". على الحدود الفرنسية-الألمانية التقى بامرأة فرنسية تبلغ من العمر ١٨ عاما تدعى جانين جاناي.[lx] وقعا في الحب، لكن سعادتهما كانت قصيرة إذ تحتم على روبينز العودة إلى الولايات المتحدة. في احتفالات الذكرى الخامسة والسبعين ليوم إنزال "نورماندي" كان "روبنز" في فرنسا يحمل صورة "جانين" التي احتفظ بها طوال تلك السنوات. قامت محطة تلفزيونية فرنسية بتسليط الضوء عليه في فيلم وثائقي. بدأ البحث عن "جانين" فتبين أنها لا تزال على قيد الحياة. وكان اللقاء. تذكرته "جانين" على الفور وكأنها رأته اليوم السابق قائلة: "كنت أعتقد دائماً أنك ستعود". رد "روبنز": "لقد أحببتك دائما. لم تبرحي قلبي أبدا".

(٢٤)

"أوجيني لو بران[lxi] ورشدي باشا"

أعادت فدوى التدقيق في الملف ثم قالت:

- حسن، "كيث" كما هو مدون تحت الصور مات عام ١٩٤٤ وهو في مقتبل عمره.
- أغلب الظن أنه قُتل أثناء الحرب. حسن يا فدوى، نبدأ في وضع خطة العمل إذن.
- في الغالب لدينا قصة متكررة عن الحب والحرب. في اللغة العربية الفرق بين الكلمتين حرف واحد، لكن الحب سابق على الحرب.
- يهيأ لك يا فدوى. هذا في المعجم فقط.

بدأ الباحثان عملهما في صباح اليوم التالي في المجلس الثقافي البريطاني.

عن طريق الشبكة الدولية للمعلومات حصلا على بعض الكتب والمصادر. زارا أيضا مكتبة الإسكندرية ومكتبة البلدية بشارع "منشة" في محرم بيه ومكتبة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

وجدا كتابا ألفه "كيث دوجلاس" تحت عنوان "من العلمين إلى زمزم". تبين من الكتاب أن "كيث دوجلاس" لم يكن شاعرا وحسب، بل رساما وله "إسكتشات" بالقلم الرصاص ذات مغزى ومعنى.

وجدا في الكتاب إشارة إلى موقع منزل عائلة "ميلينا" في ٣٥٢ شارع فؤاد بمنطقة رشدي. قررا التوجه من فورهما لمعاينة المنزل والتقاط

بعض الصور له. قالت فدوى وهي تجمع أغراضها دون أن تنظر إلى "جونا":

- المسافة إلى رشدي من كفر عبده بسيطة للغاية.
- لكن هل مازال الشارع يحمل نفس الاسم.
- شارع فؤاد هو الآن طريق الحرية أو جمال عبد الناصر أو رشيد قديما أو الطريق الكانوبي أو شارع أبو قير كما يعرفه السكندريون. يمتد من المنشية إلى قصر المنتزه.

أكملا الباحثان حديثهما في السيارة في طريقهما نحو مقصدهما. سأل "جونا":

- وما دلالة اسم "رشدي"؟
- تعود التسمية إلى حسين رشدي باشا، من أصول ألبانية، سياسي ورجل قانون ووزير ورئيس وزراء في عهد الخديوي عباس الثاني والسلطان حسين والملك فؤاد.
- عاصر كل الألقاب: خديوي وسلطان وملك.
- فعلا. درس في فرنسا حيث قابل "أوجيني لو بران" ووقع في غرامها. تزوجا وعادت معه إلى مصر عام ١٨٩٢.
- جميل.
- الجميل حقا أن "لو بران" لم تكتف بالمكوث في المنزل، بل سعت لنيل وظيفة حكومية وأقامت الصالونات الثقافية. صادقت هدى شعراوي وكان لها دور بارز معها في الحركة النسوية.

صفت فدوى سيارتها في مكان قريب. ترجلا في الشارع. بطبيعة الحال لم يستدلا على الرقم. عرفا أن هذه الأرقام قد تغيرت. هُدمت الكثير من الفلل والعمائر القديمة وحلت محلها أبراج حديثة. حتى عمارة العفاريت رقم ٤١٢ والتي يعود بناءها إلى عام ١٩٦١ جاري إعادة تأهيلها.

انتهت الجولة أمام فيلا رشدي باشا بشارع سوريا. في طريق العودة قررت فدوى شراء سندويتشات الفول والفلافل كي يتعرف "جونا: على الأكلات المصرية. كانت قد عرفته على الكشري آنفا يوم محاضرة معهد دراسات البحر المتوسط وأعجب به أيما إعجاب. قال "جونا" وهو يقضم قطعة كبيرة من السندوتش:

- تقولين يا فدوى أن "لو بران" كانت مؤثرة في المجتمع المصري.
- يرى المثقفون المصريون أن إقناع "لو بران" هدى شعراوي بخلع الحجاب على الملأ في ميدان الإسماعيلية، التحرير حاليا، لم يكن شيئا جيدا. من ناحية أخرى يرون أن "لو بران" دفعت زوجها بشكل غير مباشر إلى التعاطف مع اليهود وقت توليه رئاسة الوزارة فسمح لهم بإنشاء مدارس في القباري والورديان، بل وأرسل محافظ الثغر، "أحمد زيوار باشا"، مندوبا عنه لحضور اجتماع الاتحاد الصهيوني الذي عُقد في الإسكندرية عام ١٩١٧.[lxii]

(٢٥)

"الدكتور رفاعي"

عثر الباحثان على كتاب آخر عن شعر الحرب من تأليف الدكتور محمد عبد العزيز رفاعي، أستاذ الأدب الإنجليزي المتفرغ بكلية الآداب، جامعة المنصورة. اتصلت فدوى بالكلية وأخذت موعدا مع الدكتور رفاعي.

انطلقا في الصباح بسيارة المجلس إلى المنصورة عن طريق الطريق الساحلي مرورا ببلطيم ودمياط. وصلا في الموعد. كانت مقابلة الدكتور رفاعي ممتعة وشيقة ومفيدة. كان مما قال:

- ليس لدي الكثير لأقوله عن "كيث دوجلاس". "ديزموند جريم" أرخ له،[lxiii] لكن المفتاح لفهم شخصيته يعود إلى ١٩١٤.
- تقصد يا بروف الحرب العالمية الأولى؟
- بالضبط يا سيد "هامستر".
- كيف؟!
- أقول لك يا سيدتي. عندما أضرمت نيران هذه الحرب التي عُرفت بحرب الخنادق كانت عوالق الرومانسية تخيم على الأجواء. قيل إنها الحرب التي سوف تنهي كل الحروب في حين عدها آخرون حربا مقدسة لن تستغرق سوي بضع شهور، بل وأكد البعض على ظهور العذراء مريم للجنود في حين قارب آخرون بين الدماء المسالة ونظرية الفداء المسيحي. ومن هنا أتت زهرة الخشخاش الحمراء كرمز للحرب الكبرى، وثمة من قال بأن هذه الزهور تنمو على جثث ودماء الجنود.

نظرت فدوى إلى "جونا" ولسان حالها يقول له: أرأيت أن فكرة تدوير الأجسام حقيقة دامغة؟" هز "جونا" رأسه بالإذعان. تابع الدكتور رفاعي:

- صدّرت هذه الحرب إلى ميادين القتال مباشرة من قاعات المدارس العليا والجامعات شبابا غضا كتب عليه أن يمتص صدمة الحرب الحديثة الشاملة. سار هؤلاء الفتية إلى الحرب في زهو وكأنهم في نزهة.
- أنا أرى يا بروفسيور رفاعي أن كل هذه القصص التي تبرز تصرفات البشر يمكن تفسيرها من خلال ما نعرفه عن العقل الجمعي ونظرية خلية النحل وسلوك القطيع والهستيريا الشعبية الغوغائية والتأثير الاجتماعي.
- مؤكد يا سيد "هامستر". الحماسة كانت وراء تطوع ٧٥٠ ألف شاب عام ١٩١٥. ومع انقضاء عامين من الحرب وتحديدا عام ١٩١٦ بدأ الملل والسأم يدب في عروق الشباب وحل النصب والعنت تدريجيا محل الزهو والفخر وعاني الجنود الأمرين من الصقيع والأوحال في الجبهة الفرنسية-البلجيكية. تفتحت عيون الجنود على الواقع المرير للحرب وتلاشت أبخرة الرومانسية عندما حمي الوطيس. وأمست الشعارات الجوفاء خالية من أي معني. أحس الجنود أنهم وقعوا ضحية خيانة الوطن وأنهم قد غرر بهم وغُممت أعينهم. مع دخول الدبابات ساحة القتال لتسحق عظام الجنود تحول المد نهائيا وبلا رجعة إلى الواقعية. احتج الجنود على الحرب التي تفتقر إلى التبرير الأخلاقي والأسباب العادلة ولا تميز بين العسكريين والمدنيين.

- لم يعد للحرب ما يسمى ميدان المعركة أو ساحة الوغى.
- بالضبط يا فدوى. نقم الجنود على الساسة ورجال الدين والجنرالات. شاهدوا أترابهم يموتون كالأغنام ويُسحقون كالهوام بعد تعرضهم لغاز الخردل. بعضهم راح يشكك في وجود رحمة بالسماء بعد أن ارتقى تسعة ملايين شاب في أتونها المستعر. أدرك الشباب أنهم لم يستعدوا لقبول معطيات الحرب الحديثة. أفضل من جسد الروح الجديدة وعكس هذا التغير "الدراماتيكي" هو الشاعر "ولفريد أوين".[lxiv] أحد أهم قصائده هي " إنه لأمر يدعو للفخر أن تموت من أجل الوطن".[lxv] عنوان القصيدة مقتبس من الشاعر الروماني "هوراس".
- أتوقع سمعت عنها.
- فقط قارني يا فدوى بين المقاتل في العصور الغابرة بدروعه اللامعة ومنظره الأخاذ وهذا المقاتل الذي قدمه لنا "أوين" في قصيدته لتكتشف في التو اختلاف المفاهيم وتغيرها.

تناول الدكتور رفاعي أحد الكتب ووضع نظارة القراءة ثم تابع:

- يقول "أوين":

رحنا نخوض في الأوحال ونسب ونلعن،
تتخبط ركبنا ونسعل كالعجائز
وتقوست نحورنا تحت المخل ومضينا كالمتسولين
وولينا ظهورنا للطلقات الكاشفة التي انطبعت في عقولنا
وأخذنا في المسير نحو المبيت النائي وحل بنا التعب
وأعيا الجنود النصب وأنهكهم العنت فتمايلوا كالشخص الثمل

واستسلموا للنوم وهم سائرون،
وفقد الكثيرون أحذيتهم فانتعلت أقدامهم الدماء
ومع العرج وزيغ البصر صمتت آذانهم
عن نعيب الدانات المتصل، تلك التي راحت تسقط خلفهم.
غاز! غاز! هلموا يا رجال – كل يتعثر ويتخبط
ويرتدي القناع الأخرق في آخر فنية
بيد أن هناك شخص يصرخ وينتفض
كمن يحرق بالنار أو على الكلس وضع
رأيته من خلال عدسة القناع الباهتة يختنق
ولونه الأخضر القاتم بلون قاع البحر
وفي أحلامي أراه وأسمع حشرجته
يزبد ويرغي فلا أملك له عونا.
لو ألفيت نفسك تسير في أحلامك الغائمة
خلف الكارة التي طرحناه عليها
وتشاهد بياض عينيه الزائغتين
ووجه المتدلي كآثم أعيته الرذيلة
وإذا سمعت مع كل رجة
غرغرة الدم في الرئة التالفة
كريهة كالسرطان مريرة كمضغ واجترار الأسي
بالأفواه المتقرحة وسقم الألسنة البريئة
فلن تأخذك الحمية يا صديقي وتردد على مسامع

الأطفال المتشوقين لحكايات المجد البائس

الأكذوبة الكبيرة

"إنه لأمر مشرف أن تموت من أجل الوطن"

- وماذا حدث لأوين؟

ترك الدكتور رفاعي الكتاب الذي كان يقرأ منه مجيبا "جونا" في أسى:

- لقي حتفه عام ١٩١٨ قبل نهاية الحرب بأسبوع. ومن سخرية القدر أنه في الوقت الذي قرعت فيه أجراس الكنائس ترحيبا بالهدنة والسلام كان مندوب وزارة الحرب البريطانية يقرع باب بيت أمه ويناولها برقية تعازي في فلذة كبدها.
- شيء مؤلم. شاهدت فيلم "كل شيء هادئ في الجبهة الغربية". كانت حرب مروعة فعلا.
- "ولفريد أوين" يا فدوى هو النسخة البريطانية من "بول" في هذه الرواية التي كتبها "إريك ماريا ريمارك".
- و"كيث دوجلاس"؟
- سأدعك أنت تجيب عن هذا السؤال يا سيد "هامستر".

(٢٦)

"القاهرة الظافرة"

لم يُخف "جونا" إعجابه بفدوى ولا هي فعلت عكس ذلك؛ بينهما أشياء كثيرة مشتركة. في القطار المتجه إلى العاصمة، "القاهرة الظافرة"، حكى "جونا" لها عن خطيبته السابقة ومشاكله معها. فاجأته مثلما فعل والده من قبل بأن "فيليستي" طبيعية تماما، وأن المشكلة فيه هو، وفي كل من يُوقف حياته على مثل هذه الأمور التي يبحثان عنها. أضافت:

- لأدلل لك على صدق كلامي استوقف أي شخص في مصر أو إنجلترا أو في مكان آخر واسأله عن "كيث دوجلاس" أو القضايا التي تعن لك وتؤرقك وتقض مضجعك؛ سيعتقد أنك مجنون. مشكلتنا يا "جونا" أننا لا نميز بين عملنا وحياتنا. كلاهما متداخل. عقولنا تسبق قلوبنا. البحث العلمي يجور على أوقاتنا واهتماماتنا واجتماعياتنا وأحيانا إنسانيتنا.
- إلى هذا الحد؟!
- هل سمعت عن حذاء "أمبيدكول"؟
- معروف. فيلسوف "يوناني" شهير اعتقد أن النار هي المُطهر لكل الآثام، لكن ماذا عن حذاءه؟
- حسن. ألقى الرجل بنفسه في فوهة جبل "إتنا" البركاني في "صقلية". قذفت الحمم حذائه للخارج. اجتمع تلاميذه حول الحذاء وأخذوا يفكرون كيف طار في الهواء عوضا عن التفكير في مصير معلمهم!

- بدأت أصدق هذا الطرح، لكن وبالعودة إلى "فيليستي"، يقولون يا فدوى إن الاختلافات بين الزوجين مهمة لأن بها يُكمل كل منهما الآخر، أو كما ورد في فيلم "جيري ماجواير": أنتِ تكمليني.
- هذه خرافة. صدقني.
- والحل؟
- أن تتعلم أين تتوقف ولا تتمادى في حياتك العلمية فتجور على حياتك الشخصية، أو أن ترتبط بشخص على نفس شاكلتك.
- لا أستطيع أن أتوقف.
- حسن، لقد حسمت موقفك إذن.
- بمعنى؟!
- بمعنى: أنت المشكلة والحل.
- أنا أتفق معك يا فدوى بشأن تغول التفكير على عقولنا، وأننا أحيانا نخاطب الآخرين بشيء من التعقيد. ربما عانيت من هذه النقطة مع خطيبتي السابقة، لكنها أيضا يا فدوى رفضت الفرصة، فرصة أن تسمو وترتقي وتُعمل عقلها وترفع من قدرها في المجتمع.
- هناك نسوة لا يفهمن هذه الأشياء ولا يقدرن وجودها من عدمه، ولو حاولت انتشال إحداهن من هذا الوضع حصل لها الكدر، وأبت إلا أن تعود لما كانت عليه من تفاهة وانحطاط. ولكي أؤكد لك صدق طرحي سأحكي لك قصة امرأة فرنسية اسمها "أجاريث كوسيدير"،[lxvi] جاءت إلى مصر عام ١٨٣٤. نصبت خيمة في موقع العمل الخاص بإنشاء القناطر الخيرية، وفيها

أخذت تطهو للعمال وتغسل ملابسهم. في الخيمة أيضا تعاقب الرجال على معاشرتها. أحبها مواطنها "جون براكس"[lxvii] الذي كان على وشك السفر إلى جدة للعمل مع الحامية هناك. عرض عليها الزواج وأخذها معه، لكنها ردت له الجميل بأن هجرته إلى شخص آخر![lxviii]

(٢٧)
"موشوفيسكي"

في القاهرة قام الباحثان بزيارة مكتبة الرسائل العلمية بكلية الآداب، جامعة القاهرة ودار الكتب والوثائق القومية ومكتبة الجامعة الأمريكية والجمعية الجغرافية ومكتبة الأزهر.

بالرغم من تعبه ونصبه طيلة اليوم أحس "جونا" وهو في فراشه بالفندق القاهري برغبة في أن يطرق باب غرفة فدوى ويتكلم معها. أما فدوى فقد هاتفت والدتها للاطمئنان عليها، ثم نامت مثل الملائكة وعلى وجهها ابتسامة غير مفهومة.

بعد تناول الفطور ومغادرة الفندق في اليوم التالي، توجه الباحثان حسب المخطط إلى المزارات السياحية: خان الخليلي حيث ابتاع "جونا" هدايا لوالديه و"توم" وزوجته والبروفسير "جورج" وفدوى. ناولها الدلاية الفضية وهو يقول:

- هذا شيء بسيط لك. أرجو أن تقبليها.
- لا يمكن أن أرفضها وأنت تقدمها بتلك المعزة. حرف الفاء.

صمتت فدوى وشردت:

- ما بك يا فدوى؟! آه فهمت. هذا أنت يا فدوى؛ "فيليستي" مياه جرت في النهر.
- حرف الفاء هو حرف الملوك والأمراء في مصر؟
- حقا؟ كيف؟ أخبريني.
- أوعزت إحدى العرافات للملك فؤاد أن يسمي أولاده على حرف الفاء حتى يجلب ذلك لهم حسن الطالع؛ ما حدث بالطبع هو

العكس تماما: لدينا في الأسرة المالكة فاروق وفايقة وفتحية وفوقية وفريال وفوزية وفضيلة و..

- فريدة.
- الملكة فريدة يا "جونا" اسمها الحقيقي "صافيناز".
- وفدوى.
- لا يوجد فدوى ضمن الأميرات.
- يُهيأ لك. هناك أميرات عروش وهناك أميرات قلوب. مثل ديانا.
- ديانا كانت كليهما يا "جونا".
- لكنها اختارت الحب والشاب المصري، دودي الفايد.
- وكانت نهايتها مزعجة.
- لا أستطيع أن أصدق أن الحب قد يزعج أحدا.

تجول الباحثان في وسط البلد. توقف "جونا" أمام عمارة "موشوفيسكي" وأبدى إعجابا كبيرا بتمثال الرجل والمرأة على جانبي المدخل. لم يفهم علة أن كلاهما يعطي ظهره للأخر، لكن الجواب كان حاضرا لدى فدوى التي انطلقت قائلة:

- "موشوفيسكي" كان رجل أعمل أمريكي من أصول "سلافية". أتى مصر عام ١٨٩٨ للتجارة. كلف مهندس نمساوي بتصميم وبناء هذه العمارة لخطيبته الأمريكية حتى توافق على الإقامة معه في القاهرة. بعد الانتهاء من هذه التحفة المعمارية، أرسل إليها بالأمر، لكنها كانت قد تزوجت وسافرت مع زوجها إلى الأرجنتين. يعكس التمثالان هذا الصد والجفاء.
- و"موشوفيسكي"؟ ماذا صار من أمره؟

- ترك التجارة ودخل حياة الكهنوت في الكنيسة، وانطلق في بعثة تبشيرية، في الغالب إلى كينيا، لكن أخبار البعثة انقطعت، ولا يدري أحد عنه شيئا.
- مسكين.

(٢٨)
"جاير أندرسون"

زار الباحثان بعد ذلك قصر عابدين وبيت الكريتلية أو متحف جاير أندرسون.

"روبرت جرينفيل جاير أندرسون"[lxix] أو "بوم"[lxx] هو طبيب بريطاني عمل في الجيش الإنجليزي في مصر منذ عام ١٩٠٤ وتقاعد عام ١٩١٩. كان مهتما بالآثار والبيوت العتيقة.

لفت نظره وجود منزلين ينتميان للفترة العثمانية أعلى جبل يشكر بجوار مسجد ابن طولون في السيدة زينب. أحدهما يعود إلى عام ١٥٤٠ ميلادية وبناه المعلم عبد القادر الحداد، وأما الآخر فيعود لعام ١٦٤٢ ميلادية وبناه الحاج محمد الجزار. مع مرور الزمن انتقلت ملكية الأول إلى سيدة من كريت فيما بيع الثاني لسيدة صعيدية تُدعى "أمنة بنت سالم".

سمع "أندرسون" عن نية الحكومة المصرية هدم البيتين حيث لم يعد لهما صاحب وتداعت أركانهما. اشترى "جاير" المنزلين وقام ببعض التعديلات ليصبحا منزلا واحدا، وجددهما وجلب لهما التحف والآثار. عُرفا بعد ذلك ببيت الكريتلية أو متحف "جاير أندرسون". ونتيجة لمجهوداته في الحماية على التراث منحه الملك فاروق لقب "باشا".

تعلق "جاير" وتوءمه، "توماس" بأمهما "ماري مورجان" بشكل مرضي بسبب سادية والدهما. كره "جاري" والده. لم يكن سعيدا في حياته، وظل دائما يبحث عن الشيء الناقص فيها. تزوج من "إيفلين"، لكنه لم يكن سعيدا معها.

هرب إلى كلية الطب، وهرب إلى الجيش وهرب إلى الشرق. حارب في "جاليبولي" عام ١٩١٥ وأعاد تمركزه في مصر حيث بدأ إعادة اكتشاف نفسه. أبحر في النيل، ارتدى ملابس فضفاضة، صارع التماسيح، دخن الأفيون وأدمن "الإيروتيكا"، ضاع في الصحراء وأجرى عمليات جراحية مرتجلة وتجارب علمية لا أخلاقية. باختصار عاش المغامرة من وجهة نظره هو.[lxxi]

في بيت الكريتلية سمع "جاير" عن أسطورة بئر الوطاويط، وهو بئر داخل البيت لو نظر إليه العاشق وتمنى رؤية وجه محبوبته انعكست على مياه البئر شريطة أن يكون القمر بدرا.

لم تكن هذه هي الأسطورة الوحيدة التي راجت حول البيت، لكن "جاير" لم يجد مانعا من تجربة ذلك بنفسه. وقف أمام البئر في الوقت المحدد فوجد قطا فرعونيا وامرأة وجهها يُشبه القطط.

تملكته الحيرة، وظن أن ما رأى هو خداع بصري. حملت الأيام التالية تفسيرا لما شاهده فقد عثر عن طريق التنقيب على قط فرعوني جميل وتعرف على صاحبة الوجه الذي يشبه القطة.

اسمها "ماري ستاوت شو".[lxxii] هذا أجمل ما فيها، "ماري" على اسم أمه. كان "جاير" يعمل طبيبا وقتها على متن سفينة نيلية سياحية مملوكة لزوجها. لاحقا دلل على حبه لماري بأن هَرّب القطة الفرعونية البرونزية المبهرة خارج مصر، ثم تبرع بها باسمه مقرونا باسم "ماري" إلى المتحف البريطاني.[lxxiii]

عنّ لـ"جونا" أن يلقي نظرة على البئر. سارت معه فدوى وهي شاردة. نظر "جونا" إلى البئر فوجد صورته وصورتها بجواره.

(٢٩)
"الأفاق بيلزوني"

في الطريق إلى المزارات الأخرى سأل "جونا" فدوى عن سر شرودها في متحف "جاير أندرسون" فأجابت:

- أنا حقا ناقمة على هذا الإيرلندي الذي لم يدع موبقة إلا وفعلها، وحانقة على الملك فاروق الذي منحه لقب "باشا".
- رفقا بالرجل يا فدوى؛ لقد كان محبا لمصر. الحب دليله العطاء، وقد أعطى السيد "أندرسون" لمصر متحفا جميلا بلا مقابل.
- لا تقل بلا مقابل. يكفي القط البرونزي. ثم أنه لم يكن أخلاقيا بالمرة. هل تعلم أنه وباسم العلم وبالتعاون مع شخص اسمه "هنري ويلكوم"[lxxiv] قام بسلخ لحوم جماجم محاربين نوبيين لاستخدامها في تجارب تخص علم الصيدلة.
- أما هذه فلا أعلمها.
- فقط قارن بين "جاير" و"شامبليون". لا يمكن المقارنة بينهما، كما لا يمكن مقارنة الأفاق "بيلزوني" الذي أقام في مقبرة سيتي الأول حفلة لأصدقائه الإنجليز، وفي تلك الليلة الماجنة عربد السارقون وارتفعت أصواتهم بعد أن لعبت الخمر برؤوسهم![lxxv] بـ"ويلكنسون"[lxxvi] الذي أمضى اثني عشر عاما يدرس كل ما يخص مصر، ولا يمكن مقارنة الإيطالية، "أماليا نيزولي"،[lxxvii] بالألماني"، "وليم روبل"،[lxxviii] الذي أمضى سنوات وسنوات يُسجل نباتات مصر.

- صحيح.
- هناك عائلات أوروبية يا "جونا" نذرت نفسها لمصر. خذ مثلا عائلة "لين":
- "إدوارد وليم لين" و"صوفيا لين بول" و"ستانلي لين بول".
- بالضبط، وهناك أيضا "جيمس أجوستوس سان جون"[lxxix] الذي نزل مصر عام ١٨٣٢. تقريبا بحلول منتصف القرن التاسع عشر زار ابنه "بيل جيمس أجوستوس سان جون"،[lxxx] مصر وواصل مشروع الكتابة عنها كما فعل والده. ألم أقل لك هناك عائلات أوروبية نذرت نفسها للمصريات؟
- وهناك عائلات مصرية خربت آثار مصر.
- وهذا أيضا صحيح يا "جونا". خبيئة الدير البحري ظلت عائلة عبد الرسول يبيعون منها ما خف وزنه وعظم قدره لمدة عشر سنوات من ١٨٧١ إلى ١٨٨١.
- أنا شاهدت في المتحف البريطاني جنيها ذهبيا يحمل صورة عبد الرسول هذا وتعجبت لهذا الأمر! كيف وافقت الملكة "فيكتوريا" أن يرتبط اسمها بهذا التدني من قريب أو بعيد.
- هذا ما شجع عبد الله التعايشي، حاكم السودان، أن يرسل لها خطابا يدعوها إلى الإسلام، أتوقع عام ١٨٨٥.

مضى الوقت سريعا خلال هذا النقاش ووجد "جونا" وفدوى أنفسهما أمام المتحف المصري بميدان التحرير. زارا أيضا برج القاهرة والأهرامات.

(٣٠)
"نزلة السمان"

أخذت منطقة "نزلة السمان" المتاخمة للأهرامات اسمها من نزول السمان المهاجر بها كونها كانت منطقة خصبة يصل إليها فيضان النيل.

مع تدفق السياح أصبحت نزلة السمان أيقونة لقصص الحب التي تنشأ بين الأجانب والمصريين: التراجمة وسائسي الجمال وخلافه. ونتيجة لهذا الزخم تناول مسلسل مصري هو "البر الغربي" عام ٢٠٠١ هذه الظاهرة. في المسلسل تقع السائحة الإنجليزية، "ماريا"، في حب عرفان الذي يربي ويؤجر الخيول للسائحين في الأهرامات، لكن خال "ماريا" اعترض على هذه العلاقة.[lxxxi] استند المسلسل على قصة حقيقية وقعت بين الحربين العالميتين بطلها المرشد المصري "علي غبوش".[lxxxii]

عام ١٨٩٥ وقعت الكونتيسة الإنجليزية "كامبيل" في حب الترجمان خطّاب الذي التقت به في نزلة السمان. رغم انتهاء زيارتها لمصر وعودتها إلى لندن لم تستطع التوقف عن التفكير في هذا الرجل خفيف الظل. سافرت إلى مصر من جديد وبحثت عن هذا الرجل النحيف ذي البشرة السمراء ووجدته. تزوجا واستقرا في نزلة السمان وأنجبا مبروك وهانم وعمر. اعتنقت "كامبيل" الإسلام وأقامت فندق "سفنكس هاوس".[lxxxiii]

في منطقة نزلة السمان أيضا استمع "جونا" وفدوى إلى قصة الفتاة الإنجليزية "دوروثي". عام ١٩٣١ عاد إلى مصر من إنجلترا شاب يُدعى

"عبد المجيد" ومعه هذه الفتاة. كان معلما للغة الإنجليزية، وقابل الفتاة وأعجب بها واتفقا على السفر معا إلى مصر والزواج على أرضها.

في مصر التقت "دوروثي" صدفة مع مساعد عالم الآثار الأمريكي "جورج ليزنر" الذي فوجئ بأن الفتاة على دراية مستفيضة بسحر الفراعنة!

ولدت "دوروثي لويس إيدي" عام ١٩٠٤ في "وولويتش". في سن الثالثة وقعت أثناء اللعب وفقدت الوعي لفترة قصيرة. عندما أفاقت بدأت تنتابها أعرض غريبة وأمست تتحدث بلغة غريبة وتسير وهي نائمة وترى كوابيس مخيفة. في زيارة للمتحف البريطاني أشارت إلى صورة لمعبد "أبيدوس" صائحة "هذا بيتي، لكن أين الأشجار؟!" لاحقا كتبت "دوروثي" سبعين صفحة باللغة المصرية القديمة قالت إن شخصا ما أملاهم عليها. تتحدث الأوراق عن فتاة من مصر القديمة اسمها "بنتريشيت" والاسم يعني قيثارة الفرح. انتهت حياة هذه الفتاة بالانتحار. لاحقا انتهت قصة الحب التي جمعت "دوروثي" وعبد المجيد بالطلاق لأنها رفضت ترك مصر ومرافقته إلى العراق. عملت "دوروثي" مساعدة للأثري سليم حسن. توفت عام ١٩٨١ ودُفنت في "أبيدوس" حسب رغبتها.[lxxxiv]

(٣١)
"لم أكن ألوح بل أغرق"

في طريق العودة إلى الإسكندرية كان "جونا" مازال مشغولا بقصة "دوروثي". نظر إلى فدوى قائلا:

- لدي صديق في إنجلترا يبحث في اللغويات الغرائبية.
- هذه أول مرة أسمع هن هذا العلم.
- هو في بداياته؛ يهتم بأمور مثل لغة الفضائيين ولغة السحر والشعوذة والتسخير وعبادة الشيطان وخلافه، وسمعته يوما يتحدث عن ظاهرة اسمها "الزينوجلوسيا" والتي تعني شروع شخص في التحدث فجأة بلغة غير لغته.
- كتب عنها الروائي الطبيب أحمد خالد توفيق.
- ماذا قال؟

فتحت فدوى هاتفها النقال وبحثت فيه لدقيقة أو يزيد ثم قالت:

- من كتابه "الآن نفتح الصندوق"،[lxxxv] صفحة رقم (٣٦)، دعني أقرأ لك بعض السطور: عندما كانت المرأة جالسة مع زوجها تحكي له عن مشاكل مع خالتها.. هنا بدأت تتكلم لعشر دقائق بتلك اللغة الغريبة. الزوج ظل يرمقها في دهشة ثم راح يهزها كي تتوقف لكنها ظلت تتكلم كأنها تشرح له أشياء.
- يفسر هذا تماما ما حدث لـ "دوروثي". وهناك أيضا قصة روزماري من مقاطعة بلاكبول[lxxxvi] الإنجليزية. أفاقت من غيبوبة على إثر حادث وقع لها لتتحدث المصرية القديمة. الغريب أنها لم تزر مصر مطلقا ولا أحد من أسرتها وعائلتها. حدث ذلك عام

١٩٣١. وهناك قصة الفتاة الإيطالية، "روسانا كارمليني"، التي أُودعت يوما غرفة فملأت الجدران برسوم هيروغليفية. عام ١٩٣٨ سافرت إلى مصر وصعدت الهرم ثم اختفت.[lxxxvii]

- غريبة حقا يا "جونا"، يذكرني هذا الأمر بما أورده طارق سري في كتابه "تناسخ الأرواح"[lxxxviii] حول قصة غريبة نشرتها جريدة الأهرام عام ١٩٢١ عن امرأة أمريكية تُدعى "إتما بل فيلد". هذه المرأة ما إن تضع القلم الرصاص على الورق حتى يتحرك بدون إرادة منها فيرسم صور مصرية قديمة، لكن لماذا مصر القديمة؟ وما هو التفسير العلمي؟ وهل تعتقد أن في الأمر تصنع أو غش؟
- في الحقيقة يصعب البت في هذا الأمر. في إبريل من عام ١٨١٧ وعلى سواحل بريطانيا تم العثور على فتاة مشوشة ترتدي ملابس عجيبة وتتحدث لغة غريبة. الشيء الوحيد الذي فهمه الناس هو أن اسمها "كارابو" على ما أتذكر. تم القبض عليها ووضعها بالحبس الانفرادي لحين التحقيق في أمرها. بعد فترة أخبرهم بحار برتغالي أنه يعرف لغتها، وسيتحدث معها ويعرف قصتها. قال إنها بنت ملك جزيرة "جافاسو"، وأن القراصنة خطفوا قاربها، لكنها هربت وسبحت إلى الشاطئ. بالفعل تم التعامل مع الفتاة كأميرة. لم يقتنع أحد الصحفيين بالقصة وطفق يبحث في الأمر وهنا كانت المفاجأة. تبين أنها خادمة عادية فقيرة جدا، وقد اخترعت القصة بأكملها بما فيها لغتها بالاتفاق مع البحار البرتغالي، للحصول على بعض المال والاهتمام. عام ١٩٩٤ تم إنتاج فيلما سينمائيا يحكي قصتها.[lxxxix]
- غريبة!

- فعلا يا فدوى.
- لكن من المحزن أن قصة "دوروثي" مع عبد المجيد انتهت بالفراق. يخيل لي أنها أتت مصر من أجل مصر في حد ذاتها، ومن أجل عشقها للآثار، لا من أجل عبد المجيد...

لم يعقب "جونا". اكتفى بالنظر إلى الأشجار التي تجاهد لتنمو في هذه الصحراء المترامية بينما وصلته البقية من كلمات فدوى الخافتة وكأنها قادمة من بعيد: وعد يسوع أصحابه بأن يتحدثوا بألسنة جديدة. هكذا ورد في الإصحاح السادس عشر من إنجيل مرقص الرسول.

هدأ السائق من سرعة السيارة نتيجة لوجود تكدس مروري أمامه وهو يقول: "استر يا رب. هذا حادث في الغالب." بالفعل كان هناك سيارة مقلوبة. وصلت أيضا سيارة الإسعاف. تجمع حشد كبير من المسافرين وانبروا في التصوير! استهجن "جونا" هذا التصرف قائلا وهو يلتفت إلى فدوى:

- لقد خلبت الرغبة في زيادة المشاهدات عقول الناس.
- هذا صحيح.
- يجب تقنين هذا الأمر.
- لا أدري لماذا، لكن الموقف برمته يُذّكرني بقصيدة الشاعرة البريطانية "ستيفي سميث" "لم أكن ألوح بل أغرق"،[xc] فبينما كان شخص مجهول في البحر يغرق فعليا ويلوح طلبا للمساعدة، ظن الواقفون على الشاطئ أنه يرسل لهم بالتحية. تقول القصيدة:

الرجل الهالك ... لم يسمعه أحد،

ظل هناك يتأوه:

لقد كنت أبعد كثيرا مما ظننتم

ولم أكن ألوح بل أغرق.

هز "جونا" رأسه موافقا. كم من الأشخاص يعيشون في عزلة عن الناس ويتألمون في صمت دون أن يشعر بهم أحد. يبلعون ألمهم وينفجرون للداخل. كم من الأشخاص ينشدون الحب والرفقة والقبول والدفء والعائلة والأصدقاء، لكنهم يُنبذون ثم يموتون في وحدتهم دون أن يكون بجانبهم أحد أو يشعر به أحد أو يرثيهم أحد.

(٣٢)

"مثلث العشق: نورمان"

اكتملت المصادر والمراجع العلمية وانكب عليها "جونا" وفدوى حتى انتهيا من القراءة واستقطاع المقتطفات وتوثيقها وأصبحا جاهزين للصياغة. قال "جونا":

- هل تعلمين يا فدوى أن "كيث" و"ميلينا" كانا يتقابلان في فندق "المتروبوليتان" الذي أقيم فيه. أليست هذه صدفة أخرى مثل شاطئ ستانلي؟!
- فعلا. لقد صورت هذه الأماكن: فندق "سيسيل" حيث كانا يحتسيان الشاي ومطعم "مون سينيور" ووادي النطرون والعلمين.
- زيارتنا لأديرة وادي النطرون كانت مبهرة. لقد استمتعت على وجه الخصوص بتلك العين..
- تقصد نبع الحمراء الذي باركته العذراء أثناء رحلة العائلة المقدسة لمصر؟
- نعم يا فدوى.
- أما أنا فاستمتعت كثيرا يا "جونا" بزيارتنا للعلمين ولمقابر "الكومنويلث". الصمت البرزخي وعزيف الرمال.
- فعلا، لكنه كان مشهدا صادما. صعقني كذلك تلك الشباك المنتشرة على طول الساحل لصيد سمان الخريف الذي يصل منهكا فيقع في الشرك. يسافر للحياة فينال الفناء! المهم، هل أنت جاهزة؟

- أجل. سأملي عليك وصغ أنت بأسلوبك.
- لا بأس.

حل صيف عام ١٩٤٢ على الإسكندرية والأجواء مشحونة ومتوترة بسبب تقدم الألمان من اتجاه الغرب وغاراتهم المستمرة على الميناء الذي يستقبل الإمدادات البريطانية. هرب الكثير من السكندريين باتجاه الجنوب، وهرب اليهود إلى الخارج. تحولت مدرسة "فيكتوريا كوليج" إلى مستشفى عسكري. بعث الألمان برسائل لنساء الإسكندرية ومنها: جهزوا فساتين الحفلات نحن في الطريق.

تمركز ضابط إنجليزي اسمه "كيث دوجلاس" في معسكر لتدريب القوات الإنجليزية في وادي النطرون. أثناء مهمة له بالإسكندرية ذهب للسباحة في شاطئ "ستانلي" مع صديق له اسمه "نورمان إليت" كان يخدم في البحرية الملكية البريطانية المتمركزة في منطقة رأس التين بالإسكندرية. وجدا فتاتين في مشكلة مع بعض المصريين فتدخلا وأنقذا الفتاتين.

إحدى الفتاتين كان اسمها "ميلينا" من أصول إيطالية وإسبانية. هاجرت أسرتها واستقرت في الإسكندرية. خطفت "ميلينا" قلب "كيث" من النظرة الأولى. التقط لها صورة بآلة التصوير خاصته، كما استأذنها في رسم "إسكتش" لها بالقلم الرصاص فوافقت.

أصبح "كيث" يتحجج ليقوم بمأموريات إلى الإسكندرية ليجلب الأغراض للضباط والأفراد بمعسكر التدريب. كل هذا من أجل أن يقابل "ميلينا" التي تعلقت به أيضا رغم شعورها بأنهما مختلفين في التفكير. "كيث" شاب متعلم في أكسفورد ويكتب الشعر وثقافته عريضة، أما

"ميلينا" ففتاة عادية تعمل في شركة "ساكون وسبيد"[xci] ومقرها الرئيسي جبل طارق، وتبيع الخمور والتبغ للسفن المتوقفة في ميناء الإسكندرية.

خرجا معا، ذهبا إلى السينما وتناولا الطعام. تعرف "كيث" على والد ووالدة "ميلينا". نام في بيتهما غير مرة. كان كريما معهما ويحضر لهما الهدايا دوما.

اشتعلت الأمور في جبهة شمال أفريقيا. مع تقدم "روميل" شرقا، توقف "كيث" عن النزول إلى الإسكندرية لفترة طويلة نسبيا. في الأثناء تقرب صديق "كيث"، "نورمان"، من "ميلينا". وجودهما معا في الميناء ساعد على سريان الألفة بينهما. يقول المثل: البعيد عن العين بعيد عن القلب. من ناحية أخرى كان "نورمان" مثل "ميلينا" لا يهتم بالأمور الفلسفية المعقدة التي تشغل بال "كيث" ويكتب عنها في قصائده.

تحايل "كيث" على النزول إلى الإسكندرية. كُسرت نظارته واحتاج إلى بديل فقصد المدينة لهذا الغرض. ذهب "كيث" إلى منزل "ميلينا"، لكنها لم تكن موجودة. جلس ينتظرها فعادت في المساء بصحبة "نورمان" الذي كان يرتدي تعويذة "ميلينا". عرف منهما أنهما أصبحا خطيبين. أسقط في يده. شعر بطعنة نافذة من "ميلينا" ومن صديقه، "نورمان"، الذي يعرف أن "كيث" متعلق بها.

وهكذا تشكل مثلث العشق الشهير. رجل يحب فتاة، لكنها تحب أو ترتبط برجل آخر، وفتاة تحب رجلا، لكنه يحب أو يقترن بفتاة أخرى.

على أي حال، تمنى "كيث" لهما السعادة وآب إلى وحدته بوادي النطرون. في اليوم التالي كتب قصيدة يقول فيها:

رحت أنصت لريح البيداء[xcii]

فما عصفت بطيفها من عقلي

ولا حنت النجوم بلمسة
ولا عبأ القمر بجرحي
ها هو في الفضاء بين ثنايا السحاب
يمر غير مبال
كما في ذهني عبر الأيام والليالي
يمضي محياها
عيناي كطائر جافاه النوم
تمسح الرمال الباردة التي تبرأت
من حرارة النهار المتقدة
كما أنكرت هي سابق عهدها
كل الأشياء تواطأت
معها في ظلمها وجفوتها لحزني ويأسي
هذه الأشياء مثلها مدهشة وقاسية
آه اضطجعي في الفراش خلسة من جديد
وامنحيه ما كان لي ذات يوم
وسآوي مثلك لأقبل رفيقتي، آلامي البائسة.

(٣٣)

"كارميني وتبرة"

عام ١٩٤٢ نشبت معركة العلمين. ترك "كيث" وحدته وقرر الاشتراك في المعركة.

توقفت فدوى" فجأة. أمسكت بالقلم وراحت ترسم دائرة في دفترها. تركت القلم ووضعت يدها على جبينها. علق "جونا":

- ما الخطب يا فدوى؟!
- هذه الجزئية تحتاج لتوضيح وإسهاب.
- أي جزئية.
- شاب في الثانية والعشرين من عمره يترك مركز تدريب آمن في وادي النطرون وينطلق بمركبة إلى العلمين مخالفا للتعليمات حيث المخاطر والإبادة، أليس هذا شيئا عجيبا؟!
- ربما أراد أن ينحر نفسه بعد ضياع "ميلينا" منه، أو ربما غريزة الموت كانت أقوى لديه من غريزة الحياة، أو ربما كان محبا للمغامرة.
- أو ربما ورث بقايا أوهام من الحرب العظمى.
- هذا ما أرادنا الدكتور رفاعي فهمه.
- أجل يا "جونا". بالضبط. "كيث دوجلاس" هو النسخة المتأخرة من الجنود الحالمين الذين ذهبوا إلى الحرب العالمية الأولى ليكتشفوا بعد ذلك أنه تم الزج بهم في محرقة. هؤلاء الجنود حين أتيحت لهم هدنة أثناء الحرب تقاربوا مع بعضهم البعض بعفوية، بل ولعبوا الكرة.

- تقولين إن هذا المد من الإنسانية لم يغب في الحرب العالمية الثانية رغم ديناميكية القتال وفتك الأسلحة؟
- بالضبط. كل ما في الأمر أننا استبدلنا الحفرة التي قتل فيها الجندي الألماني، "بول"، بطل رواية "كل شيء هادئ في الجبهة الغربية"، الجندي الفرنسي وأمضى معه الليل بطوله بسبب القصف ليكتشف أنه قتل إنسان مثله له آمال وأحلام وأسرة.
- استبدلنا تلك الحفرة بفضاء أوسع.
- هذا صحيح يا "جونا"، ولم نفقد إنسانيتنا تماما.
- قرأت أنه في ديسمبر عام ١٩٤٣، أصيبت قاذفة أمريكية فوق ألمانيا. صارع قائدها، "تشارلز براون"، للبقاء في محاولة مستميتة للعودة. وفي تلك اللحظة الحرجة، ظهر الطيار الألماني، "فرانز ستيجلر"، واستعد لاستهداف القاذفة. عندما اقترب رأى بشرا يتشبثون بالحياة. أخذ قرارا بعدم مهاجمة الطائرة. نفذ ما أمره به ضميره. انتهت الحرب، وبدأ "براون" رحلة البحث عن "فرانز". بعد ستة وأربعين عاما وجده وشكره.
- قصة جميلة يا "جونا". تقريبا في نفس التوقيت كان "كيث" يتحرك مع جيش "مونتجومري"، الجيش الثامن، نحو الغرب. وكلما استمر في المسير كلما زالت عنه "الشوفونية" والعصبية وعانق الإنسانية. في بني غازي سمع عن "كارميني يورو جوسيبي".
- إيطالي من اسمه؟
- أجل. كان ضابطا برتبة نقيب في الجيش الإيطالي. كان مؤمنا بـ "فاشيستية موسوليني". اصطدمت هذه العنصرية ببساطة

الليبيين وعنادهم وإيمانهم وعزم عمر المختار وشعاره "نموت أو ننتصر". مر بنفس الصراع والتجربة الإنسانية ثم قرر عام ١٩١٦ أن ينضم لمحاربي الصحراء. أصبح "كارميني" يوسف المسلماني وتزوج "تبرة موسى المجبري" وأنجب منها طفلين. المخيف في القصة أن القوات الإيطالية أسرته عام ١٩٣١ وأعدمته رميا بالرصاص.

(٣٤)

"للحب قصة في الإسكندرية، لكنها ليست الأخيرة"

ظهرت علامات الحزن على وجه "جونا". تنحنح في صعوبة واضحة ثم بلع ريقه قائلا:

- و "كيث"؟
- استمر في الزحف مع القوات الإنجليزية حتى تونس. وكلما تقدم في الزحف كلما تحرر من الخاص إلى العام ومن "ميلينا" إلى حواء ومن "المتروبوليتانزم" إلى الإنسانية. كتب:

رحل الرجال والنساء
الذين أضاءوا المنازل والشوارع كالشموع
وتحولت البيوت البيضاء
إلى سجون عارية يكسوها السواد
لم يعد هناك من يرحب بالأشباح
التي راحت تدفع المقابض
لتفتح أبوابا ليس لها وجود[xciii]

- أبواب وهمية ليس لها وجود! فكرة صادمة يا فدوى.
- هذا الوهم تناولته الشاعرة الأمريكية، "إدنا سانت فينست"[xciv] فكتبت في قصيدتها "سفر":

السكة الحديد على بعد أميال
والنهار يضج بالأصوات
لم يمر القطار طيلة اليوم

بيد أني أسمع صفيره.

- ما هذا التحليل الجميل يا فدوى؟! أكملي.
- عبر "كيث" المتوسط إلى إيطاليا وانتهى به المطاف في "نورماندي" بفرنسا حيث قُتل في الإنزال الكبير عام ١٩٤٤.

واصل "جونا" الكتابة وأورد كل ملاحظات فدوى القيمة. أضاف: لا نعرف الكثير عن "نورمان" ولا ماذا صار من أمر "ميلينا" غير أنها ظهرت في وثائقي لهيئة الإذاعة البريطانية عام ١٩٨٥، وحكت فيه عن لقاءها مع "كيث" على شاطئ "ستانلي" في شيء من التحفظ. خلال اللقاء بدت متقدمة في السن، لكنها احتفظت بجمالها المتوسطي الخلاب.

ختم "جونا" القصة بقوله: فقط نشير إلى أن الإسكندرية أثناء الحربين العالمين لم تكن فقط حاضنة لقصص الحب بين الغرباء من جنسيات متفاوتة كما هو الحال مع "كيث" و"ميلينا"، بل بين الغرباء من نفس الجنسية.

أثناء الحرب العالمية الأولى أصيب النقيب "إدوارد بولتون" وأُخلي إلى المستشفى العسكري البريطاني في الإسكندرية حيث قابل الممرضة "هيلدا وارد" ووقع في حبها. انتهت القصة بزواجهما في إنجلترا بعد انتهاء الحرب.[xcv]

عام ١٩٤٣ وأثناء الحرب العالمية الثانية، قصد العريف "هيو هيستون"[xcvi] فندق "سان إستيفانو" في الإسكندرية لتناول الشاي أثناء إجازة ميدانية أو مأمورية أو شيء من هذا القبيل. تصادف وجود حفل صغير في حديقة الفندق تحت رعاية السيدة "جابي أجيون"،[xcvii] زوجة يهودي إسكندراني هاجر إلى فرنسا عام ١٩٤٥ وأسس هناك دارا شهيرة للأزياء هي "كلوي".[xcviii] حضر الحفل "اللورد كيلرن"[xcix] والمغني

البريطاني "نويل كاوارد".[c] طلب المحتفلون من العريف "هيو" الانضمام إليهم. أثناء الحفل تعرف على الآنسة "روزماري دوق". ونشأت بينهما قصة حب.

عكس الأدب السردي هذه الظاهرة. ظهرت روايات تناولت قصص الحب التي كانت الإسكندرية أثناء الحرب مسرحا لها. لعل من أهمها رواية "فكر بي" للروائية "فرانسيس ليارد" التي نُشرت عام ٢٠١٨. تحت تأثير نيران الطائرات الألمانية وفي ملجأ تحت الأرض تمسك الفتاة السكندرية المرتعشة خوفا، "إيفيت حداد"، بيد "جيمس أكتون". بينما تستعر الحرب، سيجدان طريقهما إلى بعضهما مرارا، ويصبح حبهما منارة لنجاتهما. يتزوجان لاحقا وتهاجر إيفيت إلى إنجلترا.

للحب قصة في الإسكندرية، لكنها ليست الأخيرة؛ تنتهي قصة وتبدأ أخرى.

(٣٥)

"سوستراتوس"

سلم "جون" وفدوى المنتج النهائي إلى الآنسة "هنريتا" التي أثنت بشدة على التقرير والدقة العلمية والصياغة وكل شيء. استغرقت المهمة الأولى اثني عشر يوما. هذا يعني أن الباحثان قد وفرا ثلاثة أيام للمهمة الثانية.

قبل البدء في المهمة التالية قررا الاحتفال على طريقتها. أمضيا يوما جميلا معا في الإسكندرية على الأقدام حيث زارا المتحف اليوناني الروماني، لكنه للأسف كان مغلقا للتجديدات. زارا المسرح الروماني والمتحف القومي لمدينة الإسكندرية. زارا كذلك عمود "بومبي" أو عمود السواري ومقابر كوم الشقافة وقلعة قايتباي.

- هل تعتقدين يا فدوى أن القلعة تحتل مكان الفنار القديم، أحد عجائب الدنيا السبع؟
- أرجح ذلك بشكل كبير.
- حبذا لو أعاد السكندريون بناء المنارة من جديد في بقعة قريبة من هنا.
- فكرة رائعة، لكن الإسكندرية تحتاج إلى العافية. شاخت المدينة بجدرانها المتعبة، وتحتاج إلى بلسمة وتضميد شروخها.
- تقصدين المال؟
- المال وقبله الحب.
- الحب؟!
- أجل. هل تعرف أن الحب كان وراء بناء منارة الإسكندرية؟
- كل قصصك عن الإسكندرية لا تخلو من الحب.

- لدي قصة عن شقيقتين تخصصتا في خطف النساء من أجل حليهن ثم انتهي الأمر بإعدامهن. ريا وسكينة، هل هذا يناسب ذائقتك؟
- لا، لا. أفضل قصة المنارة.
- في الحقيقة هي قصة لم تثبت، ومن ثم لا أجزم بصحتها من عدمه.
- لا عليك، هاتي ما عندك.
- حسن. رغب شاب "يوناني" اسمه "سوستراتوس" في الزواج من فتاة "أثينية" جميلة. عندما حان موعد الزفاف أبحرت الفتاة مع أبويها وحين اقتربوا من "الإسكندرية" هاج البحر بشدة بعد أن احتفظ بهدوئه طوال الرحلة. احلولك الليل فحال دون أن يرى من على السفينة طريقهم، ولم يستطع من سمع صرخاتهم على الشاطئ أن يفعل شيئا لمساعدتهم. وعند الفجر، أدرك "سوستراتوس" وأقرباؤه أن العروس وكل من صاحبها قد غرقوا، لأن سفينتهم قد اصطدمت ببعض الصخور القوية فتحطمت. استسلم "سوستراتوس" لأحزانه وترك عمله وانخرط في البكاء، لكن معلمه، "دينوقراتس"، اقترح عليه بناء برج عال تندلع في قمته ألسنة اللهب حتى يرى القادمون من البحر الأماكن الضحلة الخطرة والصخور القريبة من الشاطئ فلا تتكرر هذه المأساة. وهكذا خرج الفنار للنور.
- قصة جميلة.
- ربما شابها بعض الخيال كما أسلفت، لكن الثابت أن الحب والفقد والحزن هم بناة هذا الفنار. الحب يبني ولا يدمر.
- أصبت.

(٣٦)

"آكي وباولينا"

توقفا عند سور الإسكندرية وحديقة الشلالات. ارتفع آذان المغرب من جامع سيدي أحمد المتيم بن علي زين العابدين بن الحسين القريب من الحديقة.

أظهر "جونا" عدم الارتياح قليلا ثم قال:

- أشعر أن مثانتي ستنفجر؛ أين أقرب دورة مياه عمومية يا فدوى.
- دعني أرى...؛ ليس أمامك إلا المسجد.
- ألن يمثل ذلك مشكلة؟!
- ليس في مصر.

عاد "جونا" بعد قليل وقد بدت عليه علامات الارتياح. ابتسم لفدوى قائلا:

- ولجت إلى دورة المياه من داخل المسجد. الأجواء جميلة داخله.
- الدين ترياق الشعوب.
- حسبته أفيون الشعوب؟!
- حسبما تكون قناعاتك.

تجولا في الحديقة وشاهدا الأشجار الضحمة العتيقة التي حفر العشاق على لحاءها عشرات القلوب وبداخلها الحرفين الأولين من اسميهما. أحدهم رسم رمز تحديد النوع (ذكر) ♂ ورقم هاتفه وعبارة "اتصلي بي". علق "جونا":

- قلت هذه الظاهرة بعد الإنترنت وبرامج التواصل الاجتماعي.

- صحيح.
- كانت مقاعد الجامعة وأبواب مراحيضها مترعة بهذه الرسائل.
- لأن نسبة كبيرة من بني البشر لا تجد الحبيب المجهول في العالم المادي فإنها تسعى للبحث عنه في العالم الافتراضي بكل مستوياته. القصة لم تتغير والبحث لم يتوقف، لكن الوسيلة تفاوتت وتباينت. في الماضي كان البعض يرسل صورته وبياناته إلى الصحف والمجلات فيما يعرف بـ "أريد عريسا/ أريد عروسة." كتب البعض أسمائهم وهواتفهم على النقود الورقية وعلى الأحجار والأسوار. صحيح أن هذا سلوك مشين، لكنه يعبر عن الرغبة في الدخول إلى هذا العالم الافتراضي والعثور على النصف الآخر. ألقى البعض برسالة زجاجية في البحر. صحيح أن أغلب هذه الزجاجات لم ترى اليابسة أبدا، لكن قلة منها اهتدت إلى العنوان الصحيح. في عام ١٩٥٦ على سبيل المثال ألقى بحار سويدي يدعى "آكي"[ci] برسالة زجاجية في عرض البحر. كانت الرسالة إلى فتاة مجهولة تنتهي بعنوانه. وجد صياد من جزيرة صقلية الرسالة وسلمها لابنته "باولينا"[cii] التي كتبت بدورها إلى "آكي". سافر الشاب السويدي إلى صقلية وقابل الفتاة فراقت له وانتهى اللقاء بزواجهما عام ١٩٥٨.
- و"رسالة بحر" هو فيلم أمريكي رائع. أحب المشهد الذي تفتح فيه "تريزا" الزجاجة وتفض الخطاب فتجد فيه هذه الكلمات: عزيزتي كاثرين. أفتقدك يا حبيبتي كما هو الحال دوما، لكنني أفتقدك اليوم أكثر لأن المحيط ظل يغني لي والأغنية هي حياتنا معا.

- الأجمل يا "جونا" أنها قررت البحث عن صاحب الزجاجة أو بالأحرى الرسالة.
- وقديما أيضا كان هناك جمعية أصدقاء القلم التي مكنت الشباب وغيرهم من الكتابة وتبادل الصور وما هو أكثر من ذلك.
- وقرأت أيضا يا "جونا" عن التلغراف المسمى بـ "الإنترنت الفيكتوري". عام ١٨٨٠ كتبت الأمريكية، "إيلا شيفر ثاير"، رواية "الحب عبر أعمدة البرق." تدور أحداث القصة حول "ناتي "و "كليّم" اللذين يعملان في مكتبي برق يبعد كلاهما عن الآخر حوالي خمسين ميلا. أقاما عن طريق أجهزة التلغراف وشفرة مورس علاقة غرامية توجت بالزواج.
- رائع!

(٣٧)

"لوسي وإدوارد"

تعب الباحثان من المشي. جلسا في مقابل التمثال الذي نحته محمود مختار أو "ريبلكا" منه: قالت فدوى:

- هذا التمثال اسمه "كاتمة الأسرار"، وهذه المرأة المتكورة كالجنين في الرحم تخفي سرا تنكفئ عليه.
- هذا يتناغم مع اعتقاد "فورستر"[ciii] بأن أسرار كثيرة عن الإسكندرية مدفونة في هذا المكان.
- فعلا.
- في موضع ما هنا يا فدوى بالقرب من باب رشيد سقط القائد "الإسكوتلندي" "رالف أبركرومبي"[civ] عام ١٨٠١.
- صحيح. نُقل النصب التذكاري الخاص به من سيدي جابر إلى مقابر البروتستانت. هنا أيضا سُجن ابن تيمية، وهو أحد فقهاء المسلمين.
- وسُجن كذلك الفارس الإنجليزي "إستير".[cv]
- لم أسمع عنه يا "جونا".
- قصته عجيبة وتختلط فيها الحقيقة بالخيال.
- نشرب القهوة وتحكيها لي من الألف إلى الياء.
- تحبين القصص يا فدوى؟
- لا تنسى أني أدرس الأدب.

بالفعل طلبا القهوة من "كرافان" هناك وعادا إلى مكانهما. قالت فدوى:

- والآن يا "جونا"، ما قصة هذا الفارس؟
- حسن. في قرية "جاتكومبي" بجزيرة "وايت" في إنجلترا عاشت فتاة من أسرة ثرية اسمها "لوسي لايتفوت".[cvi] كانت الفتاة دائمة التردد على كنيسة القديس "أوليف" بهذه القرية حيث يرقد جسد فارس الصليب "إدوارد إستير"[cvii] الذي حارب في الإسكندرية مع ملك قبرص، "بيتر لوزيان" عام ١٣٦٥. كانت تطيل الوقوف أمام التابوت الخشبي لهذا الفارس ودائمة التحدث معه. كان مسيطرا على أفكارها وأحلامها.
- جميل. ربما كانت رافضة لعصرها وتتمنى الحياة في زمن آخر.
- ربما. في العاشرة والنصف من يوم الاثنين، ١٣ يونيو لعام ١٨٣١ كُسفت الشمس لمدة ساعة وضرب الرعد المنطقة. كانت "لوسي" تقف أمام جسد الفارس "إستير" داخل الكنيسة. بعد توقف العاصفة اختفت الفتاة تماما. لم يُعثر لها على أثر سوى حصانها المذعور الذي ربطته في سياج الكنيسة في الخارج! كان التابوت الخشبي في مكانه، لكن الخنجر الذي قبض عليه الفارس كان في غير موضوعه والجوهرة التي ترصع مقبضه غير موجودة. عرض والد الفتاة مكافأة مغرية لمن يجد ابنته أو يقدم معلومات عنها.
- وبعد؟

- طرق بابه يوما رجل غريب الشكل. جاء ليدلي بمعلومات عن الفتاة. قال لأمها إنها سافرت أربعمائة وستة وستين سنة في الماضي ورحلت مع فارسها، "إدوارد إستير" إلى قبرص.
- ماذا؟!
- كان "إستير" قد قابل ملك قبرص، "بيتر لويزيان" أو "بيتر الأول" خلال زيارة الأخير إلى إنجلترا ليحشد لحملة صليبية على الإسكندرية.
- ثم؟
- أضاف الرجل الغريب أن "إستير" تركها في دير بقبرص ثم توجه إلى الإسكندرية مع الحملة، وهناك أُصيب في الرأس وفقد الذاكرة وافتداه أهله وعاد إلى جزيرة "وايت" ومعه الخنجر الذي منحه إياه ملك قبرص تقديرا لبسالته وشجاعته.
- حسن وماذا عن الفتاة؟!
- حين استفسرت الأم عن مصير ابنتها قال الرجل الغريب إنها انتظرت في قبرص عودة "إستير" لمدة ثلاث سنوات كما وعدها، ثم استبد بها اليأس فتزوجت من صياد ورحلت معه إلى "كورسيكا".
- شيء عجيب فعلا!
- الغريب أن الرجل رفض أخذ أي مكافأة، والأغرب أن الأب والأم صدقا ما قاله الرجل فباعا ممتلكاتهما واختفيا من الجزيرة وقُيل إنهما سافرا إلى "كورسيكا"!
- شيء ولا في الخيال!

(٣٨)

"مثل برق سوف يمضي مثل ومض"

استكمل الباحثان جولتهما في اليوم التالي. زارا ميدان المساجد حيث أبي العباس المرس والبوصيري، صاحب البردة، ومراقد أهل البيت، كما زارا المعبد اليهودي، "إلياهو جنابي" والكرازة المرقصية.

فاضت واستفاضت فدوى في شرح تاريخ الكرازة لـ "جونا" وأشهر باباوات الإسكندرية على مر العصور، وعرجت على ما يُعرف بالفتن وأسماء من قبيل "آريوس ومقدونيوس ونسطورس" وغيرهم.

لم يكن لدى "جونا" مشكلة في فهم كل هذا، بيد أنه لم يسترح لفكرة "تل نسطور" الذي تكون فوق قبر الأخير في أخميم من القمامة والحجارة التي كان يلقيها عليه القساوسة والناس. عاش "جونا" يعتقد أن الفكر لا يُحارب إلا بالفكر، وأن اللجوء إلى النار لمحو الكتب هو حيلة ضعيف الرأي وفاقد الحجة.

تحدثت فدوى عن اللغة القبطية وكيف تحولت إلى لغة كنسية وعن الخسارة الثقافية الكبيرة التي نفقدها مع موت أي لغة "فكل لسان في الحقيقة إنسان".[cviii] تحدثت عن الجهود الحالية لإحياء هذه اللغة بعد سنوات طويلة من الإهمال.

تحدثت عن "ثيودورة" السكندرية وقصتها مع دير الهناطول أو التسعة أميال، وعن القديسة "كاثرين" السكندرية، وكيف أن الملائكة حملت جثمانها إلى سيناء في الموضع الذي أُقيم عليه الدير الشهير فيما بعد.

تحدثت عن البابا شنودة الثالث وحبه للأدب والشعر، وتلت على مسامع "جونا" قصيدته التي يقول فيها:

يا صديقي لست أدري ما أنا أو تدري أنت ما أنت هنا؟!

أنت مثلي تائه في غربة وجميع الناس أيضا مثلنا

نحن ضيفان نقضي فترة ثم نمضي حين يأتي يومنا

لست أدري كيف نمضي أو متى كل ما أدريه إنا سوف نمضي

في طريق الموت نجري كلنا في سباق بعضنا في إثر بعض

كبخار مضمحل عمرنا مثل برق سوف يمضي مثل ومض

قل لمن يبني بيوتا هاهنا أيها الضيف لماذا أنت تبني؟

قل لمن يزرع أشواكا كفى هو نفس الشوك أيضاً سوف تجني

خفض الرأس وسر في خشية مثلما ترفع رأسا سوف تحني.[cix]

تناولا العشاء بعد ذلك بفندق "سيسيل" في محطة الرمل حيث اعتاد "كيث" مقابلة "ميلينا". انطلق "جونا" قائلا:

- فدوى، فقط أردت أن أشكرك. أنا مدين لك بالفضل. لقد هونت عليّ المهمة البحثية، بل وحياتي كلها بعد صدمتي في "فيليستي". أشعر، والفضل لك الآن، أني لست مسخا، ولست الوحيد في هذه الحياة الذي يهتم بأشاء بالية وعتيقة أكل الدهر عليها وشرب.
- لا بأس. الحياة لا تتوقف يا "جونا". أنا أيضا استفدت من وجودك، ولا أنكر أنك باحث من طراز فريد.

- أردت أن أشكرك أيضا على هذه الجولات المفيدة في الإسكندرية. مدينة عجيبة حقا كما سمعت عنها. إنها جد مختلفة عن لندن وعن باريس وعن عواصم أوروبية كثيرة زرتها. الأجواء فيها متباينة عن برود لندن وصقيع قلوب سكانها. فيها شيء مختلف. السكندريون مختلفون حقا ومقبلون على الحياة ومحبون لها. ليس فيهم تحفظ الإنجليز. يذيبون الثلج بينهم وبين أي شخص في ثانية. يعرضون خدماتهم دون تردد. يضحكون من قلوبهم ويملئون الأجواء بهجة وسعادة. عن جد أحببت هذه المدينة وأحببت سكانها وهوائها وأجوائها وثقافة البحر المتوسط.
- الإسكندرية مدينة محبة يا "جونا". لديها قدرة على تحويل أي شيء إلى طاقة من الحب.

(٣٩)

"لاجيتيه، شارع البهجة"

تدبر جونا في كلمات فدوى، ثم هز رأسه موافقا وهو يثبت عيناه على بيانو عتيق في ركن من أركان الفندق. تابعت فدوى:

- أنا نشأت في شارع "لاجيتيه" بالإبراهيمية.
- "لاجيتيه" تعني البهجة في الفرنسية.
- أجل. هذا الشارع كان مترعا بالأجانب: اليونانيين والإيطاليين والمالطيين والأرمن وآخرين. وغير بعيد من هنا ولد "رودولف هيس"، الرجل البارز في النازية الألمانية والشاعر الإيطالي "جوزيبي أونجاريتي" والمغني "ديميس روسوس" وملكة جمال العالم عام ١٩٥٤ "أنتيجون كوستاندا" والقائمة طويلة.
- مدينة الكل وشارع "كوزموبوليتاني".
- فعلا يا "جونا"، تجد فيه أطيافا شتى من المصريين: الموسر والفقير، الكبير والصغير، الرجال والنساء، المحجبات والسافرات، المسلمين والمسيحيين، الصوفيين والسلفيين، الأرثوذكس والبروتستانت، حاملي درجات الدكتوراة وعمال التراحيل واليومية.
- تقصدين أن فكرة "الجيتو" غير موجودة في الإسكندرية.
- غير موجودة في هذا الشارع.
- لكن هل كانت الإسكندرية بوتقة انصهار أم مجرد محطة نزوح ديموجرافي؟
- أتوقع كلاهما يا "جونا".

- وهل يهاجر المصريون؟
- في هذه الأيام نعم.
- سبب السؤال يا فدوى أني قرأت بحثا عن هجرات المصريين طوعا أو قسرا في الماضي.
- وإلام خلص؟
- المؤرخ الإسكوتلندي، "ولتر بور"[cx] كتب في القرن الخامس عشر أن الصراع الديني بين كهنة آتون أو الشمس التي قدسها إخناتون ونفرتيتي من ناحية وكهنة آمون من ناحية أخرى دفع بابنة الفرعون، التي تُدعى "سكوتا"، أن تخرج في رحلة بحرية هربا من هذه الأجواء حتى وصلت إلى أسكوتلندا.
- "سكوتا" وأسكوتلندا، لا بد أن هناك علاقة.
- مؤكد يا فدوى. خلال القرن الثالث قبل الميلاد هاجر بعض المصريين إلى البلقان.
- موجودون حتى الآن.
- وعام ١٣٦٥ ميلادية وأثناء الحملة القبرصية التي تحدثنا عنها أسر القبارصة وحملوا عددا كبيرا من السكندريين الذين تفرقوا في كل مكان، حتى أن عددا كبيرا منهم قد عبر جبال الألب. قيل إن الوليد الفرنساوي الذي يكون في أذنه قرط أمه من المأسورات في الإسكندرية.
- تذكرت هذه الواقعة. كتب عنها الشاعر الإنجليزي، "شوسر"، في "حكايات كانتربيري".

- وحين غادرت الحملة الفرنسية مصر رحل معهم المعلم يعقوب وقوته التي تم حلها عام ١٨١٤ وعاش منتسبيها في جنوب فرنسا.
- صحيح يا "جونا". في عهد الخديوي إسماعيل حضرت فرقة مسرحية لتقديم عرضا في مصر وكان بينها سيدة قالت إن والدها، المعلم منصور، من الأقباط الذين خرجوا مع "مينو"، وأنه استقر في مرسيليا وتزوج من أمها الفرنسية.
- وأثناء حفر قناة السويس فر مئات المصريين من السخرة والموت.
- نفق عشرون ألفا في حفر قناة المحمودية هنا آنفا، تخيل؟!
- كانت وجهة الهاربين من حفر قناة السويس الحجاز حيث أقاموا في المدينتين المقدستين.
- فعلا، عُرفوا لاحقا بالمجاورين. أعرف صديقة اسم عائلتها "جار النبي".
- وأما فيلق العمال المصري يا فدوى، ذاك الذي تشكل خلال الحرب العالمية الأولى فحدث ولا حرج. لقد نُقل عشرون ألف مصري إلى أوروبا ولم يعودوا.
- كان السلطان حسين يتزلف للإنجليز الذين أجلسوه على كرسي الحكم. كفى بربك يا "جونا". هذه حقائق وأرقام صادمة. المصريون عامة موجودون في شتى أرجاء المعمورة. من النادر أن تجد مكانا على وجه البسيطة لا يتواجد به مصري؛ حتى السفينة تيتانك كان على متنها مصري.

- حسن لنعد لشارع البهجة يا فدوى.
- نعم، على أي حال يا "جونا" عاش الجميع هنا في توافق وسلام بغض النظر عن الجنسية والديانة والتوجه والمذهب وخلافه. هناك أناس طاعنون في العمر يأتون من أوروبا إلى شارع "لاجيتيه" لتجديد ذكرياتهم.
- "نوستالجيا" عجيبة فعلا، لكن لماذا تركت الشارع؟
- أصبح مزدحما وصاخبا. بعد وفاة والدي انتقلت وأمي إلى منطقة ونجت..... في الحقيقة الموضوع ليس له علاقة بالصخب؛ استفدنا من فارق السعر بين الشقتين.
- أحب فيك صراحتك.
- أضف إلى ذلك أننا لم نستطع العيش في الشقة بعد تنيح أبي. و...

تلجلجت فدوى، لكن "جونا" بادر بالتعقيب:

- مؤكد. فقدان الأب ليس أمرا هينا.
- صحيح. أشعر منذ وفاة أبي بأني تحولت إلى نبات مائي بلا جذر.
- تشبيه صادم.
- كان سندي وملجأي ومخبأي. أحببته كما لم أحب أحدا في حياتي. عزاءي الوحيد أنه رقد على أمل القيامة، وأنه مع المسيح، وهذا أفضل بكثير.
- رحل فجأة؟
- أجل، لكن قضية الفجأة في الموت تلك أجد صعوبة في تصديقها. الموت يبدأ فور ولادتنا مباشرة. قال الشاعر

الإنجليزي، "جيرارد مانلي هوبكنز": إنه الهلاك الذي يولد به الإنسان. وقال الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي:

يأتي ولا يأتي، أراه مقبلا نحوي، ولا أراه

تشير لي يداه

من شاطئ الموت الذي يبدأ حيث تبدأ الحياة

- دعينا نغير هذا الموضوع.
- حسن، أنت معزوم على العشاء غدا. ستطهو لك والدتي أكلة مصرية خالصة.
- حقا؟! هذا يسعدني. هل يمكنني أن أساهم في العشاء بشيء أو أُحضر شيئا؟ هكذا نفعل في إنجلترا.
- فقط أنت.

(٤٠)

"شانتال وحسن"

في اليوم التالي وقبل الذهاب إلى بيت فدوى توقف الباحثان في حديقة "أنطونيادس" وحديقة الحيوان. أطال "جونا" الوقوف أمام الزرافة. أعرب عن حبه لها قائلا:

- يعجبني فيها هذه الرقبة المشرئبة. تتجاوز المترين في اعتقادي.
- أنت زرافة.
- ما الذي جعلك تعتقدين ذلك يا فدوى؟
- تنام قليلا مثلها وكثير الصمت. الزرافة لا تُصدر صوتا.
- غريبة فعلا.
- دعني أحكي لك قصة عن الزرافة.
- تفضلي.
- عاشت في باريس سيدة اسمها "مدام شانتال لوبال"؟ قيل إنها كانت مصابة بـ "الزينوفيليا".
- حب الأجانب؟
- أجل. وقعت في حب حسن، سائس الزرافة التي أهداها محمد علي باشا لملك فرنسا، "شارل العاشر".
- كيف؟!
- كانت "شانتال" متزوجة من "ماركيز" وورثت عنه ثروة طائلة. أقامت صالونا ثقافيا "أرستقراطيا" في باريس. عام ١٨٢٧ عرض الرسام "كلود ديبوف"[cxi] صورة "سائس الزرافة"، حسن، على

رواد الصالون، بل وأحضر حسن نفسه لمضاهاة الصورة. وقعت "شانتال" في حب المصري مفتول العضلات.

- بالرغم من وجود تفاوت طبقي كبير، لكن جميل فكرة الحب. ما رأيك يا فدوى في التكافؤ في الزواج والاقتران بالأجانب بشكل عام؟
- التكافؤ مطلوب بنسبة معينة، وأما الزواج من الأجانب فلا أشجعه.
- لم؟
- يتسبب في مشاكل أكثر مما يجلب من فوائد.
- كيف؟
- دعنا نعود إلى حسن.
- كما تشائين، لكن يبقى السؤال معلقا.
- ستجيبك عليه الأيام. المهم، ثار "الباريسيون" على هذه العلاقة. تركت "شانتال" باريس وذهبت لتعيش في جنوب فرنسا عام ١٨٢٨. في نفس العام اختفى حسن تماما ولم يُعثر له على أي أثر.
- كيف؟! أين ذهب؟!
- تعددت الآراء في سر اختفاءه، فمن قال إنه ذهب للعيش معها، ومن قال بل عاد سرا إلى مصر، ومن قال بل قتله القوميون الفرنسيون المتعصبون.
- وأي الاحتمالات ترجحين يا فدوى؟
- الاحتمال الأخير.

- وددت لو كان الاحتمال الأول.

وأيا كان سبب اختفاء حسن يبقى السؤال: لماذا يتغول الناس على الحب؟! لماذا يعن للبعض التدخل في شؤون الآخرين ودس أنوفهم فيما لا يعنيهم؟! لماذا ندين الآخرين ونحكم عليهم ولسنا في مكانهم ولا نرتدي قبعاتهم ولا نسير في أحذيتهم؟! لماذا لا ندع الآخرين يأخذون قراراتهم بأنفسهم؟! وما الذي يمنع حسن الذي وصفه العنصريون "الباريسيون" بـ "البربري" من أن يحب "مدام شانتال" أو تحبه هي. الحب لا يعرف سنا ولا لونا ولا جاها ولا مكانا.

(٤١)

"الشيخ هزاع والكونتيسة كارمن"

ألقت فدوى بسباطة صغيرة من موز الصيف ذي الطعم غير المستساغ في جبلاية القرود ثم قالت:

- في قناعتي يا "جونا"، حسن وزرافته شيء واحد.
- كيف؟!
- كما أعجب الباريسيون بالزرافة أعجبوا بحسن؛ كلاهما شيء جديد وغريب بالنسبة لهما.
- من الصعب تمرير هذ الفكرة على العقل؛ وأنا شخصيا لا أشتري هذا الكلام.
- بعض الأوربيين للأسف الشديد يا "جونا" جنوا أموالا من وراء استقدام وعرض حيوانات من أفريقيا ومومياوات من مصر وخلافه.
- هذا فيلم "كينج كونج"؟!
- شيء من هذا القبيل. هناك قصة اختلطت فيها الخرافة بالحقيقة عن شيخ اسمه هزاع بن مرشد العنزي كان في سجون الأتراك بمدينة حمص. وتصادف زيارة "الكونتيسة" الفرنسية "كارمن دي كليرمون تونير" لهذه المدينة. وهناك سمعت عن هزاع وأرادت رؤيته. استصدرت إذنا بالزيارة وقابلته ووقعت في غرامه. بذلت الغالي والنفيس حتى أخرجته من السجن. كان الشيخ ممتنا لها. استضافها في مضارب قبيلته وأكرم وفادتها وخصص لها مجموعة من الفرسان لتأمين انتقالاتها في موكب

عظيم. ما إن عادت إلى باريس حتى أرسلت للشيخ هزاع دعوة لزيارتها في قصرها رقم (١٢) بشارع "فرانسوا الأول"، فلبى الدعوة. في باريس شاهد السكان الشيخ العنزي بنفس العيون التي رأى بها سكان لندن محمد بيك الألفي، شيء غريب وجديد يثير الفضول. جاء في جريدة نهضة العرب الباريسية: "كان الشيخ هزاع رجلا في عنفوان الرجولة. يبلغ من العمر أربعين. أهيف القد. كثيف العضل. تتدلى على كتفيه ذوائب سوداء وتلمع في وجهه عينان براقتان. وقد لف رأسه بكوفيته، وطوقها بعقال وأرخى عليه عباءة من الحرير الفاخر. كان أكابر باريس يتحدثون عن وقار الرجل وجلال ملامحه وحركاته ورصانة صفاته؛ والإفرنج يعجبون بهذه المزايا".[cxii]

- حسن وبعد يا فدوى؟
- تذكر هزاع ما حدث لعدد من خيالة وفرسان قبيلة عنزة حين سافروا للاستعراض في الولايات المتحدة عام ١٨٩٣ بناء على تنسيق جرى بين الرئيس الأمريكي، "بنجامين هاريسون"، والسلطان عبد الحميد الثاني. في "شيكاغو" تم استغلال الفرسان أسوء استغلال للتربح، كما أسال مشهد الخيل العربي لعاب المربيين من مختلف أنحاء العالم الغربي فتآمروا للحصول عليها.
- ليس هناك جديد؛ هذا ديدن الأمريكيين.
- أسقط هزاع كل هذا على وضعه في باريس فشعر أنه بهلوان أو لنقل كائن غريب معروض للفرجة. تعمق هذا الإحساس

بداخله، ذلك الذي يتنافى مع نخوة وشهامة ونبل وبسالة وكرامة العرب فقرر قطع الزيارة والعودة إلى الديار.

- و"الكونتيسة"؟
- رجته أن يبقى، فقال لها: أنا ابن البادية. عرض عليها أن تأتي معه فلم تستطع تقديم هذه التضحية. الصحراء بالنسبة لها كانت مغامرة لا أكثر ولا أقل.
- لكن على النقيض يا فدوى هناك أيضا "جين ديجبي"[cxiii] وقصتها مع شيخ عنزي آخر لا أذكر اسمه.
- الشيخ مجول المصرب.
- أجل. تزوجت أربع مرات قبله إحداها من ملك "بافاريا"، ورغم ذلك أحبت حياة البداوة لدرجة أنها لبست الشياب البدوية وجلبت الحطب وحلبت النوق بنفسها. من أجل ذلك ربما حصلت على لقب "أم اللبن".
- لا، هذا بسبب بياض بشرتها الشديد.
- تمام يا فدوى. كانت أيضا تغسل قدمي زوجها بالماء، ولما استكثرت عليها زائرة أجنبية ما تفعل قالت: في العشاء الأخير غسل يسوع أقدام تلاميذه. بقيت على دينها ولم تغيره.
- صحيح، ونقل عنها قولها: يحبني مجول لشخصي، فقد عرفني حين ذبل جمالي وفارقني الشباب؛ ولم يحبني لوفرة مالي، وماذا يستفيد منه وهو العربي الذي يأنف أن يمد يده إلى مال زوجته؟ ولم يحبني لعراقة نسبى فهو لا شك يعتقد أنه أشرف منى نسبا، وربما أعتقد أن زواجه مني تضحية كبرى، لأنه لا شيء يضاهى

اعتزاز هؤلاء العرب بأنسابهم؛ وإنما أحبني مجول لنفسي فقط، وهذا لعمرى أسمى أنواع الحب التي عرفتها، وقد جعلني حبه النبيل هذا أحترم ذاتي وأقدسها، نظرا لحب مجول لها، فلا أتورط بما كنت أتورط به في الماضي.

(٤٢)
"منجلية"

بعد ساعة من حوارهما عن الزرافة، كان "جونا" يستمتع بدفء بيت فدوى ووالدتها، منجلية، التي طهت الملفوف: كرنب وباذنجان وفلفل وكوسة وورق عنب. علق "جونا":

- كل هذا الطعام لثلاثتنا فقط يا فدوى؟!
- أجل.

برعت منجلية وما زالت في التدبيق والتدبير والتوفير. تجيد المساومة والفصال عند الشراء. تستنبط الأفكار وتستخدم الأشياء حتى الرمق الأخير: قشر البرتقال للكعك وبواقي الملفوف كمخلل وعلب السمن لزراعة النعناع.

كانت تتخوشن في الطعام والشراب. تقبل الخبز قبل تناوله وتحمد الله. تقسم الرغيف أربعة أجزاء حتى يظل نظيفا، ثم تحمص وتلدن الباقي حتى يعيش أطول وقت ممكن أو تصنع به الثريد أو فتة العدس.

كانت حاذقة في خلط القليل بالكثير وإضافة الرديء إلى الطيب. كانت ماهرة في معرفة ثنائيات الطعام: الباذنجان المقلي مع المش، البطاطس المسلوقة أو الجبن القريش مع البيض بالسمن، الشكشوكة مع كشري العدس الأصفر أو الكشري الإسكندراني، البطيخ مع الجبن وهكذا.

كانت تصنع الصابون وتملح السمك وتدخن اللحم وتعمل كفتة الأرز وتطهو البصارة والمسقعة وتنبت الفول وتخزن البصل والثوم وتنشف الباميا "الويكة" والملوخية وتدمس الفول مع إضافة جزء من "لية" خروف عليه وتجفف الحساء لتحصل على "البهاريز".

أكل "جونا" كما لم يأكل من قبل. في الحقيقة، القلوب لا البطون هي التي تشبع من هذه الأكلات المطهية بحب. شكر "جونا" والدة فدوى التي قامت لتعد لهما الشاي. جلسا في الشرفة يتابعان بعض الصبية يلعبون الكرة. قال "جونا":

- أتدرين يا فدوى أني كنت ألعب كرة القدم، وكان مستقبلي مبشرا فيها؟
- حقا؟!
- أجل، لكني اضطررت لتركها بسبب الدراسة. كان اختيارا صعبا. في حياتنا مواقف لا بد أن نأخذ فيها قرارات مصيرية. أتمنى ألا أُضطر لخوض هذا الاختبار مرة أخرى. وأنت؟
- مررت بهذه التجربة من قبل. حصلت على منحة دراسية في جامعة كمبردج. لم أستطع ترك والدتي بمفردها. اعتذرت عن المنحة. أحيانا أشعر بالندم، لكن لا أشك أني اتخذت القرار الصحيح.

عادت "منجلية" بصينية الشاي. جلسوا يتسامرون. قالت فدوى موجهة الكلام لوالدتها:

- "جونا" يا أمي معجب بالإسكندرية.
- إنها النداهة التي تخطف الناس وتأسر قلوبهم، كما ندهت على أبيك فجعلته يترك الصعيد ويستقر فيها.
- ظننته فعل ذلك من أجلك يا أمي.
- فعلها من أجلي. المرأة والمدينة شيء واحد. يسكن المرء في المدينة ويسكن إلى المرأة.

علق "جونا"

- أعتقد أن القادم من الريف يجد صعوبة في التأقلم مع المدينة، أليس كذلك يا سيدة "منجلية"؟
- هذا صحيح، لكن حين يلتقي فيها بنصفه الآخر يهون عليه كل شيء من أجله. كتب لي "فايز"، هذه الأبيات:
- فايز؟ والد فدوى؟
- بالضبط. كتب يقول:

من أجلك أنت عشقت المدن

عشقت العوادم والأتربة

عشقت الزحام والأدخنة

عشقت نفوسا معقدة من البشر

عشقت جمركة المشاعر وفساد النظم

- أبي كان يحب الشعر وينظمه. أليس كذلك يا أمي؟
- بلى. بالرغم من أنه كان كيميائيا إلا أنه كان عاشقا للغة العربية.
- لذلك أحببت أنت الأدب.
- نعم يا بني. أنا وفدوى.
- صحيح يا أمي. كان يقول لي يا "جونا": عندما نقرأ الأدب نشعر أننا في عالم آخر وننفصل عن حياتنا كما قال الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي: هذا الزحام لا أحد. وحجازي بدوره استقى البيت من دعبل الخزاعي في قوله: إني لأفتح عيني حين أفتحها/ على كثير ولكن لا أرى أحدا.

(٤٣)

"تشارلز إرسكين"

حان موعد الرحيل. شكر "جونا" السيدة منجلية على الاستضافة. سألها قبل أن يغادر:

- أعرف أن اسم "فدوى" من الفداء، لكن ما معنى كلمة "منجلية".

أجابت عنها ابنتها:

- هذا حامل يوضع عليه الإنجيل.
- جميل.
- لدي مشوار في محطة الرمل؟ هل تحب أن نترافق.
- بالطبع هذا يسعدني يا فدوى.
- ما رأيك لو ركبنا الترام من محطة بولكلي؟
- أبو دورين؟
- وليكن.
- اتفقنا.

في الترام ظلت فدوى تذكر أسماء المحطات وتاريخ المناطق. في "كامب شيزار" قالت:

- هنا وقعت قصة حب عظيمة.
- بالطبع، ماركوس أنطونيوس وكليوباترا.
- لا، لا، قصة أخرى.
- قصص الحب في الإسكندرية لا تنتهي.
- الإسكندرية بلد الحكايات التي تتجاوز عدد أيام السنة.

- حسن. كلي آذان صاغية.
- عام ١٨٠١ حارب الفرنسيين هنا شاب "إسكوتلندي" اسمه المقدم "تشارلز إرسكين"،[cxiv] قائد الفوج اثنين وتسعين مشاة. في هذه المنطقة أصيب "إرسكين" في فخذه إصابة بالغة ترتب عليها بترها. ذهب لزيارته المقدم "آرثر برايس"،[cxv] قائد فوج "كولدستريم". أخذ الأخير يواسيه ويسري عنه ويقول له إن الساق الخشبية لم تمنع "كافاريللي" من أن يكون أهم قادة نابليون. قال له إنهم قريبا سيعودون جميعا إلى أسكوتلندا، العزيزة. كان "إرسكين" يرتدي دلاية بها قفل حب صغير وبداخله بعض من شعر حبيبته في بلدة "كاردروس".[cxvi] أوصى "إرسكين" صديقه "برايس" في حضور الملازم "ألكساندر كامبل"[cxvii] ألا تنزع المدلاة من رقبته حال موته. قُتل "برايس" وارتقى "إرسكين"!
- يا إلهي! وبعد.
- تولى الملازم "كامبل" إنفاذ الوصية.
- ممتاز.
- عام ١٨٩٤ أي بعد مرور ثلاثة وتسعين عاما على الواقعة، وخلال قيام عمال البناء بالحفر في منطقة "كامب شيزار" وجدوا جثة "إرسكين" والقفل. أُعيد دفن "إرسكين" بشكل لائق في "الإسكندرية" وشُيد نصب تذكاري، بينما أُعيد القفل إلى ذويه.[cxviii]
- قصة جميلة. أنا كإنجليزي لم أكن أعرفها. أشعر بالخجل.
- لا تبتأس. الدور عليك في قصة الحب القادمة.

ضحكا من قلبيهما. تناولا "الآيس كريم" في محطة الرمل وذهب كل منهما إلى شأنه على أمل اللقاء في الصباح.

عاد "جونا" إلى الفندق سعيدا وهو يحدث نفسه: من قال إن مسيرة إنسان يمكن أن تنتهي بسبب قصة حب ناقصة؟ من قال إن تجاربنا العاطفية الفاشلة تقتلنا؟ من قال إن اليأس الأسود يمكنه أن يزيح الأمل الذي تضخه الحياة في عروقنا صباح كل يوم؟ اليأس جريمة. إذا كانت العظام تُجبر وتلتئم فإننا أيضا قادرون على أن نبرأ من جراحنا وآلامنا، صحيح أن الوقوع والسقوط يمثلان لنا صدمة نفسية أكبر بكثير من قدرة الجسد على التعافي، لكن إرادة الاستمرار تدفعنا للوقوف كالغزال الوليد ثم نخطو لنكتسب الاتزان ونصل إلى بر الأمان. وقديما قالوا: إن الأمطار التي تهطل في إبريل هي التي تُخرج الورود في مايو.

(٤٤)

"الملف الثاني- نور على نور"

في مكتبهما فتح "جونا" الملف الثاني. كان معنونا "عبد الله عمر أبو حلاوة". أخذ "جونا" وفدوى يدققان في الصورتين المرفقتين. قرأ "جونا" بصوت عال بينما التهمت عينا فدوى السطور:

Lucie Duff Gordon ١٨٢١-١٨٦٩	Omar Abu Halaweh

ولدت "لوسي أوستن" أو "دف جوردن" عام ١٨٢١ ووافتها المنية عام ١٨٦٩ في مصر ودفنت بها. في إنجلترا كانت محط اهتمام الأدباء والمثقفين حتى قبيل زواجها من السير "ألكسندر دف جوردن" عام ١٨٤٠.

انتقلت للعيش في فرنسا حيث أتقنت اللغة الفرنسية. أجادت أيضا اللغة الألمانية وانخرطت في الترجمة منها وإليها، لكنها أصيبت بداء السل في الواحد والثلاثين من عمرها.

نصحها الأطباء بالذهاب للأجواء الجافة فقصدت جنوب أفريقيا واستقرت في طيبة التي ارتبطت بها بوشائج قوية حتى لُقبت بعاشقة

الأقصر، بينما أطلق عليها السكان المحليون "الشيخة" و"نورين" و"نور على نور" و"الست الكبيرة" و"البشوشة" كناية عن حبهم وإعزازهم وتقديرهم لها كما ورد في كتاب ابنتها "جانيت روس". لقد بلغ حب المصريين لها أنهم كانوا يبتهلون لله أن يشفيها ويدعون لها في مولد أبي الحجاج الأقصري، بل وترحموا عليها بقراءة القرآن حين لفها الردى.

في الأقصر أقامت السيدة "جوردن" في "بيت فرنسا" من ١٨٦٢ إلى ١٨٦٩. صحيح أن من بناه هو القنصل الإنجليزي، "هنري سولت"، لكنه أخذ تسميته حين أقام عالمان فرنسيان فيه هما "شامبليون" الذي فك رموز حجر رشيد و"ماريت" الذي كتب قصة أوبرا عايدة. أقام فيه أيضا "إيميل بريس دافين" أو "إدريس أفندي" والمهندسون الفرنسيون الذين نقلوا مسلة الكرنك إلى ميدان "الكونكورد" في باريس.

حولت "لوسي" البيت إلى صالون ثقافي كما كان حالها في إنجلترا قبل زواجها واستقبلت فيه الشيخ يوسف الحجاجي والقائم بأعمال القنصل بريطانيا في الأقصر، مصطفى أغا، وحاكم المدينة، سليم أفندي، وقاضيها الشيخ إبراهيم، فضلا عن العديد من الرحالة والمسافرين على اختلاف جنسياتهم ومشاربهم.

في دهبيتها النيلية الرابطة بالقرب من إسنا والتي استقبلت ملك وملكة بريطانيا والسير "صمويل بيكر" والفلاحين والأطفال، أفلحت "الليدي" "جوردن" في حل المعادلة المستعصية بين الشرق والغرب، وفتحت الممر الذي نفذ منه "فورستر" لاحقا إلى الهند.[cxix] وإنما تمكنت من فعل ذلك بسبب شخصيتها المتزنة وعقليتها المستوية وقلبها الطيب وروحها الجميلة وقيمها الإنسانية التي لم تتضعضع أو تتزعزع مع وطأة المرض أو نزول الكروب والشدائد.

(٤٥)

"كان في الأصل حلواني"

توقف "جونا" عن القراءة فجأة بسبب رنين هاتفه. كان المتصل زميل له من إنجلترا. استأذن فدوى في الخروج من المبني حيث تكون شبكة الهاتف الخلوي أقوى.

أخذت فدوى تفكر في عاشقة الأقصر "لوسي جوردن". أثناء رحلة للأقصر قامت بها فدوى مطلع العام الحالي التقت "تريزا كلارك"، سيدة بريطانية لديها نفس الشغف بطيبة لدرجة أنها قررت وأختها "باربرا" الاستقرار بها عام ٢٠٠٨. كان جدهما قد شارك في معركة العلمين عام ١٩٤٢، كما قضى عمهما فترة تجنيده في أسوان عام ١٩٥١.[cxx] والشيء بالشيء يُذكر زارت فدوى الربيع المنصرم واحة سيوة، وفيها قابلت الهولندية "يوريديا مونتويا" التي تعيش في الواحة مع أمها منذ سنوات، وكلاهما مهتم بالزراعة والتراث ومعنِي بتعليم الأطفال.[cxxi]

دفع الفضول فدوى فمسحت بعينيها الملف إلى آخره وقرأت المطلوب. أعقب ذلك طرقا على الباب دخل على إثره عامل البوفيه وفي يده بعض علب السبوع وهو يقول:

- رُزقت بصبي أخيرا يا أستاذة فدوى بعد ثلاث بنات.
- ألف مبروك يا عم مصطفى.

أخرجت فدوى مبلغا من المال وأعطته إياه. انصرف الرجل شاكرا، لكن فدوى فتحت الباب واستدعته مرة أخرى. عاد الرجل وهو يتمتم:

- خير يا أستاذة؟

- مهند مصطفى حلاوة. مكتوب على السبوع "مهند مصطفى حلاوة".
- نعم يا أستاذة. أصرت إلتفات على هذا الاسم ولم أشأ إغضابها.
- إلتفات! والدته؟
- لا.. والدته سورية اسمها "إصرار".

رفعت فدوى حاجبيها في دهشة. تعرف يقينا أن استئجار الأرحام مُجّرم في مصر. قبل أن تتمادى في شطحاتها، أوضح مصطفى:

- إلتفات زوجتي الأولى، لكنها لا تُنجب.
- على أي حال، قل لي يا عم مصطفى: هل هو "حلاوة" أو "أبو حلاوة".
- كلاهما واحد.
- ومن أي البلاد أنت؟!
- من ميت بدر حلاوة بالغربية.
- وما أصل عائلة حلاوة؟
- ساقولا في بني مزار بالمنيا وأبو حمص بالبحيرة وأبو كبير بالشرقية وعزبة الحلاوات التابعة لمركز شبين القناطر بالقليوبية. مصر كلها يا أستاذة. ألا يقولون إن من بنى مصر كان في الأصل حلواني؟
- جوهر الصقلي كانت هذه مهنته.
- لا أعرف جوهر، لكن أعرف كل أنواع الحلوى.
- تقصد أن تسمية العائلة بسبب صنع الحلوى أو الحلاوة الطحينية.

- بالضبط. النسب للمهنة وليس للمكان، والدليل أن هناك عائلة قبطية تحمل اسم حلاوة في قرية صول التابعة لمركز إطفيح بمحافظة الجيزة. وبالمناسبة عائلة حلاوة موجودة أيضا في سوريا وفلسطين.

أعادت فدوى التبريكات لعم مصطفى الذي انصرف شاكرا. دخلت على الإنترنت وبحثت عن تاريخ عائلة حلاوة. وجدت معلومات كثيرة متناثرة:

سليمان حلاوة هو قبطان بحري وأول مصري يدور حول قارة أفريقيا بسفينة. ولد عام ١٨١٩ وتوفى ١٨٨٥ في قرية قصر بغداد بالمنوفية. عمل في الإسكندرية معلما في المدرسة البحرية.

موقع آخر يقول إن عائلة حلاوة بطن من قبيلة "تجيب" وأصلها كندة، وأنها اشتركت مع عمرو بن العاص في فتح مصر. استقرت في السنبلاوين بالدقهلية والزقازيق بالشرقية وأوسيم بالجيزة.

موقع ثالث يتحدث عن سعد إدريس حلاوة الذي ولد عام ١٩٤٧ وقضى عام ١٩٨٠. هذا الرجل من أجهور الكبرى، محافظة القليوبية. احتجز موظفين في الوحدة المحلية ببلدته رفضا للتطبيع مع إسرائيل. أُتهم الرجل بالجنون، وخر صريعا أثناء اقتحام المبنى.

(٤٦)

"سالي وعمر"

عاد "جونا". سألته فدوى عن علة الأمر فقد تأخر في الخارج. رد قائلا:

- زميل لي في الجامعة قادم إلى رشيد في مهمة بحثية. أبلغني أنه قد يزور الإسكندرية لتدقيق جزئية أخرى ويتمنى رؤيتي.
- مشروع كتاب جديد تتبناه جامعتكم؟
- ربما، أتوقع ذلك.
- جميل، وعمن يبحث؟
- في رشيد يبحث عن عائلة "مونتناجو" الأيرلندية التي كانت تسكن البلدة، هل سمعت عنها؟
- سمعت فقط عن "إدوارد ورتلي مونتاجيو"[cxxii] الذي ترك رشيد وقصد الإسكندرية أعتقد عام ١٧٦٢ وفيها قابل القنصل الدنماركي، "جون فيرو".[cxxiii] شعر بانجذاب تجاه زوجته "كارولين". ظل يقنع القنصل بالتوجه إلى أوروبا لمناقشة أمر ما، ثم أخبر كارولين بأن زوجها غرق في المتوسط، وتزوجها ثم انفصل عنها وتزوج من فتاة نوبية اسمها "عائشة"، وأنجب منها طفلا لا نعرف مصيره لا هو ولا والدته.[cxxiv]
- ما هذه النذالة؟!
- هكذا أغلب الرجال.
- كيف؟!

لم تعلق فدوى. واصل "جونا" القراءة من الملف:

عند نزولها الإسكندرية فور قدومها مصر لأول مرة اتخذت "لوسي" ترجمانا وخادما من هذه المدينة هو عمر أبو حلاوة. كان مخلصا لها وودودا معها، وكان مفعما بفورة الشباب وحيوية المصريين.

هنا قاطعته فدوى وحكت له عما دار بينها وبين عامل البوفيه. غارت عيناه قليلا في متاهات التفكير ثم أكمل القراءة:

وكانت في خدمة السيدة "جوردن" فتاة إنجليزية شقراء جميلة اسمها "سالي نالدرت".[cxxv] كان طبيعيا أن يحترق الموقد طالما النار والزيت مجتمعان. عاشر عمر "سالي" وحملت منه.

أحست "لوسي" أنها في ورطة فجمعت أهل الحل والعقد في الأقصر. أفتى الشيخ يوسف الحجاجي بضرورة زواجهما، حيث أنه مباح للمسلم الزواج من كتابية. صحيح أن لعمر زوجة في الإسكندرية اسمها "مبروكة"، لكن لا بأس فمحلل للمسلم أربع زوجات.

تلاوما. ألقت "لوسي" باللوم على "سالي". اعتقدت أنها جنحت وتصرفت بشكل قذر. ظلت تحاصر خادمتها حتى اعترفت الأخيرة بأنها من أغرت عمر، وأنه حاول مناوئتها. رفضت "لوسي" إقامة "سالي" في بيت عمر كزوجة ثانية وخيرته بين هذا الأمر والعمل في خدمتها.

شعرت "سالي" أن سيدتها تخلت عنها ولم تؤازرها بعد قضائها عشرة سنوات في خدمتها. شعرت أنها تغير منها وأنها أرادت عمر لنفسها، وها هي تدافع عن عمر وتصفه بالأمانة وتتحامل عليها، بل وقررت الاستغناء عنها.

كتبت الروائية الكندية، "آلان بولينجر" على لسان "سالي": لم أكن بالنسبة لها إنسانة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. هذه هي الحقيقة. لم أكن في عينيها كائنا بشريا مكتملا. هذه الخاطرة أو بالأحرى غيابها هو ما

دعاها ودفعها لتفعل ما فعلت. أحبتني. ليس لدي شك في ذلك. لمست هذا الحب وشعرت معه بالأمان، لكن تبين لي أنها تحبني كحيوان أليف أثير لديها... كنت الأقرب إليها. فعلت كل شيء من أجلها خلال تلك السنوات الأخيرة. وقع الاختيار عليّ لأرافقها في رحلتها الطويلة التي أفلت بها حياتها. لم أكن كيانا فعليا بالنسبة لها. لم أكن روحا. لم أكن نفسا حقيقية من الجائز أن تسمو وتخفق كما توحي الكلمة. كان خطئي هو عدم إدراك هذا الأمر واستيعابه من البداية. عوقبت بالطرد حين ارتكبت زلة... كرهتني لأني سعيدة، وكرهتني لأني وجدت الحب الذي جافاها وهجرها. كرهتني لأني كونت أسرة بينما فقدت هي أسرتها؛ كرهتني لأني أحيا في وقت كانت هي تواجه الموت. لم تقو على الاعتراف بهذه المشاعر فكيف لأي شخص أن يصرح بمثل هذه الخوالج؟[cxxvi]

يبقى السؤال، هل أحبت الليدي "جوردن" عمر وأرادت الاستئثار به؟ نستشف الإجابة من عدة مصادر. أولا، ما أُشيع أن زوجها خشي الاختلاط بها كثيرا خوفا من التقاط العدوى، بينما لم يعبأ عمر كثيرا بهذا الأمر. ثانيا، ما أوردته السيدة "جوردن" نفسها في الرسائل من إشارات وتلامس منها مثلا: "استيقظ عمر وأتى ليجلس عند موضع قدمي وأخذ يدلكهما".[cxxvii] ثالثا، ما أورده حفيدها "جوردن ووترفيلد"[cxxviii] من أن جدته كانت تعامل "سالي" بحدة بعد افتضاح أمرها لسببين: غيرتها على عمر وغيرة زوجها منه لدرجة أنه رفض اصطحابها له إلى إنجلترا في زيارة قصيرة.[cxxix]

بالرغم من مرافقة "سالي" لسيدتها لفترة طويلة في جنوب أفريقيا ومصر لم تُظهر "لوسي" المساندة والمؤازرة لها كما اعتادت. آنفا كانت "لوسي" هي من علمت "سالي" القراءة. تعترف "لوسي" في الخطاب رقم

(٣) إنها قلقة لكونها لم تساعد "سالي" في الحصول على زوج من قبل. صحيح أن مصطفى أغا، القائم بأعمال القنصل البريطاني في الأقصر، طلب تزويج "سالي" من ابنه الأكبر، سيد، وقال إنها تستطيع الاحتفاظ بدينها، لكن "لوسي" رفضت فمصطفى أغا يتاجر في الآثار، ومن يبيع تراث بلده لا يتورع عن بيع أي شيء.

كان لـ"سالي" أخت هي "إلين نالدريت"[cxxx] وكانت "إلين" تخدم لدى بنت "لوسي"، "جانيت روس" في الإسكندرية. حين انتقلت "جانيت" إلى القاهرة في وظيفة مراسلة صحيفة "التايمز" التحقت "سالي" بخدمتها لبعض الوقت إلى أن قررت "جانيت" السفر إلى إيطاليا.

قضت الليدي "جوردن" واختفت "سالي". كان عمر قد دفع بالطفل الأنجلو-مصري، عبد الله، الذي أخذ ملامح أمه من بشرة بيضاء وعينين زرقاوين إلى زوجته مبروكة في الإسكندرية لتربيته مع أبناءه منها. أحسنت مبروكة تربية الطفل وأحبته واختفى ذكرهما من كتب التاريخ.

المطلوب: تقفي أثر مبروكة وعبد الله عمر أبو حلاوة.

(٤٧)

"حنا مسعد وإليزابيت وليامز"

وضع "جونا" التقرير جانبا ثم أطرق مفكرا للحظات قبل أن ينطلق قائلا:

- قصة حزينة.
- قصة متكررة.
- كيف؟!
- شديدة الشبه بقصة "حنا مسعد" و"إليزابيث وليامز".
- وماذا عنهما؟
- هل سمعت عن الليدي "هستر ستانهوب"؟
- بالطبع، تلك التي عاشت مع الدروز في جبل لبنان. كان لها علاقات متعددة مع الرجال.
- أجل طردت هذه "الليدي" خادمها "حنا مسعد" من خدمتها لأنه وقع في حب خادمتها، "إليزابيث وليامز". حين صرح كلاهما بهذا الحب لسيدتهما رفضت زواجهما وقطعت رزق "حنا"، وعاملت الآنسة "وليامز" أسوأ معاملة حتى قضت بالحمى الصفراء. وهكذا فإن المرأة التي ادعت أنها عاشت حياتها تبحث عن الحب وتروج له حرمت منه آخرين.

أطبق الصمت. قطعه "جونا" سائلا.

- ما بك يا فدوى؟!

- أفكر في نفسية مبروكة. مسكينة! خانها زوجها ثم دفع لها بثمرة الخيانة لتعتني بها؛ هذا صعب على كثير من النساء.
- أنت محقة.
- ما الذي يدور في عقلك يا "جونا"؟
- لا شيء، فقط أفكر.. تقولين إن عائلة حلاوة منتشرة في ربوع مصر كلها شمالها وجنوبها.
- أجل.
- لكن تركيزنا على الإسكندرية.
- الإسكندرية خلط من أهلها والمهاجرين نحو الشمال. أسرتي أنا شخصيا تنتمي للصعيد، وتعود أصول عمر أبو حلاوة إلى المحلة.
- نذهب إلى المحلة.
- إنها مدينة كبيرة، وليس من عادة أغلب العائلات المصرية رسم شجرة للعائلة أو الاحتفاظ بالأوراق لمدد طويلة. يوجد نقص كبير في البيانات في تلك الفترة. تعداد النفوس نعم أتوقع موجود، لكن السجلات المدنية صعب. لم يكن التعليم منتشرا في تلك الأصقاع كما هو الآن.
- ماذا تقترحين إذن؟
- نقرأ المراجع والمصادر السكندرية أولا ثم نرى ما يمكن فعله.

في اليومين التاليين انكب "جونا" وفدوى على قراءة العديد من الكتب، لكن فعليا لم يمسكا بخيط البحث. اقترحت فدوى البدء بسجلات المحاكم المختلطة في سراي الحقانية بالمنشية. حصلا على

التصريح المطلوب، لكن لم يصلا إلى شيء. حتى سجلات المحكمة الشرعية لم تفدهما في شيء. وبالرغم من أن عمر أبو حلاوة خدم في الجيش في عهد الوالي سعيد، لم يتمكنا من الحصول على أي معلومات عن فترة انخراطه في الجندية. وبالرغم من أن "لوسي" أوصت زوجها أن يترك سفينتها "أورانيا" في النيل على أن يكون عمر ربانها حتى يتمكن من بناء منزل مستقل له في الإسكندرية كما يشتهي لم يعثرا على أي تاريخ مسجل لهذه الدهبية النيلية.

(٤٨)

"٣٠ فبراير ١٩٦٩"

عادت فدوى تقترح زيارة مقابر العمود بصفتها ضمن أقدم المقابر الإسلامية في الإسكندرية. بالفعل توجها إلى منطقة عمود السواري. أعطت فدوى حارس المقبرة عشرين جنيها وطلبت منه أن يدلهما عن مقابر عائلة حلاوة. بالفعل أرشدهما الحارس إلى مقبرة متداعية عليها يافطة تقول "مقبرة أسرة الحاج أحمد حلاوة، توفى ٣٠ فبراير ١٩٦٩". انتبهت فدوى إلى أنه لا يوجد ثلاثين فبراير في أي سنة. هذا يعني أن المقبرة مثل التاريخ المدون على شاهدها لن تفيد كثيرا. ضحك "جونا" ثم علق:

- من المؤسف أن المقابر هنا غير منظمة. لقد اضطررنا أن ندوس الموتى فعليا لنصل إلى هذا القبر. من المؤسف أيضا أنه لا توجد سجلات و"اسكتشات" وأرقام للقبور هنا كما شاهدنا في العلمين وكما لدينا في إنجلترا. انظري يا فدوى هذا هو قبر "كيث دوجلاس". بحثت عنه بالأمس في منتهى السهولة.

قالها وهو يخرج هاتفه من جيبه ويفتحه:

- أنت مصيب تماما، لكن من هذا الرضيع؟
- هذا أنا.
- معقولة؟!
- نعم. وهذه صورتي في المدرسة.
- وسيم.
- أشكرك.
- أنا أيضا لدي مجموعة من الصور من الرضاعة حتى الجامعة.
- هل يمكنني مشاهدتها، أو الحصول على نسخة منها للذكرى.

صمتت فدوى ولم تعقب. أحس "جونا" بالخجل. قال على استحياء:

- أقصد يمكننا تبادل الصور. أقول لك انسي الموضوع برمته. لم يكن هذا أمرا مناسبا.

ابتسمت فدوى قائلة:

- يمكننا تبادل الصور.
- حقا؟!

مرت دقائق وهما يتبادلان الصور ويتحدثان عن برجهما وتاريخ ميلادهما وذكريات الطفولة والدراسة، ثم انتبها فجأة إلى المهمة غير المنجزة. انطلق "جونا" قائلا في خجل:

- ماذا سنفعل الآن؟
- غدا نتوجه لشارع حسن أبو حلاوة في منطقة "فيكتوريا".
- "فيكتوريا" ملكة إنجلترا؟
- أجل، سميت المنطقة كذلك بسبب وجود مدرسة "فيكتوريا" العريقة. تعلم فيها عظماء. من المحتمل أن تكون مبروكة قد استقرت في هذا الشارع وأن عبد الله تعلم في هذه المدرسة. مبروكة نفسها كانت من عائلة ميسورة ولديها أملاك، لكن من الصعب أن تقبل "فيكتوريا كوليج" عبد الله أو أبناء مبروكة بسبب البعد الاجتماعي.
- أنت تثبتين وتنفين في نفس الوقت.
- لا أخفي عليك أنا في حيرة.

(٤٩)

"أبو حلاوة"

بالفعل في صباح اليوم التالي توجه الباحثان إلى شارع "حسن أبو حلاوة". سألا المسنين في الشارع عن مبروكة وعبد الله عمر أبو حلاوة. قال أحدهم أنه يتذكر وجود بنسيون اسمه "الخواجه" في أول الشارع، لكن تم هدمه وهو الآن برج كبير.

توجها إلى مالك البرج وحكيا له القصة واستئذانه في مراجعة تسلسل الملكية معه، لكن الحجة الأصلية للبيت كانت باسم محمود الخواجه وتعود لعام ١٩٥١.

انطلق الباحثان إلى كلية "فيكتوريا" لفحص السجلات، لكن تبين لهما أنها أنشأت عام ١٩٠٢ ولا مجال ليكون عبد الله عمر أبو حلاوة درس بها. على أي حال فحصا السجلات فربما أحد من ذريته درس بها فلم يجدا شيئا.

عادا إلى محطة الرمل بخفي حنين. كانا محبطين ولا يعرفان ما هي الخطوة التالية؟ ساد الصمت قطعته فدوى قائلة:

- صحيح أن أخو عمر كان يصنع الفطائر والحلوى، لكن عمر نفسه سار على نهج أخيه الكبير في امتهان الإرشاد والمرافقة والترجمة.
- كيف عرفت ذلك.
- من خطاب لوسي رقم (١٣) الذي تقول فيه: تناولت وجبة الغذاء مع عمر في بيته. حضر الأخ الأكبر لعمر وحضر الحلواني

وزوجتيه. زوجة عمر جميلة وطويلة ومبهجة وفي عمره. لم تخرج من البيت غير مرة واحدة منذ زواجهما.

- جميل.
- نعرف أيضا أن أخو عمر، الحلواني، أنجب من إحدى زوجتيه ستة أطفال، ثلاثة منهم ينامون مع أمهم وثلاثة ينامون مع زوجة أبيهم الأخرى التي لا تنجب.
- والأخ الأكبر؟
- عمل في السياحة والتحق بخدمة أمير "ويلز"، "ألبرت إدوارد"، ابن الملكة "فيكتوريا" أثناء زيارته لمصر عام ١٨٦٢.

نشّطت فدوى شاشة اللاب توب مضيفة:

- انظر إلى صور الأمير في الأهرامات. لا بد أن أخو عمر هو واحد من هؤلاء المصريين حول الأمير وبطانته. علاقة هذا الأخ بعمر لم تكن جيدة. كان لديه زوجة طيبة عاشت معه طويلا وأنجبت له ثلاثة أولاد توفوا جميعا فطلقها وتزوج من فتاة صغيرة. أخذ عمر زوجة أخيه المطلقة لتعيش مع مبروكة وقاطع أخيه.
- فدوى. حتى الآن لا أستطيع فهم ما ترمين إليه.
- لا تستعجل يا "جونا".
- حسن، أكملي.
- في القاهرة كان التراجمة يقيمون معا في منطقة اسمها عشش الترجمان بالقرب من مرفأ بولاق النهري لاستقبال السائحين القادمين في المراكب النيلية من رشيد أو من الإسكندرية عبر ترعة المحمودية أو القادمين جنوبا من القصير عبر قنا أو

القادمين من السويس إلى القاهرة برا. عشش الترجمان كانت منطقة عشوائية قامت الدولة بإزالتها وتطويرها.

- وبناء عليه.
- وبناء عليه لا بد من وجود منطقة مماثلة في الإسكندرية كان يعيش بها الترجمان.
- أعتقد أنهم كانوا يعيشون مع القناصلة.
- يعملون مع القناصل، لكن لا شك كان لهم حياتهم الاجتماعية.
- وأين هذه المنطقة التي تتحدثين عنها؟
- لا أعرف، إن وُجدت فلا بد أنها قريبة من الميناء الغربي. يعني منطقة بحري والأنفوشي ورأس التين والسيالة.
- جميل.
- غدا ننطلق إلى هناك.

(٥٠)

"إسكندرية مارية"

في صباح اليوم التالي انتظر "جونا" فدوى على الكورنيش. ظل ينظر إلى البحر والمراكب الصغيرة. حمل إحداها اسم "إسكندرية مارية".

ارتفعت شمس واهنة مرسلة أشعتها لتوقظ السحب التي احتبست الدموع في مآقيها. انتشرت رائحة اليود وانكسرت الأمواج على شواطئ تتمدد وتنكمش بفعل السنين. خرجت الشباك متخمة بأسماك فضية راحت ترقص وتتلوى من الألم.

مرت عليه فدوى فركب معها. بادرته قائلة:

- وجدت ضالتنا في خرائط محرك البحث "جوجل".
- حقا؟
- أجل. كما توقعت يوجد حارة للتراجمة تُسمى "حارة الترجمان" في منطقة البورصة وكفر عشري ومينا البصل.

انطلقا إلى هناك وأمعنا في البحث والسؤال، لكن بلا جدوى وفائدة حقيقية. اضطرا في النهاية للعودة إلى أطروحة الحلواني.

علما بوجود حارة في رأس التين اسمها "حارة حلاوة"، لكنها منطقة خطرة وينتشر بها بيع المخدرات ليلا. رافقهما صبي مقابل عشرين جنيها فرح بها أيما فرح. البيوت في الحارة قديمة جدا، وبعضها أنقاض خربة لا يسكنها أحد، وربما لا يملكها أحد. بيوت تبكي سكانها الذين ولوا ورونقها الذي زال عنها.

لا تسأل الدار عمن كان يسكنها/ الباب يخبر أن القوم قد رحلوا.
اقتربا من أحد الأبواب وراحا يتفحصانه جيدا. نقوشه جميلة وعليه مطرقتان. أنهت فدوى دهشة "جونا" موضحة:

- تُسمى يد فاطمة. الصغيرة تستخدمها النساء ليعلم أهل البيت أن الطارق امرأة.
- والكبيرة تعني أن على الباب رجل.
- بالضبط يا "جونا".

تابعا السير في صمت. ربما عاش عمر أبو حلاوة في إحدى هذه البيوت. على الأقل هذا هو شعورهما، لكن هيهات وأنى لهما الوصول إليه. التقصي لم يفض إلى شيء ومحل الحلويات الوحيد في الحارة هو ملك لرجل نزح جده من دمياط نحو الغرب.

ابتاعا حلوى المشبك وانصرفا يأكلان في الشارع. علق "جونا" وهو يحاول تخليص قطعة من المشبك علقت في أسنانه:

- فدوى عزيزتي علينا أن نعترف بالفشل. نجحنا في مهمة وفشلنا في أخرى.
- لم نفشل يا "جونا". في البحث العلمي، وأنت أخبر مني، عدم وصولك إلى نتيجة هو نتيجة في حد ذاته.
- أجل لكن لا "أكسفورد" ولا المجلس الثقافي البريطاني سيعترفان بذلك. يا إلهي، عقلي سينفجر؛ أحتاج لشرب كمية كبيرة من القهوة.
- سأعزمك في مقهى فاروق.
- وأنا قبلت.

(٥١)

"ماري بنايوتي والملك فاروق"

وقف "جونا" يعاين التاج الملكي النحاسي المعلق على مدخل القهوة ثم صورة الملك فاروق وهو يدخن النرجيلة. التفت إلى فدوى قائلا:

- لم أدر أن فاروق هنا هو ملك مصر.
- هذا المقهى له قصة جميلة.
- أحب سماعها.
- في ليلة من ليالي صيف عام ١٩٣٨، كان موكب الملك فاروق يسير على طريق الكورنيش متجها إلى قصر رأس التين. فوجئ الحراس الذين كانوا يسبقون الموكب على دراجاتهم النارية بامرأة جميلة ذات ملامح أجنبية لا تخطئها العين، تقف بجانب الطريق لتحيي الملك، الذي أخرج ذراعه من نافذة السيارة ليرد التحية. فجأة ركضت الفتاة نحو سيارة الملك صائحة بلكنة عربية غير واضحة: "جلالة ملك مصر". أمر الملك حراسه بترك السيدة – واسمها "ماري بنايوتي" – لتتحدث إليه. تقدمت نحوه بالفعل وانحنت احتراما ثم طلبت منه أن يُشرفها باحتساء الشاي في مقهى "كاليميرا"، أي "صباح الخير" باللغة اليونانية الذي تمتلكه. ببساطة وتواضع وافق الملك على طلبها. عقب مغادرة الملك غيرت "ماري" اسم المقهى واستخدمت عطية الملك في صنع هذه المشغولة النحاسية الجميلة.
- يا لها من قصة شيقة يا فدوى.
- فعلا، والآن لنعد إلى قصتنا.

في مقهى فاروق حاول "جونا" باستخدام محركات البحث تقفي تاريخ عائلة "نالدريت" مع التركيز على "إلين"، خالة الطفل عبد الله، لكن وصل إلى طريق مسدود. علق قائلا:

- توقعت قيام "إلين" بالمساعدة في تربية ابن أختها طالما أنها موجودة في الإسكندرية.
- لكن يا "جونا" الإشارة التي لدينا بأن الأختين "سالي" و"إلين" عملتا في خدمة الغرف الفندقية لم تحدد هل تم ذلك في القاهرة أم في الإسكندرية أو خارج مصر؟

بعد تناول القهوة قرر "جونا" وفدوى الترجل في وسط البلد. ذهبا إلى المنشية أو ميدان القناصل كما كان يُعرف قديما. هنا كان يقيم أغلب زوار الإسكندرية في فنادق وخانات الميدان. أشارت فدوى إلى فندق "ماجيستيك" قائلة:

- هنا نزل الروائي البريطاني "فورستر". بقدر حبي للمبنى وبقدر حبي لرواياته يأتي كرهي للرجل.
- لم؟!
- لا عليك.
- هل بسبب مثليته، وعلاقته الشاذة مع سائق الترام، محمد العدل.
- الحقيقة نعم.

أخذتهما أرجلهما إلى شارع النبي دانيال، وظلا لفترة يجوبون محلات بيع الكتب المستعملة. ليس بعيدا عن هذا الشارع يعتقد العلماء بوجود قبر الإسكندر الأكبر. الكل يتحدث عن قبر الإسكندر وينسون أن ثلاثة عشر قبرا، من بطليموس الأول إلى بطليموس الثالث عشر، لا نعلم

عنها شيئا. بجوار جامع النبي دانيال كان هناك يوما ما سبيل الوالي سعيد والقبة السعيدية التي دُفن تحتها بعض أمراء وأميرات أسرة محمد علي.
علق "جونا":

- هل هذا النبي دانيال المذكور في الكتاب المقدس؟!
- لا بالطبع. تدري يا "جونا" في هذا الشارع منذ عقود مضت كان هناك شاب وفتاة يسيران سويا ويبحثان ترتيبات الزواج حين انشقت الأرض وابتلعت الفتاة.
- ولم يُعثر لها على أثر؟!
- أجل. قيل خطفها الجن وقيل بل وقعت في سرداب أو صهريج.
- معقولة؟!
- لدينا إسكندريتان هنا، واحدة فوق أخرى.
- الحقيقة أنا معجب بالطراز المعماري في الإسكندرية، متنوع وجميل.
- الإسكندرية يا "جونا" متحف معماري قائم بذاته.
- الأسماء الأجنبية أيضا كثيرة: شوارع وفيلات وفنادق وعمارات ومحلات ومدارس وغير ذلك.
- طبيعي. لدينا هنا " ستراند والمير دي ديو وزيفرون وسوفيانوبلو وشيجابي وتافرنا ولافيزون وإيليت وتريانون وبستروديس وبللجريني وأتينيوس وبودرو وفكاكيس وجاربيس وسان جوفاني والبوريفاج وسان مارك وسان شارل بورميه وسان جان أنتديد والدمبوسكو والساكريد هارت وأوديون وسانتا لوتشيا و..
- و"فيوليت" للورود.

(٥٢)

"الحب من غير أمل"

ضحكت فدوى. توقف "جونا" عند محل "فيوليت" للورود وابتاع باقة جميلة من زهور النرجس البري وأهداها إلى فدوى التي سرت كثيرا بها:

- هذا للتعبير عن مدى شكري وامتناني لك.
- بالعكس أنا مدينة لك. تعلمت منك الكثير.
- جميلة هذه البناية، أليس كذلك؟
- فعلا تحفة معمارية.

توجهت فدوى بالسؤال لبائع الورود:

- ما اسم هذه العمارة؟
- هذه عمارة "إيفرينو"، عاشقة الخديوي عباس.
- لم أسمع بهذا الاسم من قبل.
- سرايتها موجودة بزيزينيا أمام قصر الصفا.
- تقول إنها كانت عشيقة الخديوي عباس.
- لا، عاشقة وليست عشيقة. أحبته من طرف واحد. حب من غير أمل، وكما يقول الأستاذ فريد الأطرش: "الحب من غير أمل...
- أسمى معاني الغرام".

فتراك تدري أن حبك متلفي لكنني أخفي هواك وأكتم
إن كنت ما تدري فتلك مصيبة أو كنت تدري فالمصيبة أعظم[cxxxi]

تابع "جونا" وفدوى المسير دون أن ينبسا ببنت شفة. توقفا أمام مقام الإمام يعقوب بن عبد الرحمن. بُنيت حول المقام عمارة سكنية.

المقام فعليا في قلب العمارة! أخرج "جونا" هاتفه والتقط بعض الصور وعلامات الدهشة لم تفارق وجهه مما يرى ويعاين في هذه المدينة العجيبة!

أخبرت فدوى "جونا" بفحوى حوارها مع بائع الورود. أضافت:

- أشعر أننا على أعتاب قصة حب جميلة. هذا إحساسي.
- تقصدين..؟

توردت خجلا ثم قالت:

- أقصد "إيفرينو" وعباس.
- آه، تمام، لكن ما فائدة ذلك لمشروعنا؟
- اقترح أن نسير وراء هذه القصة كبديل للمهمة الثانية التي لم ننجزها.
- لا بد من موافقة "البروف" "جورج" والآنسة "هنريتا".
- لو تكلمنا معهما الآن سيرفضان. أمامنا عشرة أيام على انتهاء المهمة الثانية. ننجز المهمة البديلة، ويكون معنا ما نقدمه لهما.
- ونطلب تمديد.
- تقصد نمدد المهمة.
- أسبوعان.
- ألا تحن إلى إنجلترا ووالديك؟
- لم يراودني هذا الشعور بعد. المدة كلها قصيرة على أي حال.
- حسن جدا، غدا نبدأ بزيارة سراي "إيفرينو".
- اتفقنا.

(٥٣)

"السلاملك"

بالفعل انطلقا في اليوم التالي معا إلى سراي "إيفرينو" الجميلة. لم يتمكنا من الدخول، لكن التقطا بعض الصور لها من الخارج. زارا أيضا متحف المجوهرات الملكية. قالت فدوى:

- هذا القصر من تصميم "أنطونيو لاشاك".
- جميل جدا، هل يمكننا أيضا زيارة قصر المنتزه؟ قرأت أن عباس الثاني من اختار المكان، وكان متيما بالإسكندرية.
- صحيح فقد وُلد فيها، وهو في عشقه للإسكندرية يختلف تماما عن جده لأمه الوالي عباس حلمي الأول.
- كيف؟!
- لم ينم جده ليلة واحدة في الإسكندرية" لأن ثمة من تنبأ له أن نهايته ستكون فيها.

انطلقا من سراي إيفرينو إلى طريق الكورنيش الذي يقع في نهايته الشرقية قصر المنتزه. في الطريق أشارت فدوى إلى شارع الإقبال قائلة:

- يُقال إن هذا الشارع أخذ اسمه من زوجة الخديوي عباس حلمي الثاني، "إقبال هانم".

في المنتزه قال المرشد السياحي بقصر السلاملك: في يوم من أيام تصييف الخديوي عباس حلمي الثاني في الإسكندرية قرر قيادة القطار الملكي بنفسه من القباري إلى أبي قير. فجأة وبعد المندرة بقليل أمر المساعدين بإيقاف القطار حين شاهد بيتا خشبيا يعتلي ربوة عالية على البحر مباشرة. نزل الخديوي من القطار وترجل إلى حيث البيت الخشبي

وفي صحبته رشدي باشا. كان البيت ملكا للخواجه "زوريه". أعجب الخديوي بالمكان وعرض على الخواجة شراء البيت، لكن الأخير أهداه للخديوي دون مقابل. اشترى الخديوي من الأهالي الأراضي المحيطة بالقصر حتى بلغت مساحته الإجمالية ثلاثمائة وخمسة وعشرين فدانا. بعد ذلك استدعى عباس المهندس اليوناني، "ديمتري فابريشيوس". أعد بطانته ثمانين حمارا مع المكارية والفرقة الموسيقية الخديوية. انطلق الركب يجول في المكان. طلب عباس من المهندس بناء قصر بالمنطقة على الطراز النمساوي حتى تشعر صديقته "الكونتسية" بأنها في "النمسا".

قاطع "جونا" المرشد سائلا:

- اسمح لي تقول "صديقته"؟!
- نعم، في البداية قبل الزواج منها.
- لحظة. نحن نتكلم هنا عن "الكونتيسة" "إيفرينو"، أليس كذلك؟
- تقصد "ألكساندرا إيفرينو"؟
- أجل.
- كلا أنا أتحدث هنا عن "الكونتيسة" "المجرية-النمساوية"، "ماريانا توروك"[cxxxii] التي أسلمت لاحقا وصار اسمها "جويدان عبد الله". أتحدث عن زوجة الخديوي الثانية.

(٥٤)

"ماذا عنا؟"

عند هذا الحد أنهى المرشد حديثه. نظر "جونا" وفدوى إلى القصر ولم ينبسا ببنت شفة. قطعت فدوى الصمت قائلا:

- أشعر فعلا أننا على أعتاب قصة حب معقدة.
- جميل. ما رأيك لو تمشينا قليلا في هذه الأجواء الساحرة والحدائق الغناء؟
- موافقة بشرط ألا نتحدث عن المشروع.
- لا لن نتحدث عن "كيث" ولا "ميلينا" ولا "نورمان" ولا عمر ولا "سالي" ولا "لوسي" ولا عباس ولا "ألكساندرا" ولا إقبال ولا جويدان. سنتحدث عنا.
- ماذا عنا؟
- فدوى، أعرف أن ذلك قد يكون جنونا، وفترة تعارفنا قصيرة، لكن الحقيقة أنا معجب بك، وأتمنى أن تتطور علاقتنا.
- لاحظ يا "جونا" أنك خرجت لتوك من قصة فاشلة، وربما تحت تأثير..
- أرجوك لا تكملي.
- أو ربما بسبب السفر والشعور بالوحدة.
- لا أشعر بالوحدة هنا.
- أنا أسمي هذه الظاهرة بمتلازمة الوقوع في الحب أثناء السفر إلى بلد غريب.

- وأنا إنسان ناضج بما يكفي، وأعرف تماما ما أقول. الحقيقة أنك بروحك الجميلة جبرت كسري وكنت لي عوضا، وهونت عليّ الأيام. أقول هذا الكلام بصدق. لا أعرف حتى إذا كان لديك صديق أو خلافه.

صمتت فدوى ولم ترد. ظهرت عليها علامات الضيق.

- فدوى، أحدثك! فدوى!
- لنغير الموضوع من فضلك.
- ليس قبل أن أستجلي مشاعرك نحوي.
- من المبكر الكلام عن المشاعر ففترة لقاءنا قصيرة.
- صحيح.
- لكني أشعر براحة معك.
- وهذا يكفيني حتى هذه اللحظة.
- ما رأيك لو تناولنا الغذاء في أبي قير؟
- هذا يسعدني يا فدوى. لطالما تمنيت أن أزور جزيرة "نيلسون"، هذا القائد الذي تتغنى به إنجلترا.
- كان المجد غايته ولا شيء سواه، هكذا كتب لزوجته، "فاني" قبل معركة أبي قير. الرجل الذي برع في "التكتيكات" والمناورات البحرية وكسب أصعب المعارك لم يستطع أن يكسب قلب زوجته وخانها مع عشيقته "إيما هاميلتون"! هكذا معظم الرجال.
- صحيح يا فدوى، للأسف، لكن اسمحي لي أن نستبدل كلمة "معظم" بـ "بعض".

(٥٥)

"ستيف"

حضر صديق "جونا" من رشيد. قابله "جونا" وعرفه على فدوى في موقف سيارات الأجرة. انطلقوا جميعا لتناول الغذاء. في الطريق قال "جونا":

- "ستيف" كيف كانت رحلتك من رشيد إلى الإسكندرية؟ وكم ستمكث هنا؟
- الرحلة جميلة وسأمكث يومين أو ثلاثة.
- يمكنك الإقامة معي؛ لدي غرفة في الفندق بسريرين.
- لا أريد أن أسبب لك إزعاجا يا "جونا".
- بالعكس، كيف حال "البروفسير" "جورج"؟
- يرسل لك التحية ويتمنى لك التوفيق.
- هل وفقت أنت في رشيد؟
- أجل. جمعت الكثير من المعلومات. بلد جميل.
- أتمنى أن أجد الوقت لزيارتها.
- ضروري. زرت قلعة "جوليان" حيث عُثر على حجر رشيد وأعجبت كثيرا ببيت زبيدة.
- من زبيدة؟
- فتاة مصرية تزوجت من الجنرال الفرنسي، "مينو" الذي أعلن إسلامه وأصبح "عبد الله مينو"، وأما التفاصيل فأعتقد أن فدوى أجدر مني على سردها.

في المطعم حكت فدوى القصة قائلة:

- اسمها "زبيدة محمد عبد الرحمن البواب الميزوني. كانت وحيدة أبيها التاجر الكبير. تكهنت لها عرافة بعد طلاقها من سليم أغا نعمة الله بأنها ستصبح في مقام الملكات. من أجل ذلك وافقت على الزواج من الحاكم الفرنسي "مينو" رغم أنه كان يكبرها بثلاثين عاما. اشترى لها منزلا أنيقا، وعاملها مثل الفرنسيات والأميرات، وكان يقبل يدها ويجر لها المقعد لتجلس ويدعوها للدخول أمامه في أي محفل مما أثار غيرة وحسد المصريات منها. صحيح أن إسلامه وزواجه من مصرية أحدث حالة من السخط بين الجنود، لكنه لم يكترث. باعت زبيدة كل شيء من أجل نبوءة زائفة فسرعان ما جلت الحملة الفرنسية عن مصر. سافرت مع زوجها إلى فرنسا، لكنه ارتد عن الإسلام، وأراد تعميد ابنه منها، "جاكس مراد سليمان"، فاعترضت. في الحقيقة لا أتذكر هل أنجبت منه طفلا أم طفلين؟ في الأخير مات "مينو" غارقا في السكر والعربدة ومصاحبة الساقطات في إيطاليا عام ١٨١٠. وفي ظروف غامضة مات ابنها وانقطعت أخبارها. قيل إنها عادت إلى مصر، لكن هذا الرأي ضعيف. وقيل إنها تنصرت وقيل إنها عاشت في إيطاليا، وقيل بل في مرسيليا وأنها احترفت البغاء.

علق "جونا" موجها حديثه إلى "ستيف":

- مسكينة. بالمناسبة حكت لي فدوى عن أحد أفراد عائلة "مونتناجو". قصة ليست لطيفة.
- من هذا يا فدوى؟
- "إدوارد".

- معروف. لديه مغامرات طائشة كثيرة؛ لا بد وأنها واحدة منها. أليس كذلك يا فدوى؟
- إنها قصة زواجه من زوجة القنصل الدنماركي.
- سمعت القصة، فعلها من قبل الملك داوود حين أرسل القائد "أوريا الحثي" إلى الصفوف الأمامية فقُتل وتزوج امرأته، "بتشبع"، وفعلها نابليون هنا.
- كيف؟
- غريبة يا فدوى أنك لا تعرفين هذه القصة. يقول "جونا" أنك ساحرة السرد والحكي والروي.
- لا أعرفها فعلا؛ من الصعب أن تلم بكل شيء يا "ستيف".
- حسن، أعجب نابليون بسيدة اسمها "مارجريت بولين فوريه"،[cxxxiii] زوجة الضابط الفرنسي، "جين نويل فوريه".[cxxxiv] كانت قد قدمت مصر متخفية ومتنكرة في لبس الرجال لترافق زوجها الذي جاءه التكليف بالانضمام للحملة وهما في شهر العسل. رتب نابليون لإرسال زوجها ببريد هام إلى باريس ونال زوجته، لكن في الوقت الذي كان فيه نابليون يعاشر "مارجريت" كان زوجته "جوزفين" تخونه في إيطاليا مع عشيقها، "هيبولت شارلز".
- عدالة ربانية، والجزاء من جنس العمل، وبالكيل الذي تكيل به يُكال لك، أليس كذلك يا ستيف؟

(٥٦)
"محبوبة"

ارتبك "ستيف" قليلا فهو لا يدري لماذا يوجه "جونا" له هذا السؤال، لكنه أجاب:

- نعم، بكل تأكيد، والآن يا فدوى أتمنى لو عندك معلومة أيضا عمن أبحث عنه في الإسكندرية.
- ما موضوع بحثك هنا؟
- القنصل البريطاني "هنري سولت".
- معروف. ماذا عنه؟ مات في دسوق.
- فعلا، أخذت مركبا يعمل بالمحرك من رشيد إلى دسوق لأعاين المكان الذي قضى فيه. كانت رحلة ممتعة. وماذا عنه أيضا؟
- دُفن "سولت" في الإسكندرية، لكن قبره غير معلوم. تزوج من امرأة إيطالية هنا عام ١٨١٩، وأنجب منها بنتا اسمها "جورجينا هنريتا" عام ١٨٢١، وبنت أخرى هي "جوليا"، لكنها ماتت هي وأمها بالكوليرا عام ١٨٢٤. أنا أحفظ هذه المعلومات بطبيعة الحال لأنها موجودة في القنصلية.
- كل ما قلتيه صحيح، لكن كان له جارية حبشية أو نوبية اسمها "محبوبة"، وأنجب منها طفلا.
- حدث ذلك فعلا. كان موقف "سولت" حساسا فأبقى كل شيء في طي الكتمان. بريطانيا تجابه الرق بينما يسترق هو فتاة ويخفيها في بيته وهو القنصل البريطاني! لم يكن هذا مناسبا. أنجب من محبوبة ولدا غير شرعي. دفع به هو وأمه ليعيشا مع

أحد الموظفين المسلمين من أصل إسكوتلندي كان يعمل في القنصلية مقابل قرشين يوميا.

- ما اسمه يا فدوى؟
- أعتقد يا "ستيف" أن اسمه "وليم طومسون"، لكني لست متأكدة. الأمر يحتاج مراجعة، لكن اسمه بعد إسلامه هو "عثمان أفندي" قولا واحدا.
- حسن أكملي بالله عليك.
- بعد وفاة "سولت" سبب ذلك الأمر مشاكل لعثمان مع القنصل "باركر" الذي خلف "سولت". خشي "باركر" أن ينشأ الطفل مسلما. أخذه من عثمان أفندي عام ١٨٢٩ واستودعه أسرة من المبشرين في الإسكندرية.
- عجيبة. أتدري يا فدوى؟ أحترم اليهودية لأنها ليست ديانة تبشيرية عكس المسيحية والإسلام. قرأت أن الراهب "فرنسيس الأسيزي" سافر إلى دمياط والتقى السلطان الأيوبي، الكامل، وعرض عليه المسيحية!
- لا أدري يا "جونا" هل عرض عليه أن يدخل في المسيحية من عدمه؟ وصحيح ما ذكرته عن اليهودية، لكن اليهود في ذلك يا "جونا" ينطلقون من مبدأ أنهم أبناء الله وشعب الله المختار وصفاء العرق والجنس، والدليل انظر كيف يتعاملون مع "الفلاشا" بالرغم من أن يهود الحبشة يقولون بنسبهم للملك "منليك الأول"، وأن "منليك" هذا، حسب ادعاءهم، هو ابن الملك سليمان من بلقيس.
- المهم؟

- المهم يا "جونا".. قيل إن الطفل كان يحمل اسم "جورج"، وقيل إنه نُقل إلى إنجلترا، لكن لا توجد أدلة قاطعة على ذلك.
- ومحبوبة؟!
- ظلت محبوبة يا "جونا" في بيت عثمان أفندي بالقاهرة. عرض عليها الزواج تجنبا للحرج، لكنها رفضت. لم تستطع فراق طفلها غير الشرعي فهربت إلى الإسكندرية وانقطعت أخبارها هي وابنها.

أدار "جونا" دفة الحديث إلى "ستيف" سائلا:

- لا تقل لي أنك تبحث عن محبوبة والطفل؟!
- أجل. نفس المأزق الذي تمر به تقريبا يا "جونا"؛ الأبحاث المكملة للرسالة.

(٥٧)

"السمار نصف الجمال"

نظرت فدوى إلى "جونا" ثم انفجرا في الضحك، بينما "ستيف" ينظر إليهما متعجبا. كانا مدينين له بتفسير من دون شك وقاما بذلك. علق "ستيف":

- لكن لدي سؤال لك يا فدوى: ماذا في النوبيات والدارفوريات والحبشيات من فتنة؟
- لا أعلم، لكن جلهن جميلات. يُقال إن الرئيس الأمريكي، "توماس جيفرسون"، كان متيما بهذا اللون.
- مؤخرا تزوج الأمير "هنري تشارلز" من الممثلة الأمريكية الملونة "ميجان ميركل".
- الأمير"هاري"؟
- نعم يا فدوى.
- السمار نصف الجمال. هذا لون قوي بالفعل يا "ستيف". ربيب نابليون، ابن زوجته "جوزفين"، "أوجين بوهارنيه"،[cxxxv] ابتاع جارية أفريقية خلال الحملة الفرنسية. الجنرال "ديزييه"،[cxxxvi] حاكم الصعيد كان لديه جارية اسمها سارة الحبشية، وكان الإيطالي متعدد المهام "بيرناردينو دروفيتي"،[cxxxvii] متزوجا من نوبية. صديق "سولت"، "ناثنيال بيرس".[cxxxviii] كان متزوجا أيضا من حبشية اسمها "ترينجو". "سان أندريه"،[cxxxix] ضابط في الجيش الفرنسي التحق بخدمة محمد علي لاحقا، ابتاع جارية دارفورية تُدعى "زينب" من سوق الجواري عام ١٨٢٨. كان

للعقيد "سيف" أو سليمان باشا الفرنساوي جارية نوبية اسمها "آرسانا".[cxl] المهندس "لينان"[cxli] تزوج أيضا من حبشية. وهناك الفرنسي، "إدموند كومبيه"[cxlii] الذي تزوج من "الأورومو" فتاة اسمها "جالا". وأخيرا وليس آخرا هناك الرسام الفرنسي، "فيليب جوزيف ماكرون"،[cxliii] الذي تحول للإسلام من أجل امرأة مصرية قمحية وحمل اسم "محمد أفندي". التحق الرجل بخدمة محمد علي كأستاذ للفنون وفي عام ١٨٦٠ تولى إدارة مسرح الوالي محمد سعيد باشا.

- ما كل هذه المعلومات يا فدوى؟!
- انتظر با ستيف" فهناك أيضا قصة الأمير "الألماني"، "بوكلير موسكاو".[cxliv] الذي ابتاع من سوق الجواري في "القاهرة" فتاة "حبشية" من "الأورومو" اسمها "بيليلي"[cxlv] أو "مخبوبة" كما كان يحب أن يناديها. أخذها معه إلى آسيا الصغرى واليونان وفيينا، وقدمها إلى الطبقة الأوروبية الأرستقراطية. كانت تحب الغناء، وكان صوتها جميلا. عندما ماتت بالسل عام ١٨٤٠ قال إنها المخلوقة الوحيدة التي أحبها. وأخيرا قصة الكاتب الفرنسي، "جيرار دي نرفال".[cxlvi] قدم الرجل مصر عام ١٨٤٣ لينسى "جيني كولون"، مغنية وقع في غرامها، لكنها تزوجت عام ١٨٣٨ من شخص آخر ووافتها المنية عام ١٨٤٢. في مصر تخبط "جيرار" كثيرا وهو يبحث عن امرأة تنسيه حبه القديم، فابتاع جارية حنطية اسمها زينب.

في الأخير، اقترحت فدوى على ستيف زيارة مقابر "البروتستانت" في الإسكندرية ومحاولة البحث عن قبر "هنري سولت". المعلوم أنه دفن

في حديقة منزله، ثم تحولت الحديقة إلى مقابر للبروتستانت بعد أن رفض الكاثوليك دفنه في مقبرتهم!

اقترحت أيضا زيارة مقابر الأروام اللاتين في الشاطبي. صحيح أن أغلب المدفونين فيها من اليونانيين، لكن المقبرة تضم أيضا مسلمين ويهود إلى غير ذلك. أنهت حديثها قائلة:

- يمكنني مرافقتك إلى الشاطبي. أحب هذه المقبرة بشكل خاص. تنتشر حكاية في المنطقة عن شبح امرأة تُوقف تاكسي ثم تنزل منه أمام بوابة المقبرة دون أن تدفع الأجرة ثم تدلف إلى الداخل وتقف أمام قبر حبيبها تبث له لواعج عشقها له.
- غريبة! ماذا عن الملجأ اليوناني، "مانا"؟
- هو حديث نسبيا وزيارته لن توصل إلى أي شيء. اقترح عليك أيضا زيارة الكنائس الأجنبية لأنها كانت مقر الإرساليات التبشيرية في الإسكندرية وفحص سجلاتها. إن فرص تعقب الطفل ومحبوبة في غاية الصعوبة. من المحتمل أن الطفل قد تم نسبه لشخص غير "هنري سولت". من المحتمل أيضا أن تكون محبوبة قد وصلت إلى الطفل وخطفته وغادرت الإسكندرية إلى جهة غير معلومة في مصر أو خارجها.

(٥٨)

"سوسن"

في المساء سأل "ستيف" "جونا" عن فدوى وأطرى حسنها وامتدح ثقافتها ومعلوماتها الغزيرة. نظر إليه "جونا" نظرة غير مفهومة. ربما استحضر "نورمان" الذي خطف "ميلينا" من "كيث".

- "جونا"! هل أنت معي؟!
- أجل، أجل. سمعت كلامك. فدوى باحثة من طراز رفيع، ومن أهل البلد فمن الطبيعي أن يكون لديها معلومات قيمة.
- تبدو إنسانة رائعة.

نظر إليه "جونا" ثم تمتم:

- نعم إنها كذلك. اسمح لي أن أسألك يا "ستيف".
- تفضل، على الرحب والسعة.
- هل لديك صديقة أو خطيبة في إنجلترا؟
- هذا مشروع مؤجل في حياتي.
- لماذا مؤجل؟!
- لا أحب القيود وأخشى الالتزام الذي قد يحرمني من فعل ما أريد والاستمتاع بوقتي.
- ما هذا الكلام يا "ستيف"؟! أنت رجل ذو حيثية وتُدرس لأجيال!
- ما علاقة ذلك بحياتي الخاصة؟ أعرف شخصية حزبية مرموقة في إنجلترا له علاقات متعددة، بل وفضائح أيضا. بالرغم من ذلك فاز في الانتخابات الأخيرة.

- هنا في مصر لا بد أن تضبط تصرفاتك فالمجتمع الشرقي غير.
- يهيأ لك. المجتمع الشرقي هو المجتمع الفيكتوري.
- بمعنى؟
- بمعنى أن المعصية موجودة، لكن في الخفاء. يقول "نيتشه": إجبار الناس على الفضيلة لا يخلق مجتمعا فاضلا، بل مجتمعا منافقا، يفترس مع الذئاب وينبح مع الكلاب ويبكي مع الرعاة.
- حسن، أود لفت نظرك إلى أن من تحكم بريطانيا الآن هي "إليزابيث الثانية" وليست "فيكتوريا"، وأوصيك بالاحتراس فالشرق مختلف في عاداته.
- أي شرق تتحدث عنه يا "جونا": الشرق الأدنى أم الأوسط أم الأقصى؟ شرق السويس أم شرق المتوسط؟
- أتفق معك أن المفهوم فضفاض ومهلهل، وأنه يوجد أكثر من شرق كما يوجد أكثر من غرب.
- هذه عبارة جيدة. المهم، أتدري يا "جونا" كأي مثقف غربي كان لي دوما خيالات حول الشرق بمفهومه الشامل هذا: السحر والغموض والآثار والديانات والجن والحكمة والروحانيات.
- جميل.
- ليس تماما.
- كيف؟
- انحصرت هذه التخيلات مع مرور الأيام في الليالي العربية والحرملك والرقص الشرق. حلمت بأن امرأة شرقية ترافقني إلى حمام البخار؛ وهناك تقص أظافري وتنعم كعبي وتدعك جسمي

بكريم الزنجبيل والقرفة والقرنفل والريحان وتغسل قدمي بماء الورد والياسمين، ثم تلبسني روب وثير بعد أن تمرره على الأدخنة المنبعثة من بخور المسك الهندي. رأيت نفسي مذهولا مما يحدث؛ أحسست براحة وخدر في أعصابي وشعور بأن مسامات جسمي تعانق الهواء.

- وبعد؟
- أمضيت يومين في القاهرة. ذهبت لمشاهدة راقصة الفندق. بعد منتصف الليل كانت سوسن الراقصة نفسها في غرفتي.
- حقا؟!
- أجل يا "جونا". لا أنافق نفسي. أعيش في مدينة خاصة بي، مدينة الرايات الحمراء. مدينتي خليط من شارع "بورتلاند بهونج كونج ودي والين بأمستردام ومنطقة لانجستراس في زيورخ وشارع ١٤ في واشنطن العاصمة وشارع ٤٢ في نيويورك وشارع الملك في ميلبورن ..."
- وسوق "شبرد" في لندن.
- لا أتردد عليه.
- لم؟
- لا أحب الإنجليزيات. لديهن برود غير عادي، ناهيك عن الأنفة التي تذكرني بالآنسة "بروس" في رواية "ديكينز" "قصة مدينتين" حين قالت بترفع: "أنا امرأة بريطانية".

ضحك "جونا" بصوت مرتفع ثم قال:

- أكمل... أكمل؟

- اكتشفت أن سوسن فتاة أوكرانية اسمها "أوليانا" تعلمت الرقص الشرقي في بلدها!

انفجرا في الضحك، ثم عقب "جونا":

- احترس يا "ستيف". أحسبك سمعت عن الجنس الآمن؛ هذه الإجراءات ليست متوفرة هنا بطبيعة الحال لأن الأمر كله مُجّرم.
- عندك حق؛ الحرص واجب.
- بعد ظهر الثاني من إبريل لعام ١٩١٥ والذي وافق جمعة الآلام، قام الجنود النيوزلنديون والأستراليون المتمركزون بالقرب من القاهرة انتظارا للدفع بهم إلى ساحات الحرب العالمية الأولى في أوروبا بالشغب تحت تأثير الشراب.
- شغب في عطلة عيد الفصح؟!
- أجل يا "ستيف". أضرم الجنود النار في بيوت الدعارة بحارة الوزير في الأزبكية. قُتل حوالي ثلاثة أشخاص وأصيب دستة آخرون... استمر الاضطراب حتى وقت متأخر من الليل قبل أن تتمكن السلطات من استعادة النظام وإخماد الحرائق. فُتح تحقيق للوقوف على أسباب الواقعة. تبين أن الشغب جاء انتقاما لانتشار الأمراض التناسلية بين الجنود بعد ترددهم على هذه البيوت.[cxlvii]
- أنا قرأت عن هذه الحادثة يا "جونا". أنت في ملعبي الآن.
- حقا، كلي آذان صاغية.
- قيل إن السبب هو المماحكات بين الأستراليين والنيوزلنديين، وقيل بل اكتشف جندي إنجليزي من قوة مانشستر أن أخته

تمتهن الدعارة في القاهرة. كانت قد قدمت إلى مصر لتعمل في إدارة المنازل، لكن سيدة المنزل التي استقدمتها استغنت عن خدماتها. المهم حاول الأخ أخذها بالقوة فألقى به القائمون على الماخور من النافذة. وبعد أن تعافى، نشر قصته بين القوات المتمركزة في مصر مما تسبب في غضبهم، وهبوا لأخذ المرأة بالقوة وتكاتفوا في جمع المال اللازم لإعادتها إلى إنجلترا،[cxlviii] وقيل بسبب ارتفاع الأسعار وقيل بأن البيرة المقدمة لهم كانت مخلوطة بالبول وقيل تنمرت عاهرة على جندي نيوزلندي من السكان الأصليين ورفضت النوم معه لأنه أسمر.

(٥٩)

"امرأة إيفاسز"

تظاهر "جونا" بتنظيم أوراقه وأقلامه ثم قال موجها حديثه إلى "ستيف" ودون أن ينظر إليه:

- إذن أنت قررت عدم الارتباط حتى لا تحرم نفسك من التنوع النسائي: الطويلة والقصيرة والنحيفة والممتلئة إلى آخره؛ وشبهت النساء آنفا بالفاكهة، لكل منها طعم مختلف.
- هذا أحد الأسباب.
- وماذا أيضا؟
- أخشى الالتزام وعدم الوفاء.
- وهل هناك أسباب أخرى؟
- السبب الثالث والأخير ثقتي في النساء مهزوزة.
- طبيعي... لأنك عرفت أسوئهم فزعزعوا ثقتك بالأخريات.
- ليس هذا فقط؛ لا أدري ماذا أقول لك. توفت والدتي وأنا في عامي الأول بالمدرسة. تزوج والدي بطبيعة الحال من سيدة أخرى؛ لا ألومه بالطبع فالرجال لديهم احتياجاتهم. لم تكن زوجة أبي جديرة به. رأيتها غير مرة في أوضاع سيئة مع رجال أغراب، وخشيت أن أخبر أبي. أحيانا كنت أُضطر للانتظار في الحديقة الخلفية حتى يخرج الضيف لأتمكن من دخول المنزل.
- أتوقع أن هذا الأمر أحدث لك صدمة نفسية. أنت تنتقم من زوجة أبيك في شخص النساء اللاتي تتنقل بينهن. ما تحتاجه يا "ستيف" زوجة في صورة أم.

- ربما. قد أكون زير نساء، لكني لست ساديا أو شاذا أو منحرفا.
- ليتك فتحت قلبك للحب. عقلك يصور لك أن كل النساء خائنات. كلهن زوجة أبيك.
- صحيح، كلهن "امرأة إيفاسز".
- من امرأة "إيفاسز" هذه؟!
- بطلة قصة قصيرة من تأليف "بيترونيس" تعود للقرن الأول بعد الميلاد.
- وما موضوعها؟
- سأوجزها لك.

فيما مضى في مدينة "إيفاسز" كانت هناك زوجة توفى عنها زوجها فأصرت على ملازمة الجثة في المدفن، وجلست هناك تبكي وعزفت عن الطعام حتى أوشكت على الهلاك وإلى جوارها خادمتها تشاركها الحزن وتعيد إشعال المصباح كلما انطفأ وميضه. استقر في ضمير الناس أن هذه السيدة مثال رائع ونادر للوفاء والإخلاص.

في غضون ذلك أعطى حاكم المقاطعة أوامره بصلب بعض اللصوص، وكان ذلك بالقرب من المدفن الذي تقبع فيه السيدة. لاحظ الجندي الموكل بحراسة الصلبان ضوء يتوهج بين القبور وسمع صوت نحيب فاندفع بغريزة الفضول البشري نحوه وهبط إلى المدفن ثم توقف لبرهة بعد أن خلب عقله جمال المرأة.

جلب الجندي وجبة عشاءه البسيطة وعاد للقبر مناشدا السيدة بأن تأكل لأن الحزن لا يجدي. خارت قوى الخادمة الصغيرة عندما أشتمت رائحة الطعام فاستسلمت لإغرائه ثم بدأت تقنع سيدتها بتناول الطعام

لكي تستمر الحياة. انهارت مقاومة الأرملة في النهاية فقد كانت منهكة القوى من جراء صيامها الطويل.

حشد الجندي كل وسائل الإغواء الممكنة لقهر العفة التي تتمتع بها هذه المرأة. ظلت متمسكة بالفضيلة إلى أن سحرها بجاذبيته وقدرته على الإقناع. باختصار تخلى جسد السيدة عن المقاومة وأعلن الاستسلام. استمتع الجندي المحظوظ بما كان يتوق إليه حين اضطجعا معا، وتكرر هذا الأمر في الليلة التالية.

ذات ليلة لاحظ والدا أحد اللصوص المصلوبين أن الحراسة لم تعد مشددة فاستغلا ميزة غياب الجندي وأنزلا جثة أبنيهما من على الصليب ودفناه. في الصباح أصاب الجندي الهلع بالطبع حين اكتشف غياب الجثة من على الصليب فهرول ليخبر حبيبته عن العقاب الشديد الذي ينتظره جراء تقصيره في أداء واجبه.

بكت السيدة قائله: "لا... هذا مستحيل... فالحي أبقى من الميت." وهكذا اقترحت رفع جثة زوجها من التابوت ووضعها على الصليب الخالي، وهذا ما نفذه الجندي بالضبط!

(٦٠)
"الدكتور حسام"

في صباح اليوم التالي تواصلت فدوى مع "جونا" بالمحمول. توفت بنت عمتها في سوهاج وتحتم عليها السفر مع والدتها إلى الصعيد وستمكث هناك فترة العزاء، ثلاثة أيام أو ربما أكثر.

قدم جونا تعازيه لها ولوالدتها. أخبرها أنه سيستمر في العمل ولا داعي لقلقها. شكرته فدوى وأغلقت الهاتف.

بعدها بعشر دقائق أعادت الاتصال به. أبلغته أنها رتبت للقاء يجمع بينه وبين الدكتور حسام الشريف وهو متخصص في تاريخ مصر الحديث. أرسلت له رقمه للتنسيق بينهما. أضافت أن الدكتور حسام سيحدثه عن الخديوي عباس حلمي الثاني.

بالفعل اتصل "جونا" بالدكتور حسام واتفقا على اللقاء في صبيحة اليوم التالي.

في مكتبة الإسكندرية حيث تُحلق الكتب وتخفق أجنحتها كالفراشات الملونة كان اللقاء بالقرب من تمثالين نصفيين جميلين للعظيمين "إقليدس" و"هيباتيا". بعد الترحيب والتعارف دخل الدكتور حسام في الموضوع مباشرة.

- بعض المصادر يا سيد "هامستر"..
- يمكنك أن تناديني "جونا".
- حسن، كنت أقول إن بعض المصادر لا تعطي المعلومة الصحيحة. هذا المكان الذي نجلس فيه مثلا هو إحياء لمكتبة

قديمة اتهموا عمرو بن العاص بحرقها رغم وجود عشرات المصادر التي تنفي.

- وعشرات المصادر التي تُثبت.
- وهنا يأتي دور الباحثين.
- اتفق. قبل قدومي إلى هنا يا دكتور حسام قرأت مثلا عن التعصب والفتنة الطائفية في مصر.
- من أي مصادر إذا جاز لي أن أسألك؟
- مصدران: الأول قضية تدخل فيها الرئيس الأمريكي، أبراهام لنكون، شخصيا لدى الوالي سعيد كما تقول أوراق القضية المحفوظة في المكتبة القانونية بجامعة هارفارد.[cxlix] وقعت القصة في الثالث والعشرين من يوليو لعام ١٨٦٢ في منطقة اسمها "ساحل سيلين".[cl]
- محافظة أسيوط.
- أجل، بطلة القصة هي فاطمة التي أعلنت إسلامها أمام قاضي أبو تيج ثم تزوجت من علي حمادي وأنجبت منه طفلة. بعد خمس سنوات من زواجهما قررت فاطمة العودة إلى المسيحية. شجع أقارب حمادي الرجل على قتل زوجته فهربت بابنتها إلى بندر أسيوط، وهناك قابلت رجل سوري يُدعى "فارس منصور الحكيم"، كان يبيع الكتب المسيحية في مكتبة إرسالية التبشير الأمريكية ويتمتع بحماية الأمريكيين. ساعد فارس فاطمة على الاختباء في الكنيسة ووكلته للدفاع عنها. في المحكمة الشرعية وقف فارس يدافع عن حرية المعتقد أمام قاضي أسيوط ومفتيها وبعض علماء الأزهر ومجموعة من الحاضرين وكلهم يعتقد أن

فاطمة مرتدة. وجد الحاضرون أن دفاع فارس إهانة للدين الإسلامي فانبروا بلا استثناء بالبصق عليه ثم علقوه في "الفلكة" وسبوه وضربوه وحبسوه. انتهت القضية بعزل القاضي والمفتي وحبس ثلاثة عشر شخصا سنة وتغريمهم مجتمعين ما يعادل خمسة آلاف دولار أمريكي.

- والمصدر الثاني؟
- رواية "مأساة كروسكو" التي كتبها "آرثر كونان دويل"[cli] عن جماعة من السائحين الأوربيين في مصر عام ١٨٩٥ خطفهم بعض الدراويش وخيروهم بين القتل واعتناق الإسلام.
- لن أعلق على الرواية فهي من خيال الكاتب. صحيح أنه زار مصر، أتوقع في نفس العام المذكور في الرواية، لكنه كان مغرما بالحوادث والتشويق، وشخصية "شرلوك هولمز" التي أنتجها معروفة للقاصي والداني. بالنسبة للقصة الأولى وبغض النظر عن أن من أخطا نال عقابه، لدي في المقابل عشرات القصص عن طيب العلاقة بين المسلمين والأقباط.
- أنا نفسي شعرت بذلك.
- لذا أقول: لا بد من مقابلة المصادر كما تعلمنا في البحث العلمي، وأن يؤخذ منها ويرد فما لا يُدرك كله لا يُترك جله حتى نصل إلى الحقيقة.
- أتفق معك يا دكتور.
- وما فعله الوالي سعيد بالمناسبة هو نفس ما قام به والده، محمد علي، في واقعة مشابهة جرت هنا في الإسكندرية. حدث هذا عندما تحرش بعض الصبية بقبطي يُدعى سيدهم بشاي وهو في

طريقه إلى الكنيسة فسبوه وشتموه وضربوه وقذفوه بالحجارة. تصادف مرور المفتي فأخبروه أن الرجل القبطي أهان الإسلام ورسوله. أحال المفتي سيدهم للمحكمة متوعدا إياه بالقتل. حكمت المحكمة على القبطي بخمسمائة جلدة وتُرك للعامة فسحلوه ونتفوا لحيته. أمر محمد علي بالتحقيق في الواقعة وجُرد المحافظ "خليل أغا" من منصبه وكذلك القاضي والمفتي وغيرهم.

(٦١)

"الخديوي عباس"

أراد الدكتور حسام احتساء القهوة والتدخين فاستسمح "جونا" في الخروج إلى باحة المكتبة حيث القبة السماوية والبحر. انطلقا نحو الخارج، بينما راح الدكتور حسام يغلق الحديث السابق بقوله:

- على أي حال هذا ليس موضوعنا.
- موضوعنا عباس.
- أجل. عباس أيضا اختلف فيه الناس فمنهم من قال إنه وطني مخلص ومنهم من رأى غير ذلك. على أي حال هذا كتابي عنه، وهو كما ترى باللغة الإنجليزية.
- هل تريدني إعادته بعد الفراغ منه؟
- لا هذا هديتي لك.
- إذن اكتب لي إهداء عليه.
- على الرحب والسعة. ستجد فيه كل ما يهمك عن عباس. أعلم أنك وفدوى تبحثان في جزئية خاصة، لكن حياة الرجل بلا ريب أثرت على مواقفه.

علق "جونا" بعد أن خرجا في الهواء الطلق:

- عبقري هذا الشخص الذي صمم المكتبة وكأنها شمس تخرج من الإسكندرية لتضيء العالم بنور العلم.
- فعلا.
- حسن يا دكتور، كلي أذان صاغية.
- دعني أولا أعطيك "كرونولوجي" سريع عن عباس حلمي الثاني:

أخرج الدكتور حسام وريقة وراح يقرأ منها:

- حسن. عام...

١٨٧٤: وُلد عباس في سراي رقم (٣) بالحضرة، الإسكندرية.

١٨٨٠: التحق بمدرسة قصر عابدين.

١٨٨٢: قام بجولة في أوروبا.

١٨٨٣- ١٨٨٧: درس بمدرسة "الثوديكوم"[cliii] في جينيف.

١٨٨٧- ١٨٩١: درس بمدرسة "الترزينوم"[cliii] في فيينا.

١٨٩٢: جلس على عرش مصر.

١٩٠٢: زار السودان.

١٩٠٩: قام بأداء فريضة الحج.

٢٣ يوليو ١٩١٤: حاول شاب اسمه محمود مظهر اغتياله في الأستانة.

١٩ سبتمبر ١٩١٤: خُلع أثناء وجوده في الأستانة لأنه اصطف مع الألمان والأتراك والإمبراطورية النمساوية المجرية.

١٩٣١: تنازل عن حقوقه في العرش.

١٩٤٤: توفي في سويسرا.

علق "جونا" مستغربا:

- هل دُفن في مصر؟!
- بعد نهاية الحرب العالمية الثانية تم نقل رفاته إلى القاهرة.
- ممتاز، لكن لماذا اصطف الخديوي مع الألمان؟

- الإنجليز محتلون لبلاده وممعنون في ظلم رعاياه ويتحدثون عن الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، والفرنسيون يقولون على لسان الجنرال "هنري جورو": "ها قد عدنا يا صلاح الدين"، وحين دخل الجنرال "ليوتي" مراكش قصد قبر يوسف بن تاشفين ورفس قبره قائلا: "انهض؛ لقد وصلنا إلى عقر دارك"، لكن الألمان توجه إمبراطورهم، "جليوم الثاني"، إلى قبر صلاح الدين في نوفمبر من عام ١٨٩٨ ووضع على قبره إكليلا ذهبيا، هذا الإكليل سرقه المارشال "اللنبي" عام ١٩١٨.
- تقصد رفعه.
- عزيزي "جونا"، لا تنتصر لنفسك؛ انتصر للحقيقة.
- أكاد أزعم يا دكتور أني بلا نعرات شيفونية أو دينية، لكن أين الحقيقة، الحقيقة الكاملة الناجزة؟ ومن يمتلكها بضربة واحدة؟
- الحقيقة أنه أخذه بدون وجه حق وأن هذه سرقة. والحقيقة أن الألمان أرادوا إعادة العلاقات بينهم وبين الخلافة كما كانت في زمن هارون الرشيد و"شارلمان". تجاوزوا الحروب الصليبية، هذا بالرغم من أن إمبراطورهم، "باربروسا" غرق في نهر "ساليف" قبل أن يصل للأراضي المقدسة ليحارب صلاح الدين.
- أفهم أن الفرنسيين لديهم ثأر مع المصريين: ملكهم "لويس التاسع" أُهين في دار ابن لقمان. شاهدت محبسه في المنصورة، و"كليبر" قتله الأزهري سليمان، لذا ركل "جورو" قبر صلاح الدين" بحذائه، بل وفي العام ١٨٧٥ صنع النحات الفرنسي "بارتولدي" تمثالا يصور "شامبليون" وهو يطأ بحذائه رأس

لتمثال يصور في الغالب تحتمس الثالث. يوجد التمثال الآن، ومنذ العام ١٨٧٨ في فناء "الكوليج دي فرانس"، لكن بالنسبة للإنجليز ومقارنتهم بالألمان...

- لأبين لك صدق نظريتي فقط قارن بين رحلة الضابط الإنجليزي، "آرثر جون ويفيل"، متخفيا إلى الحجاز واليمن عام ١٩٠٨ ورحلة الضابط الألماني "كارل رسوان" إلى شمال الجزيرة العربية. مرت الأيام وتبين أن "ويفل" كان يعمل لحساب المخابرات البريطانية ومهد الطريق لمجيء لورانس العرب،[cliv] أما "رسوان" فانصب همه على الإنسانيات، وكم كان جميلا منه أن يسرد علينا قصة حب بدوية بين فارس وتويما.[clv]

(٦٢)

"لنعد إلى عباس"

أحس "جونا" أن الدكتور حسام محاورا قويا وأن لديه حجة ومنطق فيما يسوق من أطروحات، فآثر السلامة وأغلق هذا الموضوع الحساس بقوله:

- لا عليك يا دكتور. لنعد إذن للخديوي عباس. شطحنا بعيدا.
- جيد، الآن سألخص لك سريعا مميزات عباس وعيوبه وأترك لك الكتاب والحكم عليه.
- حسن.

أشعل الدكتور حسام سيجارة أخرى، بينما راح "جونا" ينظر إلى البحر وإلى تمثال "الأشرعة" لفتحي محمود المقابل للمكتبة. التمثال عبارة عن ثور يمثل إله البحر يحكم قبضته على فتاة جميله ترمز إلى الإسكندرية التي ارتبط مصيرها بالمتوسط. انطلق الدكتور حسام قائلا:

- أود قبل سرد مميزات عباس وعيوبه أن أشرح لك كيف أحبه المصريون ثم تغيرت قلوبهم عليه.

رد "جونا":

- تفضل.
- عندما ذهب عباس ليصلي الجمعة في الحسين عام ١٨٩٣ هتف المصريون بحياته، ثم قاموا بفصل الجياد عن مركبته وقادوا العربة بأنفسهم إلى قصره.
- معقولة؟!

- نعم أرادوا أن يبعثوا له برسالة مفادها نحن الخيول التي تراهن عليها، ونحن معك ضد الإنجليز. أرجو ألا يتسبب كلامي في مضايقتك.
- لا أبدا، هذه أمور في ذمة التاريخ، وأنا شخصيا لا أتفق مع احتلال الدول.
- حقا، لكني قرأت لك في مدونة بصفحتك بعض الكلمات القاسية عن حادثة دنشواي. لا تؤاخذني أفعل ذلك دائما حين ألتقي أكاديميا. يرو ق لي أن أعرف طريقة تفكيره وحسب.
- لا بالعكس، في مكانك كنت سأفعل الشيء نفسه. ما دونته تحديدا أن المصريين المتهمين حوكموا على يد قضاة مصريين، وهذا الحق لم ينله النقيب البريطاني الذي مات في دنشواي، "سيمور كلارك بول".[clvi]
- وماذا عن القتلى من المصريين؟! أنا أحيلك لما كتبه "جورج بيرنارد شو" عن دنشواي.

فتح الدكتور حسام جواله وأخذ دقيقة في التصفح قبل أن ينطلق قارئا:

- حاول أن تتخيل مشاعر قرية إنجليزية إذا ظهرت فيها فجأة مجموعة من الضباط الصينيين وبدأوا في إطلاق النار على البط والإوز والدجاج والديك الرومي وحملوها معهم، مدعين أنها طيور برية... حسنا، هذا هو المعادل البريطاني لما حدث في دنشواي عندما ذهبت مجموعة من الضباط الإنجليز إلى هناك... لممارسة رياضة صيد الحمام. اشتكى السكان ورفعوا العرائض؛ لكن دون جدوى... آنفا صدرت أوامر للضباط

البريطانيين بعدم إطلاق النار على الحمام في القرى دون موافقة العمدة.[clvii]

- سيدي أنا تحدثت في نقطة محددة وهي حرمان "سيمور" من المحاكمة، تماما مثل الضابط "أنتوني جيرارد مورهاوس"[clviii] عقب اختطافه في بورسعيد عام ١٩٥٦ وحبسه في صندوق معدني حتى قضى نحبه مختنقا.
- وماذا عن تعليقك في صفحتك على "هيربرت بانمور ريبتون".[clix]
- هذا طبيب أيرلندي قتله السكندريون بينما كان يسير مع ابنته بالقرب على الكورنيش في الحادي عشر من يونيو عام ١٨٨٢.

قالها وهو يشير بيده إلى كورنيش الإسكندرية المقابل للمكتبة. أكمل قائلا:

- ظلت ابنته الصغيرة التي أوصلها شيخ إلى والدتها، "أدلايد"، تعاني الصدمة طيلة عمرها حتى بعد أن عادت مع أمها إلى دبلن.[clx]
- مسكينة طبعا، لكن دعني أذكرك أنها كانت فترة غوغائية، وأن مئات الأسر المصرية تعرضت لنفس الصدمة وأن السيد "ريبتون" لم يعمل كطبيب في الإسكندرية، بل كمبشر، وأنه كان يحاصر السكندريين ويلح عليهم في التنصر، وهذا أمر غير مقبول.
- على أي حال وكي لا نتشعب يا دكتور لنعد إلى عباس من جديد.

(٦٣)
"أنا الدولة"

أطفأ الدكتور حسام سيجارته في المكان المخصص لذلك ثم قال:

- نعم، نعم، عباس. مرت السنون ثم خاطب الشاعر، "علي الغاياتي" الخديوي قائلا:

أعباس! هذا آخر العهد بيننا فلا تخش منا بعد ذلك عتابا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة ننال إذا رمنا الحياة عقابا
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها وأصليتنا بعد الوفاق عذابا.

- كلمات قاسية.
- جدا. إذا قارنت قصة المركبة بأبيات الغاياتي تعرف مسار القصة.
- تمام، مفهوم. تغير مرصود.
- والآن نعرج على مميزاته ومنها أنه شجع سرا النضال الوطني من أجل الاستقلال. اهتم بمدينة القاهرة التاريخية. وضع خطة لترميم آثار مصر. أنشا المتحف المصري الموجود بميدان التحرير.
- زرته. تحفة حقيقية.
- صحيح. أنشأ أيضا المتحف "اليوناني-الروماني" بالإسكندرية والمتحف الإسلامي والمتحف القبطي ودار الكتب. جدد مسجد عمرو والسلطان حسن وابن طولون. وقع أمرا بإنشاء البنك الأهلي المصري. مهد الطريق الزراعي بين القاهرة والإسكندرية. بنى خزان أسوان وقام بتعليته وشيد قناطر أسيوط. أنشأ شقا كبيرا من كورنيش الإسكندرية. رمم قلعة قايتباي. شيد الرواق

العباسي بالأزهر الشريف. خرجت الجامعة المصرية للنور في عهده، وكذلك حي مصر الجديدة. مد الجسور مثل كوبري إمبابة وكوبري عباس وكوبري الملك الصالح، وخطوط الترام في القاهرة والإسكندرية. نظم الإسعاف وظهرت الأحزاب السياسية والصحف الوطنية في عهده مثل "اللواء" و"المؤيد".

- رائع.
- وأما عيوبه فهي أنه كان عنتريا. اعترض على رئيس الوزراء، مصطفى فهمي قائلا إنه موال للمحتل بالرغم من أن والده توفيق هو من عينه، كما قيد الصحافة بقانون المطبوعات.
- وماذا أيضا؟!
- كان دائم السب والشتم والضرب بالسوط، وبمناسبة السوط أقول إنه ألغى السخرة على الورق فقط.
- وماذا عن مسألة الأموال؟
- كان بخيلا ويعشق تكديسها. كان تاجرا مثل جده، محمد علي، يبيع أي شيء حتى الأوسمة والألقاب والنياشين. باع البواخر الخديوية والدائرة السنية، ما يقرب من نصف مليون فدان بثمن بخس. تصرف في الأوقاف بشكل خاطئ. حتى حين تنازل عن حقوقه في العرش عام ١٩٣١ حصل على ثلاثين ألف جنيها تدفعها الحكومة المصرية سنويا طوال فترة حياته. بعد وفاته عام ١٩٤٤ قدرت ثروته بسبعة ملاين جنيه.[clxi]
- مبلغ كبير بمنظور عصره.

- كان "برجماتيا" لدرجة أنه اقترح على أحمد لطفي السيد السفر إلى سويسرا والمكوث بها سنة وأخذ الجنسية ثم العودة لمصر ليتمتع بالامتيازات الأجنبية!
- كلام لا يصح أن يصدر من حاكم البلاد.
- بالضبط، ورد عنه أيضا أنه قال: الاحتلال الإنجليزي أفضل من غيره، وهذا يتعارض مع قصة أنه قاوم المحتل.
- تعني أنه كان ميكافيليا ودكتاتورا.
- طالما دخلت معترك السياسة فلا بد أن يكون بحوزتك كتاب "الأمير"، وأما الاستبداد والعترسة فهذان كانا السمت العام لحكام الأسرة العلوية، حيث شعروا أن جدهم المؤسس أنقذ مصر وانتشلها وأعادها إلى الحياة من جديد.
- ليس فقط في أسرة محمد علي؛ إنها ظاهرة.
- صحيح. كثير من الحكام يتماهون مع فكرة "أنا الدولة" كما صدح بها "لويس الرابع عشر". "ماركوس أنطونيوس" خاطب كليوباترا وهو ينازع قائلا "أنا احتضر يا مصر"، وأجمل كل هذا شاعر مصري اسمه "صلاح عبد الصبور" حين كتب: "أنا الدولة. أنا ما فيها؛ أنا من فيها."[clxii]

(٦٤)

"لكن الذئب لا يعمل في السيرك"

أشعل الدكتور حسام سيجارته أخرى بينما راح "جونا" يعاين المزولة الشمسية وكيفية حساب الوقت عليها. علق الأخير قائلا:

- فقط تعليق بسيط، ربما قال الخديوي عباس الثاني إن الاحتلال الإنجليزي أفضل من غيره في سياق نظرية مسؤولية الرجل الأبيض تجاه الدول المتأخرة. حتى الرئيس الأمريكي، "روزفلت"، كان يؤمن بهذه النظرية، وحين زار مصر عام ١٩١٠ وألقى محاضرة في جامعة القاهرة لم ينصف المصريين من الإنجليز.
- هذا صحيح يا "جونا"، وأشكرك على استخدام كلمة "متأخرة" لأني لا أطيق اللفظ الآخر.
- تقصد "المتخلفة"؟
- هذه هي، ونعم بعض الرموز المصرية تبنت نفس الرأي فمحمد فريد مثلا كتب في مذكراته: أعترف أننا محتاجون لمساعدة الإنجليز لنا لمدة لا تقل عن خمسة عشر عاما حتى نبلغ شيئا من التمدن! خطورة هذا التصريح من محمد فريد أن أثره امتد لقرابة قرن من الزمان فخرج علينا من يقول إن المصريين ليسوا مستعدين للديمقراطية.
- فهمت مقصدك.
- لا يصح أن يخرج هذا الكلام من الخديوي. زد على ذلك أنه عام ١٩١٤ شهد العرض العسكري لجيش الاحتلال في ميدان

عابدين بمناسبة عيد ميلاد الملكة "فيكتوريا" تحت العلم البريطاني مرتديا بدلة التشريفات وبجواره "كرومر".

- كان يلعب على الحبلين إذن بين الحراك الوطني والإنجليز؟
- نعم بكل تأكيد، وكرر نفس اللعبة بين السلطان عبد الحميد، رجل أوروبا المريض من جهة، والاتحاديين من ناحية أخرى. أوهم السلطان عبد الحميد أنه الخاقان الأعظم ثم تحدث مع جمال الدين الأفغاني سرا في إسطنبول عن الخلافة العربية. كتب المنفلوطي:

أعباس ترجو أن تكون خليفة كما ود آباء ورام جدود

فيا ليت دنيانا تزول وليتنا نكون في بطن الأرض حين تسود.

- شجاعة غريبة.
- شجاعة دفع ثمنها المنفلوطي سنة في السجن.
- سنة من أجل قصيدة؟!
- سنة من أجل المبدأ. ثمة من أرسل للمنفلوطي ليعتذر ويخرج من السجن ويصبح من ندماء الخديوي وخاصته فيزداد قوة ومنعة، لكنه أبى.
- رفض العرض؟!
- أجل رفضه معقبا: قيل لحكيم: اختر بين القوة وعزة النفس. قال دون تردد: "عزة النفس"، هذا بالرغم من أن ما يحتاجه في وهنه وهشاشته هي القوة. سُؤل لماذا اخترت عزة النفس؟ أجاب في أنفة: الأسد أقوى من الذئب، لكن الذئب لا يعمل في السيرك.
- وماذا كان من أمره بعد ذلك؟

- في الأخير جاءه العفو بعد ستة أشهر.
- غريبة!
- الغريب كان تصرف الخديوي عباس. سجن الرجل في الوقت الذي كرم فيه مصارع سكندري بعقلية بلطجي اسمه "حميدو"، وتستر على حارسه الشخصي، "فخر الدين" الذي قتل شخصا فرتب له إقامة في يخته "المحروسة" في عرض البحر لا يغادرها مطلقا إلا في البلاد التي يزورها الخديوي، بل وسمح له عباس باستقبال أهل بيته في اليخت. واستمرت تناقضات عباس. فمثلا كره محمد عبده لأنه رفض إعادة توجيه مال الوقف، حتى لو كان ذلك لدعم الحركة الوطنية، لكنه عينه مفتيا للديار المصرية وناصره في فكرة تجديد الأزهر.
- فعلا هذه التناقضات غير مفهومة!
- والطامة الكبرى وثالثة الأثافي أنه أعطى عام ١٩٠٣ موافقة مبدئية لكل من "كرومر" و"هيرتزل" باستيطان اليهود في العريش.[clxiii]
- هذا قبل بلفور؟!
- أجل للأسف.

(٦٥)

"كمال الدين حسين وفيال ديمنييه"

أخذ "جونا" يدقق في القبة السماوية، وفي الطابور الطويل من الطلاب الذين أتوا ليشاهدوا العروض بداخلها ثم قال:

- عندي سؤال أخير يا دكتور حسام.
- تفضل.
- بالنسبة لعم عباس الذي تولى بعده.
- حسين كامل ابن إسماعيل.
- نعم. ألم ينتفض لابن أخيه؟!
- لا أحد يرفض الملك يا سيد "جونا"، وإذا رفض سيوافق غيره. بريطانيا سارعت بإعلان الأحكام العرفية وفرض الحماية على مصر. لقد تلقب حسين بالسلطان في إشارة إلى انتهاء خديوية إسماعيل التي اشتراها من السلطان العثماني من دم المصريين وقوتهم. ما أقلق حسين هو ماذا لو كسب المحور الحرب ومعه تركيا؟ من ناحية أخرى لوحت بريطانيا بأنه يمكنها استدعاء "أغاخان"، زعيم الطائفة الإسماعلية في الهند، ليحكم مصر مما يعني انتهاء حكم الأسرة العلوية إلى الأبد.
- بهذه البساطة؟ حاكم هندي؟! شيء غريب!
- أنا أستغرب من ردة فعلك؛ إنجلترا حكمتها عائلات ألمانية.
- صحيح، وهي أيضا الدولة، ربما الوحيدة، التي أنهت الملكية وأعلنت الجمهورية من ١٦٤٩ إلى ١٦٥٩ ثم أعادت الملكية. هل تعتقد يا بروفسير أن هذا ممكن الحدوث في مصر؟

- لا يهم نظام الحكم: سلطنة أو ملكية مطلقة أو ملكية دستورية برلمانية أو إمارة أو جمهورية؛ المهم المؤسسات الوطنية القوية.
- لنعد إذن لحسين كامل.
- نعم. الحقيقة كان حسين قلقا لسبب ثالث.
- ما هو؟
- ابنه، كمال الدين حسين، كان متزوجا من نعمت الله شقيقة الخديوي عباس. وبالمناسبة كمال هذا رفض العرش بعد وفاة أبيه فتولى عمه فؤاد الحكم ولُقب بالملك.
- رفض؟ فعلها إذن قبل إدوارد الثامن الذي تنازل عن عرش بريطانيا عام ١٩٣٦ ليتزوج بالأمريكية "واليس سمبسون"، لكن هل كان دافعه أيضا الحب؟
- ربما. كان متزوجا في السر من امرأة فرنسية اسمها "فيال ديمنييه" وأنجب منها صبيا. كتب لها في أبريل عام ١٩١٥: أيتها الحلم ما أتعسني بعيدا عنك. القصر الذي أعيش فيه أشد وحشة من كوخ صغير، المجد الذي حولي هو ذل وهوان بدونك. إنني أكره كل شيء حولي لأنني لا أحب سواك، إن والدي السلطان حسين كامل عرض عليّ اليوم أن أكون ولي عهده. أي سخافة هذه، إن معنى ذلك أن أفتقدك ولا أستطيع أن ألقاك كما أشاء وأين أشاء، وحين قلت له "لا"، ذهل ولم يفهم لأنه لا أحد في الدنيا يمكن أن يتخيل أن حبك عندي هو حلمي الوحيد في الحياة، حتى إنني بين ذراعيك أنسى أنني أمير وأشعر أنني عبد، أريد أن تنتهي الأزمة بيني وبين أبي لأحضر إليك، إن قيام الحرب لا يمنعني أن أترك مصر وأحضر إليك خصيصا لأعانقك.

- ثم؟
- هدد والده بالانتحار لو استمر في الضغط عليه في موضوع ولاية العهد. سافر إلى فرنسا للعلاج من جلطة في قدمه. توفى في تولوز عن عمر يناهز ٥٨ عاما، بسبب مضاعفات بتر ساقه، كانت رغبة الأمير أن يدفن في قبر بجبل المقطم بالقرب من كهوف الدراويش والخلواتية والسالكين والمريدين وأصحاب الطريق، وقد كان. كان محبا للترحال والأسفار والجغرافيا والزراعة.
- جميل أن تجد طائفة عريضة من أسرة محمد علي مهتمين بهذه الأشياء عكس ما أُشيع عنهم من ميل للركون والركود والبطالة.
- كانوا بين هذا وذاك. الأمير يوسف كمال أحمد أسس كلية الفنون الجميلة وكان مهتما بهذه الأشياء؛ آخرون انكبوا على القمار والخمر والنساء؛ لم يكن بينهم كمال الدين حسين الذي أحب العزلة والتنسك والتجرد والانقطاع.
- وبعد؟
- لم يترك الأمير كمال وصية. رفعت زوجته، "فيال"، قضية أمام المحاكم المختلطة للحصول على ميراثها هي وابنها الذي لم يتم الاعتراف به.
- جيد.
- ليس تماما. أُسدل الستار على الموضوع برمته، ولا أحد يعرف ماذا حدث بعد ذلك. والأرجح أن الملك فؤاد كان وراء هذا الأمر.
- جاءه العرش على طبق من ذهب.

- صحيح، وقد كان منتهى أمله حكم ألبانيا وفقا لمخطط إنجليزي. انتقل من ياور للسلطان عبد الحميد وكبير الياوران للخديوي عباس إلى ملك مصر.
- لكن لماذا عطل مسار العدالة؟!
- يُقال إن فؤاد وأثناء وجوده في إيطاليا للدراسة تزوج من فتاة اسمها "تريزا" وأنجب منها ولدا،[clxiv] ومن ثم ليس من المنطق أن ينصف "فيال ديمنييه".
- فهمت الآن.

(٦٦)

"حسام وريكا"

استعد كلاهما للمغادرة. قال الدكتور حسام وهو يخرج مفتاح سيارته من حقيبته:

- على أي حال كتابي معك، وكذلك رقم هاتفي؛ أنا على استعداد للمساعدة في أي وقت، بل ويشرفني أيضا زيارتك. بالمناسبة زوجتي مجرية.
- مثل جويدان؟
- صحيح. هي عاشقة للموسيقى وتعزف أحيانا في أوبرا الإسكندرية.
- جميل جدا، لكن كيف تقابلتما؟ إذا لم يكن لديك مانع للحديث.
- أبدا، نحتسي الشاي معا وأحكي لك.
- لا أحب أن أكون ضيفا ثقيلا.
- بالعكس. أهلا وسهلا بك؛ هيا بنا.

اتصل الدكتور حسام بزوجته لتكون في استقبال الضيف. بعد أقل من ربع ساعة وبعد تعارف سريع جلس الثلاثة في غرفة المعيشة. قال الدكتور حسام موجها كلامه إلى زوجته، "ريكا":

- سألني "جونا" عن كيفية لقاءنا. أنا تكلمت معه كثيرا اليوم، هذا بالإضافة إلى المحاضرات، ومن ثم سأترك لك هذا الأمر ريثما أعد الشاي. لا داعي للتفاصيل المملة.
- تمام يا زوجي العزيز.

ابتسمت "ريكا" ثم تابعت وهي تنظر إلى "جونا":

- أشعر بسعادة وأنا أحكي هذه القصة؛ لا أمّل أبدا من سردها.
- جميل.
- قابلت حسام حين كان يدرس في الأكاديمية المجرية للعلوم. تقع هذه البناية على ضفة نهر الدانوب في سفره نحو المصب بالبحر الأسود. كان وقتها يعيش في "بست" على الضفة الشرقية للنهر بينما كنت أعيش في جبال "بودا" على الضفة الغربية. وكما اتحدت المدينتين آنفا لتشكل العاصمة "بودابست"، فقد قابلت حسام وسط النهر أثناء رحلة بالقوارب على صفحته الهادئة فاتحد الشرق بالغرب.
- حسن وبعد؟
- كنا في عيد الفصح. قبل نهاية الرحلة ناول الملاح كل شاب في المركب زجاجة ماء.
- لم؟
- ليرشها على الفتيات في القارب... هذا تقليد مجري في عيد الفصح.
- ثم؟
- وقف حسام حائرا والزجاجة في يده؟ أخذ ينظر إليّ نظرات غريبة.
- وبعد؟
- انتظرت أن يرشني بالماء، لكنه لم يفعل. أدركت وقتها أنه ليس مجريا.
- مممم.

- اقتربت منه قائلة: "لماذا لا ترش الماء؟!" أجاب بمجرية مكسرة: "رش الماء عندنا عداوة". قلت: "عندكم؟... من أنت... ومن أين جئت؟" قال: "من مصر". خفق قلبي حين سمعت الاسم. من ذا الذي لا يعرف مصر ولا يحبها؟
- صحيح.
- ورثنا في المجر مجدا تليدا أيام الإمبراطورية النمساوية - الهنجارية، ورغم ذلك فقد كنت متيمة بالملكة كليوباترا ومفتونة بها. شاهدت "إليزابيث تايلور" وهي تؤدي شخصيتها في الفيلم الشهير، فتمنيت أن أقترب من المكان الذي عاشت فيه؛ وحين عرض حسام عليّ الزواج والانتقال معه إلى مصر وافقت على الفور. اشترى لي خاتم بألفي "فورينت" فقط؛ كنت مستعدة للقبول بخاتم أقل من ذلك. أنا أؤمن بالصدفة القدرية. لا أدري ربما في العبارة تناقضا، لنسمها إذن "الصدفة السعيدة". لدينا أحدوثة الشابين "هانور" و"ماجور" اللذين خرجا من جبال الأورال في أثر ظبي أبيض اللون. قطعا مسافات طويلة خلفه إلى أن قادتهما الصدفة خلال هذه الرحلة إلى أميرتين جميلتين فتزوجا بهما.
- لم تندمي على هذا القرار إذن؟
- البتة... حذرتني صديقة لي من الشرق، لكني لم أهابه. الحب يقوي القلب. هذه الشقة بالنسبة لي أفضل من قصر "إيسترهيزي"، المعروف بـ"فرساي المجر" والذي عزف فيه "جوزيف هادين".
- رائع.

- مررنا بفترة جيدة من التعارف. خرجنا معا ورقصنا معا وغنينا معا:

أخذت "ريكا" في الغناء:

عندما يزيد "الدانوب"
وتفيض مياهه
يفيض قلبي بالحب
الذي أحمله إليك.[clxv]

قامت بعدها إلى المسجل العتيق ثم أدارت أسطوانة عليها المقطوعة الرائعة "الدانوب الأزرق" لـ "يوهان شتراوس" ومقطوعة "الرقصة الهنجارية ٥" لـ "يوهانس برامس". قالت وهي تنظر وتشير إلى صورة لفتاة جميلة في ثوب العرس: ابنتنا الوحيدة "ماجيندا". تزوجت من شاب شيشاني وتعيش معه في روسيا. سنذهب لزيارتهما الشتاء القادم.

(٦٧)

"الأميرة نازلي فاضل"

أمضى "جونا" الليل بطوله يقرأ كتاب الدكتور حسام عن عباس الثاني. بالفعل كان الكتاب مترعا بالمعلومات القيمة. سجل "جونا" عشرات الملاحظات عن عباس في بطاقات "كرتونية". بعد الانتهاء من قراءة الكتاب قام بتجميع البطاقات وفرزها وترتيبها وإعادة قراءتها. وفيما يلي بعض مما جاء في الكتاب:

عام ١٨٩٩ زارت الأميرة نازلي بنت مصطفى فاضل ابن إبراهيم باشا ابن محمد علي الخديوي عباس في قصر عابدين. استقبلها الأخير قائلا:

- أرهقت نفسك يا أميرة؛ لو عرفت أنك تريديني لجئت إليك فأنت في مقام عمتي.
- جميل منك أن تعرف القرابة. على أي حال ليس هناك مشقة؛ أنت تعرف أني أقيم خلف قصر عابدين.
- أعرف أنك تعقدين صالونا ثقافيا يتردد عليه بعض المصريين.
- أجل.
- لكن من الغريب يا عمتي أنك تستقبلين فيه الإنجليز أيضا رغم علمك بمكائدهم لي!
- كما قلت جنابك إنه صالون ثقافي وأدبي، ولا أستطيع غلق أبوابه أمام الراغبين في الحضور.
- وطلبك وساطة "كرومر" لتعيين سعد زغلول في محكمة الاستئناف يدخل ضمن الأدب والثقافة؟!

- ماذا بينك وبين سعد؟! ثق أن خلعه لثوب الأزهر وارتداءه الحلة الإفرنجية هو أكبر مكسب لمصر، وستأتي الأيام باليقين. لم يعد محسوبا على كيان بعينه؛ لقد أصبح خادما لمصر. والآن أكرر سؤالي: ماذا بينك وبينه؟!
- تزوج بفضل تدخلك من صفية بنت مصطفى باشا فهمي الذي سعيت لعزله.
- غير صحيح بالنسبة لصفية. أنت حانق عليها رغم أنها صديقة لإقبال، أم أولادك. يتناقل البعض أن صفية تحرض إقبال هانم على تبني الأفكار التحررية. وأما مصطفى فهمي فقد وزّره والدك توفيق من قبل، وأنت من أعدته إلى الوزارة لاحقا.
- خضت معركة شرسة مع "كرومر" بسببه، وأما الكلام عن صفية فهذا من خيال العامة؛ إقبال لا تفهم هذا الكلام، فضلا عن أن هذه أمور شخصية ولا شأن لك بها. تفرغي فقط لعلاقاتك المتنامية مع الإنجليز. سمعت أن محمد عبده هادن الإنجليز بعد أن قربتي بينهم.
- وما الضير في ذلك؟!
- أنت تعلمين مدى تغير قلبي على هذا الشيخ ذي الميول العرابية.
- قبل والدك توفيق وساطتي في محمد عبده آنفا، فلماذا لا تفعل مثله؟ وبالنسبة للميول العرابية فذاك أمر له شقان: أولا كره التواجد الإنجليزي، وثانيا الوقوف في وجه توفيق، فأما الشق الأول فكلنا فيه عرابيين إلا ما ندر، وهؤلاء نعرفهم بالاسم، وأما الشق الثاني فهذا لا أجاري الآخرين فيه، وعلى أي حال يصلح صالوني ما أفسده الدهر.

- والمخالطة والأفكار التقدمية التي تخرج من هذا الصالون، وتتسبب في إحداث البلبلة في المجتمع. يجب أن تنتبهي أن القاهرة غير إسطنبول وغير باريس، ولكل مجتمع خصوصياته. أنا لست ضد قضية تحرر المرأة التي توليها أهمية خاصة، لكن التغيير لا بد أن يأخذ وقته من الاختمار والاختبار.
- إذن أنت ضدي أنا؟!
- من قال ذلك؟!
- اسمع يا عباس.
- عباس بدون ألقاب؛ حسن، لا بأس فأنت عمتي.
- هل تعرف أن والدك، توفيق، سمى أختك "نازلي" رحمها الله على اسمي؟

(٦٨)
"نازلي الكبيرة وأودونالد"

عصر الخديوي عينيه بأصابعه وكأنه يستذكر شيئا ثم رفع رأسه قائلا:

- غير صحيح. لست أول نازلي في العائلة ولا الأخيرة. تذكري أن محمد علي باشا الكبير كان له بنت اسمها "نازلي".
- اسمها الحقيقي خديجة وقيل زهرة على اسم عمتها، وعلى أي حال لاكت سيرتها الألسن.
- أرى أن هناك تشابها كبيرا بينكما.
- تقارني أنا صاحبة الصالون الثقافي بصائدة الرجال؟!
- أُشيع أنها تآمرت على قتل جدي لأمي، عباس الأول، في قصره ببنها،[clxvi] وابنه، جدي إلهامي غرقا في البسفور، لكنها تبقى جدتك مثلما هي جدتي. وصفتها مدام "روزيتي"، زوجة قنصل "تسكانيا" بقولها: "بيضاء ووجها مستدير. شعرها حالك السواد... شعرت بأن دماء محمد علي تجري في عروقها."[clxvii] كأنها تصفك أنت.
- لنغير الموضوع إذن.
- أنتِ من فتحتيه؛ ثم ما سمعته أنها بعد وفاة زوجها العتل الغليظ، محمد الدفتردار، تقريبا في عام ١٨٣٣ وقعت في حب ضابط أيرلندي سابق قدم مصر عام ١٨٤٠ ليعمل في تمهيد الطريق البري بين القاهرة والسويس. وقع "أودونالد"، وهذا اسمه، في حب الأميرة. حذرته أخته التي كانت تعمل في خدمة

الأميرة من مغبة ذلك، لكنه مضى في طريقه مدعوما باستلطاف الأميرة نفسها. كل هذا وعيون جدي عباس ابن أحمد طوسون تراقبها، وكان وقتها حاكما للقاهرة. توجه "أودونالد" لمدام "ريكوشيه"[clxviii] وهي امرأة فرنسية تعيش في القاهرة وتدخل الحرملك لتبيع الجوهر والملابس وخلافه. أرسل معها خطابا إلى الأميرة يطلب منها مقابلته في حديقة قصرها. وقع الخطاب في يد جدي عباس. في المساء وفي المكان المتفق عليه بالحديقة قام ستة من الأرناؤوط المتربصين بقتل "أودونالد" وإلقاء جثته في النيل.[clxix] أحسن جدي عباس صنعا. هذه سمعة بيت محمد علي.

- مسكين هذا الضابط ومسكينة أيضا الأميرة.
- كيف تقولين ذلك؟!
- زوجها محمد علي غصبا، زواج مصالح، من "الدفتردار"، رجل السلطان العثماني في القاهرة. لم يمنحها سوى الجدب والحزن. لم تكن سعيدة معه، ثم قابلت "أودونالد" هذا، ومالت له، فقتله حاكم القاهرة. كان أولى بمحمد علي أن يزوجها إياه.
- هكذا بكل بساطة؟
- أجل. أغلب الظن أن نازلي الكبيرة في نزواتها عانت من مرض نفسي بعد مقتل "أودونالد". كانت تصطاد الرجال وتنام معهم مستحضرة وجه العاشق "أودونالد"، وتقتلهم مستحضرة وجه السفاح الدفتردار.
- تفسير معقول ومقبول.
- يؤكد ذلك أن أغلب ضحياها كانوا ضباطا أوروبيين.

- ليسوا كلهم. في مناسبة أخرى سمع مغامر إيطالي يُدعى "لويجي" عن الأميرة نازلي وجمالها الخارق ومغامراتها الطائشة وتصرفاتها الرعناء مع الأوروبيين فقرر أن يجرب حظه وهو في طريقه إلى فلسطين. عرف أن هناك من يطلق على قصر الأميرة نازلي "بيت التماسيح" نظرا لتجمع التماسيح بالقرب منه منتظرة وليمة المساء[clxx] فتردد وأحجم لفترة. المهم استجمع "لويجي" هذا شجاعته، وتنكر في ثوب امرأة، ودخل القصر لمقابلة الأميرة التي اكتشفت الخدعة. أُعجبت نازلي بجسارته وجرأته فقررت استبقاءه لقضاء الليلة معها. حانت لحظة الوداع والتي يفقد فيها ذكر العنكبوت حياته. أخرج "لويجي" خنجره في غمضة عين، وطعن مرافقه، واندفع نحو الباب. جرى ثلاثة رجال صوبه فأطلق عليهم النيران من "طبنجته". سقط الرجال الأربعة بين جريح وقتيل. تسلق شجرة مالت بثدييها على السور وقفز منها إلى الخارج مسلما قدميه للريح. كان قد قام بعمل الترتيبات اللازمة للانطلاق نحو السويس. لحق بالقافلة عند باب النصر، وفر بجلده. بعد الانتهاء من جولته في فلسطين عاد إلى إيطاليا عن طريق الشام وتركيا وألبانيا.
- أتعرف؟! لا ينبغي لنا أن نردد هذا الكلام احتراما للموت. أفضت إلى ما قدمت وحسابها على خالقها.
- أنا لا أردده يا أميرة؛ أقوله لك أنت. وعلى أي حال غدت معروفة حتى أن هناك من كتب في نزواتها شعرا.
- لهذه الدرجة؟!
- أجل.

الرغبة المتأججة تُلقي شباكها
والطعم شفتي "نازلي" ورضابها
تدنو الأسماك بولعها وشبقها
ثم تُشويها النيران ولهيبها.[clxxi]

(٦٩)

"مصر تشكرك وتتمنى لك رحلة سعيدة"

امتعضت الأميرة نازلي فاضل للحظات وتغير وجهها. نظرت إلى صورة زيتية كبيرة لمحمد علي مُعلقة في الرواق ثم قالت

- بغض النظر، آن الأوان أن تتوقف المناوشات بين أحفاد القائد إبراهيم يا خديوي مصر.
- أنا لا أمانع. يجب أن يكف أولاد وأحفاد الأميرين أحمد رفعت ومصطفى فاضل عن الحديث عن مظلوميتهم. جرت في النهر مياه كثيرة.
- لن أتكلم عن عمي أحمد رفعت فأولاده يردون عنه، لكن فيما يتعلق بوالدي مصطفى فاضل فخلعه من ولاية العرش وجعل الحكم في سلالة إسماعيل بفرمان عثماني لم يكن شيئا جيدا، وإجباره على بيع ممتلكاته والسفر إلى تركيا لم يكن أيضا شيئا طيبا. يعلم الله أني سمعت أبي يقول: "إسماعيل أكبر مني بحوالي شهر. كلانا وُلد عام ١٨٣٠، لكنه أخي، ولا أظن أنه يضمر لي الشر. كم كنت حزينا عندما أصاب عينيه الرمد الصديدي في شرخ الصبا، وذهب للعلاج لمدة سنتين في فيينا". جدي محمد علي الكبير...
- جدنا...
- جدنا أراد حكم مصر مدى الحياة تماما كما اشتهاها عمرو بن العاص لنفسه طُعمة، لكن محمد علي فاق عمرو بن العاص.
- قدم كثير من التضحيات ليحصل على مصر له وفي ذريته.

- تماما. نحن ننظر إلى نفس الصفحة. لقد عاينت المرارة في عيني أبي لسنين رغم كل النجاحات التي حققها في إسطنبول. على أي حال خُلع عمي إسماعيل من الخديوية وانتهى الأمر. وسواء كان هو أو أمه، خوشيار، أو كلاهما وراء حادثة القطار الذي أودى بحياة عمي أحمد رفعت أم لا فليس أول ولا آخر من أراد المُلك لنفسه وذريته. فعلها جدك لوالدتك، عباس الأول، حين أراد عزل عمه سعيد ووضع إلهامي الذي عينه ناظرا للجهادية[clxxii] وليا للعرش. ولو أن أولادك في سن البلوغ والرشد لفعلت مثله. إنها قصة طويلة وحزينة؛ قصة الأمين والمأمون.
- لست أنا. على أي حال، ما حدث بين جدي إسماعيل وبين أخويه، أحمد ومصطفى، أصبح في ذمة التاريخ. نحن أولاد اليوم ويجب أن نتحد وإلا ضاع العرش ومعه كل الألقاب والامتيازات يا أميرة.
- أتفق معك.
- وعليه لا يصح أن تستقبلي في صالونك أعداء الوطن من الإنجليز، ولا أن تعلني تعاطفك مع المتمرد عرابي. حسبتك جئت تعتذرين كما اعتذرت للسلطان عبد الحميد عن مناصرة حركة تركيا الفتاة في باريس.
- أنت نفسك ناصرت الاتحاد والترقي، وعلى أي حال قبل السلطان اعتذاري ومنحني وساما.
- تأكدي أني سأقبل اعتذارك.
- لكني لم آت للاعتذار، ولم أفعل ما يستوجب الاعتذار.
- ليس لدي وساما أمنحه إياك.

- ولا أريد وساما. لن يضيف لي الكثير. وسام الباب العالي ينسخ ما عداه.
- إذن فقد جئت تودعينا. سمعت أنك تترددين على أختك رقية في تونس، وأنك ربما تزوجت هناك. كل الناس تتحدث عن جمالك الأخاذ. ابقي وسنزوجك من وزير رفيع المقام. من الأفضل لنا أن تكوني قريبة منا.
- تقصد تحت رقابتك؟
- كيفما تري الأمر.
- أولا هذه أمور شخصية ولا أحد يتدخل في خصوصياتك فدع الآخرين على حريتهم.
- الحرية لا تعني مهاجمة الآخرين يا أميرة. حريتك لا تعني الهجوم على مصطفى كامل واتهامه باستغلال القضية الوطنية لجمع التبرعات أو وصف شباب مصر بأنهم لا يساوون ثمن حبل يُشنقون به. يمكنني محاكمتك بسبب هذه العبارة. لا تظني أني لا أستطيع اتخاذ إجراءات ضدك.
- تصحيح. قلت هذه العبارة في نعت الشباب المغيب وجُلهم من الأثرياء الذين لا يهتمون إلا بالموضة وآخر الصيحات والتقاليع.
- حسن إذن ما الذي جاء بك إلى هنا؟
- جئت أخبرك بوصيتي، أن أدفن في مقابر الإمام الشافعي إذا قضيت هنا أو في تونس أو باريس أو تركيا أو أي مكان آخر.
- أوعدك. وسأرسل مندوبا شخصيا عني لتشييعك.

- ظننت أني أستأهل بعد كل هذه الخدمات التنويرية والنهضوية التي أسديتها لمصر أن تسير في جنازتي.
- مصر تشكرك وتتمنى لك رحلة سعيدة.

استدارت نازلي دون رد. همت بالانصراف في إباء وشمم، لكن استوقفها من جديد صوت عباس:

- أميرة. في قناعتك، من تعتقدين يستحق هذا العرش؟
- قولا واحدا؟
- أجل.
- الأمير محمد عبد الحليم بن محمد علي الكبير، الفتى الشجاع الذي سبح في النيل إلى البر بعد وقوع القطار الذي تكلمنا عنه لتونا بينما كان جدك إسماعيل في القاهرة ينتظر وأمه، خوشيار، ورود الأخبار السعيدة.
- حقا؟! ولهذا طالب بالعرش.
- سألتني وأجبت.

(٧٠)
"محمد توفيق البكري "

أعد "جونا" كوبا من الشاي ثم عاد إلى القراءة الممتعة:

عام ١٩٠٨ توجه نقيب الأشراف، محمد توفيق البكري، للاحتفال بالمحمل من دون أتباعه من المحبين لأهل البيت. وقعت بينه وبين أمير الحج مشادة ووصل خبرها إلى الخديوي الذي استدعي الشيخ وتركه في الانتظار ساعتين. كانت قد وقعت بينه وبين الخديوي آنفا جفوة حين علم الأخير أنه من حرض المنفلوطي على هجاءه بالقصيدة التي مطلعها: "عيد لكن لا أقول سعيد".

دخل الخديوي على الشيخ الذي انهارت أعصابه جراء طول الانتظار ولعبت الظنون بعقله. بادره الخديوي قائلا:

- سمعت يا شيخ بكري أن هناك من يشتري لقب "شريف" بالمال.
- مولاي هذه تهمة لا أقبلها.
- تقبلها أو لا تقبلها، هذا أمر لا يعنيني. هذه هي الحقيقة. عمر مكرم، نقيب الأشراف، ألم يتهمه جدي محمد علي بأنه أضاف إلى دفتر الأشراف أسماء بعض الأقباط واليهود مقابل المال، ومن ثم نفاه؟
- جدك الكبير، ساكن الجنان، محمد علي، حارب من أجل شرافة مكة.
- تصحيح... حارب من أجل السلطان العثماني ليبق حاميا لمكة والمدينة.

- هذا كلام يحزننا يا مولاي.
- نعت رجل بالشريف ليس شهادة وصك على بياض بتقواه وعصمته ونقاء سيرته وسريرته وطويته، فهناك رجال أقرب منكم إلى النبي وماتوا على كفرهم ومعصيتهم.
- تقصد أبا طالب، عم النبي؟
- هل تذكر الشيخ البكري الذي دفع بابنته زينب لتعاشر نابليون؟
- مقصوفة الرقبة.
- لقد تنصل منها، ناهيك عن شربه الخمر وعلاقته المشبوهة برستم أغا الذي أهداه لنابليون. ألم يكن هاشميا أيضا، أو هكذا ادعى؟
- بلى.
- لو صدق النسب فهو وغيره كثر من سلالة أبي لهب.
- مولاي...
- بالمناسبة، هل توجد بينكما قرابة أم مجرد تشابه في الكنية والألقاب؟
- مولاي...
- سمعت أنك نظمت قصيدة غزل غير عفيف يا شيخ بكري، قصيدة خليعة وممجوجة ومأفونة لا تليق بك وبمكانتك.
- لقد وقعت ضحية لخدعة يا مولاي.
- اسمع يا شيخ بكري. أمير الحج يمثلني. لم يكن أمرا لائقا أن ترد عليه.

- السماح يا مولاي. نطمع في كرمك لأهل البيت.
- لكنك بخلت على المحمل الشريف بالبيارق والأحصنة المزركشة.
- مولاي والدك رحمة الله عليه ألغى الدوسة وما يكتنفها من خرافات.
- الدعسة أو الدهسة تخص المولد النبوي.
- رأيت أن أسير على مراده رحمة الله عليه بالنسبة للمحمل.
- والدي، وعكس كثير من حكام المسلمين الذين يوظفون الخرافات لصالحهم، ألغى رقود الناس على الأرض ومرور الحصان عليهم الأمر الذي تسبب في تفسخهم بل وموتهم، لكنه لم يلغ مظاهر البهجة سواء في المولد النبوي أو رمضان أو العيدين أو المحمل أو خلافه. الفاطميون أقاربك هم من ابتدعوا هذه المظاهر.
- سأفعل أي شيء يرضيك يا مولاي.
- لولا توسط عديلك، الشيخ علي يوسف، لكان لي معك شأن آخر. لن أقول لك ما تفعله. سأترك الأمر لك. هل تذكر أين نفى جدي عمر مكرم؟
- أظن دمياط يا مولاي.
- حدث هذا منذ قرابة قرن من الزمان قبل تقدم وسائل الانتقال.
- وصلت الرسالة يا مولاي.

(٧١)

"الشيخ حسونة"

عام ١٩٠٩ مر موكب الخديوي عباس الثاني ومعه ولي عهد إنجلترا على طلاب أزهريين وآخرين في قهوة فظلوا جلوسا وقد وضع كل منهم ساقا على ساق وراحوا ينظرون إليه دون اكتراث.

تذكر عباس كيف كان هؤلاء الطلاب يبادرون بسحب مركبته إلى باب القصر. أدرك وقتها أنه يخسر حب الناس ويخصم من شعبيته لديهم. استدعى الخديوي شيخ الأزهر، حسونة النواوي، وأمعن في تعنيفه. قال له:

- لا تظن يا شيخ نواوي أن الأمور في الأزهر تمضي سبهللا. خروج شيوخه الثلاثة، محمد عليش وحسن العدوي، وأبي العلا الخلفاوي ، عن طاعة والدي واصطفافهم مع عرابي كان نقطة تحول في نظرتنا إليه.
- يا أفندينا...
- لدي عيون تنقل لي ما يجري.
- لا يتم شيء إلا بموافقتكم يا ولي النعم.
- تجديد المناهج لا يجري بشكل سليم.
- مولاي أنت تعلم أني من أوائل المناصرين لهذا الأمر، لكن إقناع الشيوخ سيستغرق بعض الوقت.
- أتدري يا شيخ الأزهر صليت الجمعة متخفيا في مسجد بالقاهرة لن أذكره. كررت التجربة لأربع جمع متتالية، وخلصت إلى أن خطب الجمعة في ربوع مصر بائسة.

- كيف يا مولاي؟
- نصف المصلين راحوا في سبات عميق. لم يفلح الخطباء في تثبيت انتباههم لأنهم يقولون كلاما جرى على الألسن منذ بعثة الرسول.
- وماذا عساهم أن يقولوا غير ذلك يا مولاي؟! جدك عباس الأول طيب الله ثراه وأنار قبره كان يحضر دروس الشيخ الشيخ إبراهيم الباجوري، والرجل لم يتكلم بغير القرآن والسنة.
- إعمال العقل يا شيخ حسونة يخرج أفكارا جديدة. أمرنا الله أن نسير في الأرض ونتدبر. التفكير فريضة يا شيخ الأزهر.
- أعطني مثالا يا مولاي.
- حسن، ونقلا عن أحد المصريين الذين قابلتهم في لندن. أتيحت لهذا الرجل فرصة الجلوس مع "وليم هنري كويليام".
- معروف أول من بنى مسجدا في بريطانيا بأسرها عام ١٨٨٦.
- فضلا عن ذلك للرجل عبقرية فذة في استخراج المعني من النصوص.
- كيف يا مولاي؟
- على سبيل المثال، لا الحصر "فسقى لهما ثم تولى إلى الظل"، ماذا تقول في هذه الآية يا شيخ؟
- أقول سقى موسى لابنتي شعيب ثم جلس في الظل، والظل في اللغة قبل الزوال، أما بعد الزوال فهو "فيء". والظل من آيات الله، قال تعالى "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل"، الفرقان الآية ٤٥.

- هذا تحديدا ما قصدته يا شيخ نوواي، معلومات مؤرشفة، أما "كويليام" فيقول "تولى إلى الظل" أي لم يحتفل بما فعل ولم يداهن ولم يلجأ للصياح ولم يظهر التباهي، أي عمل في صمت.
- على أي حال يا مولاي، سيأتي جيل يقبل بالتغيير.
- وما فائدتك أنت؟!

قبض الخديوي على بضع أوراق كانت على منضدة جانبية مرصعة بالعاج ثم ناولها للشيخ حسونة في غيظ وحزازة قائلا:

- خذ! اقرأ يا شيخ الأزهر.
- ما هذا يا مولاي؟!
- أوراق وجدناها في متاع طلابك، مترعة بأسئلة جدلية عن نظام الحكم والإمام العادل وتبرئة الذمة في نصح الأمة.
- هذه أول ثمار التجديد يا جناب الخديوي. العقل الناقد. أليس ذلك ما يدعون إليه في أوروبا؟!
- يا رجل! لا توغر صدري أكثر من ذلك. أنا درست في أوروبا. جل هذه الأسئلة الموجودة في الأوراق المقصود بها البلبلة وإحداث الفوضى في البلاد.
- مجموعة الشيوخ الذين أسميهم الصقور، بل والصخور لهم سطوة يا مولاي. لقد منعوا الطلاب من الذهاب لدرس الشيخ محمد عبده. أغضبهم بيتين من الشعر قال فيهما:

ولست أبالي أن يُقال محمدُ أملَّ أو أكظت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت إصلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم

(٧٢)

"لا تركبوا القطار؛ امتطوا الحمير"

أظهر الخديوي بعض الضيق، وضرب باطن كف يده الشمال بقبضة يمناه، ثم سأل الشيخ:

- وماذا يقولون أيضا؟!
- يقولون يمكن للجامعة المصرية تولى أمر العلوم الحديثة ويبقى الأزهر لما نشأ عليه.
- وماذا أيضا؟!
- يقولون إن الإنجليز هم من يدفعون نحو تجديد التعليم ليطمسوا هوية الأزهر الذي طالما قاوم المحتل. يقولون إن المستعمر يشجع الدروشة حتى يغرق الناس في الخرافات والكرامات والموالد وتمتلأ صناديق النذور.
- وما رأي الأزهر في الصوفيين يا شيخ الأزهر.
- الصوفيون أسيادنا يا مولاي ما لم يشطوا، وأما المجاذيب والقبوريين فلا شأن لنا بهم.
- ماذا تقصد بالقبوريين؟!
- العدميون والمتواكلون يا مولاي. قال الفاروق "أخوك خير منك."
- وماذا عن هؤلاء الذين ينادون بهدم الأضرحة الموجودة داخل المساجد؟
- يا مولاي جدك أحمد طوسون طيب الله ثراه حارب من هدم أقبية البقيع. المسألة فيها نظر. التبرك بالصالحين جائز ففي

سورة الكهف "لنتخذن عليهم مسجدا." عام ١٧٦٥ ميلادية على وجهِ التقريب قام عبد الرحمنِ كتخدا وشهرته "الكخيا"، بإضافة البوابتين الكبيرتين للأزهر ورفع ثلاث مآذن عليه، وابتنى أماكن إيواء لطلبة العلم، وأشياء أخرى كثيرة، ناهيك عن مدفن خاص به. أكرر "مدفن خاص به". أود أن أختم يا مولاي بإثبات أنه تولى أمر الأزهر شيوخ محسوبين على الصوفية منهم عبد الله الشرقاوي وأحمد الدمنهوري وإبراهيم البرماوي ومصطفى العروسي الذي تولى مشيخة الأزهر خلال حكم جدك إسماعيل باشا أنار الله قبره، وعزله الخديوي دون إبداء أسباب.

- ليس الأول ولا الأخير. عُزل قبله الشيخ عبد الجواد الشبراملسي والشيخ محمد شمس الدين. جدي إسماعيل العظيم نفسه عُزل والسلطان عبد الحميد الثاني عُزل والباباوات مرقص الخامس وغبريال الثالث وغبريال الثامن عُزلوا.
- تصحيح بسيط يا مولاي إذا أذنت لي. الباباوات عُزلوا ثم عادوا.
- وهذا ما حدث معك أيضا يا شيخ حسونة.

امتقع وجه الشيخ حسونة. قام الخديوي من جلسته وتوجه نحو الشيخ الذي وقف على مسافة ثلاثة أمتار منه. قال عباس:

- اجلس يا شيخ الأزهر. استرح.
- شكرا يا مولاي.
- أتعلم يا شيخ حسونة؟ عام ١٨٣٧ لم يجد جدي محمد على أفضل من طلاب الأزهر لدراسة الطب فألحق مجموعة كبيرة منهم بمدرسة الطب بأبي زعبل ثم ابتعثهم إلى باريس وعادوا إلى مصر ليتولوا تدريس كافة التخصصات الطبية.

- أعلم ذلك يا مولاي.
- من تسميهم شيوخ الصخور أو الصقور هؤلاء سأكسرهم. تقول حارب جدي أحمد طوسون أشخاصا مثل هؤلاء في الحجاز.
- أجل يا مولاي.
- وفشلت أنا في مصر، بلد الأزهر، في مجابهتهم. ذلك لأنك لا تساعدني.
- أنا معك يا مولاي.
- عليك أن تريهم العين الحمراء يا شيخ حسونة.
- هؤلاء شيوخ لهم وزنهم يا أفندينا، ولهم طلابهم. يقولون: نحن شيوخ أساطين ولسنا شيوخ سلاطين. جُبلوا على مواجهة التغيير. يجدون صعوبة في تقبل الأشياء والأفكار، بل والمخترعات الجديدة.
- حقا؟! هؤلاء المرجفون، قل لهم على لساني: عندما تذهبون لزيارة عائلاتكم في الصعيد ووجه بحري والفيوم لا تركبوا القطار؛ امتطوا الحمير.

(٧٣)

"لوي روليه"

قلب الشيخ حسونة يده، وبدا الارتباك الشديد والبلبلة على وجهه. علق الخديوي:

- ما بك يا شيخ حسونة؟
- مولاي. أنا في حيرة من أمري! اختلط عليّ الأمر.
- كيف ولماذا؟!
- جنابك لا تحب الخلواتية وتسألني عن الصوفية؛ تدعو لتطوير المناهج وتجديد خطب الجمعة، ثم تزعجك الأسئلة التي خرجت من قريحة الطلاب. هذا لا ينسجم مع ذاك.
- أريد تطويرا محسوبا وموجها ومُدارا. لا أريد الدنيا سداحا مداحا. لا أريد جدل "هيجلي" ولا شك "ديكارتي" ولا محاورات "سفسطائية" ولا اتفاقات "فاوستية".
- مالنا وهؤلاء يا أفندينا. نحن مسلمون.
- حسن. هل تستطيع أن تُخّرج لنا طالبا أزهريا، مشكالا من ابن رشد وابن القيم وابن خلدون وابن عربي وابن عطاء الله السكندري؟ لا أريد غلوا يذهب بنا أقصى اليمين أو تفريطا يأخذنا لأقصى اليسار. أريد أن نبقى في المنطقة الآمنة الدافئة. أريد الوسطية الرمادية. لا أريد ملائكة ولا أريد شياطين؛ أريد بشرا خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا.
- فهمت مقصدك يا مولاي.

- اسمع يا شيخ حسونة. أنا درست في سويسرا وفيينا. دعني أحدثك عن النفر الذين زاملتهم هناك ووظفتهم معي.
- تفضل يا مولاي.
- أنهم يعملون عقولهم، لكنهم لا يخربون أوطانهم.
- أجل يا مولاي.
- استدعيت أستاذي في النمسا، السويسري "لوي روليه"[clxxiii] للعمل معي سكرتيرا عاما للقصر، أتدري لماذا؟
- لماذا يا ولي النعم؟
- لأنه لعب دورا بارزا في تشكيل الوعي لدي وتحرير عقلي.
- قلت يا مولاي أن جدك محمد علي استعان بشباب الأزهر، وها أنت تمتدح الأوربيين وتستعين بهم.
- ابحث عن الكفاءة.
- مولاي، الشيخ محمد المهدي زامل في العناية بالأدب العالم الفرنسي "جان جوزيف مارسيل"، والشيخ حسن العطار ربطته علاقة بالعالم "بيتر جران"، والشيخ محمد الأزهري ساعد "جون لويس بوركهارت" في الترجمة والشيخ محمد عياد الطنطاوي درّس اللغة العربية للرحالة "وليم إداورد لين"، كما قام لاحقا بتأسيس كرسي الاستشراق في روسيا.[clxxiv] وأما الشيخ حسن توفيق فقد درس اللغة العربية في جامعات ألمانيا، وقابل "بسمارك" هناك[clxxv] والشيخ محمد خليل دَرّسَ اللغة العربية للكاتب البريطاني "ولفريد إسكوين بلنت".[clxxvi]

- كل ما ذكرته من أمثلة يتمحور حول اللغة العربية والأدب، لا العلوم الحديثة؛ هل باستطاعة هذا الجامع والجامعة أن يعطينا شخصا في عبقرية "مندل"، وهو رجل دين مثلكم أمضى جل حياته في الدير؟
- لا أعرف عنه شيئا يا مولاي. من هو؟
- لا عليك. رجل يزرع البازلاء في النمسا. شيء آخر، اسمع يا شيخ الأزهر لا تذكر اسم هذا "البلنت" أمامي.
- كما تريد يا مولاي. "بلنت" هذا كلنا يعرف أنه طالب شهرة، وأنه ما دافع عن عرابي إلا ليثير الجدل وتتناقل الصحف اسمه، لكنه – وللأمانة يا مولاي-انتقد العدالة الإنجليزية في دنشواي وعرض بها أمام مجلس العموم.
- دعك من هذا الأمر؛ عرابي أصدر السلطان فرمانا بعصيانه وانتهى الأمر. لنعد إلى الأزهر.
- الأزهر يا جناب الخديوي المعظم حافظ على الدين وصان اللغة العربية. حشد العز بن عبد السلام لمواجهة التتار. أقض الأزاهرة مضجع "نابليون". أوقف الأزهر الدراسة وأعلن النفير لصد حملة "فريزر". قاتل "كلير"، سليمان الحلبي، أقام في الرواق الشامي. الأزهر يا مولاي ظل حاميا للمذهب السني الوسطي منذ أن بدل صلاح الدين الأيوبي هويته. أول شيوخه جلالتك، الشيخ الخراشي، ما زال المصريون ينادون عليه في عاميتهم حيث عُرف عنه نصرة الضعيف والمظلوم. الأزهر يا أفندينا هو "أوكسفورد" الشرق كما يطيب لبعض الغربيين وصفه، ولو أنه أقدم من "أوكسفورد".

- يا رجل كن منطقيا! صحيح أن كلاهما نشأ على أساس ديني، لكن "أوكسفورد" تحررت من سطوة الدين وانطلقت للأمام بينما ظل الأزهر عالقا. هل تريد أن تقارن بين "وليم هيرفي" وخريجي الأزهر؟!
- كلا، لكن لولا ابن النفيس ما كان "هيرفي".
- ابن النفيس لم يكن أزهريا يا شيخ حسونة. هل انتهيت من قهوتك؟

فهم الشيخ حسونة أن الخديوي يُنهي اللقاء بأسلوب لطيف فقام على الفور مجيبا:

- أجل يا مولاي.
- هل تعرف أن السنباطي، شيخ الأزهر، حرم القهوة بفتوى رسمية؟!
- نعم يا مولاي. أعرف ذلك، لكني أعرف أيضا أن السيد روليه، وفي أحد زياراته للإسكندرية بصحبة جلالتك، وأثناء زيارته لطبيب حضرتكم، "كومانوس"، شاهد "مريكا رالي" أخت زوجته، وأنه تزوجها وانقلب شرقيا في غيرته الشديدة عليها.
- وما الغرض من هذه الأنبوشة؟!
- مصر يا مولاي لا تتغرب؛ مصر تمصر من يعيش على أرضها، وتعجن الجميع بشعيرها وخمائرها وملح أرضها وماء نيلها وتخبزهم بشمسها ودفئها وتصهرهم في بوتقتها.

في النهاية وجد الخديوي أن الشيخ عديم الحيلة فصرفه ثم نحاه.

(٧٤)

"الفريد جاشوا بتلر"

شعر "جونا بالرغبة في النوم. كان يوما مرهقا. أسلم نفسه للنعاس. في صباح اليوم التالي استيقظ بشعور من يفتقد شيئا. مؤكد هي فدوى. أخذ يقلب في البطاقات التي دونها، ثم وضعها جانبا.

أمسك بالكتاب وراح يقرأ: عام ١٩١١ زار الخديوي عباس حلمي الثاني إنجلترا متنكرا. كانت زيارة سرية للاستفسار والاطمئنان على صحة المعتمد البريطاني، "إلدون جورست".[clxxvii] تولى "جورست" بين شيطانين هما "كرومر" و"كيتشنر".

لم يكن مثاليا، لكنه كان مختلفا. كان له أخطاء مثل تعيين بطرس غالي، سفاح دنشواي الذي اغتاله إبراهيم الورداني عام ١٩١٠، رئيسا للوزراء، ومحاولته مد امتياز قناة السويس،[clxxviii] لكن عباس احتفظ له بمعزة شخصية غامضة.

اصطحب عباس خلال هذه الزيارة طبيبه الخاص، شاهين بيك وخادمه الإنجليزي، "فريدريك".

قبل التوجه لعيادة "جورست" توقف عباس سريعا ليسلم على أستاذه، "ألفريد بتلر". وجد عنده "كرياكوس ميخائيل"،[clxxix] مصري يعمل صحفيا في إنجلترا ومحمد دوسي،[clxxx] مصري يعمل في الكتابة والتمثيل في إنجلترا. قال الخديوي وهو يرشف الشاي:

- لست مستغربا أن أجدك هنا يا كرياكوس في زيارة أستاذنا "بتلر". هل تعلم أنه كان أستاذي في القاهرة وأنا بعد طفلا صغيرا؟
- أعرف ذلك بالطبع يا مولاي.

قال "بتلر" مبتسما:

- كنت دائما الأفضل أيها الخديوي. كيف حال أخيك "العفريت الصغير"؟
- محمد علي بخير ونعمة.
- ذات يوم يا كرياكوس أصاب الوجوم الأمير الصغير محمد علي فامتنع عن أداء واجباته. قلت له: عليك القيام بهذا أيها الأمير. علق الخديوي عباس: أمير! إنه ليس أميرا. إنه فلاح. سألته: لماذا تقول ذلك؟! أجابني قائلا: لأنه متكاسل وغير مطيع.

سادت برهة من الصمت قطعه عباس قائلا:

- أرجو يا كرياكوس أن تظل زيارتي هذه سرية، وأنت كذلك يا دوس.

رد دوس:

- أمر جنابك.

وأردف كرياكوس:

- كما تشاء يا مولاي. البروفسير "بتلر" وافق على كتابة مقدمة لكتابي عن الأقباط والمسلمين.
- أستاذي "بتلر" من أشد المناصرين للأقباط، ولديه كتابين عنهم، أليس كذلك يا أستاذي العزيز؟
- كتبت أيضا عن دخول المسلمين مصر.
- سميته "غزوا" ولم تدعه "فتحا".
- لا نعرف هذه الكلمة في اللغة الإنجليزية.

- يقول المثقفون المصريون إنك لم يعجبك شيء في مصر، وأنك كنت تنظر للناس من عل.
- مصر جميلة، لكن ينقصها الكثير، والمصريون شعب طيب، لكن ما زال أمامهم طريق طويل. وردي على هؤلاء ما ختمت به كتابي "الحياة في البلاط الملكي المصري": لا يمكن لشخص أمضى ولو عاما واحدا في القاهرة، تلك المدينة الذهبية وتغلغلت روح الشرق في كيانه أن ينسى ذاك المساء الذي ودع فيه هذه الحياة للأبد ليعود من جديد إلى وحشة أوروبا وكآبتها.
- الأقباط استغلوا اغتيال بطرس غالي وشطوا في الطلبات، أليس كذلك يا كرياكوس؟
- عطلة يوم الأحد ليس شيئا كثيرا يا مولاي. الكنيسة ظلت مخلصة لمصر يا مولاي. صحيح أن نفي البابا كيرلس الخامس أدخل في نفوس شعبها حزازة وكذا موضوع أملاك الكنيسة والمجلس الملي، لكننا تجاوزنا ذلك بسنين.
- البابا نفى نفسه بنفسه، لكن كيف تقول إنها وطنية وتصف الأقباط بالشعب؟!
- أقصد رعاياها.
- والمؤتمر القبطي؟
- ترأسه مصطفى فهمي، وحضره من المسلمين أكثر من الأقباط. يا مولاي المؤتمر القبطي أُثيرت حوله ضجة أكثر من المؤتمر "الماسوني" الذي عقد عام ١٨٨١.

- أؤكد لك أن والدي توفيق لم يفهم ما وراء "الماسونية" من شرور. لقد انطلى الأمر عليه وعلى غيره مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد فريد، ومن الأمراء محمد عبد الحليم ابن محمد علي وعزيز حسن ابن إسماعيل وعمر طوسون.
- وأنا أصدق جلالتك تماما.
- يخيل لي يا كرياكوس إنك هنا من أجل قضية الأقباط وحسب؛ أكتب عن مصر. كن "سينوت حنا"؛ كن "توفيق كيرلس" وحبذا لو كل أقباط مصر "سينوت حنا" الذي رفع العلم المصري في المؤتمر القبطي.
- هذا ما أفعله يا مولاي؛ قضيتي هي مصر بكل أطيافها.

(٧٥)

"أكرموا الملك"

خرج محمد دوسي عن صمته الطويل سائلا:

- لكن عفوا، من توفيق كيرلس، وأعذرا جهلي؟

بادر كرياكوس بالرد:

- هذا يا دوس موظف مسرة الأزبكية الذي سرب تلغرافات "كيتشنر" من السودان عن أحوال الجيش هناك إلى الشيخ علي يوسف، والذي قام بدوره بنشرها في جريدة المؤيد.
- نعم، نعم تذكرت. حفظ محمد فريد القضية، وكان وكيل النيابة وقتها. أغضب ذلك الإنجليز فعملوا على نقل محمد فريد إلى الصعيد وأعادوا المحاكمة.

استشعر عباس الحرج فتدخل قائلا:

- كان بإمكاني تغيير كل هذا، لكن خشيت أن يُقال إني أتدخل في الأحكام، كما علمت برغبة محمد فريد في الاستقالة من سلك القضاء. المهم يا محمد أُعيدت المحاكمة فبُرِيء علي يوسف بينما حُكم على توفيق كيرلس بالسجن ثلاث سنوات.

التفت محمد دوسي إلى الخديوي قائلا:

- لو تسمح لي جلالتك.
- تفضل.
- أنت تعرف يا مولاي حبنا لمصر، وحتى حين تركناها كان ذلك من أجلها.
- مؤكد؛ ليس لدي أدنى شك.

- وتعرف جلالتك أن والدي...
- أعرف أن والدك قُتل في التل الكبير عام ١٨٨٢.
- أجل يا مولاي. يطيب لي اقتراح فكرة التجمع الإفريقي عوضا عن المسألة الشرقية أو الجامعة الإسلامية أو الرابطة القبطية. أفريقيا يا مولاي هي المستقبل. إن تصريح نوبار باشا بأن مصر لم تعد جزءا من أفريقيا كان خطئا كبيرا.[clxxxi]
- أتفق معك، ولذلك حاولنا الوصول لخط الاستواء.
- نقطة أخرى أراها خطيرة يا جناب الخديوي..
- ألا وهي؟
- التجمعات اليهودية. أنا أحاول عبر المسرح أن ألفت النظر إلى خطورة هذا الأمر. اليوم حائط المبكى وغدا يبلعون بيت المقدس.

ارتبك الخديوي للحظات ثم تمالك خطام أمره قائلا:

- أنا نفسي اتهموني بأني عرضت على "هيرتزل" استيطان العريش. سخافة وهراء، وطالبني البعض باستبدال محامي الخاص، مراد فرج ليشع، لأنه يهودي. هذا هراء.
- الحركة الصهيونية نشطة جدا يا مولاي هذه الأيام. العائلات اليهودية في مصر أصبح لها شوكة في الاقتصاد.
- الاقتصاد لا يعرف دينا. فطن اليهود إلى أهمية القطن. انظر إلى المكاسب التي يتحصل عليها "أجيون" و"منشة" في الإسكندرية. جدي الكبير، محمد علي، جدد معبد "إلياهو

جنابي" ليس حبا في اليهود، ولكن رغبة منه في أن تنتعش الإسكندرية ويزدهر اقتصادها.

- ساكن الجنان جدك كان لديه بعد نظر بكل تأكيد يا مولاي.
- على أي حال، تعال يا "دوس" إلى القاهرة وحاول تقديم هذه المسرحيات لتوعية الناس.
- إن شاء الله يا ولي النعم.
- وأنت يا كرياكوس. سأزور الصعيد قريبا بعد عودتي.
- تعلية سد أسوان؟
- نعم وسأحرص على زيارة الأقاليم والأعيان. أشعر أني أفقد المساندة الشعبية. أحتاجك معي.
- مفهوم.
- أيضا أفكر في كتابة يومياتي أو شيء من هذا القبيل.
- سأكون في مصر حين تريدني جلالتك، لكن أعود وأؤكد لجنابك حب وتوقير الأقباط ففي رسالة بطرس الرسول: "أكرموا الجميع، أحبوا الأخوة، خافوا الله، أكرموا الملك."[clxxxii]

(٧٦)

"جورست"

انطلق عباس إلى زيارة "جورست". كان الرجل على فراش المرض، ولم تكن حالته قد تدهورت بعد. قال "جورست":

- أنا ممتن لجلالتك. قطعت مسافة كبيرة لتتفقدني.
- أنت بخير يا "جورست".
- ليس تماما. هل تذكر يا جناب الخديوي الحصان الذي ابتعته منك مقابل مائة جنيه؟
- سيدار؟ أجل، لكن مالك تقول مائة جنيه بمليء فمك. لقد جنيت من وراءه أمولا طائلة.[clxxxiii]

ضحك "جورست"، ثم انقلب ضحكه إلى سعال. ناوله عباس بعض الماء. شرب قليلا ثم قال:

- كيف مصر؟!
- مصر تغلي كالعادة.
- لم ينس لك "كيتشنر" أنك انتقدت قواته في وادي حلفا.
- اعتذرت وانتهى الأمر.
- ليس مع الإنجليز يا صديقي.
- لم أتوقع للحق أن يصبح "كيتشنر" المعتمد البريطاني. أقول لك الحق ندمت على الاعتذار. خسرت الكثير بسببه.
- لا تقرع رأسك في الحائط يا عباس. تعلم من والدك.

- رحم الله والدي. ورث تركة ثقيلة من جدي إسماعيل. بعد أن استقرت له الأمور بدأ يفكر في حل مشكلة جواري أبيه حيث ترك إسماعيل من بعد رحيله عددا كبيرا من الجواري والحريم خاصة الشركسيات، وقد أوكل أمر هؤلاء إلى طه باشا، ناظر الخاصة الملكية، الذي أمر بتزويج كل الجواري والحريم مع صرف النفقات اللازمة لهن."[clxxxiv] عام ١٨٨٤ تم إنشاء "دار الجواري المحررات" لاستقبال الجواري المعتقات وتوظيفهن في الأعمال المنزلية.[clxxxv]
- أحترم توفيق. تعرض لظلم كبير.
- أبي كان متدينا. كان لا يدخن. اهتم بالتعليم؛ أنشأ المدرسة التوفيقية ومدرسة القبة وكذلك المدرسة العليا للمعلمين. حفر الرياح التوفيقي.
- وأنشأ مجلس شورى القوانين.
- أجل، وتنازل عن أملاكه لدفع الديون، لكن الشعب لم ينس له ما حدث عام ١٨٨٢. يشبهونه بمحمد بك الألفي؛ يقولون كلاهما استدعى الإنجليز.
- لمناوئة ثورة عرابي؟
- بل هوجة عرابي. ما قام به لا يستحق اسم "ثورة". الغوغائيون صنعوا بطلا من عرابي الذي خدعهم بكلمات استدعى فيها عمر بن الخطاب وهو يقول لعمرو بن العاص: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا. لاحظ أن والدي، الخديوي توفيق، هو من رقى عرابي إلى رتبة العقيد وأن الأخير تزوج من

بنت ممرضة إبراهيم إلهامي باشا بن الخديوي عباس الأول، جدي لأمي.

- غريبة.
- يقول محمود فهمي باشا في كتاب "البحر الزاخر في علوم دولة الأوائل والأواخر" أن حوار عرابي مع أبي "شط في الخيال ولم يحدث أن قيل وأن مصدره المباشر مذكرات أحمد عرابي نفسه التي كتبها من الذاكرة... وانتهي منها في يوليو ١٩١٠ أي قبل وفاته في سبتمبر ١٩١١ بعد عودته من المنفى في "سيلان".
- لا تستغرب لقد غرر حتى ببعض الإنجليز من بني جلدتنا.
- تقصد هذا المعتوه "بلنت" الذي يدافع عنه؟
- مشاكل "بلنت" لا تنتهي. يعتقد أنه طالما تزوج من حفيدة اللورد "بايرون" فإنه سيتقمص شخصيته الثورية.
- وحتى هذا الشاعر "بايرون" غير محبوب في مصر فحربه في اليونان ضد الأتراك جعلته مكروها من الإسلاميين. المهم سمحت لعرابي بالعودة كما تعلم عام ١٩٠٣. صدع رأس الملكة "فيكتوريا" بالإلتماسات، لكني فعلتها من أجل محمود سامي البارودي الذي فقد بصره وندم على ما فعل مع جدي كما يقول:

لو كان للمرء عقل يستضيء به
في ظلمة الشك لم تعلق به النوب
ولو تبين ما في الغيب من حدث
لكان يعلم ما يأتي ويجتنب.

- البارودي شخصية قوية لها حضور.

- للرجل موقف مناهض لجدي إسماعيل، وفعل ما فعل مع أبي، لكنه ترك مصر باكيا وهو يقول:

ولما وقفنا للوداع وأسبلت

مدامعنا فوق الترائب كالمزن

أهبت بصبري أن يعود فعزني

وناديت حلمي أن يثوب فلم يغن

ولم تمض إلا خطرة ثم أقلعت

بنا عن شطوط الحي أجنحة السفن

- حسنا فعلت.
- لا أخفي عليك كنت مترددا في الموافقة.
- معلوماتي أن عرابي التمس العفو أيضا من ولي عهد إنجلترا.
- حدث هذا بالفعل مما أثار حنق الكثيرين عليه.
- وسمعت أنه طالب بأملاكه أيضا.
- تريد الحق. عرابي هذا لا استفدنا شيئا من رحيله ولا شيئا من عودته كما قال شاعرنا، أحمد شوقي،

صغار في الذهاب وفي الإياب أهذا كل شأنك يا عرابي؟

- هذا شاعرك ويكتب ما تريد.
- وهذا رأي مصطفى كامل أيضا.
- وهذا صديقك. كلاكما وُلد في نفس العام.
- كان كذلك قبل القطيعة.
- وما سبب هذه القطيعة يا جناب الخديوي؟ سجناء دنشواي؟

- سجناء دنشواي الشكر لك خرجوا قبل إتمام مدد السجن الأمر الذي هدأ من ثائرة المصريين.
- ماذا إذن؟
- اختلفنا في بضع أمور منها قضية الشيخ علي يوسف وزواجه من كريمة الشيخ عبد الخالق. وقفت مع الحب. وجدت من الضروري أن أفعل ذلك. مصطفى كامل لم يخبر الحب.
- كيف ذلك؟! أليس هو القائل: بلادي بلادي، لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي، لك عقلي ولساني، لك لبي وجناني، فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر؟
- قصدت حب الرجل للمرأة.
- مصطفى كان عدوا لي، لكني احترمه. يوم ما ستصبح هذه الكلمات على لسان كل مصري.
- على أي حال يا سيد "جورست"، وبالعودة للحديث عن عرابي وحركته أقول: راجعت نفسي؛ الحق استفدنا من عرابي شيئا واحدا فقط.
- ما هو؟
- أنواع فاخرة من ثمار المانجو أرسلها للمنشاوي باشا ليقوم بزراعتها.

(٧٧)

"مراحل اكتمال القمر"

عقب عودة فدوى من الصعيد قابلها "جونا" سعيدا. كانت ترتدي ملابس الحداد. حاول ضبط مشاعره بسبب الظرف الذي تمر به. هذا لم يمنعه من تقديم هدية لها بمناسبة عيد ميلادها. كانت الهدية عبارة عن صورة بإطار ومغلفة بورق "سوليفان".

فضت الغلاف ففغر فاها من الدهشة. لقد طبع "جونا" صورها ورتبها من الأقدم للأحدث ووضعها في شكل دائري، وكتب في العنوان "مراحل اكتمال القمر". ذابت خجلا وهي تشكره. رد قائلا:

- عرفت أنكم في بلادكم تُشبهون الجميلات بالقمر. في إنجلترا نهتم بالشمس أكثر. أحسبك تعرفين أن شكسبير كتب عن هذه الفكرة.
- أجل في "السوناتا" رقم ١٨.

حكى لها عما تم إنجازه في مشروع عباس فترة غيابها وعن كتاب الدكتور حسام مع عدم وجود تقدم في قصة الحب. سألته فدوى:

- هل سافر "ستيف"؟
- نعم.
- اتصل بي لتعزيتي. للأسف لم أستطع مساعدته.
- لا عليك لقد تدبر أمره بشكل جيد. ذهبت معه إلى مدافن اليونانيين، وهناك وقع في حب تمثال لفتاة جميلة اسمها... اسمها...

- "إيريني زرفوداكي"، الملاك النائم. صاحبة المقبرة الرخامية والملاك الذي يطلب من الزائرين خفض أصواتهم لأنها نائمة؟!
- أجل.
- توفت في التاسعة عشر من عمرها عام ١٨٨٨.
- نعم.
- شخص لطيف.
- من؟
- "ستيف". أرسل لي طلب صداقة، وكتب لي بضع كلمات رقيقة يشكرني ويتمنى رؤيتي في إنجلترا. ولأنه يعلم بأني أعشق "وليم بتلر ييتس" فقد أرسل لي إحدى قصائده وفي الخلفية "سلو"[clxxxvi] بمقاطعة "بيركشاير" التي عاش فيها "ييتس". هل زرت هذه المنطقة؟
- أجل، على بعد عشرين ميلا غرب لندن.

قالها "جونا" بشق الأنفس.

- هل تحب مشاهدة الفيديو.
- فيما بعد.
- مدته دقيقة وحسب.

لم يرد "جونا" والتزم الصمت. شغلت فدوى "الفيديو":

آه لو امتلكت أوشحة السماء

تلك المطرزة بأنوار ذهبية وفضية

سرابيل الليل والنهار، والغروب والظلام، والزرقة والشحوب

لألقيتها تحت قدميك
لكني مدقع، معدم وخالي الوفاض
لا أملك سوى أحلامي
وقد بسطتها تحت قدميك
حنانيك خففي الوطء
فإنك تدوسين أحلامي

لم يعلق "جونا". انتبهت فدوى إلى تجهمه فسارعت بالقول:

- حسن، إلى العمل إذن.
- من فضلك.
- ما بك يا "جونا"؟
- لا شيء، فقط لم أنم جيدا.
- هل تحب إرجاء الأمر؟
- ليس لدينا رفاهية الوقت.

(٧٨)

"سعاد"

سأل "جونا" فدوى متمنيا ألا تعود إلى الحديث نهائيا عن مواطنه "ستيف":

- لكن لماذا تأخرت يا فدوى؟ قلت ثلاثة أيام فقط.
- اضطررت للتمديد لسببين: أحدهما حزين والآخر سعيد.
- لنبدأ بالسبب السعيد؛ ليس لدي قدرة الآن على سماع أخبار كئيبة.
- على أي حال السبب السيء أمر شخصي، ولا أستطيع إفشاءه.

ارتبك "جونا" قليلا. أحس بالخجل، ثم قال بنبرة متهدجة:

- مفهوم. بالطبع.
- أخبرتك من قبل أني من سوهاج، من المراغة تحديدا.
- لا أتذكر. الأسماء كثيرة هنا.
- المهم. في اليوم الثالث للعزاء جاءت لتعزيتنا صديقتي سعاد. كنت أمضي العطلة الصيفية في الصعيد، وكانت سعاد زميلة اللعب. جمعتني جلسة خاصة معها تكلمنا فيها عن حياتنا الشخصية.
- ممتاز.
- حين علمت أني أعمل باحثة أو شيء من هذا القبيل قالت إن لديها أوراقا قديمة تخص أحد أقربائها أصابها التلف من قلة التهوية وتجمعت حولها الحشرات. أضافت أنها فكرت غير مرة في التخلص منها أو حرقها، لكن تريثت من أجل ذكرى هذا

القريب. طلبت مني أن ألقي عليها نظرة. لم أكن متحمسة نظرا للظرف الذي نمر به، لكن دفعني شيء من الفضول للقبول.

- ثم؟
- ذهبت إليها وشربت معها الشاي، وطال الحديث بيننا. قالت إنها قلبت في الأوراق، لكنها لم تفهم الكثير، هذا بالرغم من أنها قرأت أكثر من مائة لغز، خلا روايات الجيب. هذه في الحقيقة ليست روايات بالمعنى الصحيح، بل قصص بسيطة وخفيفة موجهة للناشئة واليافعيين.
- المهم.
- المهم، ألقيت نظرة على الأوراق، بعضها بالعربية والبعض الآخر باللغة الإنجليزية.
- تمام.
- تبين أن قريبها هو كرياكوس ميخائيل.
- ماذا؟! تقولين كرياكوس ميخائيل؟!
- نعم. هل تعرفه؟!
- ما هذه المصادفة؟! قرأت عنه في كتاب الدكتور حسام. قابل الخديوي عباس في زيارة سرية للأخير إلى إنجلترا. طلب منه الخديوي عباس مقابلته في الصعيد ربما لتغطية زيارة أو لكتابة يوميات أو شيء من هذا القبيل.
- فعلا وجدت أوراق تخص الخديوي. قمت بفحص الأوراق في القطار. أنت تعلم أن الرحلة طويلة. ليست كثيرة، لكن فيها ذكر لأميرة اسمها "صالحة" تعلق بها الخديوي.

- غريبة! أين هذه الأوراق؟
- تركتها في الشمس في شرفة منزلنا لأن حالتها سيئة.
- هلم بنا إذن.

في الطريق حكت فدوى لـ"جونا" عما وصل إلى أسماعها في المراغة عن كرياكوس الذي يُعتبر بحق نموذجا للمواطن الإيجابي. تعرف كرياكوس على إمبراطور الحبشة، "هيلا سيلاسي"، واستضافه بمنزله في لندن. عندما حدثت أزمه بين مصر وأثيوبيا بسبب تفكير الأخيرة في إنشاء سد على بحيرة "تانا"، قام وزير الأشغال، عثمان باشا محرم، بالاتصال بكرياكوس في لندن وطلب منه التحدث مع الإمبراطور. سافر كرياكوس إلى الحبشة. استجاب "هيلا سلاسى" لطلب صديقه المصري، وتعهد ألا ينفذ أي مشروع على النيل إلا بموافقة مصر.

(٧٩)

"الحب رأس مال أبينا آدم"

رنت فدوى جرس الشقة فلم تفتح والدتها. وضعت المفتاح في "كالون" الباب وأدارته ودلفت هي و"جونا". نادت على والدتها، لكنها لم تكن موجودة. اتصلت بها على الهاتف فانطلق في حجرة نومها. أدركت فدوى أن والدتها في المكان الذي تحبه، بيت جارتهم خديجة، وصدق حدسها.

بعد أن انتقلا إلى "ونجت" سمعت منجلية طرقا على الباب، لكنها كذبت أذنيها. من سيطرق بابها وهي جديدة في المكان؟! تكرر الطرق فظنت أنه ربما كان محصل الكهرباء أو المياه أو ربما طفل يلهو أو شخص قرع بالخطأ. فتحت الباب في وجل فوجدت وجها مبتسما ويدا ممدودة بطبق فسيخ. شكرت منجلية جارتها ودعتها للدخول. لبت الأخيرة الدعوة بأريحية.

كانت خديجة طبق مهلبية في بياضها وحلاوتها. تمشي فيهتز كل جزء في جسمها. لم تتلق أي نوع من التعليم. لا تعرف أشياء كثيرة، ولا تشغل بالها بالأمور الجدلية، وعندما يستشكل عليها أمر تنهي الحديث قائلة "دي حسبة برما" و "دع الملك للمالك".

يتمنى كثير من المفكرين الذين ابيضت شعورهم ونزفت عقولهم وتكلست وجوههم وضاع نظرهم وهم يبحثون في مسألة ما لو امتلكوا هذا العقل البسيط الذي يقبع في رأس خديجة ويستمتع بوجوده هناك. لا يمتلك كثير من الناس القدرة على قبول الأشياء كما هي والتسليم والانقياد والإذعان لما هو خارج نطاق الممكن.

كانت خديجة شخصية اجتماعية تحب الناس وتحب مشاركة جيرانها الطعام، لكنها أيضا كانت نمامة بامتياز حتى نالت لقب "رويترز" عن جدارة واستحقاق.

كان زوجها المعلم خفاجة فسخاني في سوق الحقانية، واعتاد أن يتزوج كل سنة من امرأة مختلفة بعد شم النسيم وتدفق الأموال من هذا الموسم. بما أن الربيع هو موسم التزاوج عند الكثير من الكائنات فقد أراد خفاجة أن يشارك في "كرنفال" العرس الجماعي الذي يضج به الكون. أحب خفاجة خديجة. يطلق ويتزوج كيفما يشاء، لكنه لا يقترب منها، وكانت خديجة راضية بهذا الوضع لأنها لا تُنجب.

الكل في الإسكندرية، بل القطر كله يشتري الفسيخ والسردين والرنجة والملوحة في شم النسيم، ذاك العيد الفرعوني الذي يجمع بين كل السكان دون تمييز ويخرجهم إلى الحدائق والمتنزهات حيث يمرحون ويلعبون ويلونون البيض ويأكلون الملانة والترمس والحلبة والفول النابت بالشطة والليمون.

يأتي شم النسيم الفرعوني متزامنا مع الحصاد والاعتدال الربيعي. يحتفل اليهود بعيد الفصح في هذا التوقيت حيث يعتقدون أن موسى عليه السلام خرج فيه باليهود؛ أما النصارى فإنهم يحتفلون بعيد القيامة، فحياة الإنسان - طالت أو قلت- هي ذاك الأسبوع الذي يبدأ بسبت النور حين يرى الجنين الدنيا وتنتهي بالآلام حين يتركها وسط بكاء المحبين، وكما يتجدد أديم الأرض في الربيع وتُبعث فيه الحياة مرة أخرى تتجدد جلود الخاطئين وتتشح بالحياة لأن عريس السماء أحيا الأرض اليابسة وأعاد الأمل في قلوب العصاة. وأما المسلمون فمجاملون

بطبعهم ويشاركون القبط هذه المظاهر الاحتفالية كما يفعل القبط حيالهم في رمضان.

مع مرور الأيام توطدت العلاقة بين خديجة ومنجلية. أحبت منجلية خديجة حبا صادقا من القلب. كانت خديجة مختلفة حقا. أحست بتعاطفها مع الآخرين ومشاكلهم على عكس كثيرين من الناس الذين يشعرون بسعادة يجاهدون لكبتها حين يرون المصائب تحط على أترابهم من بني البشر.

تحدثت الجارتان مع بعضهما في كل شيء إلا الدين، ليس عمدا بل لأنهما كانتا على سجيتهما ويعبدان الله دون صياح. الدين أبسط من أن يعقده أحد، أكبر من أن يضخمه أحد، أوضح من أن يفلسفه أحد.

نحتاج فقط خديجة ومنجلية وحصيرة من البلاستيك فوقها طبق رنجة بالسلطة وكوب من الشاي المغلي بالنعناع. نحتاج فقط إلى قلوب مؤمنة وأيدي نظيفة تشاركنا الطعام. وبينما كانت الأولى تردد في جوفها: "بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله على نعمتك" كانت الأخيرة تتمتم بصوت خفيض: "ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك... امنحنا خبز البركة... واملأ قلوبنا بالبهجة والفرح"

لو أن خديجة ومنجلية أُعطيتا ملف الوحدة الوطنية في أي دولة لحققتا فيه نجاح يفوق أساطين الشيوخ وكبار القساوسة لأن عقليهما كانا خاليين من عبء المعرفة وطغيانها وعلوم الفقه واللاهوت وأطروحات وجدل علماء الفقه واللاهوت. يقول جلال الدين الرومي: "العقل والذكاء والدهاء بضاعة إبليس؛ العشق والحب رأس مال أبينا آدم."

(٨٠)

"أوراق كرياكوس ميخائيل"

في منزل فدوى تقدم "جونا" بالتعازي لوالدتها. لملم الأوراق من الشرفة بينما انهمكت فدوي في تنحية أشيائها وكتبها المتكدسة فوق طاولة الطعام حيث يروق لها المذاكرة. جلسا على منضدة الطعام وافترشا الأوراق العتيقة وأخذا ينقحونها.

كان أغلبها مسودة لكتاب مشهور كتبه كرياكوس تحت مسمى "الأقباط والمسلمون تحت السيطرة البريطانية"،[clxxxvii] ومسودات مقالات كثيرة للكاتب.

جمع "جونا" وفدوى الأوراق التي تخص عباس. تعذر عليهما ترتيبها زمنيا. كانت الأوراق في حالة من الفوضى ومتآكلة وحالتها سيئة. شرعا في معاينتها على أي حال. كان هناك ورقة صفراء كتب فيها: توليت الحكم بعد أبي توفيق الذي مات في قصره بحلوان. كنت حسب التقويم الميلادي أقل من ثمانية عشر عاما مما يجعلني غير مؤهل للحكم، لكن الحاشية حسبت عمري بالهجري وتم التنصيب.

دللت هذه القصاصة أن من أملاها على كرياكوس هو الخديوي نفسه. هذا يعني أن جلسات كتابة مذكرات الخديوي عباس قد تمت بالفعل، ربما في قصر الخديوي، لكن لا يوجد كتاب بهذا الوصف. للخديوي كتاب واحد تحت عنوان "عهدي" كتبه بنفسه ونشر فيه أجزاء بخط يده ولا ذكر فيه لكرياكوس، كما يذكر عباس أنه شرع في الكتاب بعد ربع قرن من تنحيه، أي عام ١٩٣٩.

استمر الباحثان في فحص الأوراق غير المرتبة: خمسة أعداد من مجلة "أبو نظارة". صفحة متآكلة من أطرافها فيها عناوين صحفية وبضع أسماء: رشيد رضا وإبراهيم المويلحي، عبد الرحمن الكواكبي والخلافة العربية القرشية، ومن دس له السم؟ عبد العزيز جاويش وتحريضه على قتل عباس، جلادا دنشواي: أحمد فتحي زغلول (أخو سعد زغلول) وإبراهيم الهلباوي، حافظ إبراهيم، علي كامل (أخو مصطفى كامل)، الأمير فؤاد يطالب بالعرش بعد توفيق ويقول إن عباس يكبره ببضع ساعات فقط. عبده الحامولي وألمظ، الخديوي عباس هادن الإنجليز بعد الاتفاق الودي الذي أوصلنا بدوره إلى سايكس- بيكو، يعقوب صنوع والشيخ سلامة حجازي، تقرير عن مقتل "إدوارد هنري بالمر" في سيناء. هل يوجد صلة القرابة بين الإمبراطورة "أوجيني" و"دليسبس"؟ لماذا لم يتزوج اللواء "تشارلز جورج جوردن"؟ غرق السفينة "كارناتك" عام ١٨٩٦ في شعب أبو النحاس شمال غرب جزيرة شدوان وعلى متنها آلاف الجنيهات الذهبية. المصريون يودعون إبراهيم الورداني ليلة إعدامه بأغنية "قولوا لعين الشمس ما تحماشي لحسن غزال البر صابح ماشي." حادثة الحدود، السلطان عبد الحميد يخطط لعودة عباس للعريش وإدارة حكومته منها، زيارة "حاييم وايزمان" لمصر عدة مرات أثناء حكم الملك فؤاد وحرصه على التوقيع في سجل الزيارات بقصر عابدين،[clxxxviii] الأمير محمد علي ابن الخديوي توفيق يقول إنه إذا كانت المشاكل سببها رغبة اليهود في الوصول إلى حائط المبكى فعلى المسلمين أن يبيعوا الحائط لهم مقابل مائة ألف جنيه ويريحوا أنفسهم ويريحوا إخوانهم اليهود،[clxxxix] هل عُرض على عباس حلمي الثاني حكم سورية؟ الإنجليز غاضبون لأن أحد أمراء الأسرة العلوية، الأمير عباس

محمد إبراهيم حليم، حارب كطيار في صفوف القوات الألمانية أثناء الحرب العالمية الأولى.

توقف "جونا" عن الفرز معقبا:

- غريبة فعلا! ما الذي يجعل أمير مصري يفعل ذلك؟
- ربما نكاية في الإنجليز؛ ربما لقناعات شخصية أو أسباب أخرى. تعرفت في الكنيسة على قصة شاب قبطي سكندري اسمه "فريد سميكة".[cxc] كان بطلا رياضيا. سافر إلى الولايات المتحدة وتزوج من أمريكية. شارك في الحرب العالمية الثانية ضد اليابانيين الذين أسروه وحزوا رأسه. دعنا نكمل الفرز.
- لا بأس.

شعار "الله حي عباس جي"، يعني أن عباس سيعود من جديد إلى مصر ليغير المعادلة ويرجح كفة الوطنيين ويُخسر كفة الإنجليز الذين فرضوا غرامة على من يردد هذه الجملة، محاولة اغتيال السلطان حسين كامل في الإسكندرية عام ١٩١٥، وهل تورط عباس حلمي الثاني فيها؟ غرق "كيتشنر" عام ١٩١٦، لا عباس عاد ولا "كيتشنر" عاد بعد عام ١٩١٤، تعيين الخديوي عباس حسين فخري باشا رئيسا للوزراء دون استشارة "كرومر"، سعد زغلول يطرق المنضدة بيده في جلسة مجلس الوزراء عام ١٩٠٧، محمد فريد يرفض الوقوف مع عزف السلام الخديوي في حفل لرعاية الأطفال في دار الأوبرا عام ١٩١٢، علي مبارك، طلبة عصمت وعبد العال حلمي ومحمد عبيد، علي الروبي، ملك الباسل، "جوليت آدم" صديقة الخديوي ومصطفى كامل، خيانة مسعود الطحاوي وعلي يوسف (خنفس باشا) لعرابي. عبارة بين قوسين (من يدفع للزمار حق له اختيار اللحن). استخدام عباس حلمي الثاني

حبيبة هانم في التجسس على حاشية الملك فؤاد. الأرمن يتوعدون الأمير سعيد ابن محمد عبد الحليم ابن محمد علي الكبير، الصدر الأعظم العثماني، بالقتل لعلمهم أنه هو من وقع على أوامر ترحيلهم. علق "جونا":

- غريبة يا فدوى. ما دراجة قرابة سعيد هذا من عباس؟
- في مقام جده.
- وكيف لم يدافع عنه في إسطنبول أو يوفر له الحماية الكافية وهو الصدر الأعظم؟
- أعضاء الأسرة العلوية يا "جونا" كانوا جلهم، إن لم يكن كلهم، في خلافات ومشاحنات. غلطة عباس أنه لم يأخذ بنصيحة مخلصة ليبقى مع شعبه في مصر والحرب العظمى على الأبواب، بل لجأ إلى السلطان الذي لم يستطع أن ينفع نفسه.
- صحيح، أتفق معك.

وأخيرا وجدا بعض الأسماء الأجنبية منها مثلا: " بولو باشا"[cxci] وقوله "إذا ذهبت لن أذهب وحدي"، وزيارته لمصر ولقاءه الخديوي في الغابة المتحجرة، وتشجيعه للخديوي عباس على تهريب أمواله للخارج، وابتزازه له، وتجسسه لصالح ألمانيا وإعدامه عام ١٩١٨.

ومنها "أرمان ميجان"، عميل البوليس السري الفرنسي، وتصريحه بأن الخديوي عباس قدم عُقدا من اللؤلؤ ثمنه عشرين ألف جنيه لفتاة إيطالية اسمها "أنيتا كتالدي" تعرف عليها في كازينو بباريس.[cxcii]

ومنها مغنية الأوبرا، "ماري لافارج"[cxciii] وحفلاتها العامة والخاصة في القاهرة، وتعرفها على سكرتير الخديوي، يوسف صديق، على متن باخرة، وحصولها على لقب "ملكة القاهرة".

ومنها الجاسوسة "مدام" "ستورش"[cxciv] التي استخدمها عباس في تسليم مكاتبات خاصة، والجاسوسة "ماتا هاري".[cxcv]

عثرا أيضا على بطاقة تحوي الكلمات التالية: من يا تُرى "المدموازيل ووكورث" التي حضرت إلى بلدة "إيفان"[cxcvi] بفرنسا يوم ٢٥ أغسطس عام ١٨٩٤ ودخلت على الخديوي عباس الذي كان في زيارة للبلدة، وحين رآها اضطرب وارتجفت الفتاة التي قالت للخديوي أن والدتها زارت مصر عام ١٨٩٢ وأرسلت خطابات للخديوي الذي أنكر معرفته بالأمر برمته، معلقا: صحيح تصلني خطابات من نساء، لكن ليست لها علاقة بالسياسة؟![cxcvii]

(٨١)

"صفية والشيخ علي يوسف"

قاطعتهما والدة فدوى. أعدت لهما الشاي و"الكيك" المنزلي بالبرتقال. أخذا استراحة قصيرة لالتقاط الأنفاس. قال "جونا":

- أشعر أن الأوراق كانت مجرد خواطر أو وسيلة للتذكر في مرحلة للإعداد لعمل ما.
- أتفق تماما.

وجد الباحثان دعوة لحضور زواج "فرديناند دليسبس" من الهولندية "آلين دوتار" في كنيسة "الكونت دي سالا" بالإسماعلية في نهاية عام ١٨٦٩. عثرا كذلك على وريقة عن "الإمبراطورة أوجيني"، زوجة "نابليون" الثالث، عاشقة الخديوي إسماعيل، وكيف أنها عام ١٩٠٥ أتت إلى مصر متخفية، ونزلت في فندق "سافوي" بمدينة بورسعيد.

ورقتان تتحدثان عن قصة حب الشيخ علي يوسف وصفية بنت الشيخ عبد الخالق. بدأت القصة عبر اتصال هاتفي بجريدة المؤيد تسأل صفية عما إذا ثبت هلال شهر رمضان؟ من رد عليها كان الشيخ علي يوسف. ولأن الأذن تعشق قبل العين أحيانا فقد وقع في غرامها قبل أن يراها!

كانت صفية أصغر بنات الشيخ عبد الخالق وعمرها أربعة عشر عاما. خطبها الشيخ علي يوسف. طالت الخطبة وتأخر الزفاف. اتفق الشيخ علي مع صديقه الشيخ محمد توفيق البكري، زوج ابنة أخرى للشيخ عبد الخالق على وضع والد صفية تحت الأمر الواقع بتزويج

صفية من الشيخ علي في بيت زوج أختها وبحضور لفيف من العلماء، وقد كان، وتولى الوكالة عن صفية الشيخ حسن السقا.

نشرت جريدة المقطم الموالية للإنجليز الخبر في يوم الجمعة الموافق الخامس عشر من يوليو ١٩٠٤. جن جنون الشيخ عبد الخالق واتهم الشيخ علي بالتغرير بابنته ورفع عليه قضية.

في المحكمة صمم الشيخ السادات على التفريق بين الزوجين حيث دفع والد العروس بعدم الكفاءة كما ينص مذهب أبي حنيفة النعمان فالشيخ علي يوسف طبقا لوالد صفية أصله كتابي اعتنق الإسلام، ومهنته وضيعة تقوم على التشهير، كما أنه جاهل ذكر ذات مرة في مقال له أن البيت الحرام يقع في أفريقيا، وفي مقال آخر نسب صلاح الدين إلى المعز لدين الله، وقال عن بيت شعر لأبي النواس يمدح فيه محمد الأمين ابن الرشيد إنه يمدح الرسول.

تدخل نقيب الأشراف في سوهاج قائلا: إن الشيخ علي من الأشراف وينتهي نسبه إلى سيدنا الحسين. أضاف دفاع الشيخ علي أن الشيخ عبد الخالق من نسل إحدى الجواري، واستشهد على ذلك بالجبرتي.

حكم القاضي، الشيخ أبو خطوة، بفسخ عقد الزواج. عير القاضي في فقرة من حيثيات الحكم الشيخ علي يوسف بالفاقة قائلا إن فقره في بدايته وإن زال عنه الآن باكتساب الغنى إلا أن عاره لا يزول عنه!!

استأنف الشيخ علي يوسف الحكم دون جدوى. ظل يحرك الوساطة دون طائل. يبدو أن الخديوي عباس تدخل في الأمر سرا ودعم موقف الشيخ علي يوسف فوافق الشيخ عبد الخالق على الزواج بعقد جديد.

علق "جونا":

- ما هذه المفاخرة والمعايرة يا فدوى؟!
- تنابز وتنمر.
- شيء محزن فعلا! كلهم يتحدثون عن النسب والفقر والجهل ولم يتحدث أحد عن الحب!
- صحيح.

أمسك "جونا" بقصاصة أخرى حملت بعض الأبيات الشعرية. انبرى يقرأ:

لم يقل لي أحد البتة ما يُقال للنساء الأخريات
من كلمات دافئة تهز المشاعر وتسحر الروح

انتبهت فدوى قائلة في ذعر:

- "جونا" هذه الورقة تخصني؛ لابد أنها اختلطت بأوراق الصعيد.
- هل هذه كلماتك؟
- كلا، القصيدة للشاعرة الكندية "سيسيل شابو".[cxcviii]
- هل يمكن أن أنهي قراءتها؟
- تفضل.

قالتها بشيء من التردد. انطلق "جونا" يقرأ بقية الأبيات، بينما خفضت فدوى رأسها وذابت خجلا:

لم يُقارن أحد بين لون عيني الواسعتين ولون الليل الحزين.
لم يقل لي أحد أن شعري المموج تحت وهج الأضواء
هو كالمرآة العاكسة لضوء الشمس.

وأن جبهتي قدت من لوح مرمري جميل.
وأن حاجبي أشد سوادا من جناحي الغراب
وفمي أحمر كحبَّات الكريز
لم يسألني أحد هل أنفي يوناني أم لاتيني؟
وهل قدمي مثل أقدام النبيلات؟

تمتم "جونا" بصوت غير مسموع ولا مفهوم: أنا فعلت هذا. أنا فعلت هذا.

(٨٢)

"أوديب"

حملت آخر قصاصة سرا خطيرا بأن الخديوي عباس الثاني كان مهتما بالأميرة صالحة، وأنه سعى إلى إفشال علاقتها مع زوجها الروسي، وأنه وراء تأليب الأزهر ضدها، ونزع لقبها في محاولة للضغط عليها. كانت هذه المعلومة الأهم على الإطلاق بالنسبة للباحثين.

علق "جونا":

- امرأة رابعة؟! من هي هذه الأميرة؟!
- لا أعرف؛ علينا أن نبحث.
- الوقت يداهمنا.
- يجب أن نزيد ساعات العمل.
- ما وصلنا إليه حتى الآن يا فدوى. أن الخديوي تزوج إقبال هانم وطلقها ثم تزوج صديقته المجرية جويدان وطلقها. كان هناك امرأة متيمة به هي "إيفرينو" بينما كان هو متعلقا بامرأة أخرى لم تهتم به هي الأميرة صالحة. حكاية عباس هذه تحتاج إلى رواية.
- فعلا وهذه هي الخيوط العريضة، لكن يطيب لي أيضا أن أُدخل امرأة خامسة في المعادلة.
- امرأة خامسة؟!
- أجل، والدة الخديوي، أمينة هانم إلهامي.
- كيف؟!

- معلوماتي عن الخديوي عباس أنه كان متيما بأمه ومتعلقا بها بشكل مرضي.
- طبيعي هذا شأن أغلب الأبناء مع أمهاتهم.
- أقول لك بشكل مرضي.
- بمعنى.
- بمعنى أنه كان مصابا بعقدة أوديب.
- هل درست الأدب أم علم النفس يا فدوى؟!
- هما لا ينفصلان بالمناسبة.
- كيف؟!
- أقول لك. عام ١٨٩٩ كتب "سيجمون فرويد" في "تفسير الأحلام" أن الولد ينشأ مرتبطا بأمه ويغير عليها من أبيه، وفي أحيان أخرى يكرهه إذ يعتبره ندا له في حب أمه.
- حسن، لكن هل كان عباس يكره والده توفيق؟ الثابت يا آنسة..
- آنسة؟!
- آسف، هل أخطئت في شيء؟!
- كلا، كلا. أكمل من فضلك.
- كنت أقول إن الثابت يا فدوى أن عباس كان محبا لأبيه توفيق، وأما العلاقة بين توفيق وإسماعيل ففيها كلام.
- هذا صحيح. أشيع أن إسماعيل قال عنه: أمير بنفسية عبد؛ يفتقر إلى العقل والمشاعر والشجاعة. تآمر مع القناصل ضدي، وأنا من حقرت من نفسي وركعت تحت قدمي السلطان العثماني وملأت جيوبه ذهبا كي أغير قانون الوراثة ويصبح هو الخديوي

من بعدي. الحقيقة كان إسماعيل يكذب، وكان يخطط لوضع ابنه الوحيد من "جنانيار هانم"، إبراهيم حلمي، مكان توفيق لأن أم إبراهيم حلمي كانت الأثيرة لديه.

- وتوفيق، هل اتخذ أي تدابير احترازية؟
- مطلقا.

أخرجت فدوى كتابا من حقيبتها ثم تابعت:

- وهذا ما ذكره "ألفريد بتلر" في كتابه "الحياة في البلاط الملكي" قائلا (بداية الاستشهاد): كان الخديوي إسماعيل يُراقب توفيق ليل نهار؛ وكان الجواسيس ينقلون كل حركاته وسكناته للخديوي وكذلك أسماء كل الزوار وتاريخ حياتهم. ومع ذلك، لم يخضع توفيق لأي مؤامرة ورفض الانخراط في أي عمل ضد والده. عندما كان توفيق وصيا على العرش أثناء زيارة الخديوي إسماعيل إلى أوروبا، تلقى خطابا من أحد الوزراء آنذاك يعرض عليه خدمات القوات البرية والبحرية ويعد بإغراق إسماعيل في ميناء الإسكندرية عند عودته لمصر. رفض توفيق هذا العرض ليس مرة واحدة بل مرتين ولكنه احتفظ بالخطابات... في أحد الأيام قال أحد النظار لتوفيق ساخرا: يا أمير! سيرسلك والدك مكبلا بأغلال من حديد إلى السودان في القريب العاجل إذا لم تتصرف بشكل سليم. فأجاب توفيق قائلا: إنه والدي وولي نعمتي ويمكنه أن يُلقي بي في النهر إذا أراد ذلك... كان الخديوي إسماعيل دائما ما يستشيط غضبا بسبب الميول الدينية لتوفيق. ذات مرة قال لابنه: أقسم بالله سأصدر أمرا بذهابك للخرطوم إذا دأبت على تلك الممارسات الإسلامية على هذا

النحو. ما جدوى ذلك؟ يجب أن يكون اهتمامك بالأوروبيين فتقلدهم وتتبنى أسلوبهم في المعيشة والتفكير مثلي... ستدمر نفسك بتلك الطرق المتعصبة التي تتبناها... عاش توفيق في خوف يومي على حياته فكان يخشى أن يُسمم أو أن يُقتل، لأن فنجان القهوة المسمومة كان الوسيلة الشرقية المعتادة للرجال العظماء في مصر آنذاك. قال توفيق: أؤكد لك يا سيد "بتلر" أن تلك الأوقات كانت مرعبة بالنسبة لي. لا يمكنني أبدا أن أنسى ما عانيته. إن سلامة الضمير واعتزامي الصادق على فعل الصواب هو ما حال دون سقوطي. مع ذلك، لم تكن لدي مخاوف شخصية ولم أتصرف كشخصٍ جبان. عندما توليت العرش تلقيت الخبر دون أن أشعر بأي فرحة، فتعاطفي مع سقوط والدي وإحساسي الكبير بالمسئولية لم يترك لي مجالا للبهجة. بالطبع ألقى والدي باللائمة عليّ، واتهمني بالتآمر ضده... صادف اليوم الأول لاعتلائي العرش يوم الجمعة، لذا ذهبت إلى المسجد في موكب عظيم. قال والدي: ما هذا!، ألا تزال مُصرا على لعب دور المسلم؟ فأجبته قائلا: نعم يا سيدي، أكثر من ذي قبل (نهاية الاستشهاد).

تبادل "جونا" وفدوى الكتابين: أعطاها كتاب الدكتور حسام عن الخديوي عباس وأخذ منها كتاب "بتلر" واتفقا على اللقاء بعد الفراغ من قراءتهما.

(٨٣)

"الأميرة نعمت الله"

في المساء أمسكت فدوى بكتاب الدكتور حسام وقررت أن تنتهي من قراءته في جلسة واحدة.

كتب عباس في صفحة ٣٨ من مذكراته: أما والدتي فإنها كانت بالنسبة للجميع، وبالنسبة لي بشكل خاص، الخير الأكثر ندرة، والأكثر كمالا، الذي أعطاه ربي لي في كل حياتي.

عام ١٩١٠ عاد جورج أبيض إلى مصر من باريس بعد أن درس التمثيل هناك على نفقة الخديوي عباس حلمي الثاني. على مسرح "عباس" والذي أفتتح في نفس العام قدم جورج أبيض عرض "أوديب ملكا" للكاتب اليوناني، "سوفوكليس".

حضر عباس العرض، وتوجه بعده إلى قصر الوالدة باشا. أخذته في حضنها وظلت تربت على شعره وهو يشعر براحة كبيرة. وجد عندها أخته نعمت الله توشك على المغادرة: قالت الوالدة هانم:

- نعمت يا عباس جاءت تسر لي شيئا وطلبت مني أن أنقله إليك، لكن إذا حضر الماء بطل التيمم.
- خير يا نعمت. أرجو ألا يكون شيئا له علاقة بقراءة الطالع. أعرف أنك مهووسة بالنبوءات والغيب، وأنك تستدعي المنجمين وقارئي الفنجان وفاتحي المندل وضاربي الرمل والودع.
- نعم ولا.
- كيف؟!
- ليس لي شأن هذه المرة يا عباس. إنه زوجي كمال.

تنهد عباس في ضيق وهو يقول:

- كمال الدين حسين بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي، الرجل الغامض الذي يحب العزلة والوحدة، صاحب مقولة: الإفراط في الحضور يُسقط الهيبة، ما به؟!
- ثمة من أرسل له من سيوة يقول: الإنجليز يتآمرون على الخديوي.
- ليس هذا جديدا.
- على أي حال، جئت أحذرك يا أخي. إنهم يمكرون بك ويتربصون لك فاحترس. الريح عالية وعاتية.
- لا تقلقي عليّ يا نعمت.
- لا بد أن أغادر. طابت ليلتكما

(٨٤)

"معبد التنبؤات"

جلس عباس شاردا لوهلة يسترجع كلمات أخته نعمت. لاحظت أمينة هانم تغير مزاجه فقالت له:

- عباس، هذه أول مرة أراك متأثرا بأمور قراءة الغيب. أسمعك دائما تقول: كذب المنجمون ولو صدفوا، ولو صدقوا. لقد تعلمت في أوروبا.
- الوالي سعيد تعلم في أوروبا وكان مهووسا بالتنجيم وتحضير الجان. تعرفين يا أمي الوحيد الذي لم يؤمن إلا بعقله وسخر الخرافة لمصلحته الشخصية هو جدي محمد علي.
- هذا صحيح. ظهرت على أيامه امرأة من دمنهور تتكلم من جوفها فيظن من يسمعها أنه يأتيها رؤى مباركة.
- مثل "جان دارك"؟
- لا أعرف "جان دارك" هذه.
- المهم.
- أغراها نجاحها والأموال التي نزلت عليها بتجريب حظها في القاهرة. أصبحت لا تمر في شوارع العاصمة إلا وهي راكبة جوادا ومحاطة بجمهور من الأتباع يتغنون بمدائحها. قرر محمد علي التخلص منها، وأصدر أمره إلى رئيس الشرطة بإغراقها في النيل. ولما ضج أتباعها قال لهم: لماذا تصخبون؟ إذا كانت هذه المرأة مباركة حقا وعليها شيخ فسينقذها وإذا كانت مدعية فهذه عاقبة أمرها. غاصت المرأة ولم تعد.

ضحك عباس قائلا:

- من أجل ذلك يقول المصريون "المياه تُكذب الغطاس"؟!
- ربما. في مناسبة أخرى أراد أن ينجز مشروعا في الإسكندرية، وتطلب الأمر هدم مقام لأحد الشيوخ. حذره المقربون منه أن هذا الأمر سيُهّيج ضده العامة. أمر بهدم المقام في الليل وبناء آخر. مع انبلاج الصباح أوعز لبعض الناس مقابل المال بترويج أن الشيخ المبارك ملّ من موضعه القديم وقرر الانتقال من تلقاء نفسه إلى الموقع الجديد فصدع الناس بالتكبير.
- لدينا يا أمي موروثا ضخما من الخرافة. لدينا في تراثنا شخصا اسمه "الإدفوي" بال في النيل فزاده؟![cxcix] لدينا شخص اسمه "الزيات" تحول ماء غُسله إلى ترياق وبلسم وتزاحم الناس ليحصلوا عليه.[cc] لدينا شخص اسمه "حسين أبو علي" يدخل عليه الناس فيجدوه جنديا أو صبيا أو أسدا أو فيلا إلى آخره.[cci] لدينا شخص مات خادمه فاستنقذه من ملك الموت.[ccii] هل يُعقل أن نصدق أن الشيخ عمر المغربي لحس قوباء، وهو مرض جلدي، في وجه امرأة فشفيت؟![cciii] هل يُعقل أن نصدق ما أورده المقريزي بشأن امرأة طال الرمد عينيها فرأت النبي في المنام ينصحها بأن تذهب إلى سفح جبل المقطم حيث قبور الأولياء وتأخذ الحصى من هناك وتسحقه وتكتحل بالمسحوق؟! وتمضي القصة ونعرف منها أن المرأة فعلت ذلك وشُفيت. يقول المقريزي: "فلم يبق من الناس إلا من أخذ الحصى الذي بالجبل واكتحل به."[cciv]
- لا طبعا، هذه أمور من الصعب تمريرها على العقول المستنيرة.

- عادة يا أمي ما يبحث الناس في لحظات الضعف والقهر والانكسار عن ملجأ وملاذ فيأتون الأولياء يشتكون ويتضرعون إليهم. الناس دوما في بحث عن كذبة يصدقونها، كذبة تخدرهم وتدغدغ مشاعرهم تماما مثل "البطة البرية" في مسرحية "هنريك إبسن" التي ينسج كل الأبطال حولها خيالهم. الناس دوما يسمعون ما يريدون سماعه ويرون ما يريدون رؤيته ويصدقون ما يرغبون في تصديقه. من أجل ذلك وصفت جدي، محمد علي، بالعبقري.
- يمكنك أن تكون مثله. فقط ركز في شؤون الحكم ودعك من الطالع والواحة النائية وهذا الكلام. أنت بذلك تناقض نفسك. تنتقد الخرافة وتسير في ركابها.
- صحيح يا أمي، لكن هذه سيوة التي تضم معبد التنبؤات. لقد تنبأت الواحة للإسكندر أنه سيحكم العالم. لن نخسر شيئا.
- لا بد أن أقر أنها واحة غريبة فعلا.
- وكل من يذهب إليها يا أمي يُصاب بمسحة من هذه الغرابة. عام ١٨٩٧ أرسلنا مأمورا جديدا للواحة اسمه محمود عزمي. في الحقيقة كنا نعاقبه لأنه كان له ميول عرابية. هناك تصرف الرجل بغرابة شديدة ربما لم تُعهد عنه لدرجة أنه دمر معبد "أم عبيدة" واستخدم حجارة المعبد في ترميم وتجديد سلالم منزله وقسم الشرطة دون رقيب أو حسيب![ccv]

(٨٥)
"مومياء بلحية"

صمتت أمينة هانم وشردت وتغيرت ملامح وجهها الوضاء المطمئن وكأنها تستحضر شيئا بغيضا ثم قالت:

- عادي، هذه الممارسات موجودة. لم يكتمل وعي الناس بعد. أنا سمعت أن عتبة وكالة الأمير قوصون نُقلت من معبد فرعوني وعتبة مسجد خانقاة بيبرس الجاشنكير تحمل نقوشا فرعونية، ويوجد كذلك كثير من الأعمدة الفرعونية في مسجد الناصر بالقلعة. سمعت أن السكندريين نقلوا تابوتا إلى مسجد العطارين وثقبوه واستخدموه للوضوء! سمعت أيضا أن الوقود المستخدم لتحريك القاطرات البخارية هو عبارة عن مومياوات يصل عمرها إلى ثلاثة آلاف سنة، ويتم شراء هذه المومياوات بالطن أو بالمقبرة خصيصا من أجل هذا الغرض.[ccvi] والأنكى أنهم يسّعرون الأفران في الصعيد باستخدام المومياوات لأن بها مادة القطران،[ccvii] ناهيك عن، حفلات نزع أربطتها في أوروبا. هذا أمر مشين يا عباس؛ لا بد أن تفعل شيئا حيال هذا.
- لا تقلقي يا أمي، اتخذت بعض الإجراءات بالفعل. انتهى عهد سرقة الآثار وتهريبها وتخريبها وإهدائها للآخرين، بل والنصب والاحتيال باستخدامها.
- تقول الاحتيال؟!
- أجل. العطارون يطحنون هذه المومياوات ويستخدمون جلودها لعلاج ألم العظام وتقوية الأعصاب.[ccviii] رأيت هذا

الدهان ذات مرة، وأشك في نجاعته. عام ١٨٢٨ وخلال فترة حكم جدي الكبير، محمد علي، مات نجار إيطالي في الصعيد وقُبر في الصحراء، ثم نُبش جثمانه بعد مرور بعض الوقت وعقب إخراجه عُولج بالبيتومين ولُف في سرابيل قديمة أكل الدهر عليها وشرب، ثم بِيع بمبلغ ضخم لخبير إنجليزي على أنه مومياء فريدة بلحية.[ccix]

ضحكت أمينة هانم كما لم تضحك من قبل، وهي تضع يدها على صدرها بعد أن امتلأت رئتاها بالهواء، ثم قالت:

- عظامي تؤلمني حقا. لم لا تجلب لي هذا الدهان؟

ضحك عباس من قلبه، ثم تابع:

- هذا غيض من فيض؛ إنها تجارة كبيرة يا أمي. سمعت أنه في "برمنجهام" يوجد ورشة تقوم بتزوير الأنتيكات الفرعونية ثم شحنها عبر السفن لتباع بسعر الجملة في القرى التي تفاخر بوجود معابد بها،[ccx] لكن مرة أخرى لا تقلقي سنقنن هذه الممارسات ونضع حدا لهذه التجاوزات.
- أرحت قلبي؛ تزورني أحيانا بعض الأوروبيات ويتندرن بهذه الأمور. أغتم لسماع قصصهن. قالت إحداهن ذات مرة إن محمد علي باشا قام بتكسير أحد الأعمدة الجميلة في الكرنك للحصول على الجير لبعض أعمال النترات التافهة، رغم أن تلال الحجر الجيري في طيبة لم تكن بعيدة.
- للأسف هذا صحيح يا أمي. وماذا قالت أيضا؟
- قالت إن السلطان حسن أمر بنزع الغطاء الخارجي للهرم الأكبر المصنوع من الجرانيت المصقول لبناء المسجد الذي يحمل

اسمه، بينما علقت رفيقتها قائلة: لو أن هذه الآثار في فرنسا لعرفنا كيف نحافظ عليها وجنينا من وراءها ذهبا.

- صحيح أن جزء من هذا التخريب يقع على عاتقنا فالخليفة العباسي، أظنه المأمون، على سبيل المثال حاول تخريب الهرم الأصغر، وبهاء الدين قراقوش هدم العديد من الأهرامات الصغيرة واستعمل حجارتها في بناء قلعة الجبل، والعزيز عثمان ابن صلاح الدين الأيوبي حاول هدم الأهرامات، وصائم الدهر شوه أبي الهول أظن في القرن الرابع عشر من الميلاد، لكن الأجانب أيضا تعاملوا مع الآثار باحتقار: ينسفونها بالبارود ويقطعونها أربا بالمناشير ويشوهونها. حدث هذا مع دائرة الأبراج بمعبد دندرة. عريف في جيش نابليون اسمه "فرانسوا" حفر اسمه في الغرفة الملكية بالهرم الثاني. وخادم "بيلزوني" الأفاق، الإيرلندي، "هنري جيمس كيرتن"،[ccxi] حفر اسمه على واحدة من صخور معبد فيلة. القنصل البريطاني، هنري سولت" وطاقمه حفروا أسمائهم على معبد أبي سمبل. وحين ذكرت ذلك للمتزمت "كرومر" رد بسخافة: أرادوا تخليد أسمائهم وحسب مع أربعة تماثيل ترتفع لستين قدما في الهواء. "اللورد بايرون" فعل نفس الشيء في اليونان. المصريون أنفسهم يفعلون أسوء من ذلك.
- شردنا عن موضوع الواحة.
- استطراد مطلوب. زرت سيوة يا أمي عام ١٩٠٥. لا أخفي عليك أردت أن أتمثل رحلة الإسكندر.
- فقط؟

- ليس تماما.
- أردت أن تعرف طالعك؟
- كنت أيضا مقدما على زواجي الثاني وأحببت أن أتلقى إشارة بالتوقف أو الاستمرار.
- أول مرة أسمع منك هذا الكلام.
- أتعلمين يا أمي أفضل ما فعله السيويون؟
- ماذا.
- ضربوا هذا الإنجليزي المتعجرف، "بلنت"، وطردوه من الواحة.
- أراك تكره هذا الرجل.
- أتصور العمى ولا أتصوره شخصين: "بلنت" الذي كلف ثلاثة من كبار المحامين الإنجليز للدفاع معه عن صديقه عرابي، و"جون نينيه"..
- الفلاح السويسري؟
- أجل يا أمي، هذا الشخص عمل مستشارا عسكريا لعرابي.

(٨٦)
"أمينة هانم إلهامي"

قامت أمينة من مجلسها وقربت طبق الفاكهة من عباس قائلة:

- هل أنت جائع.
- سآخذ تفاحة يا أمي. الشكر لك. متى تسافرين إلى إسطنبول؟
- الأسبوع القادم.
- أشعر أنك تحبين قصرك في "بيبيك" أكثر من أي مكان آخر.
- ذلك لأن الكل سعى لانتزاعه مني، لكني تشبثت به.
- وماذا عن سراي الرمل بالإسكندرية يا أمي في منطقة طابية سيدي بشر؟ ألا تفكري في تمضية صيفية فيها؟ أطلق العامة عليها "السراية الحزينة".
- ذلك لأن والدك توفيق جهزها، لكنه مات قبل أن يدخلها.
- ولهذا تذهبين لقصر "بيبيك".
- أجل، ولن يأخذه أحد مني. أفضل التبرع به للحكومة المصرية ليكون قنصلية أو خلافه على أن يأخذه أحد من فجرة هذه العائلة.
- بمناسبة العائلة جاءتني اليوم الأميرة حورية، زوجة عمي الأمير محمود حمدي بن الخديوي إسماعيل.
- ماذا تريد.
- ابنتها الوحيدة..
- منيرة؟

- نعم.
- ما بها؟
- تعرفين أنها تزوجت من توفيق السلحدار الذي يعمل موظفا في وزارة الداخلية.
- أجل. أعترض الكثيرون على هذا الزواج.
- يا أمي منيرة والكل يعلم مصابة بمرض عقلي. هو الوحيد الذي قبل بها.
- لأنه يطمع في ثروتها.
- هذا مربط الفرس يا أمي. حورية تريد التفريق بينهما، وسأعمل على ذلك إن شاء الله. أترين يا أمي أحل مشاكل العائلة ولا أعرف كيف أحل مشاكل نفسي.
- ما بك يا بني؟
- هموم الحكم يا أمي. الأزمات لا تنتهي.
- لماذا لم تذهب إلى جويدان؟
- لا أدري. أنت شيء آخر يا أمي، لكن متى ستعترفين بجويدان كزوجتي؟
- لا داعي لتقليب المواجع يا عباس.

قام عباس منزعجا وفتح نافذة الغرفة ليشم الهواء المنعش. أخذ نفسا عميقا ثم أخرجه على مراحل. نظر إلى والدته قائلا:

- يا أمي الحبيبة نحن البشر عُقد نمشي على الأرض. أنت أصريت على تسميتي "عباس" لأحياء ذكرى جدي الذي اختلف عليه الناس وكان لديه مشاكل جمة مع الأسرة الحاكمة وانتهى الحال

به قتيلا في قصره في بنها. هذه تُسمى عقدة. دائما كنت تعارضين نزولنا الماء والسباحة أنا وأخوتي لأن والدك غرق في البسفور. هذه أيضا تُسمى عقدة. شيدت قبة أفندينا عام ١٨٩٤ لنقل رفات والدي إليها، وهي بالمناسبة أكبر مقبرة في العالم بعد "تاج محل"، لأن "خوشيار"، أم جدي إسماعيل شيدت مدفن لفرعها من العائلة في مسجد الرفاعي ورفضت حوش الباشا بالإمام الشافعي، وحين قررت أنا إكمال ما قامت به "خوشيار" في مسجد الرفاعي من باب احترام موتى العائلة ليس إلا لم تبد يا أمي ارتياحا لهذا الأمر، وهذه أيضا تسمى عقدة.

- أنت تظلمني يا عباس. لماذا تظن أني أكره "خوشيار"؟! صحيح أنها لم تكن تستلطفني وهذا أمر قد يبدو عاديا، لكنها أيضا لم تكن متحمسة لحفيدها توفيق، وهذا شيء غير منطقي!
- سمعت هذا من أبي وتألمت له.
- لم أكن أكرهها، لكني لم أحبها.
- بغض النظر يا أمي. طليقتي إقبال أيضا كان لديها بعض العقد.
- مثل ماذا؟
- لا تسمح لأولادي بركوب الخيل لأن أخي، محمد، وقع من على ظهر جواد وهو الثامنة عشر من عمره، وهذه أيضا عقدة.
- نعم. مسكين حرمه هذا الحادث من الإنجاب.
- لكن لم يمنعه من الزواج.
- أشعر أنه غير مهتم بالزواج. السفر خلب عقله: الشام واليابان وجنوب أفريقيا.

- لا، أبدا. طلب يد أمريكية اسمها "كورا راندولف"[ccxii] أثناء زيارتها لمصر، لكنها رفضت.
- رفضت ابني وهو من هو، شقيق الخديوي وولي عهد مصر؟!
- نعم، هذا من حقها. أهذا ما شغل بالك أمي؟! أنها رفضته. لم تعلقي على كونها أجنبية كجويدان. على أي حال رفضت هذه الأمريكية قبله مهراجا وتزوجت في النهاية من رجل أعمال تربطها به علاقة حب.
- ابني تتمناه الملكة بلقيس.
- أتعرفين أنه لامني على رفضها له.
- كيف؟ وما علاقتك بهذا الأمر؟!
- قلت يوما لصحفي معلقا على عدم زيارتي للولايات المتحدة: أنوي القيام بهذه الزيارة لأكوّن حرملك من الأمريكيات. كنت أمزح، لكن الأمريكيون قلبوا الهزار جد. المهم أن محمد علي يعتقد أن هذا النكتة أخافت الآنسة "كورا".
- سمعت أن "جويدان" وُلدت في الولايات المتحدة، ومن ثم تستحق الجنسية الأمريكية.
- هذا صحيح.
- وهل تنوي أنت فعلا القيام بالزيارة؟
- لا أعتقد.
- لم؟
- لقد أطلق الأمريكيون اسم "عرابي" على منطقة في الضفة الشرقية لنهر المسيسبي بولاية "نيو أورلينز". أتدرين يا أمي؟ في

إحدى الحفلات التي أقمتها على متن يخت المحروسة، انتحى بي أحد الأمريكيين السمجين وسألني بعد أن لعبت الخمر برأسه: كيف تكره عرابي في الوقت الذي تؤازر الحراك الوطني ضد الإنجليز؟ وهل كانت جدتك الكبيرة، خوشيار هانم، تكره حفيدها، الخديوي توفيق، حين أظهرت تعاطفا معنويا وماديا مع عرابي؟

(٨٧)

"أم المحسنين"

عدلت أمينة هانم من وضع شالها فأحكمت لفه حول صدرها وهي تنظر إلى النافذة المفتوحة قائلة:

- لكن يا عباس، من أدخل في رأسك فكرة العُقد تلك؟
- إنه علم يا أمي. دعيني أكمل لك الفكرة. كان والدي الوحيد بين أبناء الخديوي إسماعيل الذي لم يدرس بالخارج. سبب له هذا الأمر ضيقا وعقدة. جلب والدي أفضل المدرسين لتعليمي أنا وأخي، الأمير محمد علي، في القصر. كان منهم المؤرخ الإنجليزي، "ألفريد جاشوا بتلر" الذي قام بالتدريس لنا من يناير ١٨٨٠ إلى فبراير ١٨٨١. لاحقا، حرص والدي على إرسالنا للتعلم في الخارج، في الغرب.
- صدقني يا بني لا يأتي من الغرب ما يسر القلب. أنت متيم بالقارة العجوز وتسافر كثيرا إليها. هل تعلم أن أباك لم يزر أوروبا مطلقا طيلة فترة حكمه مع قدرته على ذلك؟
- لماذا في رأيك يا أمي لم يرسل جدي إسماعيل أبي توفيق للدراسة في الخارج؟ ولماذا كان يسيء معاملته؟
- قل لي أنت.
- بسبب أمه، "شفق نور هانم" كانت جارية، محظية ثم أم ولد. لذلك حين أراد أبي الزواج اختارك لأنك بنت أمير ابن والي ابن أمير ابن والي. طليقتي إقبال يا أمي هي شفق نور وأولادي منها سيعانون كما عانى والدي توفيق.

- ليس شرطا، إسماعيل نفسه كانت أمه جارية. على أي حال أنا سعيت لزواجك من العائلة "الهمايونية" في القسطنطينية، لكن أمورا حالت دون ذلك.
- بصراحة يا أمي، هل خشيت من أن وجود أميرة "همايونية" سيقوض مكانتك؟
- مطلقا. الزوجة زوجة والأم أم، إلا إذا كان لك رأي آخر؟
- أنت تعلمين مكانتك عندي يا أمي.
- السلطان عبد العزيز كما تعلم كان متحمسا، لكن أحد بطانته، لا سامحه الله، قال له: لو أنجب عباس من كريمتك ذكرا ربما فكر الإنجليز في نقل الخلافة إلى القاهرة وتعود عباسية وتكون ضربة قاسية لتركيا. الإناث شيء والذكور شيء آخر؛ والزواج من البيت "الهمايوني" شيء والزواج من صدر أعظم أو وزير "عثمانلي" شيء آخر.
- تفكير أبالسة.
- ربما القرار الوحيد الذي لم أصب فيه بخصوصك هو رفض زواجك من الأميرة عزيزة حسن بن الخديوي إسماعيل.[ccxiii] فتاة جميلة وتحب الإحسان.
- ولماذا رفضت يا أمي؟!
- عمك حسن.
- ما به؟!
- غليظ وقاسي، ويشاع أنه هو الذي قتل إسماعيل المفتش بإيعاز طبعا من جدك إسماعيل.[ccxiv] وحتى عزيزة لم تتزوج أمير؛ أظن

تزوجت من محسن باشا من سلالة أمير البحار حسن الإسكندراني.

- هوني عليك يا أمي. الزواج الذي يُرتب له ليس شرطا أن ينجح.
- هكذا هو زواج الأمراء. عندما يكبر ابنك، محمد عبد المنعم، احرص على تزويجه من أميرة تركية.
- الأمراء في النهاية بشر يبحثون عن السعادة. عام ١٩٠٥ حضر إلى القاهرة ولي عهد السويد، "جوستاف أدولف"، لمقابلة الأميرة "باتريشيا" بنت "فيكتوريا"، ملكة إنجلترا. اختارا القاهرة كمكان محايد للتعارف. كان في صحبة "باتريشيا" أختها "مارجريت". أعجب الأمير بالأخيرة وتقدم لها في القنصلية البريطانية في القاهرة وتزوجا وأصبح "جوستاف" ملكا على السويد عام ١٩٠٧ تحت اسم "جوستاف السادس".
- أتذكر هذا الأمر، وأنك أهديتهما شيئا قيما في حفل الزواج.
- نعم، ماسة بإطار من "البلاتينيوم".
- على أي حال، أعود وأؤكد أن إقبال مع حبي لها، ومع رصدي لتغيرها من ناحيتي وإحساسها الزائد بنفسها ووضعها بعد أن أصبحت زوجة الخديوي، لم تكن اختياري. تذكر أنها حبلت منك، وكان لا بد من إتمام الزواج، ولا مندوحة عن هذا الأمر.
- كانت جميلة يا أمي ورشيقة قبل الزواج، لكنها تبدلت. حين رأيتها أول مرة في غرفتك تقوم على خدمتك وترتب سريرك الفضي وقفت مذهولا أمام جمالها. كانت حافية وشعرها ينسدل على ظهرها كما الشلال الثاني.

- حمل وإنجاب ستة أطفال ليس أمرا سهلا.
- الصحف الأمريكية تقول إني اشتريت زوجة بما يعادل أربعمائة دولار.
- دعك منهم؛ إنهم لا يفهمون تراثنا ونظامنا.
- لنعد إذن يا أمي إليك. منك وإليك دوما تكون العودة. أنت يا أمي القلب واللقب. تفتشين على الخير وتمشي بالأميال في دروبه. تعسعسين على المحتاجين وتتفقد المساكين.
- يا بني "إن رحمت الله قريب من المحسنين".[ccxv]
- أنت أيضا يا أمي الخير كله، لذا استحققت بجدارة لقب "أم المحسنين" الذي استنبطه شاعرنا أحمد شوقي.
- والله ما أحببت هذا اللقب.
- لم؟
- لأني لا أستحقه؛ أفضل "أمينة"، "أمينة" وحسب.

(٨٨)
"إقبال هانم"

أمسك عباس بكف أمه وهو يقول:

- أمي العزيزة، لست أول ولا آخر من تزوج أجنبية. إقبال نفسها من أصول شركسية.
- إقبال كانت جاريتي، ربيتها على يدي. صنعتها على عيني. إقبال أنجبت لك ولدين[ccxvi] وأربع بنات[ccxvii] في ست سنوات. إقبال محتشمة وتعرف الأصول. كانت تعيش في قصر القبة مع أولادها. لا تخرج إلا لحاجة. لا تدخن السجائر بشراهة في العلن ولا تلبس ملابس الرجال ولا تلعب القمار.
- يا أمي الحبيبة أنا طلقت إقبال عام ١٩٠٠ وتعرفت على جويدان عام ١٩٠٥ في باريس.
- غير صحيح. جويدان نفسها أقرت أنك عرفتها قبل ذلك، أثناء دراسة أخوها، "الكونت"، "جوزيف توروك"،[ccxviii] معك في النمسا. لقد ساكنتها فترة بدون زواج، وخصصت لها قصر مسطرد وبنيت لها السلاملك في الإسكندرية وقصر "شويكلي" في إسطنبول.
- حسن يا أمي، ما أُقصده أن زواجي من جويدان ليس له علاقة بتسريحي إقبال.
- غير صحيح من جديد. أنت تعرف جويدان من أول يوم جلست على العرش، بل وقبل ذلك كما ذكرت لك. إقبال أسرت لي بأنها لم تطق ما يتردد عنك وعن خليلتك.

- إقبال هذه ليست سهلة.
- إقبال امرأة أصيلة حاولت صون كرامتها والحفاظ على بيتها؛ لا أحد يلومها. ماذا جرى لك يا عباس؟! لقد كنت تحفظ القرآن.
- جويدان لم تكن خليلتي يا أمي؛ تزوجنا سرا.
- لا أصدق ذلك، وإذا كان كلامك صحيحا عن عدم وجود علاقة بين طلاق إقبال وزواج جويدان، وهو ليس كذلك، لماذا لم تردها؟ لم يكن طلاقا بائنا. أنا أمك؛ لا يمكنك التدليس عليّ؛ هذه الأشياء لا تنطلي عليّ؛ أعرفك كما أعرف كف يدي. يقول الناس إن إقبال وزوجتك الثانية تقابلا صدفة ناحية الأهرامات، وأن إقبال نزلت من مركبتها وضربت الكونتيسة بالحذاء، وأنك طلقتها بعد أن رفضت طلبك بالاعتذار لجويدان.[ccxix]
- غير صحيح.
- أنا شخصيا راجعت إقبال ونفت الموضوع جملة وتفصيلا.
- ولماذا إذن تفتحيه معي يا أمي؟!
- أردت فقط أن أوصل لك رسالة.
- ماهي؟
- ما تتناقله ألسنة العامة هو تماما ما تصبو إليه قلوبهم.

(٨٩)

"شرقي بشارب ضخم يلبس ثيابا غربية"

صمت عباس لنصف دقيقة، وراح يقلب كلام والدته في عقله. رفع رأسه التي خفضها وعينيه التي ثبتهما على تموجات الرخام ثم قال:

- بغض النظر عن السبب يا أمي، ما مشكلتك مع الطلاق؟! إنه رخصة أعطانا الله إياها سواء طلبته إقبال أو أخذت أنا قرارا بشأنه. الوالي سعيد ابن محمد على الكبير طلق زوجته "إنجي" عام ١٨٦٣.
- اتفق معك أن للطلاق حكمة، لكن لماذا إذن تمانع في زواج إقبال؟ بالمناسبة هي لا تريد الزواج، لكنها..
- تغيظني.
- تخطط للعيش خارج مصر بعد الاطمئنان على أولادها.
- إسطنبول؟
- ربما أو الشام. عرفت منها يوما أنها تعشق بيت المقدس.
- على أي حال، أرفض وسأرفض زواجها من أجل أولادي.
- ما هذه الازدواجية؟! أنت سمحت لأختك، "نعمت الله" عقب طلاقها من الأمير محمد جميل طوسون عام ١٩٠٣ بعد زواج استمر سبعة أعوام وأثمر طفلا بالزواج من الأمير كمال الدين حسين.
- سعيت إلى ردها إليه، لكن محمد جميل طوسون رفض أن تكون العصمة في يدها، وأما ابنها منه، عادل، فبخير وأمان. وأما زوجها الحالي، كمال حسين، يا أمي فلا يريحني زهده وغيابه ومسوح

صوفيته التي اصطبغت بها حياة أختي نعمت أيضا، وأخشى أنه يخبئ شيئا وراء دروشته، لكن على أي حال هناك فرق يا أمي. إقبال كانت زوجة الخديوي. بالنسبة لنعمت تركت أمير وتزوجت أمير. هل هناك ضمانة أن إقبال لن تتزوج من أفاق أو متطفل يبتغي الشهرة على حسابي؟

- شرقي بشارب ضخم يلبس ثيابا غربية، هذا أنت يا عباس. ليتك لم تطلقها. لماذا يقهر الرجل المرأة على هذا النحو؟ رحم الله توفيق. لم أنم ليلة واحدة معه وأنا مكلومة أو باكية. كان لا يتحمل أن يراني حزينة. كان حبي الأول والأخير. نقل فؤادك ما استطعت من الهوى...
- ما الحب إلا للحبيب الأول. لست إقبال يا أمي، ولا تقارني نفسك بها.
- بالعكس، أنا وإقبال وجهين لعملة واحدة. هي فقط لم تكن حبك الأول. أفسدتك أوروبا.
- أمي الغالية. إقبال، بالرغم من أي شيء، لها معزة خاصة؛ لقد كنا نلعب معا ونحن صغار.
- وهي أيضا زوجة مخلصة وأم صالحة.
- صحيح، كانت تصر على طهو الطعام بنفسها.
- لأنها تطهيه بحب.
- بل بكثير من السمن الذي أكسبنا وزنا زائدا. أقول لك الحقيقة إقبال تقليدية إلى أبعد الحدود ومتكررة، وليس بها شيئا مميزا. ليس لها دور في المجتمع.

- أنت تنخدع بالمظاهر يا عباس.
- لم أكن سعيدا معها.
- كانت متدينة.
- شاب تدينها كثير من الخرافات.
- كيف؟!
- كانت مهووسة بالأحجبة والرقا والحروز. صنع لها شيخ عملا لجلب الحبيب!
- لا أعرف عنها ذلك، ولم أره منها.

(٩٠)
"الكلب بوسو"

قهقه الخديوي للحظات ثم واصل:

- وقفت على ذلك بنفسي. إنه الشيخ عيد يا أمي. استدعيت الرجل. طلبت منه يكشف لي طالع شخص عزيز عليّ اسمه "بوسو".
- كلبك؟!
- أجل. أخذ الشيخ بضع من حبات المسبحة وعدها حبة بعد أخرى ثم وضعها على جبهته وأغمض عينيه وقال: يا أفندينا.. إن "بوسو" هذا رجل عظيم، ولكن له قضية أمام المحاكم سيخسرها.[ccxx] أرأيت أين وصلت إقبال؟!
- مسكينة. معذورة. مطعونة في كبريائها. خسارة كبيرة.
- لا يوجد خسارة يا أمي. الحياة تستمر. حدثتك عن أختي نعمت وهروبها إلى الزهد والتقشف علها تجد السلوى عن التعاسة التي سيطرت عليها؛ في المقابل أختي خديجة سعيدة مع الأمير محمد عباس حليم بن الأمير عبد الحليم ابن محمد علي باشا. مضى على زواجهما خمسة عشر سنة. لديهم ست بنات. الحياة فيها هذا وذاك يا أمي. عادي.
- طلق هذه الجويدان يا عباس ورد إقبال. إقبال قد لا تكون أميرة، لكنها نشأت في قصور الملوك. حالها لا يختلف عني كثيرا.
- كيف يا أمي؟! أنت ابنة إلهامي باشا ابن عباس الأول، ووالدتك منيرة سلطان ابنة السلطان العثماني عبد المجيد التي أُطلق

اسمها على حي المنيرة بالقاهرة. حق لك يا أمي أن تتباهي كفعل فاطمة بنت عبد الملك حين أنشدت: بنت الخليفة والخليفة جدها/ أخت الخلائف والخليفة زوجها.

- حي المنيرة، فيما أعرف، أخذ اسمه من أفراح الأنجال، أبناء جدك إسماعيل حيث أنيرت المنطقة لأسابيع. من ناحية أخرى، توفت والدتي منيرة وأنا أبلغ من العمر أربع سنوات، وأشيع أنني لست ابنتها، بل ابنة لجارية تسرى بها والدي إلهامي، واسمها على الأرجح "نسرين".
- بل أنت ابنة منيرة يا أمي، نقطة ومن أول السطر. وبالعودة إلى تطليق جويدان، لا أستطيع فعل ذلك. تدرين يا أمي؟ قص عليّ، رئيس الديوان"، أحمد شفيق باشا، حكاية حبه لفتاة فرنسية اسمها "إيزابيل كونتان"[ccxxi] وإعجابها به. أراد أن يتزوجها، وعرض عليها أن تكون العصمة في يدها. فاتح والدته في الموضوع فقالت له: أخشى من اختلاف العادات، لكن لا أستطيع أن أقف ضد سعادتك.[ccxxii]
- هذه الزيجة لم تتم.
- صحيح.
- ما لا تعرفه يا عباس أن هذه الأم، وهي شركسية بالمناسبة، أرسلت لتوفيق سرا لإيقاف الزواج؟
- حقا؟!
- أجل، وتزوج من إحدى معتوقات الخديوي إسماعيل.

- فهمت الآن. فعلا أخبرني شفيق أن الفتاة رفضت، لكن لماذا فعل أبي ذلك؟! لماذا نحرم الآخرين من السعادة.
- وهل الوجهاء والأمراء والملوك ينقصهم السعادة؟!
- أجل يا أمي ينقصهم السعادة. هل سمعت عن ولي عهد النمسا "رودولف فرانز كارل جوزيف"؟[ccxxiii]
- لا.
- لم يكن ينقصه شيء من وجهة نظر البشر وحسب منطقهم، وكان متزوجا من امرأة جميلة، لكنه وقع في حب أخرى.
- ثم؟
- ضيق عليه والده. طلب منه تركها.
- عين العقل.
- عام ١٨٨٩ اتفق مع حبيبته، "ماري فتسيرا"، على الانتحار، وبالفعل وُجدت جثتيهما في كوخ بمنطقة "مايرلينج".

(٩١)

"الرق فكرة- العتق رقبة"

قام عباس من جلسته ومشى إلى نهاية الغرفة وعقله مثقل بالهموم وباله مشغول، ثم استدار ومشى في اتجاه أمينة هانم وهو يقول:

- أمي بخصوص حمل إقبال قبل زواجنا، أرجو أن تتكتمي هذا الأمر.
- لم تكن هذه المرة الأولى يا عباس. ثمة من أخبرني أنك أخطأت مع ابنة أستاذك في أوروبا، وأنك سعيت للزواج منها، لكن المنية وافتها.[ccxxiv]
- أعلم أن المرافقين لي كانوا يتجسسون عليّ، لكن لم يحدث شيء من هذا كله؛ هذه فرية.
- لا بأس.
- أمي، لو علمت ابنتي الكبيرة، أمينة، بموضوع إقبال لساءت نفسيتها وأُصيبت بعقدة طيلة حياتها.
- لا تقلق.
- أمينة هي المفضلة لدي. لقد سميتها على اسمك، كما تسميت أنت على اسم جدتنا الكبيرة، أمينة نصرتلي"، زوجة محمد علي باشا.
- لطالما تمنيت على الله أن نتشارك الاسم وحسب، وألا يكون حظي مثلها: ابنها إبراهيم أثيرت الشكوك حول أبوية محمد علي له. كان في الغالب ابنها من زواج سابق، وقيل بل ابن محمد علي منها قبل أن يدخل بها شرعا. ابنها الثاني، أحمد طوسون، مات

صغيرا؛ ابنها إسماعيل كامل مات حرقا في السودان؛ ابنتها توحيدة، زوجة محرم بيك، نهش السل صدرها، وابنتها نازلي لم تتمتع بسمعة جيدة.

- إنها لعنة الدم يا أمي.
- أجل، مذبحة القلعة. الغريب أن السلطان العثماني، محمود الثاني، استلهم تجربة محمد علي في القضاء على خصومه وقام عام ١٨٢٦ بمذبحة الإنكشاريين.
- صحيح... أمي صارحيني، هل جدتي الكبيرة، أمينة، مسؤولة عن غرابة جدي الكبير عباس ومعاداته لغالبية أعضاء الأسرة الحاكمة؟
- أمينة لا تزرع إلا الحب، هكذا قيل لي. أما جدي عباس الأول فلا أدري ما الذي جعله يحب الصحراء والخيل والعزلة حتى أنه اختار الجزيرة العربية كمنفى طوعي حين وصله من عمه، القائد إبراهيم، أنه شخص غير مرغوب فيه.
- ربما لأنه وُلد في جدة.
- لا أدري؛ هناك من يقول إن ولادته كانت مثلك في الإسكندرية. على أي حال يا عباس، الزواج، وعود على بدء، أصلح كل شيء بالنسبة لإقبال. كانت محظية وملك يمين وتسريت بها ثم وضعت المولودة في فبراير من عام ١٨٩٥ وعقدت عليها في سبوع الوليدة. فعلها أمراء كثيرون: السلطان العزيز بالله الفاطمي وجاريته الرومية، سليمان القانوني و"روكسيلانا"، وجدك الأمير محمد علي الصغير بن محمد علي الكبير.
- آخر العنقود؟

- هو بعينه وكنيته "شيشمان" بمعنى "الممتلئ" بالتركية. أعجب بجارية سودانية اسمها "عائشة". أنجبت له صبي اسمه "إسماعيل داوود".
- يعني تحولت من ملك يمين إلى "قادين".
- نعم، لكن المولود جاء أسمر البشرة، واجتهد الجميع في إخفاءه.
- حتى لا يراه جدي محمد علي الكبير؟!
- أجل. أنت بخير يا عباس. أهم شيء الآن هو أن تحل مشكلتك مع العُقد!
- كل منا أسير وسجين ومسترق لأفكاره وهواجسه يا أمي؛ هذا رق من نوع آخر. أسميه أنا "رق العقول". اللون الأسمر الذي عرجتي عليه الآن في حديثك هو عقدة للعديد من البشر. هذا هو رق الأفكار كما يروق لي أن أدعيه.

خلعت أمينة هانم غطاء شعرها الذي تلبسه لأداء الصلاة وهي تقول:

- أراك يا عباس أغفلت أن هناك شيئا اسمه العتق. العتق رقبة.
- بل فكرة؛ العتق فكرة. الحبس فكرة والسبي فكرة والخلاص فكرة.
- أصبحت فيلسوفا يا عباس، ولم أعد أفهم كلامك. ما هذه السفسطة؟!
- العتق ليس ورقة فقط يا أمي؛ إنه موقف واتجاه.
- لا أفهم.

- قانون تحريم الرق لم ولن يحل المشكلة. كتاب أحمد شفيق، "الرق في الإسلام"، لم يمنع الأوربيين من التساؤل: كيف جفف الإسلام منابع الرق وسمح به؟! تذكرين قضية الرق الكبرى عام ١٨٩٤ التي أتهم فيها علي شريف باشا، رئيس مجلس شورى القوانين، مع آخرين وقضايا أخرى عديدة؟
- نعم.
- الرق في العقول يا أمي. أعرف جارية مزقت ورقة العتق وعادت إلى سيدها. الرق سيطر على عقلها. استمرأت الأسر والحبس كفيل السيرك، بل إن فيل السيرك أفضل منها لأنه يرفض التكاثر في الأسر حتى لا يعيد إنتاج التعاسة، بينما هي أنجبت ستة من الأطفال سلمتهم للعوز.
- من قال هذا الكلام؟!
- الكاتب الفرنسي، "نيكولا شامفور". أزيدك من الشعر بيتا؛ قال المعري: أرحت أولادي فهم في نعمة العدم.
- غير صحيح؛ على المرء أن يسعى، ومن له جناحان سيطير.
- يُهيأ لك.
- ربما عادت الجارية بسبب العشرة والحب. ربما تبحث عن الأمان. يحمل الإنسان جبالا بالحب ولا يحمل حبة قمح مرغما.
- هي أسيرة العبودية. من أجل ذلك أقول لك يا أمي إن جويدان مختلفة.
- كيف؟

(٩٢)

"إسماعيل وأوجيني"

هم الخديوي عباس بالإجابة، لكنه تريث وآثر التدبر فيما سيجري على لسانه من كلمات قد تُغضب أمه فيزيد الموقف توترا والطين بلة. حثته والدته على الكلام مكررة السؤال؟

- كيف؟ أجبني كيف؟
- "كونتيسة"، وتحب القراءة وتعزف على البيانو.
- لكن السلطان العثماني لا يستلطفها.
- هذا بسببك أنت يا أمي.
- اسمع يا عباس أنا أقبل فكرة زواجك من "كونتيسة"، لكن أرفض فكرة زواجك من جويدان. وبعبارة أخرى أقبل اللقب، لكن لدي تحفظات على حاملته. هل تستطيع أن تخبرني لماذا لم تنجب منك؟! لقد أنجبت لتوفيق صبيين وثلاثة بنات.[ccxxv] بدأت بالذكور عكس إقبال.
- هذا أمر الله، وأنت إنسانة مؤمنة، وطالما ذكرت أبي في معرض حديثك فلدي سؤال لك.
- ما هو؟
- هل اشترطت على أبي عدم الزواج عليك طول فترة حياتك؟
- لم يحدث؛ لست فاطمة الزهراء. كان يكتفي بي ولا يكتفي مني.
- ما هذه الثقة يا أم عباس؟

- "أم عباس" كان لقب جدتك الكبيرة، وسبيل أم عباس معلم من معالم القاهرة، لكن لا تهرب من سؤالي بسؤال: لماذا لم تُنجب منك المجرية، هل تكتفي بالكلب "بوللي" والكلب "أورسي".
- ما هذا الكلام يا أمي؟
- لن تسمعه إلا مني. وبمناسبة الحديث عن كلبك "بوسو"، سمعت أنه رفض الزواج من كلبتها. حتى الكلب يفهم أكثر منك.
- أمي! أنا الخديوي.

قالها عباس في شيء من الغضب، لكن أمه ردت عليه بحدة أشد قائلة:

- وأنا أمك.
- إذن سلمي بمشيئة الله. أنت امرأة متدينة، وتعرفين أن ما كُتب على الجبين حتما تراه العين كما يقول المصريون.
- تحبها؟
- أجل.

ساد الصمت للحظات، ثم تابع عباس:

- تذكرين يا أمي دولاب الهدايا الذي كنت أحتفظ فيه بهدايا جدي إسماعيل؟
- أجل.
- كان فيه هدية لم يرها أحد لأني كنت حريصا على إخفاءها.
- ما هي؟
- علبة كبريت ذهبية أهدتها له الإمبراطورة "أوجيني". يُقال إنه قابلها في باريس أول مرة عام ١٨٤٤ خلال بعثة الأبناء والأحفاد.

واعدها ذات يوم وعاد وكأنه فوق السحاب، لكن أهلها وقفوا ضد تطور العلاقة.

- أجل، لاحقا بنى لها قصر الجزيرة على النيل، ورتب لها غرفة نوم كاملة من العسجد والتبر الخالص، وبها ياقوتة حمراء نُقشت حولها بالفرنسية عبارة "ستظل عيني معجبة بكِ إلى الأبد"، ثم أعطاك أنت، حفيده، علبة كبريت.
- إنه الحب يا أمي.
- لو كان كذلك لما فرط فيها.
- تقصدين علبة الكبريت؟

(٩٣)

"واذكر في الكتاب إسماعيل"

نظرت إليه "أمينة هانم" ممتعضة ثم قالت:

- جدك إسماعيل لم يعرف الحب أصلا. لم يحب إلا أمواله وجواريه. بعد نفيه إلى إيطاليا هربت جارية أثيرة لديه مع ضابط إيطالي من ميلانو أحبته وتزوجته. استشاط إسماعيل غضبا، لكنه كان عديم الحيلة، فضلا عن تقدمه في السن. أرسل عمك حسن إلى السلطان العثماني ليسمح له بتغيير منفاه من إيطاليا إلى إسطنبول حيث يمكنه إنزال العقاب بمن يشاء وقتما يشاء.
- بالرغم من كل شيء، أحببت جدي إسماعيل. زرته في قصر "أميريجان" بإسطنبول عام ١٨٩٣ وعام ١٨٩٤ وأهداني سيف والده القائد إبراهيم. "سلام على إبراهيم".[ccxxvi] هل تراني أشبهه جدي إبراهيم أو جدي إسماعيل في شيء يا أمي؟
- معاذ الله.
- لم يا أمي؟!
- أما جدك إبراهيم فقد كان قاسيا بشهادة والده شخصيا أو لنقل مثل والده. كلاهما استخف بالدماء والأرواح. محمد علي قام بمذبحة القلعة وإبراهيم اضطلع بمذبحة الصعيد. كلاهما فاق الآخر في العنف، لكن إبراهيم في قناعتي فاق الجميع في الفظاعة.
- كيف؟!
- الأمثلة كثيرة، لكن مثلا لا حصرا اعتاد الفلاحون المعدمون التوجه إلى النيل وتعبئة قرب مياه يحملونها إلى القاهرة على

ظهورهم أو يتناوبون نقلها من كتف لآخر وهم يسندونها بأذرعهم. يحدوهم الأمل أن يبيعوا هذه القرب مقابل بضع عملات نحاسية زهيدة تقيم أودهم. تنوء وتلهث هذه المخلوقات المسكينة تحت أحمالهم التي يسيرون بها في أشعة الشمس المحرقة لمسافة ميلين تقريبا. كانت متعة إبراهيم المفضلة الجلوس في شرفة قصره وإطلاق السهام على القرب التي يحملها الفلاحون فتثقبها ويخر الماء على الأرض. وحتى لو قتل حمالا فإن هذا الأمر لا يصرفه عن متعته.[ccxxvii]

- جدي إبراهيم كان في مرحلة بناء الدولة، ومن الطبيعي أن يسقط أبرياء، لكن جدي إسماعيل تعلم في أوروبا. كان ذكيا ولماحا. سمعت أنه زار يوما مدرسة الأميرات ووقف أمام الأميرة خديجة بنت الأمير محمد علي الصغير بن محمد علي الكبير.
- "شيشمان" من جديد؟
- أجل يا أمي، يعني خديجة هذه في مقام عمة جدي الخديوي إسماعيل؟!
- صحيح. ألم أقل لك يوما يا عباس إنها عائلة غريبة؟!
- المهم يا أمي، قال لها: إلام وصلت في حفظ القرآن؟ ردت: "واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد." تدرين يا أمي زوجها جدي إسماعيل من ابنه الأمير حسن.
- أعرف ذلك، وأعرف أيضا أن ابنها عزيز حسن رفع عليها دعوة بالحجر لسوء التصرف عام ١٨٩٦، وأنها رفعت التماسا إلى ملكة بريطانيا برفع الحجر عنها.
- لنعد إلى جدي إسماعيل.

- أفلس مصر التي وصفها الله سبحانه وتعالى بخزائن الأرض.
- فعلها قبله السلطان حسن في مسجد لا يدر على الدولة مالا، فما بالك بمشروع قناة السويس.
- تقصد احتفالات قناة السويس وقبلها فرمان الخديوية.
- استفدت وقبلي أبي توفيق من الفرمان الذي أبعد جدي مصطفى فاضل عن ولاية عهد إسماعيل وأبعد جدي محمد عبد الحليم من تولي زمام الأمور بعد عزله.
- صحيح، لكن بكم من الأواني الذهبية وملايين الجنيهات؟! قال السلطان: أي الألقاب تقترح يا إسماعيل. رد جدك: "عزيز مصر". اشتهى لقبا حمله نبي الله يوسف الذي أنقذ مصر من المخمصة والمسغبة! احمر وجه السلطان غضبا ثم قال: "أنا عبد العزيز. أنا العزيز ولا عزيز سواي." نسيا كلاهما أن "العزيز" من أسماء الله، وأن العزة لله فأذاقهما الذل ونزع منهما الملك.
- عبد العزيز هو الخليفة العثماني الوحيد الذي نزل مصر منذ زمن سليم الأول.
- هذا صحيح. زيارة دفع إسماعيل ثمنها من قوت الناس. حماقات جدك لا تنتهي، ومنها أيضا أنه أُعجب بقصر في باريس وأراد شراءه. طلب المالك فيه خمسة ملايين فرنك لعدم رغبته في البيع. فوجئ بموافقة إسماعيل، وفغر فاه دهشة، بل كاد يُغشى عليه حين أمر إسماعيل بكتابة العقد باسم ابنة المالك التي أُعجب بجمالها![ccxxviii]
- لا أدري يا أمي عن صحة هذه الرواية، وصحيح أنه ترك لنا تركة ثقيلة وبغيضة من الديون، لكني أحببته. عام ١٨٩٥ استقبلت

جثته العائدة من المنفى كما تعلمين، وأقمت له جنازة مهيبة.
تعين عليّ فعل ذلك، أليس كذلك يا أمي؟.. أمي! أحدثك.

شعرت أمينة بغصة في حلقها من حديث ابنها عن إسماعيل. كان توفيق في ذيل اهتماماته دوما. قيل إن إسماعيل شعر بالسعادة حين علم بثورة عرابي. أطلقت زفرة من ثاني أكسيد الكربون والنتروجين والكمد والشجن والحسرة. ترقرقت دمعة في مقلتيها. تذكرت توفيق، حب حياتها. أعطت أوامرها بأن يتم إطعام ألف فقير يوميا بجوار قبره لمدة أربعين يوما من وفاته. رفعت عيناها المثبتتان على نقشة في سجادة الأرضية ثم ردت بنبرة غاضبة:

- وفر أحاديثك لحبيبتك "الكونتيسة".
- الكونتيسة! الكونتيسة!
- ترفع صوتك على أمك.
- المعذرة، لكن هل تعلم أمي أن امرأة حاربت من أجل أن تحصل على لقب "برنسيس" وتفوز بقلبي؟!
- من هذه أيها "الدون جوان"، يا "كازانوفا" أسرة محمد علي؟!

(٩٤)

"البرنسيس إيفرينو فيزينوسكا"

وضعت فدوى الكتاب جانبا. أمسكت بالهاتف وقررت الاتصال بـ"جونا"، لكنها ترددت. شعرت بالنعاس والوسن يطبقان على عينيها. الكتاب مترع بتفاصيل كثيرة عن الخديوي عباس حلمي، لكن أين قصة الحب تلك. لم تكن تدري أنها على بعد صفحتين فقط من الجانب الشخصي من حياته. عادت إلى القراءة:

في مقر جريدة "التليجراف اليونانية" بشارع "أفيروف"، الشهداء حاليا، بالإسكندرية التقت "البرنسيس إيفرينو" مع حسين زكي بيك الذي يعمل في قصر الخديوي عباس. استقبلته بالترحاب قائلة:

- أنا عاجزة عن الشكر يا حسين بيك أن تكرمت بتلبية الدعوة.
- الشرف لي يا "برنسيس". صيتك يضرب الآفاق، صحفية وأديبة ومترجمة، أنا من أشد المعجبين بمجلتك "أنيس الجليس".
- أهديت الطبعة الأولى لوالدة الخديوي، ويومها قابلت الخديوي نفسه وتحدثنا لفترة في الأمور العامة وما يجري في مصر والعالم، ثم عدت وقابلته منفردا في قصر رأس التين مع وفد من جريدة "المؤيد" التي استكتبتني. يومها تأخرت أو قل تلكأت بعد رحيل الوفد، وألقيت على جلالته بعضا من أشعاري، وألقيت عليه محبة مني.
- حقا؟!
- أجل قلت له:

وإن كان الذي أهوى أميرا تزينه الإمارة والكمال
فهل قلب الأمير كذا أمير وهل هو كالإمارة لا يُنال
لعمرك ليست الألقاب إلا ثيابا تحتها تخفى الرجال
وقلب المرء قلب ليس يعلو به لقب ولا يلويه نال
كذلك أنا أحب مليك قلبي وليس لعروة الحب انفصال

- الحقيقة أنا معجب بكتاباتك وصالونك الثقافي في زيزينيا الذي حضرته غير مرة، وشد انتباهي بشكل لافت خليل مطران وإيليا أبي ماضي.
- أشكرك.
- لا أخفي عليك أن الاسم حيرني قليلا.
- تقصد "أنيس الجليس"؟
- لا اسمك أنت "ألكساندرا قسطنطين نعمة الله خوري ملتادي دي إيفرينو فيزينوسكا".
- لا ألومك، لكن سأحاول الشرح. " ألكساندرا قسطنطين نعمة الله خوري" هذا اسمي اللبناني. "ملتيادي دي إيفرينو"[ccxxix] زوجي الراحل الذي أنجبت منه أولادي. والدته كانت إسبانية ووالده إيطالي استقر في مصر.
- وهو صاحب محلات القماش الشهيرة؟
- بالضبط، وأما "فيزينوسكا" لقب أسرة إيطالية تبنتني.
- كيف؟!
- سأحكي لك. وُلدت في بيروت عام ١٨٧٢. أصولي يونانية وجدتي لأمي مصرية. مثلت مصر في مؤتمر المرأة من أجل السلم العالمي

في باريس وكانت تترأسه الأميرة الإيطالية، "جابريلا فيزينوسكا".[ccxxx] نشأت بيننا صداقة متينة، وتكررت زياراتي لها. كانت الأميرة "فيزينوسكا" كبيرة في السن وبلا أولاد. اعتبرتني مثل بنتها. حكيت لها عن تعلقي الشديد بالخديوي عباس، وأنه لا فرصة لي لأني لا أحمل لقبا. فوجئت بأن الأميرة أوصت باللقب لي قبيل وفاتها. أرادت أن تمنحني السعادة. أحست أن اللقب قد يقربني من الخديوي عباس. صَدّق الملك "فيكتور عمانويل" على الوصية وأصبحت رسميا "البرنسيس فيزينوسكا".

- قصة غريبة فعلا.
- إزاء كل هذه التضحيات من الأميرة "فيزينوسكا" لإسعادي، ولتعلقي وولعي الشديد بالخديوي طلبت مقابلتك.
- لكن ماذا يمكنني أن أفعل يا "برنسيس"؟
- أريد فقط مقابلته سواء في القاهرة أو هنا في الإسكندرية.
- ليس هذا أمرا سهلا، لكني سأحاول. أنا آتي الإسكندرية في نهاية الأسبوع لأن أسرتي هنا كما تعلمين، وسأرد لك خبرا. سؤال أخير: يتردد أنك حاصلة على الجنسية البريطانية، هل هذا صحيح؟
- أجل صحيح.
- قد يكون ذلك عائقا.
- أنا مستعدة للتنازل عنها لو كان ذلك يقربني من الخديوي قيد أنملة.
- دعينا نرى.
- شكرا لك. كتبت هذه الرسالة للخديوي. أتمنى أن تسهل مأموريتك.

(٩٥)

"نحب من لا يحبنا ويحبنا من لا نحب"

بعد أسبوعين توقف حسين بك بمكتب "البرنسيس". أبلغها بأن الخديوي استلم الرسالة، لكنه يعتذر عن استقبالها لاعتبارات خاصة به. ردت "البرنسيس":

- شعرت بذلك فكتبت له رسالة أخرى وأخيرة أرجو أن توصلها له.
- لكن.
- أرجوك يا حسين بيك، ما على العاشق ملامة.
- حسن، لا بأس.
- أشعر بصد الخديوي. أشد ما يؤلمني أنه لا يعطيني الفرصة.
- سيدتي..
- لست مضطرا لأن تقول أي شيء يا حسين بيك. يعلم الله أن عدد الرجال الذين يحومون حولي يتجاوز أصابع يدي، لكن للقلب أحكام. نحب من لا يحبنا ويحبنا من لا نحب.

يقرب منا الدهر من لا نريده ويبعدنا ممن نحب ونطلب
ونعشق من لا حبنا في فؤاده يجول ويهوانا الذي ليس نرغب
بذلك قضت الأيام ما بين أهلها لينعم ذا من حيث ذا يتعذب

قال الخديوي عباس وهو يضع الرسالة الثانية بجانب الرسالة الأولى:

- هل تعرف يا حسين الشاعر إسماعيل صبري؟

- بالطبع، له أبيات في مدح جلالتك، وهو صاحب البيتين الشهيرين:

طرقت الباب حتى كل متني فلما كل متني كلمتني

فقالت لي: يا إسماعيل صبرا فقلت لها: يا أسما عيل صبري.

- هذا الشاعر يحب هذه "البرنسيس".
- مولاي الرجل يقول يا أسماء وليس يا "ألكساندرا"، وأسماء في الغالب أخته.

ضحك عباس قائلا:

- هل تريد يا حسين أن يتندر الناس عليّ ويقولون نافس شاعر على حب امرأة؟!
- لكن يا مولاي كيف نما إلى علمك خبرها مع إسماعيل؟!
- عيوني أيها الذكي. كتب إسماعيل على ديوان لها بالقلم الرصاص:

معذبتي أطفئِ لواعج لا تنتهي

مضت في هواك السنون وما زلت أشتهي.

- وأين قابلها إسماعيل صبري.
- هل نسيت أنه كان محافظا للإسكندرية. المهم ردت عليه قائلة:

زمانك قبلي انتهى ولا يرجع المنتهى

فحسبي أن أزدهي وحسبك أن تشتهي.

- إذن هذا هو السبب.
- لا. إذا كنت لا أقبل أن يزج بإسمي مع شاعر ضليع ومحافظ وطني وقف ضد إرادة الإنجليز سامحا لمصطفى كامل بإلقاء

خطبته في الثغر، فهل أقبل أن يقترن اسمي مع أفاق مثل حافظ نجيب؟

- من هذا يا مولاي؟!
- صعلوك تعرف على "ألكسندرا" عن طريق انتحاله لصفة شقيق إحدى المشترِكات في مجلتها. رأى في مكتبها مرسومة زيتية لها، فانتقدها واعدا بأنه بإمكانه رسم صورة أفضل منها. أخذ من "ألكسندرا" صورة شخصية لها مُزَيَّنة بالنياشين. بعد فترة اتصل موضحا أن النياشين غير واضحة المعالم والألوان في الصورة؛ لذلك يرغب في رؤية هذه الأوسمة على الطبيعة وجليها عند الجواهرجي. أرسلتهم له "ألكسندرا" بحسن نية فما كان منه إلا أن ارتدى النياشين وخرج على الناس متباهيا وزاعما بأنه نال هذه الأوسمة من الملك فلان والسلطان علان. أبشع ما في الأمر أن خليلته، الراقصة حميدة، ارتدت نيشان السلطان عبد الحميد ورقصت به. تخيل! تخيل!

(٩٦)

"وناقل الكفر ليس بكافر"

أنفجر الخديوي بالضحك وهو يكرر الكلمة الأخيرة. شاركه حسين الضحك في تحفظ ثم قال:

- وماذا بعد يا مولاي؟
- عندما تأخر في رد النياشين اشتكته "ألكساندرا" فقُبض عليه وأُودع سجن الحضرة.[ccxxxi] هل فهمت الأن يا حسين سبب رفضي الرد عليها؟
- مؤكد يا مولاي.
- أيضا لا تنسى أنها تنادي بتحرير المرأة ونالت وسام المرأة من شاه إيران، مُظفر الدين، وهذه أمور، وإن كنت أميل إليها، لكن ليس وقتها وقد نستعدي بها المحافظين والأزهريين الذين يتعنتون في فكرة تجديد التعليم بالأزهر. كتبت فيما كتبت: "إن المرأة في مصر تكاد تكون أشقى مخلوق فيها."
- مولاي كلمات قاسم أمين يتردد صداها في ربوع مصر: من احتقار المرأة أن يطلق الرجل زوجته بلا سبب، من احتقار المرأة أن يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النساء من أم وأخت وزوجة ويأكلن ما فضل منه، من احتقار المرأة أن يُعين لها محافظا على عرضها مثل أغا أو مقدم أو خادم يراقبها ويصحبها أينما تتوجه، من احتقار المرأة أن يسجنها رجل في منزل ويفتخر بأنها لا تخرج منه إلا محمولة على النعش إلى القبر، من احتقار المرأة أن يعلن الرجال أن النساء لسن محلا

للثقة والأمانة. من احتقار المرأة أن يُحال بينها وبين الحياة العامة والعمل في أي شيء يتعلق بها.[ccxxxii]

- أراك تحفظ كلماته.
- تعجبني جرأته.
- لكن تذكر يا حسين أن طلعت حرب عارض هذا الكلام، وتساءل: "هل المرأة أضعف من الرجل إدراكا؟ نقول نعم. وأحوال الشعوب الحاضرة والغابرة تؤيد هذا القول لشواهد العيانية فإن كل الأعمال الاختراعية والاكتشافات العلمية التي بُنيت عليها سعادة الإنسانية صدرت من الرجل دون غيره اللهم إلا بعض أمور صغيرة تمت على يد المرأة في العصور المتأخرة ولكنها غير ذات أهمية ولو جُمع الملايين منها لما وازت فوائدها ما أحدثته الآلة البخارية من التأثير العظيم في أحوال المدنية."[ccxxxiii]
- أستغرب أن يصدر هذا الكلام من اقتصادي كبير مثله يا مولاي.
- كما قلت لك الاندفاع في هذا الاتجاه يجعلنا نقبل أفكارا تطيح بالبلاد والعباد، ومنها دعوات مرقص فهمي والتي دسها كالسم في العسل في كتابه "المرأة في الشرق" الذي دعا فيه إلى تقييد الطلاق ومنع التعدد وإباحة زواج المسلمة من المسيحي وزيد عليها لاحقا توريث المرأة كالرجل. أعود وأكرر أنا مع تحرر المرأة، ولكن بروية. تعجبني كلمات الشاعر الأمريكي "لونجفيلو"[ccxxxiv] حين قال:

كما الوتر في القوس
كذلك المرأة والرجل

تطّوعه وتطيعه

تقوده وتنقاد إليه

لا نفع لأحدهما دون الآخر[ccxxxv]

لكن وفي نفس الوقت أدرك أن القوامة للرجل، وعليه يقع عبء تيسير وتسيير الأمور.

- أنا أعتذر منك يا مولاي. ربما أزعجتك بنقل هذه الرسائل.
- لا عليك يا حسين بيك. إنما على الرسول..
- البلاغ يا مولاي، وناقل الكفر ليس بكافر.
- سأقبل منك هذه المقولة باعتبار أن الحب هو كفر بالكره والمقت والغبن.

(٩٧)

"رسائل البرنسيس فيزينوسكا"

هما اثنتان فقط، لكن الجمع هنا يشير إلى رسائل احتفظت بهم في صدرها ولم تبعث بها. صدق من قال: أجمل رسائل الحب هي التي لا نبعث بها.

بعد انقضاء بضعة أيام جافى النوم الخديوي عباس. وجد الرسالتين ففتحهما وأخذ يقرأ.

الرسالة الأولى:

لقد تعودت أن أفتح كتابي بالثناء والدعاء اللذين لا أبرح عن تقديمهما على الدوام بالسر والجهر، ولكن بلغني من سعادة حسين بيك زكي ما جعلني أفتح كتابي بالشكوى والاسترحام بشأن تلك المقابلة التي ضاق في التماسها صدري وذهب كل صبري؛ وحقا إنه ليست الصاعقة تنقض عليّ فتريحني بأشد عندي من الخبر الذي رواه لي حسين بيك بشأن تأجيل تلك المقابلة إلى بعد عودة المعبود بالسلامة من رحلته المباركة ذلك لكثرة شغفي بها واضطراري إليها وطول انتظاري إياها، إلى أبعد مما يتحمله فؤادي وأكثر مما تطيقه نفسي، مع أنني أعهد ذاتي ملتمسة تلك المقابلة من سيدي الرحيم الشفيق، فضلا عن أن سموه لا يعدم على كل حال فرصة لذلك، لأن الفرص تحت أمره وطوع يديه. وقد آن أن يكون لي حق في إحداها بما يتفق جبرا لخاطري الكسير وإجابة لالتماسي الذي طال عليه الأمد ونفد معه الصبر. آه يا مولاي من يصف الآلام التي تحرق فؤادي واليأس المستحوذ عليّ؛ أشعر بأني مدفوعة بيد القضاء إلى وهدة الشقاء ومنها إلى وهدة الفناء، وإن حسين بيك لو كان يروي لسموه ما شهده من قلقي وسوء حالي حين بلغني ذاك الخبر

بالتأجيل، لتيقن ما ينطوي عليه فؤادي وعرف مبلغ ما أنا فيه من التلهف الشديد لتلك المقابلة السنية التي هي طوع إرادة مولاي في كل حين يريدها فيه، وفي أي مكان يعينه لها، وإنني لقد أكثرت من إظهار الأسى والحزن مضطرة بسبب ما يعلمه مولاي، فلعل كرمه يريحني من عناء المدة الطويلة المستقبلة فقد كفاني ما قاسيت من أطول منها قبلا، وعسى أن يكون هذا الرجاء كأنه آخر اليأس المتصل بأول النجاح، وتكون تلك المقابلة أتعلل بها مدة تلك الرحلة. ولقد عهدت مولاي يمنح السعادة بكل من يطلبها منه، ولهذا صرت في جانب الأمل الكبير بأن هذه التعيسة المخلصة تنال تلك السعادة التي صارت تستحقها بكثرة ما بذلت لها من الصبر الوافر والقلق الطويل، ولا شك أن كرم مولاي وانعطافه يكونان ضامنين لهذا الأمل إذ هو بعد الله على كل شيء قدير وبكل دعاء من هذه المخلصة جدير.

عبدة سموكم التعيسة، "ألكساندرا إيفرينو".

الإسكندرية، ١٧ مايو ١٩٠٥.

الرسالة الثانية:

ولي نعمتي ومعبودي- أفتتح كتابي بتقديم واجب الإخلاص والتكريم مع الدعاء لله تعالى بأن تكون السلامة مرافقة لمولاي في رحلته السعيدة بإذن الله ورجوعه المبارك. وبعد فقد تقابلت مع سعادة حسين زكي بيك فوجدت من رقة حديثه ما اتخذته كنسخة من حديث مولاي ورقته ولطفه، حتى ابتهج بذلك فؤادي المضطرب، وسر خاطري القلق، وانتعش أملي الذابل، ولا سيما بعد حرماني من تلك المقابلة التي كنت أنتظرها انتظار الأرض العطشانة لندى الصباح؛ ولكنني أسلي نفسي عن كل ذلك بسلامة مولاي، وأعزيها بأنني قد صبرت عدة سنوات فلأصبر

عدة أشهر، وإن كانت عليّ أطول من سنين، حتى يمن الله ويعطف المولى المحبوب على عبدته التعيسة. ثم إنني مرسلة مع سعادة حسين بيك الرواية[ccxxxvi] التي علم سيدي بها، وقد كتبتها بخط يدي لتكون كأنها عيون تنظر إليه بالنيابة عني، ولعل مولاي يشرفني بتلاوتها في أثناء رحلته السعيدة وأوقات فراغه، فيجد فيها لأول وهلة ما ينطوي عليه مضمونها من حكاية حال "أميليا" التي أرجو أن تكون عاقبتي شبه عاقبتها مع ذلك الأمير، كما أن مولاي يدرك بلا شك تلك العواطف والوجدانات التي أملت عليّ تلك الرواية، وعباراتها المؤثرة، مما كنت فيها لسان حال نفسي؛ فعسى أن تصادف هذه الرواية من عند مولاي ما رجوته من وضعها في هذا القالب، الذي صورت فيه حالتي تصويرا تاما بشخص "أميليا" مع ذلك الأمير، بل غاية ما أرجوه قبولها وتشريفها بالنظر العالي فإن ذلك حسبي وكفى. ثم أنني قد تعودت رجاء مولاي على الدوام فلا عدمته مرجوا ولا عدمني راجية فضله، وسائلة إسعافه ومعونته؛ وذاك أن لي سوقا في الرمل وقطعة أرض بجانبه وقد أخذ الخواجة "مانولي زرفوداكي" بمعاكستي فيها معاكسة تفضي إلى الضرر بي ضررا لا يريد وقوعه مولاي بهذه المخلصة، وذلك أن الخواجة "زرفوداكي" يريد قطعة الأرض بالشفعة؛ لذلك ألتمس من جنابه العالي إصدار إشارة منه بالإيعاز إليه بأن يمتنع عن أخذ قطعة الأرض بالشفعة، وعن معاكسة السوق؛ لأن أقل إشارة من مولاي يكون منها النفع لي، ومنع الضرر عني. وإنني في الختام أكرر شدة أسفي لفراق سيدي وغيابه، وحرماني من طلعته السنية، بل وجوده في الثغر الذي كنت مؤتنسة معه بظله الظليل، وقربه المؤنس ولكنني أفرج أسفي هذا بالصبر لحين رجوعه السعيد، سائلة المولى أن يشمل مولاي بعنايته العميمة، وأن يجعله تحت حراسته أينما حل وسار، كما أسأله أن يريني طلعته المباركة وهو

على ما أحب واشتهى من العافية الدائمة، والسلامة الملازمة بإذن الله ودعاء هذه العابدة المخلصة التي ترجوه ألا ينساها كما أنها لا تنساه إلى الأبد.

عبدة سموكم الطائعة، "ألكساندرا إيفرينو".

الإسكندرية ٢٣ مايو ١٩٠٥.

أرسل الخديوي عباس بمن يحل مشكلة "البرنسيس" مع الخواجة "مانولي زرفوداكي"، وانتهى الأمر عند هذا الحد.

(٩٨)

"الأمير محمد علي"

زار الخديوي أخيه، محمد علي. استقبله أخوه بالود والترحاب. قال الخديوي ملاطفا:

- سمعت يا محمد أن قصر المنيل سيكون تحفة عصره؟
- أمامه عقدين أو ربع قرن ليستحق هذا الوصف، لكنه لا يغلى عليك يا أخي.
- اسمع يا محمد أنت أخي؛ توءمي بيد أني أكبرك بسنة.
- ما بك يا عباس؟
- الوالدة باشا؟
- ما بها؟
- تضغط عليّ كي أترك جويدان وأرد إقبال.
- مسألة شائكة.
- أريد رأيك بصراحة. أنا أشد أزري بك.
- إقبال اسم على مسمى؛ كانت دوما مقبلة بالخير. لم تتغير مذ كانت طفلة. أتعلم يا أخي جمعني يوما لقاء بعمنا إبراهيم حلمي. كان معه وهو بعد صغير فتاة شركسية أخرى يشاركها اللعب.
- أجل، "كوبسس". سمعت عنها. تقول أمي إنها كانت ذكية وجميلة.
- أجل. هذه هي. كانت تدرس معه تحت إشراف مربية إنجليزية اسمها "إلين شانيلز".[ccxxxvii] المهم تزوجت "كوبسس" من علي

زكي بيه. أسر لي عمي إبراهيم أنه افتقدها كثيرا. الشاهد تخليك عن إقبال كان خطأ كبيرا.

- وجويدان؟
- سأتكلم معك بصراحة، ولأول مرة عن جويدان. أنا لست متزوجا للظروف التي تعلمها، لكن لو قدر لي الزواج ما خرجت عن طوع واختيارات أمي. جويدان يا عباس عليها تحفظات كثيرة. أنا لا أوغر قلبك عليها، لكنك طلبت المشورة، وبالمناسبة الكلام خارج القصر كثير.
- ماذا يقول الناس؟
- يقول الأمراء والأميرات إنك عام ١٨٩٨ عارضت زواج البرنس علي بك بن مصطفى فاضل باشا من فرنسية هي مدام "بونا"، وكانت مُطلقة في ذاك الوقت، ولما أصر البرنس قطعت عنه مخصصاته،[ccxxxviii] ثم فعلت ما حرمته على غيرك بزواجك من جويدان.
- عارضت الزواج لأنها مسيحية.
- ديننا لم يحرم الزواج من المسيحيات.

تلجلج الخديوي ثم قال:

- أقصد لأنها فرنسية كاثوليكية وفي مذهبهم لا يوجد طلاق.
- وما أدراك أنها كاثوليكية؟
- أغلب الفرنسيين كاثوليك.
- ما علاقاتنا نحن بمذهبها؟

- اسمع يا محمد، لو كانت علاقة عابرة ما أعرتها انتباها، لكنه زواج. محمد شريف باشا لديه صاحبة فرنسية. سعت والدته لإنهاء العلاقة وطلبت مني عن طريق والدتي أن أفاتحه ففعلت،[ccxxxix] لكني لم ألح عليه طالما الأمر لم يصل للزواج. أقول لك، دعك من الأمراء والباشوات؛ ماذا عن المصريين؟ ماذا يقولون؟

(٩٩)

"بيننا سنة في العمر، لكننا توءم"

ارتبك الأمير محمد علي وتلعثم لبرهة قبل أن ينظر في عيني أخيه قائلا:

- بصراحة، لا الأوربيون ولا المصريون يحبون جويدان.
- كيف؟!
- التقيت مؤخرا في أوروبا بصديق ألماني. تطرق الحديث إلى جويدان فشبهها بـ ... بـ ...
- انطق يا محمد.
- "لولا مونتيز".[ccxl]
- الراقصة؟! امرأة الكل؟! عشيقة هذا وذاك، تلك التي ماتت بالزهري؟! هذا يعني أنني ملك "بافاريا" الأصم، "لودفيج الأول"![ccxli] كيف سمحت له بذلك؟!
- عنفته بالطبع ورددت عليه، لكن يا عباس هذا مجرد فم واحد. اسمع يا أخي صحيح أن "لودفيج" بنى لها قصرا مثلما فعلت لجويدان، لكنه في النهاية نفاها خارج البلاد لأن الشعب كان غاضبا.[ccxlii]
- تعني أن المصريين غاضبين؟
- ألم تلحظ كيف رفض علماء الأزهر تعليمها اللغة العربية؟
- قالوا إنها خلوة.
- لا يا عباس، ليس هذا هو السبب؛ أنت أذكى من ذلك.

- وماذا يقول المصريون أيضا؟
- يقولون إنك مغرم بكل ما يتعلق بالإمبراطورية النمساوية-المجرية من أشخاص وأشياء.
- رعاياها مخلصون، وهذه ليست جريمة، لكن هات كل ما عندك يا محمد عن جويدان.
- التاريخ الذي تعطيه عن مولدها أصغر بكثير من سنها الحقيقي.
- هذه ليست مشكلة. حتى إقبال كان تغالط في تاريخ مولدها. هكذا شأن النساء، لكن الحب يا محمد لا يعرف عمرا. هل سمعت عن اليوناني "بول درانيت"؟[ccxliii]
- مؤكد. "بوالينوا باشا"، نار على علم في "محرم بيه" بالإسكندرية. استعمله جدنا إسماعيل. هو من أحضر "فيردي" وأوبرا عايدة إلى القاهرة.
- تماما، بالضبط. اختصرت عليّ الحكاية.
- أي حكاية؟!
- حضرت مع فيردي فتاة إيطالية في التاسعة عشر من عمرها اسمها "أديلي كاساتي".[ccxliv] كانت تعزف "التشلو". أعجب بها "بوالينوا" وتزوجا وأنجبت له فتاة اسمها "ديسبينا". كان بينهما فارق رهيب في السن، حوالي ستة وثلاثين عاما، لكنهما كانا سعيدين بهذه الزيجة. لنعد إذن لجويدان.
- لا بأس، والدة جويدان، "صوفي"،[ccxlv] كانت على علاقة بالمخترع المجري "تيودور بوشكاش"[ccxlvi] الذي عمل مع

"توماس إديسون". هناك من يردد في المجر أنها ابنة "بوشكاش" هذا، ومن ثم ليس لديها الحق في اللقب.

- وماذا أيضا؟
- أنا لا أشك في أنك يا عباس تعرف كل هذا، كما ليس لدي ذرة من ريب في أنك تعرف أنها كانت على علاقة مع عازف بيانو ألماني اسمه "إيميل فون صوير"[ccxlvii] وإيطالي مطلوب للعدالة وآخرين ممن كانت تستدين منهم وعلى رأسهم المبعوث الفارسي "خان نيريمان"،[ccxlviii] بل أنها كانت متزوجة من "بارون" سويدي اسمه "آرثر فون كلينجسبور"[ccxlix] وأن إسلامها كان كضرب عصفورين بحجر واحد.
- كيف؟!
- بدخولها الإسلام يصبح زواجها من البارون غير المسلم باطلا ووجب التفريق بينهما، ثم إرضاء عائلتك وأغلب شعبك.
- على أي حال، وددت فقط الاسترشاد برأيك. العلاقة بيننا متوترة، وأرى أننا سائران في طريق الانفصال والطلاق.
- أشد ما أحزنني يا أخي من تصرفاتها هو تقمصها دور "فلورانس نايتنجيل" وفتح قصر رأس التين لاستقبال جرحى الحرب التركية- الصربية.
- هذا تم بأمري يا محمد. أمرت بعلاج الجرحى دون اعتبار للديانة أو الجنسية.
- المعذرة يا أخي. أعلم أنك متخذ القرار، لكنها كانت صانعة القرار وضغطت عليك ليدخل حيز التنفيذ. الجرحى يا عباس لهم

أماكن يعالجون فيها ليس من ضمنها يخت المحروسة أو قصر رأس التين. على أي حال يا أخي أرجو ألا تغضب من كلامي فأنا أتمنى لك الخير، وسامحني، لم أشأ الإفصاح عن كل هذا، لكنك طلبت الصراحة والنصيحة.

- لا عليك يا محمد.
- أنت أخي الوحيد وصديقي العزيز. فتحت عيناي على الدنيا فوجدتك وقلدتك وأحببتك. بيننا سنة في العمر، لكننا كما تفضلت بالقول "توءم".

(١٠٠)

"الدكتور هس"

في ظهيرة أحد الأيام كانت جويدان مع معلم اللغة العربية، الدكتور السويسري "هس"[ccl] في حجرة المكتب بقصر مسطرد. قال "هس":

- تقدمت كثيرا في اللغة العربية يا أميرتي.
- لا تخبر أحدا. أريد أن أعرف ما يقوله عنى الناس والأميرات دون إدراك منهم أني أفهم ما يقولون، لذلك تظاهرت بالحزن حين رفض الأزهريون تعليمي إياها.
- ظننتك تتعلمين العربية لتفهمي القرآن مثل الليدي "إيفلين كوبولد".[ccli] قابلتها في أحد فنادق القاهرة. كانت متحمسة جدا للدين الجديد.
- أعلنت إسلامي لأبقى في الدائرة الأوسع.
- كيف؟!
- المسلمون يؤمنون بجميع الأنبياء.
- هذه إذن هي الدائرة الأوسع التي يربح فيها الشخص ولا يخسر شيئا؟!
- تماما.
- لم أكن أدرك هذه النظرة البرجماتية في تقييم الديانات الإبراهيمية.
- دكتور "هس" أنت رجل عركتك الحياة، واعتبرك في مقام والدي.

- هذا شرف لي يا مولاتي.
- أريد أن أستشيرك في أمر يخصني، وهذا بيننا فقط.
- مؤكد سموك.
- أحب هذا القصر، لكن وجوده على أطراف القاهرة يشعرني أني على هامش الحياة بالنسبة للخديوي، تماما مثل جارية الخديوي إسماعيل الأثيرة، نزديل، التي أقامت في قصر الزعفرانة مع خمسين فتاة شركسية.[ccliii]
- قصر عابدين مخصص للحكم وقصر القبة يقيم فيه أولاده يا مولاتي.
- والدته لا تحبني والسلطان العثماني لا يستلطفني.
- وما السبب؟
- بالنسبة لأمينة هانم لا أحد يأخذ مكان إقبال هانم عندها؛ إنها أم الأولاد. هناك أيضا مسألة كسر "التابوهات" والتقاليد التي يرمونني بها.
- هذه نقطة مهمة للغاية في مصر.
- يمكن تغيير كل ذلك. يقع على عاتقنا نحن الأوربيون المساهمة في التغيير أو التغريب، سمه ما شئت. "إيفلين كوبولد" التي ذكرتها آنفا في معرض حديثك تقوم الآن برحلة في صحراء الفيوم مع صديقتها الأمريكية، "فرانسيس جوردن ألكساندر".[ccliii] أليس هذا شيئا مذهلا ويحفز المصريات على الخروج من سجن الحرملك؟
- بلى، لكن دعينا نركز على مشكلتك أنت.

- في الحقيقة، لا أجد لها حلا. أشعر أن المصريين لا يحبوني. سعد زغلول نعتني بكلمة قبيحة، والبعض يشكك في نبالتي.
- هذا شيء مؤسف حقا.

(١٠١)

"مينور"

قامت جويدان من جلستها. ذهبت إلى النافذة ثم فتحتها. شهقت ثم عادت قائلة:

- لا أستطيع أن أعيش في حرملك. خلفيتنا الأوروبية مختلفة، ثم أن الزمن تغير. انظر مثلا إلى الأميرة نازلي فاضل؛ إنها سافرة وتسافر بمفردها وتستقبل الرجال في صالونها وتدافع عن حرية المرأة.
- فعلا شهرتها ملأ السمع والبصر.
- في يوم من الأيام سأكتب عن هذا الحرملك.
- الحرملك يا سيدتي هو أسوء انتكاسة مرت بها المرأة الشرقية.
- فعلا. كتبت البارونة "ماري إليزابيث (أكورت) هيربرت"[cclv] أثناء زيارتها للحرملك العالي المصري عام ١٨٦٠: "إن جهل السيدات في الحرملك لا يمكن تصديقه .لا يعرفن القراءة ولا الكتابة. يشغلن أيامهن في اللبس والاستحمام والأكل والشرب والتدخين."[cclv] وعام ١٨٦٤ خطت "إيمالين لوت"[cclvi] أن الحرملك الكبير متخم بالمؤامرات والغيرة والفساد والدسائس.[cclvii] وأما "إلين شانليز"[cclviii] فقد دونت عام ١٨٧١: "يصدمك الغياب الكامل لأي شيء من شأنه أن... يعمل على تشغيل الذهن في الحرملك، فلا كتب... ولا أشغال نسائية صغيرة."[cclix] الموسيقى يتم تعليمها للخصي الذين ينقلوها بدورهم إلى الأميرات! في واقعة مضحكة، فوجئ أحد الأطباء بأن

جارية تضع سماعة الكشف الممتدة من وراء ستارة على صدرها عوضا عن سيدتها! جهل مطبق.

- ناهيك يا مولاتي عن الظلم والجنف والخرافة والمكائد. روت السيدة "ديمر" في مذكراتها عن خادمة يونانية شابة حرقت دون قصد منها بعض المعلقات اللامعة على واحد من فساتين إحدى كريمات محمد علي الكبير، أظن نازلي. نالت الخادمة عقابا مريعا لدرجة أنها لاذت بالفرار متحصنة بمنزل القنصل اليوناني الذي وفر لها الحماية لمدة ثلاثة أيام ثم أعادها للأميرة بعد استمالتها له وممارسة تأثيرها عليه وقطعها وعدا غليظا بالعدل والإنصاف. سرعان ما حنثت الأميرة بالعهد. أمرت بسجن الخادمة المسكينة وتواتر أنها وجهت ببتر عقلة يوميا من أصابع يدها التي تسببت في الحادث.[cclx] شيء شائن وشنيع.
- بالطبع يا بروفسير. وأنا أحيلك بدوري لقصة حكتها لي إحدى وصيفاتي عن جارية تُدعى "مينور". هل سمعت عنها؟
- كلا.
- حدث هذا منذ نصف قرن ونيف. كان هناك رجلا اسمه "عبد الرحمن بيك" يشغل وظيفة مرموقة في الدولة وله زوجة "تركية" اسمها "هديل" وله أولاد منها.
- حسن وبعد؟
- هذه الزوجة كانت غيورة ومن النوعية التي تتجسس على زوجها. ابتاع الزوج جارية أصلها من "كردفان" تُدعى "مينور".
- ثم؟

- حبلت "مينور" من سيدها فأقامت "هديل" الدنيا ولم تقعدها. أساءت معاملتها على نحو مخيف؛ تضربها بالكرباج وتبصق في وجهها وترغمها على الجلوس على ركبتيها بينما تضع هي قدميها على ظهرها وكأنها منضدة، ويستمر هذا الوضع بالساعات. فكرت أيضا في إجهاضها.
- شيء بشع!
- صحيح. ساور القلق هديل حول مصير ابنها. قالت لها الطاهية: "يحفظه الله لك؛ يكون في بطنك ولا تستطيعين حمايته". بعد مرور بضع شهور وُجد ابن "مينور" ميتا وآثار الخنق حول رقبته. بعدها بأيام ماتت "هديل" مسمومة بعد تناول الشربات. طبعا كانت "هديل" وراء موت الطفل وانتقمت "مينور" المكلومة بتسميمها. لم تُحاسب هديل على فعلتها لأنها من عائلة "تركية" كبيرة بينما نُفذ حكم الإعدام في "مينور" لأنها فتاة مُستجلبة.
- مسكينة.
- وُضعت "مينور" على حمار بالمقلوب بحيث يكون وجهها مقابلا لذيل الدابة التي طافت بها في شوارع الإسكندرية. عُرضت أمام العامة بجسمها الواهن وشعرها الخشن مثل الصوف المترع بالقش أو عش طائر اللقلق، ووجهها الغارق في اللامبالاة. هؤلاء الذين وقفوا يشاهدونها هم من رفضوا الاعتراف بأهليتها وأحقيتها كإنسانة إلا حين قرروا موتها. الآن يُطلب منها كإنسانة تحمل المسؤولية عن أفعالها. بعد عدة ساعات من الطواف بهذه التعيسة وضعها القائمون على التنفيذ

في جوال ثم حملوه على متن قارب وعلى مسافة معينة في البحر ألقوه في الماء. هذه هي عدالة الحرملك.

- أنت قبلت بهذا الوضع بزواجك في الشرق.
- قبلت على أمل أن أغير الواقع.
- الواقع أن الخديوي يحبك كثيرا.
- تغير بعض الشيء.
- هموم الحكم.
- لا أدري.

(١٠٢)

"قائمة العشيقات"

سُمع طرق على الباب ودخلت خادمة الأميرة، "هرملين" بالقهوة.

- هل تسمح لي بالتدخين؟
- بالطبع يا سيدتي.
- افتحي النافذة يا "هرملين" وأغلقي الباب.
- أمرك مولاتي.
- كنت أقول يا دكتور "هس" إني فعلت المستحيل من أجل الاحتفاظ بعباس. تنكرت في زي سكرتيرة وراهبة وممرضة لأنعم بمرافقته في سفرياته.
- التقاليد التركية لا تسمح لزوجة الحاكم بمرافقته.
- هذا خطأ، شعرت أنه يحتاجني بجانبه. أنت لا تعلم يا "بروفسير" قصتي معه. إنها حكاية طويلة.
- يمكنك تلخيصها لي إذا أردت.
- كان يدرس مع أخي في "فيينا". قابلته في باريس عام ١٨٩٦. حضرت حفل راقص في قصر عابدين. بعد انفصاله عن إقبال هانم حضرت إلى مصر بصفة دائمة عام ١٩٠٥. أقمت هنا كصديقته. تزوجنا عام ١٩١٠، لكن أشعر أن طلاقي يلوح في الأفق.
- لماذا؟
- وجدت مع خادمه "بول". هو في الحقيقة سكرتيره الشخصي لأمور الـ...

- مفهوم. مفهوم. ماذا وجدت؟
- وجدت قائمة بأسماء خليلاته، وعرفت من "بول"، وهو مخلص لي، أن عباس معجب براقصة باريسية، لكنه رفض أن يبلغني باسمها.[cclxi]
- هذا أمر خطير.
- فعلا.
- لدي أصدقاء في باريس. لو اهتدينا إليها يمكننا ترضيتها بمبلغ من المال لتبتعد عن الخديوي.
- يا "بروف"، أقول لك "بول" لديه قائمة طويلة من العشيقات. إذا ذهبت الراقصة ستأتي أخرى. هو مغرم بالراقصات. حكى لي الخديوي بنفسه أنه عام ١٨٩٢ حضر عرض لراقصة أمريكية مشهورة اسمها "لوي فولر"[cclxii] في "لاهاي"، وأنه أعجب بها وحاول التقرب منها، لكن تبين أنها لديها ميل للسيدات فقط. أنت تفهم بالطبع.
- أجل، أجل. جده الكبير لأمه كان أيضا مغرما بالراقصات.
- عباس الأول؟!
- أجل. شاع بين الناس أنه تزوج راقصة اسمها صفية، لكن الراجح أنه اتخذها خليلة.[cclxiii] كان محمد علي الكبير قد أسكن الراقصات في شارع يحمل اسمه بالقرب من القلعة! وعندما عرف أنهن خلبن عقل حفيده، عباس ابن أحمد طوسون، قام بنفيهن إلى "الصعيد"، لكن وبالعودة إلى عباس الثاني.. ما الحل؟
- لا أعرف. طلبت من خادمتي، "هرملين"، التي يستلطفها "بول" التجسس على قائمة الخليلات.

- جميل.
- "بول" حريص جدا في هذه المسائل، لكن "هرملين" استطاعت قراءة سطرين فقط: "ديفورسيه س. م."
- والذي يعني المطلقة سين ميم. لن يفيدنا ذلك في شيء يا مولاتي.
- نعم، والأميرة "أميلي كارابو".[cclxiv]
- سمعت عنها من الخديوي نفسه. فرنسية تزوجت من أمير روسي في الغالب أو جورجي أو سيبيري اسمه "ألكسيس".
- في أي سياق ذكر الخديوي اسمها؟!
- قال إنه كان يتناول الغذاء معها في باريس ثم اقترح عليها اصطحابها للتسوق. قامت "أميلي" لاستبدال ملابسها فلمحت من النافذة جماعة من الشباب ينتظرون بالقرب من المبنى ويثبتون أعينهم عليه. اتصلت بهدوء وبدون إخبار الخديوي بالشرطة. بعد فترة من الوقت حضر ضابط إليهما وأخبر عباس أنه نجا من الموت بأعجوبة والفضل لمكالمة الهاتف. كان هناك عشرون شابا يتربصون به يريدون قتله. بعد عودة الخديوي إلى القاهرة أرسل للسيدة "أميلي" جوهرة ثمينة من جبال الأورال.[cclxv]
- جوهرة من الأورال!
- أجل. أقدر حيرتك يا سيدتي، لكن مؤكد سنهتدي إلى حل.
- أتمنى ذلك.

(١٠٣)

"الأميرة صالحة"

في ٢٧ مارس من عام ١٩١٣ أقيم حفل زواج عطية الله هانم، بنت الخديوي عباس في قصر القبة على محمد جلال الدين باشا، الصدر العثماني الأسبق.

أثناء الحفل حضر إلى حديقة القصر رجل مهيب انتحى به عباس وأخذ يكلمه بحدة. كانت جويدان تتحين الفرصة لتجنب أمينة هانم إلهامي وطليقة زوجها، إقبال هانم، فتلصصت من النافذة على هذا المشهد.

ولأنها استطاعت تجنيد "بول" صاحب قائمة الخليلات، فقد استدعته في اليوم التالي إلى قصرها بمسطرد لتعرف سر هذا النقاش المحتدم. قال "بول":

- إنه ويصا واصف، محامي الأميرة صالحة.
- الأميرة صالحة من؟!
- الأميرة صالحة بنت الأمير إبراهيم حلمي ابن الخديوي إسماعيل.
- يعني بنت عم عباس؟
- أجل.
- وماذا بينه وبينها؟
- لا شيء.
- "بول".
- مولاتي. لا تضغطي عليّ أرجوك.

- لك مني مكافأة سخية. هل خذلتك من قبل في كل المعلومات التي عرفتها منك عن عباس؟ أفعل ذلك من أجل المحافظة عليه. أنت تعرف ذلك. أنت أوروبي مثلي وتفهم ضعف موقفي. أنا وأنت في النهاية نحب الخديوي ونتمنى له السلامة.
- صحيح يا مولاتي. سأخبرك.
- جميل.
- كانت الأميرة صالحة متزوجة من الأمير محمد وحيد الدين ابن إبراهيم فهمي بن أحمد رفعت ابن إبراهيم ابن محمد علي. وأنجبت منه طفلين. توفى زوجها في حادث تحطم سيارة في فرنسا عام ١٩٠٦ ودفن في مقابر الشافعي. الحقيقة وأرجو ألا تغضبي حين شاهدها الخديوي أعجب بها.
- ألم يشاهدها من قبل؟ أليست ابنة عمه؟
- النضج يا مولاتي يجّمل المرأة، والخديوي كان يدرس في الخارج، وكان بينه وبين عمه، إبراهيم حلمي، غصة فإبراهيم هو مرشح جده إسماعيل لحكم مصر في السر بينما كان والده توفيق ولي العهد في العلن.
- أكمل، أكمل.
- يومها ذهب الخديوي لتعزيتها شخصيا. كنت حاضرا معه.
- حسن وبعد؟
- كان الخديوي يعلم بوجود مشاكل بين الأميرة صالحة وزوجها الراحل بسبب علاقاته النسائية المتعددة. انتهز الخديوي الفرصة وضرب على الحديد وهو ساخن.

- كيف؟!
- استبقى الخديوي يد الأميرة في يده لدقيقة أو يزيد، ثم قال لها: أتمنى أن يكون حظك مثل حظ هند بنت المهلب التي استبدلت الدرهم بالدينار. فهمت الأميرة قصده، لكن لسبب ما لا أعرفه لم تستجب له.
- يعني حدث هذا أثناء وجودي معه هنا!
- أجل يا مولاتي.
- وهل هي جميلة؟

صمت "بول". يدرك أنه لا توجد امرأة على وجه البسيطة تحب أن تسمع كلمات تُطري غريمتها. أما صالحة فكانت، كما يقول المسلمون، حورية من الجنة.

رد "بول" بشكل مقتضب:

- نعم يا مولاتي.
- أنت تتغزل فيها أمامي؟! مؤكد أنا أجمل؟
- بالطبع يا مولاتي. المجريات أجمل نساء الأرض.
- إذن ماذا يميزها عني؟!
- ربما تميزت بالقرابة منه وبأنها بنت البلد.
- لا بأس يا "بول"، أكمل.

(١٠٤)

"صالحة وفلاديمير يوركفيتش"

وضع "بول" إصبعه في فمه وكأنه يُذّكر نفسه أن ينتقي ألفاظه ويضبط عباراته، ثم استأنف حديثه قائلا:

- قابل الخديوي عمه إبراهيم حلمي. أخبره أنه معجب به لثقافته الواسعة وعلمه الغزير. قال إن اثنان فقط في أسرة محمد علي سيبقى اسميهما مرتبطا بالبحث والمعرفة: الأمير عمر طوسون والأمير إبراهيم حلمي. رد الأمير إبراهيم قائلا: نسيت عمي مصطفى فاضل. كان له مكتبة عظيمة صارت نواة لدار الكتب. لم يعلق الخديوي عباس. على أي حال شعرت يومها أن الخديوي يتزلف للرجل على غير عادته معه، وأنه يمهد لشيء ما. كان مع الأمير إبراهيم حلمي ابنته زينب التي لم يتجاوز عمرها العاشرة. أخذ عباس يدللها ويلعب معها. علق الأمير إبراهيم حلمي: "سميتها على اسم شقيقتي زينب التي خطفها الموت وهي عروس، وبدورها سُميت أختي زينب على اسم الأميرة زينب بنت محمد علي الكبير من شمع نور قادين. تزوجت من يوسف كامل باشا الذي صار الصدر الأعظم للخلافة العثمانية."
- ثم؟
- قبل أن يتخذ الخديوي أي خطوة بخصوص الأميرة صالحة فوجئ بها قد تزوجت عام ١٩٠٧ من ضابط روسي. يُدعى "فلاديمير يوركفيتش".[cclxvi] التقيا في باريس وجمع الحب بينهما. طلق زوجته الأولى قبل لقاءه بصالحة.

- ثم؟
- هاج الخديوي وماج. أوعز إلى الأزهر بإصدار فتوى تحرم هذا الزواج وتوجب فسخه، كما أسقط عنها الألقاب الملكية وحجز على ممتلكاتها عام ١٩٠٩. فعل كل هذا كي يفرق بينها وبين الضابط الروسي وتأتيه صاغرة، لكن الأميرة تمسكت بزوجها وقررت خوض الحرب للنهاية.
- خيرا فعلت.
- وكلت الأميرة المحامي الكبير ويصا واصف لرفع قضية أمام المحاكم المختلطة بصفتها حاصلة على الجنسية الروسية وبالتالي لا تخضع للقانون المصري، ومن حقها استعادة ممتلكاتها. أما اللقب فلم تهتم به.
- تقصد أن الرجل الذي استدعاه الخديوي وتحدث معه في الحديقة هو محامي صالحة.
- أجل. لامه على الدفاع عن صالحة، وطلب منه أن يتخلى عن القضية.
- وهل وافق؟
- بل رفض، وحتى سعد زغلول ترك وزارة الحقانية اعتراضا على تلاعب القيّم على أملاك الأميرة صالحة وأولادها، حسن باشا عاصم، مضيفا أن ذلك يتم بعلم الخديوي الذي استعمله في خاصته وبطانته. من ناحية أخرى سمعت أن الأميرة صالحة أنجبت ولدا[cclxvii] من زوجها الروسي، وأن هذا الزوج يفكر جديا في التحول إلى الإسلام،[cclxviii] لا أعتقد عن اقتناع، لكن كي تسترد زوجته أملاكها وألقابها، ولو حدث ذلك، وأتوقع أنه سيحدث

في القريب العاجل فسيخسر الخديوي معركته، وسيكون أمرا مؤلما له.

- لهذه الدرجة يكن لها عباس المعزة؟!
- الخديوي يا مولاتي، واعذريني في اللفظ، طفل كبير. لا يهدأ حتى ينال ما يريد ثم يزهد فيه، وما تملكه اليد تمله العين.
- أصبت.
- الأميرة شويكار أخت الأمير محمد وحيد الدين إبراهيم، زوج صالحة الراحل، وزوجة الأمير فؤاد زارت الخديوي بعد الحفل وحثته على عدم تمكين صالحة من أملاكها أو ألقابها. أم الأمير محمد وحيد، نجوان هانم، التي تعيش في إسطنبول أرسلت للخديوي بنفس المطلب قائلة: أتمنى ألا تخذلنا كما حدث مع ابني "سيف الدين إبراهيم".
- سيف الدين الذي أطلق النار على الأمير فؤاد، زوج شويكار، بحجة أنه يبتز أموالها ويسيء معاملتها الأمر الذي تسبب في ضخامة صوت الأمير فؤاد؟
- أجل يا مولاتي. تعرض سيف للسجن والحجز في مصحة نفسية بإنجلترا. لم يشأ الخديوي التدخل. في الحقيقة كان ينتظر طلب ذلك من صالحة فالأمير سيف هو عم أولادها، لكنها لم تفعل ولو طلبت ذلك من الخديوي لاستجاب لها. هذه قناعتي الشخصية.
- وماذا كان رد الخديوي على شويكار ونجوان؟

- طيب خاطرهما قائلا: لن نعترف بجنسيتها الروسية، وبذلك ينتفي كل شيء.

في هذه اللحظة دخلت المدربة الرياضية لجويدان قائلة:

- مولاتي موعد التدريبات البدنية.
- هيا بنا يا "مايسكي".

(١٠٥)

"بينيلوبي"

في صالة التدريبات الرياضية لم تستطع "جويدان " إبعاد التفكير فيما سمعت من "بول". توقفت ولم تستطع أن تُكمل التمرين. قالت "مايسكي":

- مولاتي، شيء ما يشغل بالك ويمنعك من التركيز اليوم، وأخشى أن لا تنتبهي فتعرضي نفسك للإصابة.
- على أي حال لا أستطيع المواصلة ويكفي اليوم يا "مايسكي".
- مولاتي، هل أنت بخير؟
- نعم. ماذا عنك أنت ومشكلتك من زوجك؟
- ليس لها حل يا مولاتي. هو زير نساء بامتياز. أقنعت نفسي أنه ينام بجانبي في المساء وانتهى الأمر.
- لكن يا "مايسكي"، غدا لن ينام بجانبك في المساء.
- ماذا أفعل؟ أرتعب من لقب مطلقة.
- مطلقة أفضل من أضحوكة.
- على أي حال يا مولاتي والدتي تقول إن كل الرجال كذلك.
- حقا؟
- عدا بالطبع مولاي.
- ولم تستثني عباس؟
- لأنه الخديوي، ومتزوج من ملكة الجمال وأميرة القلوب. صحيح أنه لم يوفق في زواجه الأول، لكنه بلغ السماء بزواجه منك،

والأجمل أنك يا مولاتي لم يكن لك دخل في طلاق إقبال هانم فقد انفصلا قبل أن يوطد الخديوي معرفته بك.

- نعم... نعم... بالطبع.
- والولد يا مولاتي صنو أبيه، ولقد قرأت أن الخديوي توفيق ورد عنه أنه قال ذات مرة في إحدى المحادثات: إن الحياة الأسرية هي إحدى النعم التي حبانا بها الله في هذه الدنيا. أعلم العواقب الوخيمة لتعدد الزوجات. لدي زوجة واحدة فقط رُزقت حبها، وأظن أني اتخذت القرار الصائب لأني أشعر بالسرور والحبور.
- شيء جميل.
- تعلق توفيق بزوجته أمينة، وأحبها حبا جما، وكان يعاملها معاملة طيبة برفق وإنصاف، وبعد أن اعتلى العرش عاملها كملكة متوجة.[cclxix]
- محظوظة أمينة.
- دار بين الخديوي وأميرة "ويلز"، "ألكساندرا"..
- الملكة "ألكساندرا" فيما بعد.
- نعم، زوجة الأمير "إدوارد"..
- الملك "إدوارد السابع" فيما بعد.
- أجل، أجل يا مولاتي، دار بينه وبينها أثناء زيارتها لمصر والتقاءها بتوفيق وزوجته حديث عن تعدد الزوجات. دُهشت الأميرة عندما سمعت توفيق يدين بشدة هذه الممارسة؛ كما فوجئت أيضا عندما قال إنه لم يكن لينكح زوجة إلا إذا كان يحبها.[cclxx]
- كلام جميل فعلا.

- الغريب يا مولاتي أن الخديوي إسماعيل تلقى تعليمه في أوروبا ورغم ذلك كان لديه عشرات الجواري، بينما ابنه توفيق تعلم في مصر ولم يتسر بجارية واحدة.
- هذا صحيح، لكني دعيني أصدمك يا "مايسكي" وأقول لك أن عباس ليس توفيق وأن هذا الشبل ليس من ذاك الأسد. إنه أميل إلى جده إسماعيل.
- أنا قلت لك يا مولاتي الرجال كلهم متشابهون، نقلا عن أمي.
- أنت ذكية يا "مايسكي" ومجاملة.
- أنا تعيسة يا مولاتي. أشعر أن زواجي ينهار وزوجي ليس لي وحدي، وإني لأتساءل يا مولاتي: ماذا لو كانت الآية مقلوبة وكنت أنا من يتغير ويخون؟
- لكانت الدنيا قامت ولم تقعد.
- فكرت كثيرا في هذا الأمر وتذكرت قصة مواطنتي "بينيلوبي". مؤكد تعرفينها فأنت مثقفة وتحبين القراءة والكتابة.
- نعم، زوجة أوديسيوس التي تنقض غزلها.
- كلا يا مولاتي، هذه "بينيلوبي" أخرى. "بينيلوبي باناكيس".
- لا أعرف قصتها. ماذا عنها؟
- ولدت "بينيلوبي" في الإسكندرية عام ١٨٧٤. كان والدها، "إيمانويل باناكيس" تاجرا للأقطان في الإسكندرية. عام ١٨٨٢ انتقلت الأسرة إلى أثينا وتزوجت "بينيلوبي" من بائع "فانتازيات" يوناني يُدعى "ستيفانوس دلتا" وأنجبت منه ثلاثة بنات. عادت الأسرة إلى الإسكندرية عام ١٩٠٥ حيث التقت "بينيلوبي"

بالسكرتير الأول للقنصلية اليونانية، "أيون دراجوميس" أثناء عرض مسرحي في "تياترو زيزينيا"، ونشأت بينهما علاقة عاطفية لفترة من الوقت. قررت "بينيلوبي" قطع هذه العلاقة من أجل بناتها وتفرغت للكتابة. من جانبه دخل "أيون" في علاقة من الممثلة، "ماريكا كوتوبولي" عام ١٩١٢. حاولت "بينيلوبي" الانتحار مرتين.[cclxxi]

- والشاهد؟
- المرأة دائما هي من تدفع الثمن.

(١٠٦)

"مي زيادة"

استدعى الخديوي شاعره، أحمد شوقي، إلى القصر، ثم قال له معاتبا:

- لا نراك كثيرا يا شوقي. ظننتك هربت كما فعلت في الحج آنفا.
- مولاي، قلت لك إلا ركوب الجمل.
- مرفه أنت يا شوقي. تربية قصور بصحيح.
- نعم يا مولاي، جدتي "تمراز" كانت يونانية ومن معتوقات إبراهيم باشا.[cclxxii]
- جدي إبراهيم عاد من اليونان بخمسة آلاف أسير وأسيرة.[cclxxiii]
- صحيح يا مولاي، لكن اليونانيات تمتعن بالأنفة وعزة النفس فأنت تعرف جلالتك أنهن وريثات حضارة عظيمة. سليمان باشا الفرنساوي كان لديه ثلاث يونانيات والمستشرق، "بوركهارت" تزوج من اليونانية "إيفيت". "وليم إدوارد لين"، منصور أفندي، تزوج من اليونانية نفيسة بعد إسلامها و"روبرت هاي"[cclxxiv] تزوج من "كاليتا" الكريتية.
- عذرا يا شوقي، لكني لا أحبهن مطلقا.
- لم يا مولاي؟!
- هناك من يقول بأن جدي لأمي، أحمد طوسون، مات بالطاعون الذي انتقل إليه بعد معاشرته لجارية يونانية في قصر "برنبال" بالقرب من رشيد، لكني أميل إلى الطرح الرسمي الذي يقول إنه مات متأثرا بجراحه في الجزيرة العربية.

- رحمة الله عليه. على أي حال يا مولاي وعودة للحج تعرف جلالتك أني نظمت قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم.
- ريم على القاع بين البان والعلم/ أحل سفك دمي في الأشهر الحرم.
- تماما يا مولاي.
- لكن الحج يا شوقي- ورغم مشقته- تجربة ملهمة. لا أخفيك سرا استمتعت بوجودي في المدينة المنورة كثيرا وأنا أستلهم الحرب التي خاضها جدي طوسون، بها.
- هل تعرف يا مولاي أن سلاطين بني عثمان لم يحج منهم أحد؟! قيل إن بايزيد الثاني حج قبل توليه الخلافة، وأن السلطان عبد الحميد الثاني حج سرا عام ١٩٠١، لكن هذا لم يثبت.
- لا بأس، أخبرني في أي واد تهيم هذه الأيام؟
- في وادي مي يا مولاي.
- تقصد مي زيادة؟
- أجل يا مولاي.
- لكن صالونها يوم الثلاثاء وحسب يا شوقي.
- جعلت أيامنا كلها ثلاثاء. ألم تسمع جلالتك شعر إسماعيل صبري؟
- إسماعيل صبري من جديد؟!
- لا أفهم يا مولاي.
- لا عليك. ماذا يقول الرجل؟

- يقول:

روحي على بعض دور الحي قائمة كظامئ الطير تواقا إلى الماء
إن لم أمتع بمي ناظري غدا أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

- لهذه الدرجة؟!
- وأكثر يا مولاي.
- ومن يحضر غيرك وصبري؟
- مصطفى صادق الرافعي.
- شخص جميل.
- أوافقك الرأي يا مولاي. تخيل جنابك أنه من فرط وضوحه يحكي لزوجته عن إعجابه بمي. أمر صعب على أي امرأة!
- ومن أيضا من رواد الصالون؟
- عباس ال...

امتعض الخديوي لذكر اسم عباس العقاد. أدرك شوقي ما بين الرجلين من جفاء فتلجلج ولم يُكمل الاسم. بادره الخديوي بذكائه المعهود قائلا:

- لا أظن أن مي زيادة تستلطف العقاد.
- هو يحاول والأمر متروك لها يا ولي النعم. سألته مي: لماذا تكتب لي "أنتي" بالياء وليس بكسر التاء كما هو مستقر؟ أجاب يعز عليّ كسرك حتى في اللغة.
- ظريف! ومن أيضا في قائمة مي؟
- خليل مطران وإسماعيل مظهر وغيرهما.

- كل هؤلاء معجبون بها؟!
- كل هؤلاء يحبونها يا مولاي؛ أكاد أجزم بذلك.

تنهد الخديوي وقد تذكر طيف صالحة:

- المهم هي تحب من؟

(١٠٧)
"أبناء وعشاق"

لم يتوقع الخديوي أن يأتيه رد على سؤاله، لكنه فوجئ بشوقي يجيب:

- تحب جبران.
- جبران خليل جبران؟!
- نعم يا مولاي بالرغم من أنهما لم يلتقيا. حب عبر البريد. حب عذري أفلاطوني.
- الحب عندي أن يمتلك المحب حبيبته ويضع يده عليها.
- ليس شرطا يا مولاي.
- ما أجمل ما قيل في الحب من طرف واحد يا شوقي؟
- أبيات الشافعي يا مولاي التي يقول فيها:

فما كل من تهواه يهواك قلبه ولا كل من صافيته لك قد صفا

وقول أبي فراس الحمداني:

فأيقنت أن لا عز بعدي لعاشق وأن يدي مما علقت به صفر

- جميل، وماذا عن مي وجبران؟ هل تعتقد أن شملهما قد يجتمع؟
- أشك في ذلك يا مولاي، لكننا نستمتع بحوار المسافات بينهما.
- مثل ماذا؟
- كتب جبران: الحب لا يمكن شراؤه... لا تحاول شراء الحب لأنك بالمقابل تبيع نفسك... هم في البعد أحلى وهم في البعد أرقى وهم في البعد أغلى.

أطلق عباس زفرة محب ثم عقب:

- صدق والله.
- لكن ماذا عن سلمى التي ذكرها في كتابه "الأجنحة المتكسرة"؟
- لا أدري يا مولاي. ربما كانت شخصية أدبية متخيلة. الثابت يا مولاي أن جبران كان يبحث عن أم في صورة حبيبة وحبيبة في صورة أم. هكذا دون في الكتاب الذي ذكرته جلالتك للتو: "الأم هي كل شيء في هذه الحياة، هي التعزية في الحزن والرجاء في اليأس، والقوة في الضعف".

أبدى الخديوي اهتماما بالفكرة ثم انطلق قائلا:

- كيف؟!
- في الوقت الذي تذوب فيه مي يذوب هو في الأمريكية "ماري هاسكل".
- كيف؟!
- والده كان سكيرا وكسولا ومتقاعسا عن العمل ومدمنا للقمار. تحملت أمه، "كاملة"، المسؤولية حتى أنها عملت في البيوت. كانت داعمة ومؤازرة لأولادها. كانت قوية وصاحبة إرادة، لكنها من حيث لا تدري أفسدت علاقة جبران بالنساء.
- لكن ما علاقة ذلك كله بالأمريكية، "هاسكل"؟!
- هي صورة من أمه، وتكبره بسنوات عديدة.
- الآن فهمت.
- وبين كاملة ومي زيادة و"ماري هاسكل"..
- انشطر جبران وتفسخ واحترق.

- غريبة يا مولاي! أخذت الكلمات من على فمي. نفس قصة الرواية التي صدرت في إنجلترا هذه السنة.
- أي رواية؟!
- "أبناء وعشاق" يا مولاي للروائي "د. هـ. لورانس".
- ماذا عنه وعن روايته؟
- كان لورانس طفلا مرهف الإحساس، تعمق في دراسة الإنجيل. بعد حصوله على قدر من التعليم عمل كمدرس في مناطق مختلفة بإنجلترا. توفت أمه التي كانت علاقته بها مميزة جدا ومن طراز خاص ومنها استلهم روايته " أبناء وعشاق" والتي بناها على نظرية فرويد حول عقدة أوديب. إن العقدة النفسية التي تولدت في لورانس (بول في الرواية) كان سببها كره لوالده، العامل في منجم للفحم، الغائب دائما وحضوره أسوء من غيابه، الثمل دوما، وتعلقه الزائد بأمه والذي أثر بالسلب على أي علاقة مع امرأة أخرى. كان شبح الأم يقف بينه وبين أي علاقة يدخل فيها، ومن ثم تنتهي بالفشل.

(١٠٨)

"جويدان"

انتهى زواج عباس وجويدان كما توقعت هي في النصف الثاني من عام ١٩١٣. تركت جويدان مصر وحصلت على وظيفة في القنصلية البريطانية بباريس. قيل أيضا أنها باعت أدوات التجميل في فيينا ومثلت في برلين. رسمت اللوحات وعزفت البيانو وكتبت المسرحيات الإذاعية وامتهنت الترجمة.[cclxxv]

طلقها عباس بحجة أن وجودها في حياته أصبح يهدد مستقبله السياسي. الأمور متوترة والعالم على شفا حرب، وعليه أن يختار: إما الاصطفاف مع السلطان العثماني أو التزلف للإنجليز. حاول أن يحتفظ بقدم في كل معسكر، لكنه فشل وأصبح وضعه مزريا أمام شعبه.

لم تكن هذه هي الحقيقة بحذافيرها؛ كان هناك سببا آخر وراء الطلاق.

ربما أشد ما أحزن جويدان وآلمها هو انتصار أمينة هانم. كانت تعرف أن حماتها ستكسب هذه الجولة وكل الجولات. ابنها مازال في رحمها لم يغادره ولم تقطع الحبل السري الذي يربطها بعد ولن تقطعه.

سأقذف بك إلى أعماق المحيطات،
لكنك ستنتهي إلى شاطئ
كرسالة بحر.
سألقي بك إلى عنان السماوات،
لكنك ستحط على نافذتي
كحمامة زاجلة.

سأطلقك في أزحم الطرقات،
لكنك ستهيم وتعود لعتبة بابي
كقطة أليفة.[cclxxvi]

أوهمته أمينة أنها تمنحه الحرية وتطلقه، لكنها أمسكت بالحبل الذي يعيده لها ثانية. كان عباس ممزقا بين أمه وبين من يقترن بها. أمه في كفة ونساء العالمين في كفة.

انكبت "جويدان" على تدوين مذكراتها. مما كتبت فيها عن حبها لعباس وولعها به:

لم أر مثل هذه الجاذبية في وجه غير وجهه، وكان فمه أجمل شيء فيه، فإنه كان يُشبه فم الأطفال، وعندما كنت أقول له ذلك كان يضحك كالأطفال، ثم يقول لي: يا طفلتي ثم يعقب هذا مداعبا بقوله: يا عروستي الصغيرة. وفي الواقع كنا نلعب كالأطفال، فكنا نلعب كثيرا مع الكلاب التي كنا نحبها على السواء، وكنا نتسابق في الغرف والممرات، ويجري الواحد منا في أثر الآخر، وكنا أحيانا نشرب القهوة بصوت عال جدا كما لو كنا من العامة أو نلفظ نواة تمر الكريز من الفم لنرى أينا يستطيع قذفها أبعد من الآخر، ولا ضرر في ذلك فإنها كانت تقع في حديقتنا. وغاية ما هناك كان الحراس يندهشون، بالاختصار كنا نحب بعضنا...

وددت لو أن هذا القطار أخذ يصغر ويتناقص حجمه حتى يصبح عربة واحدة ليس فيها إلا أنا وأنت. لا أحد غيرنا. لا شيء سوانا. حتى ماضي وماضيك قبل أن نتعارف لا أريد أن يكون معنا إلا ما أحدثناه نحن بأيدينا...

من ذا الذي يزعم أن الجماد لا روح فيه؟! تحتفظ الأشياء بنبض الحياة وتتفنن في إعادة إنتاج الحكايات. كم من حلم جميل أستعيده بين

هذه الوسائد الحريرية! كنا هنا جالسين أمام المدفأة؛ وكنت أنظر إلى نارها المتقدة عوضا عن وجهك ذلك لأنك تملأ ذاتي وكياني.

لقد فرقت بيننا الأيام الآن، ومشى بيننا الدهر، ولكني على يقين من أن روحينا ما زالتا على اتصال فإنك تشغل جزءا من نفسي كما أشغل جزءا من نفسك يحيا بذكراي، فإذا مت أنا فسيموت معي من نفسك ذلك الجزء الذي كنت أشغله.

(١٠٩)

"جورجيت ميسني"

ما لم تذكره جويدان في مذكراتها أن السر الحقيقي وراء انفصالها عن عباس هو امرأة أخرى. اكتفت باللياقة والكلام المنمق، لكن قلبها كان ينزف دما. الأمر كما رأته هي ليس له علاقة بالقسطنطينية ولا المصريين ولا إقبال ولا أمينة هانم ولا الأمير محمد علي وحسب.

السر كان في قائمة الخليلات التي احتفظ بها "بول". هذه بتلك. أمس إقبال واليوم هي.

فضح كل شيء "ياور الخديوي"، الرائد المجري وصديق دراسة عباس في "الترزينوم"، "كليمن أرفاي".[cclxxvii]

اسم المرأة الجديدة في حياة عباس هو "جورجيت ميسني"، واسمها الحركي "أندريه دو لوسانج"،[cclxxviii] ولماذا كان لها اسم حركي؟! لأنها ببساطة كانت جاسوسة تعمل لحساب الفرنسيين.

التقت "جورجيت" بصديقتها "مارجريت ماري ألبير"[cclxxix] أو "ماجي ميلر"[cclxxx] صدفة بالقرب من برج إيفيل. تزاملا لفترة في بيت مدام "دينانت"[cclxxxi] للتعارف وخلافه. انطلقت الأخيرة قائلة:

- "جورجيت"، أفتقدك بشدة.
- وأنا كذلك يا "ماجي"، لكن اسمي لم يعد "جورجيت". أنا الآن "أندريه".
- غريبة! ماذا تفعلين الآن؟
- مللت النوم مع العابرين ومن الرقص والغناء ومن كل شيء.
- فعلا، كنا سلعة يتلقفها الشواذ والأفاقين.

- لذا أفكر يا "ماجي" في مصاحبة أمير أو ثري شرقي.
- فكرة جيدة. لقد فعلتها قبلك، لكن مع موسر فرنسي اسمه "مسيو" "ميلر"، تاجر خمور لديه كثير من الأموال. التقيت به عام ١٩٠٧. الرجل متزوج بطبيعة الحال، لكنه أعطاني لقبه "ميلر" دون زواج.
- إذن أنت الآن "مارجريت ميلر"؟!
- نعم. أعيش معه وأحصل على أموال طائلة عوضتني عن أيام الفقر والإعواز ومكنتني من تربية ابنتي، "ريموندا"، وهي ابنة غير شرعية من شاب قبله، لكني أفكر في تركه والبحث عن آخر. ربما فكرت في موضوع الثري الشرقي أو ولي عهد أو أمير. وأنت؟
- لا أختلف كثيرا عنك، لكن والكلام بيننا أجمع بيانات من الزبائن وأسلمها للحكومة الفرنسية.
- لذلك غيرت اسمك.
- أجل. لو أحببت يا "ماجي" في المستقبل أستطيع أن أعرفك ببعض المسؤولين الذين يوفرون لأمثالنا المال والحماية.
- لا بأس.

احتالت "جورجيت" حتى تقابل الخديوي عباس في مطعم "مكسيم" في باريس في صيف ١٩١٢.

كانت في الثانية والعشرين من عمرها. انتمت للطبقة الدنيا من المجتمع الفرنسي. لم تمتلك الكثير من مقومات الجمال أو الإغراء، ولم تتمتع باللياقة أو التربية الرفيعة. الأسوأ من هذا كله أنها كانت غانية، وتبيع نفسها بعشرين فرنك.

رافقت الخديوي إلى مصر. أقامت في فندق في القاهرة. كان معها مساعدتها، الآنسة "ميلان". كان الخديوي يلتقي بها في الفندق. افتضح الأمر وتسمع به الناس والأسرة المالكة وجويدان.

واجهت جويدان زوجها بالأمر فاعترف بخيانته لها. لم تنطق ببنت شفة. دار الزمن دورته وشربت من الكأس الذي أسقته لإقبال. تجرعت حتى الثمالة دون تبرم وبدأت في ترتيب حقائبها.

بعد طلاق جويدان ورحيلها عن مصر بدأت "جورجيت" في التردد على القصر سرا تحت جنح الظلام. ظلت على علاقة مع الخديوي حتى خلعه. ابتزت أمواله حتى أنه ابتاع لها ذات مرة خاتم بسبعة وأربعين ألف فرنك. وضعت يدها أيضا على الكثير من أوراقه ومستنداته وسربتها للحكومة الفرنسية.

في ديسمبر ١٩١٤ افتعلت مع الخديوي مشادة عنيفة بفندق في فيينا. انتهى دوره، وحان وقت الرحيل.[cclxxxii]

(١١٠)

"مارجريت فهمي"

اتفق "جونا" وفدوى على اللقاء بمقهى "ديليس" في محطة الرمل لتدوين التقرير الخاص بالخديوي ووالدته وإقبال هانم و"الكونتيسة" جويدان و"البرنسيس" "ألكساندرا" والأميرة صالحة إلى آخره. تناولا "الفينيكيا" أو البسكويت اليوناني مع "الكافيه أو ليه". استهل "جونا" الحديث قائلا:

- تدرين يا فدوى أن "مارجريت ميلر"، صديقة "جورجيت" أوقعت ولي عهد بريطانيا، الأمير إدوارد"، في شباكها خلال الحرب العالمية الأولى، لكن لم تستطع إحكام قبضتها عليه؟
- أتدري أنت أنها تزوجت من "بولو"، هذا الباشا الصعلوك، صديق الخديوي عباس؟
- شبكة معقدة فعلا من الأسماء المزيفة والمصالح الخفية.
- أزيدك من الشعر بيتا. هل تذكر القصر المهجور الذي توقفنا عنده على الكورنيش؟
- نعم. قصر عائشة فهمي. قلت إنها تطلقت من زوجها، طبيب النساء والتوليد، لتتزوج ممثل مسرحي ثم تطلقت منه وتزوجت "شارلي شابلن" مصر.
- أحمد سعيد ويوسف وهبي ومحمود شكوكو بالترتيب.
- ليكن.
- عائشة تلك كان لها أخ اسمه "علي" تزوجته "مارجريت" وهي في عمر الثلاثين.

- حقا؟!
- أجل. بنى لها الوجيه علي فهمي هذا قصرا في الزمالك، لكنها قتلته في لندن بثلاث رصاصات من مسدسه. استطاع محاميها، "إدوارد مارشال هول"،[cclxxxiii] إثبات أنها كانت تدافع عن نفسها، ودفع بأنها عانت من العقلية الشرقية الغيورة المتملكة المترعة بعقد النقص. اقتنع القاضي، ومن ثم حصلت على البراءة، بل وطالبت بنصيبها من الميراث.
- غريبة! بيت دعارة في باريس يحدث كل هذا التغيير في العالم: "جورجيت ميسني" و"مارجريت ميلر ".
- وأخريات. لا تستغرب، بغي مكنت اليهود من دخول أريحا.
- راحاب، صحيح. لنعد إلى عباس إذن. هل تظنين يا فدوى أن الصواب جانبه؟
- تقصد في قضية الأميرة صالحة؟
- أجل.
- يقول الدكتور حسام في كتابه إن عباس، بشكل عام، كان منحازا لتحقيق العدالة، لكن الأهواء الشخصية شيء مختلف.
- العدالة لا تتجزأ. هكذا تعلمنا في إنجلترا.
- وهل إنجلترا نفسها كانت عادلة في القضية المصرية؟! هل تعلم أن كرياكوس ميخائيل، الرجل الذي منحنا بأوراقه كل هذا الزخم، أعادته إنجلترا إلى مصر مع أحداث ثورة ١٩١٩ لأنه انتقد المعايير المزدوجة للإنجليز؟
- وعباس، ألم يكن لديه معايير مزدوجة.

- بالتأكيد، لكن يراودني شعور أنه كان محبا للعدالة.
- حب العدالة شيء، وتطبيقها شيء آخر.
- وهذا أيضا صحيح.
- هل لديك يا فدوى مثالا على عدالة عباس؟
- نعم لدي. قصة المنشاوي باشا.
- أحب سماعها.

(١١١)

"المنشاوي باشا"

أخذت فدوى نفسا عميقا. قلبت في جوالها كمن يبحث أو يتأكد من معلومة ثم قالت.

- عام ١٩١٢ نزل بر مصر رجل إنجليزي لديه حس إنساني عميق. زار أملاك المنشاوي باشا في الغربية وامتدح كرم الرجل وحبه للإحسان وإنفاقه على أوجه الخير، والأهم أن الرجل لا يتسخى على الناس.
- ما اسمه؟
- المنشاوي باشا.
- لا، أقصد الإنجليزي؟
- "سايمون هنري ليدر".[cclxxxiv]
- حسن، وبعد.
- في يوم من الأيام قام المنشاوي باشا بحماية الأجانب في تناوش وقع بطنطا من بطش السكان المحليين مما جعل له مكانة في أوروبا. قربه الخديوي عباس بسبب هذه الواقعة على مضض. لم ينس له الخديوي أنه ناصر الثورة العرابية وآوي خطيبها، عبد الله النديم.
- حسن.
- ثم حدث أن سرق بعض اللصوص مواشي من أرض الخديوي عباس الثاني المتاخمة لأرض المنشاوي. قبض الأخير على الجناة

وأوسعهم ضربا قبل أن يُرسل بهم للسلطات التي حبسته هو أيضا لاستعمال العنف.

- السلطات الإنجليزية؟
- نعم. سلطات الاحتلال الإنجليزي.
- بغض النظر عن المسمى يا فدوى. كان يمكن للإنجليز تجنيبه السجن ردا للمعروف الذي أسداه لهم حين وفر الحماية للجاليات الأجنبية في طنطا.
- وكان بإمكان الخديوي أن يفتكه من السجن، لكنه لم يفعل.
- إذن يا فدوى فقد توافقت رغبة الخديوي مع الإنجليز.
- بمعنى؟
- بمعنى أن كلاهما كره عرابي وهوجته، ومن ثم لا أرى أن هذه الواقعة تبرهن من قريب ولا من بعيد على عدالة عباس.
- دعنا نغير الموضوع يا "جونا". لنعد إلى الأميرة صالحة.
- هو نفس الموضوع.
- كيف؟!
- لقد هضم الخديوي حقها.
- "جونا"، شعرت ليلة أمس بقلة المراجع لدينا عن الأميرة صالحة. بحثت في الكتب العربية فوجدت شيئا عنها كتبه مصطفى أمين، صحفي بارز ومؤسس جريدة الأخبار المشهورة.
- جميل.
- سوف أقرأ عليك ما كتبه من باب الأمانة العلمية. نستطيع الآن تمييز الغث من السمين واكتشاف المغالطات. وضعت خطوطا

تحت ما أعتقد أنه خطأ أو مناف للحقيقة. يُشاع مثلا أن الأميرة صالحة فكرت في دخول عالم السينما في باريس، وأن هذا الأمر أغضب العائلة المالكة، لكني لم أجد دليلا على ذلك.

- لماذا تفعل ذلك؟! لم تكن بحاجة إلى المال أو حتى الشهرة، لكن هات ما عندك.

شربت فدوى بعض الماء ثم شرعت في القراءة.

(١١٢)

"صالحة والضابط الروسي"

كانت الأميرة صالحة امرأة جميلة فاتنة. وكانت صاحبة أجمل عينين في مصر! وكانت عيناها تظهران من "اليشمك" الأبيض الذي تلف به وجهها كأنهما منارتان تملأن الدنيا بالنور. وكانت أغرب صفاتها أنها جمعت بين الجلال والجمال! العيون الفاجرة ما تكاد تراها حتى تتأدب! الشفاه الجائعة ما تكاد تقترب منها حتى تبتل! فيها شيء يجذب الرجل ليأخذها بين ذراعيه وفيها شيء أقوى يوقفك مكانك عندما تقترب منها! كانت بين الأميرات الجميلات أشبه بالسهل الممتنع في أسلوب اللغة العربية! تظن أنها سهلة جدا وصعبة جدا في وقت واحد!

وكانت تمضي نصف العام في القاهرة، ونصفه في باريس، وكان لها بيت جميل أنيق فرشته وكأنه صورة مصغرة من قصر سلطان في قصة ألف ليلة وليلة!

وكانت تملك في باريس إسطبلا صخما للجياد العربية. وكانت خيولها تحصل على الجوائز الأولى في السباق، وكانت هوايتها أن تعني بنفسها بتربية هذه الخيول. وكانت فارسة ممتازة، وكانت تبهر أمهر الفرسان بقدرتها العجيبة على التحكم في الجياد.

وكانت السيارات غير معروفة في تلك الأيام بين الطبقة "الأرستقراطية" في باريس، وكانت الأميرة تستقل دائما عربة موشاة بالذهب، يجرها حصانان عربيان مطهمان.

وكانت الأميرة تبدو في عربتها الفاخرة أشبه بإمبراطورة. وكان جمالها وسحرها وأناقتها تسلب عقول أهل باريس. كان كل رجل في باريس يطمع

في أن يتعرف إلى الأميرة المصرية الساحرة، ولكن منظرها الملكي المهيب كان يفرض على الرجال احترامها، كان حولها حرس مسجور يقطع رقاب كل من يقترب منها، فكان الباريسيون يكتفون بأن يقفوا فوق رصيف الشارع، يخلعون قبعاتهم، ويحنون رؤوسهم وكأنهم يحيون موكب الجمال!

وذات يوم رآها ضابط روسي شاب في أحد شوارع باريس، ففتن بجمالها، وجن بسحرها، وذهل أن الواقفين في الطريق يقفون مبهورين، بلا حراك كأن الأميرة المصرية نومتهم جميعا تنويما مغناطيسيا!

وتبع الضابط الروسي عربة الأميرة وعرف بيتها، وحام حول البيت، وسأل الجيران، فعرف أن هذه الساحرة هي أميرة مصرية شابة، وإنها ابنة الأمير حليم شقيق الملك فؤاد، ملك مصر، وأرملة الأمير إبراهيم، أغنى أمير مصري في تلك الأيام!

وسأل: هل لها عشاق؟ فقيل له نعم. كل الخيول التي في إسطبلها! إنها تمضي مع هذه الخيول أغلب ساعات اليوم!

ولم يُصب الضابط بالذعر عندما علم من تكون الساحرة الحسناء، بل أسرع يضع خطة ليغزو بها قلب الأميرة الجميلة! واكتشف أن خير طريق للحرب هي الهجوم الخاطف، ووصل إلى هذه الحقيقة قبل أن يصل إليها هتلر بعشرات السنين!

وذهب الضابط الروسي الشاب إلى بيت الأميرة في باريس، وطلب التشرف بمقابلتها لأمر هام! وعندما أبلغت وصيفة الأميرة صالحة صاحبة السمو أن ضابطا روسيا يريد مقابلتها فورا، تصورت أنه يحمل رسالة من "الغراندوقة" أولجا، شقيقة قيصر روسيا وصديقتها القديمة!

وفوجئت بالضابط الروسي يقول لها: جئت لأستأذن سموك في شراء أحد جيادك! إن جيادك هي أجمل جياد رأيتها في حياتي. إنها لا تمشي؛ إنها ترقص! إنها لا تجري؛ إنها تطير!

سرت الأميرة من إعجاب الضابط الروسي الشاب بجيادها، وذكرت له أسماء الجياد التي تملكها، وأصل كل جواد، ونسبه، وعدد السباقات التي اشترك فيها، والجوائز التي حصل عليها. مكثت الأميرة ساعتين كاملتين، تصف خيولها، وتتغزل في كل واحد منها، وكأنها ترسم لكل حصان صورة بالألوان، أو كأن كل حصان رجل، له تاريخ وقصة ومغامرة! وقد كانت الأميرة تهوى الخيول، وتهتم بتربيتها، وتجد سعادة لا حد لها في الحديث عن خيولها. وشجعها على الحديث عن الخيول أن الضابط الروسي الشاب بدا مبهورا بما يسمع، يستزيدها كلما توقفت، وكأنها تغني له أغنية رائعة من أغاني القوقاز!

وفجأة قال الضابط الروسي الشاب: ولكن هناك مهرة جميلة فاتنة، أثارتني، هزتني، أخذت بلبي، ملكت عليّ حواسي، ما كدت أراها حتى جننت بها. جعلتني لا أنام الليل. أحلم بها. أتمناها. إني مستعد أن أدفع عمري كله من أجل الحصول عليها. هذه هي المهرة التي أريدها، ولا أريد سواها.

(١١٣)

"المهرة الفاتنة"

انفجر "جونا" ضاحكا. نظرت إليه فدوى مستغربة، ثم سألته في فضول:

- ما الذي يُضحكك؟!
- أسلوب هذا الكاتب يا فدوى في عرض القصة ومقارنة الأميرة بالمهرة ووصف عينيها بقوله "العيون الفاجرة"، وسؤاله: هل لها عشاق؟ ناهيك عن الباريسيين المنومين مغناطيسيا ووقوفهم على قارعة الطريق وخفض رؤوسهم للأميرة!
- أتفق معك في وجود بعض المبالغات.
- حسن أكملي فضلا.

شدت فدوى ظهرها حتى صار مستقيما، هكذا تعلمت في مدرستها، "الإي جي سي" ثم واصلت:

قالت الأميرة في دهشة: أي مهرة؟

قال الضابط الروسي: أنتِ.

صرخت الأميرة في ذهول: أنا.

- نعم أنت. إنني أحبك وأريد أن أتزوجك!
- كيف تحبني وتتزوجني وأنت لا تعرفني؟!
- إنني خبير في الخيول الأصيلة!
- ولكن أين رأيتني؟
- في عربتك. في شارع "الشانزليزيه".

- في هذا الشارع تمشي أجمل نساء فرنسا، بل نساء العالم!
- لم أر في الشارع الكبير إلا امرأة واحدة هو أنت!
- أنت شاعر!
- أنا فارس!
- إنك أول رجل شبهني بالحصان!
- لأنني أحب الخيول!
- ولهذا أحببتني؟
- المرأة الجليلة أشبه بالحصان الجميل!
- ولكني حصان متوحش!
- لذتي أن أروضه!
- سوف تقع من فوق الحصان.
- سأقع في الجنة!
- لو أنك شبهتني بأي شيء آخر في الدنيا لما استطعت أن تفتح قلبي!
- إنني أحب أن أدخل إلى قلبك فوق حصان!
- الحصان لك! كم تدفع فيه؟
- شبابي وحياتي.
- إنه أغلى حصان بعته في حياتي!
- إنني لا أدفع فيه إلا واحدا من ألف من ثمنه!
- حدثني عن الخيول في روسيا!
- أنا واحد منها!

- جميلة وذكية وجريئة!
- وتحتمل كثيرا!
- إنك تعجبني!
- ستتزوجينني؟
- نعم.
- متى؟
- متى تشاء! أنا المهرة وأنت صاحب الحصان!

وتقدم الشاب الروسي نحو الأميرة الفاتنة، ورفع ذقنها، ثم قبلها قبلته الأولى. ولم تقاومه، وإنما ترنحت وهي تذوب بين ذراعيه، ثم قالت له:

- نسيت أن أسألك ما هو اسمك؟
- اسمي ديورك!

وسمع ملك مصر، بقصة الأميرة المصرية والضابط الروسي فجن جنونه، وطار عقله عندما علم باعتزامها الزواج منه. وأرسل الملك على الفور رسولا إلى باريس قابل الأميرة وقال لها وهو يرتجف:

- إن جلالة الملك غاضب جدا وثائر جدا. كلفني أن أبلغك أنك إذا تزوجت هذا الضابط الروسي فسوف ينتزع منك لقب (صاحبة السمو الأميرة).
- إن الرجل الذي أحبه لا يناديني أبدا بصاحبة السمو الأميرة! إنه يناديني (حبيبتي)! ومادام عمي الملك لا يستطيع أن يجردني من لقب (حبيبتي)، فلا يهمني أي لقب سواه.
- إن الأسرة الحاكمة سوف تقاطعك وتتبرأ منك.

- إن المرأة المشغولة بالحب ليس لديها وقت للتشريفات الملكية!
- إن الملك سوف يجردك من كل أموالك في مصر.
- عندما نحب يصبح أي شيء آخر لا قيمة له.
- سوف تموتين من الجوع.
- سوف أعيش على الحب!
- الحب لن يُطعمك!
- لو أنك ذقته، أو لو أن جلالة الملك ذاقه مرة واحدة، لعرف أن الحب الذي يمنح الحياة قادر على أن يعطي الطعام!

واعتنق الضابط الروسي الدين الإسلامي، وتزوج المهرة الملكية! وما كاد ملك مصر يسمع بالنبأ الفاجع حتى كلف رئيس ديوانه بأن يبرق على الأميرة صالحة برقية يقول فيها: تفضل صاحب الجلالة مولانا المعظم، وأصدر أمرا ملكيا كريما، بتجريدك من لقب الإمارة، ومن كل حقوقك. وأرسلت الأميرة صالحة برقية إلى الملك، لعلها أغرب برقية تلقاها ملك مصر، بل لعلها أغرب برقية أرسلتها أميرة إلى مالك جالس على العرش. كان نص برقية الأميرة إلى الملك عبارة عن كلمة واحدة هي (طظ)!...

كانت الأميرة قد رُزقت من زوجها الأمير إبراهيم، بولدين وبنت هم: الأمير محمد علي محمد وحيد الدين إبراهيم، والأمير عمرو محمد وحيد الدين إبراهيم، والأميرة عين الحياة محمد وحيد الدين إبراهيم، وكانوا أطفالا يعيشون مع أمهم الأميرة صالحة في باريس، واتفق ملك مصر مع عدد من رجاله على أن يسافروا متنكرين إلى باريس، وهناك يدبرون خطة لاختطاف أولاد الأميرة.

وذات يوم خرجت الأميرة لتزور إسطبلها، ومعها زوجها الضابط الروسي الشاب. وعادت الأميرة إلى بيتها فلم تجد أطفالها الثلاثة. وقالت المربية إن ثلاثة من الرجال جاءوا وقالوا إن الأميرة تريد أطفالها الثلاثة في الإسطبل! وكان مظهر الرجال يدل على الاحترام، فلم تشك فيهم المربية، وسلمتهم الأولاد، وجنت الأميرة وأبلغت البوليس. وحوصرت الموانئ والطرقات لضبط العصابة التي خطفت الأمراء الثلاثة الصغار! وفشلت كل المحاولات.

وصل الأطفال الثلاثة إلى القاهرة، وسجنهم الملك في أحد القصور، ومنعهم من الاتصال بأمهم... استطاع أن يقنع الأمراء الصغار أن أمهم الأميرة صالحة هي التي طردتهم من بيتها لكي تتفرغ لزوجها الروسي الشاب. وصدق الأطفال الصغار الأكذوبة، وقاطعوا أمهم.[cclxxxv]

(١١٤)

"الحب من أول نظرة"

تركت فدوى الكتاب وتناولت بعضا من البسكويت وشربت قهوتها التي بردت تماما. نظرت إلى "جونا" قائلة:

- الأخطاء الموجودة في القصة الصحفية المثيرة هي كالآتي: الأميرة صالحة لها صور وهي سافرة فلم تكن تلبس "اليشمك". الحراس الشخصيون في باريس لا يقطعون الرقاب ولا يتجاسرون على فعل ذلك. صالحة هي بنت الأمير إبراهيم حلمي وليس الأمير حليم، وحاكم مصر وقتها هو الخديوي عباس وليس الملك فؤاد. اسم الضابط الروسي "فلاديمير" وليس "ديورك". الأمير محمد علي محمد وحيد الدين إبراهيم هو ابن غير شقيق من الأب فقط، وأمه هي الأميرة زبيدة بنت الأمير عثمان فؤاد بن مصطفى بهجت فاضل، توفيت عام ١٩٠٠. الأولاد الثلاثة كانوا في مصر تحت وصاية الأمير عمر طوسون بعد وفاة حسن باشا عاصم، وليسوا في باريس. الأميرة كانت مهتمة بأملاكها ولم تكن على استعداد لخسارتها وقاتلت من أجلها، ووكلت محامي أجنبي هو "كارتون دي فارت"[cclxxxvi] لمتابعة هذه الأملاك والتصرف فيها نيابة عنها. الضابط الروسي لم يعتنق الإسلام قبل الزواج بل بعده بفترة.
- وماذا أيضا؟
- الرومانسية الساذجة التي تعرف بها الضابط الروسي على الأميرة. الثابت أنهما التقيا في حفلة.

- أتفق معك على السطحية في التعارف، لكن الحقيقة أعجبت بتصميم "فلاديمير" على الارتباط بالأميرة وإيمانه الراسخ بأنها مصيره وقدره. وحب حياته، وأن الصدفة السعيدة قد تقودنا إلى أشياء جميلة لم نكن نتوقعها أو ننتظرها.
- بغض النظر، لا توجد امرأة حمقاء ورعناء تُدخل رجلا لا تعرفه في حياتها لأنه شبهها بمهرة.
- ألا تؤمنين بالحب من أول نظرة؟!
- ولا بعد ألف نظرة. هذه بلاهة. ليس لها اسم آخر.
- تقولين ذلك وأنت دارسة للأدب!

شردت فدوى وصوت محمد عبد الوهاب يتردد في أذنيها وهو يغني الجندول للشاعر علي محمود طه: التقت عيني به أول مرة/ فعرفت الحب من أول نظرة.

- فدوى، أريد أن أسألك سؤالا.
- تفضل.
- من في رأيك وقناعتك تستحق عباس ومن يستحقها عباس؟
- من يستحق عباس هي إقبال من دون شك. حين علمت بحادث الاغتيال الذي تعرض له في إسطنبول هرعت إليه لتكون بجانبه. قيل إن القطعة الفضية التي كانت في صديرية عباس وأنقذته من موت محقق بعد أن اصطدمت بها الرصاصة الثانية أهدتها إياه إقبال، وقيل بل شيخ أحد الجوامع في القاهرة. المحصلة المفيدة والخلاصة الأكيدة أنه لا يبقى معك في النهاية وفي وقت شدتك إلا من يحبك. أقبلت إقبال حين أدبر الآخرون.

- مهلا يا فدوى، لقد كانت تعيش وقتها في إسطنبول فمن الطبيعي....
- المكان لا يقرب أحدا ولا يبعده يا "جونا". كانت أصيلة ووفية بالرغم من أنها اختصمت عباس لاحقا أمام القضاء.
- صحيح.
- أما عباس فيستحق "جورجيت" التي هزأت به وسخرت منه وابتزت أمواله.

عم الصمت أرجاء المكان. أخذ "جونا" يحدق في اللاشيء. شعرت فدوى أن كلماتها كانت قاسية وربما أربكته، فسارعت في القول:

- "جونا" أريد تذييل التقرير عن قصة عباس بقصتين مشابهتين لهما علاقة بالملك فاروق.
- المخلوع؟
- أجل.
- هات ما عندك.

(١١٥)

"فاروق وفاطمة طوسون"

جالت فدوى ببصرها في المكان. بدت وكأنها تحبك خيوط السرد. ارتدت قبعة التروبادور أو الحكواتي ثم انطلقت قائلة:

- القصة الأولى عن فادية بنت فاروق من فريدة. تزوجت أيضا "بيير أورلوف"،[cclxxxvii] أمير روسي سابق من عائلة "رومانوف" بعد أن أعلن إسلامه، وأنجبت منه طفلين، شامل وعلي. وأما القصة الثانية فلها علاقة بالأميرة فاطمة طوسون.
- حرف الفاء من جديد؟!

شردت فدوى للحظات وابتسمت وهي تتذكر خان الخليلي وحرف الفاء الذي ابتاعه "جونا" من أجلها. كان في العليبة كارت صغير عليه بضع كلمات بالعربية. حين سألها "جونا" عن معناها غيرت الموضوع. وأما الكلمات فهي: أنت فني وفجري وفرحي وفانوسي وفراشتي وفردوسي. عادت فدوى إلى الواقع مع صوت "جونا".

- فدوى، هل أنت بخير؟
- أجل. أجل أنا بخير. لنتابع إذن. كنت أقول...
- فاطمة...
- نعم، اسمها "فاطمة حسين إسماعيل رمزي باشا"، ولدت عام ١٩٢٣. كانت آية في الجمال والرقة والفتنة. تزوجت عام ١٩٤٠ من الأمير حسن عمر طوسون...
- عمر طوسون، الواصي على أولاد صالحة؟!

- تماما. هذا ابنه حسن. المهم، عام ١٩٤٣ أنجبت بنتا تُدعى "ملك بر" على اسم الجدة الشركسية لعائلة طوسون السكندرية وزوجة الوالي سعيد ابن محمد علي الكبير.
- لم أفهم هذه النقطة تماما.
- لا عليك. المهم، كتب مصطفى أمين...
- نفس الصحفي الذي كتب عن صالحة؟! أخشى أن هذا الصحفي تعمد تشويه الأسرة الملكية تزلفا لضباط ثورة ٥٢.
- ربما في طرحك قدر بسيط من الصحة. على أي حال، في كتابه "ليالي فاروق"[cclxxxviii] أشار الصحفي المذكور إلى أن الملك استدعى ذات يوم رئيس ديوانه، أحمد حسنين، ...
- سمعت عنه؛ المكتشف الذي رافق البريطانية "روزيتا فوربس"[cclxxxix] إلى واحة الكفرة.
- بالضبط، وأول عربي يشارك في الأولمبياد. بالمناسبة هذا الرجل تزوج من نازلي صبري، والدة فاروق، فيما بعد بعقد عرفي!
- هههههه. يا لها من عائلة!
- المهم، قال له: أرغب في تطليق الملكة فريدة والزواج من فاطمة طوسون. أريدك مفاتحة زوجها في تسريحها.
- هكذا بكل بساطة.
- لدينا يا "جونا" فيلما سينمائيا شهيرا اسمه "الزوجة الثانية"، وفيه يطلب العمدة من فلاح تطليق زوجته ليتزوجها هو!
- غريب جدا! ثم؟

- طبعا لم يستطع أحمد حسنين فعل ذلك. في عام ١٩٤٦ توفى الأمير حسن طوسون في حادث سيارة على الطريق بين باريس ومارسيليا.
- مثل زوج صالحة؟!
- أجل. ألم أقل لك قصة مشابهة؟
- انفتح الطريق أمام فاروق.
- نعم ولا.
- كيف؟!
- في ذاك الوقت كانت فاطمة تعيش في باريس...
- مدينة العشق.
- من دون شك. وقعت في حب الأمير البرتغالي "دوم خواو ماريا دي أورلينز إي براجانزا" المولود عام ١٩١٦. حكمت أسرته البرتغال.
- قرأت عن هذه الأسرة التي شمل نفوذها البرازيل أيضا.
- تماما. أوفد فاروق ممثلا خاصا به إلى باريس هو فؤاد شيرين باشا للتحدث مع فاطمة، حيث جمعته بعائلتها صلة نسب. رفضت فاطمة العرض، الأمر الذي أحزن فاروق بشدة. لم يفقد فاروق الأمل. طلق فريدة عام ١٩٤٨، لكن فاطمة تزوجت من الأمير البرتغالي زواجا مدنيا عام ١٩٤٩. انفجر فاروق غضبا بسبب هذه الزيجة وانتفضت أودا...
- وهدد فاطمة طوسون بالحجر على ممتلكاتها في مصر؟ نفس الرواية!

- أجل. ولا عجب. لقد فعل نفس الشيء مع شقيقته فتحية.
- كيف؟!
- تزوجت من قبطي اسمه "رياض غالي" وسافرا إلى الولايات المتحدة. مرة أخرى حرمها فاروق من لقبها وأملاكها. ومرة أخرى كانت نهايتها مأسوية بعد أن أطلق رياض غالي عليها النار من مسدسه فأرداها قتيلة ثم انتحر.
- صالحة وفاطمة طوسون وفتحية فؤاد، سيناريو متشابه.
- تقريبا، على أن فاروق وضع لمسته الخاصة في موضوع فاطمة طوسون إذ أرسل إلى حكومة البرازيل طلبا لاسترجاعها.
- حقا فعل ذلك؟
- نعم، لكن البرازيل ردت بسخرية أنها لم توقع مع مصر اتفاقية لتبادل العشاق.
- التاريخ يعيد نفسه.
- أجل، حتى فريدة عرفت خبايا القصة من "بولي" الذي لعب دور "بول" بالنسبة لعباس. تخيل كهربائي في القصر يصبح من خاصة الملك ومدير الشؤون الخصوصية للملك.
- غريبة فعلا!
- لذا قيل إن "بولي" هذا هو أخ غير شرعي للملك فاروق نتيجة لنزوة جمعت والده، فؤاد، مع امرأة إيطالية تُدعى "تريزا".[ccxc]
- حقا؟! أخبرني الدكتور حسام بهذه القصة.
- جيد.
- وعليه ففريدة هي جويدان؟

- بالفعل.
- وكيف انتهت الحكاية؟
- عام ١٩٥١ تزوج فاروق من ناريمان. اختار إيطاليا منفى طوعي بعد خلعه عام ١٩٥٢.
- مثل جده إسماعيل.
- أجل.
- وكيف كانت النهايات؟
- بالرغم من أن زوج فاطمة الجديد لم يعلن إسلامه، أنجبت منه عام ١٨٥٤ ولدا اسمه "جوازينيو" وهو نفس العام الذي طلق فيه فاروق ناريمان. تحولت فاطمة للكاثوليكية عام ١٩٥٨. توفى فاروق كما هو معلوم عام ١٩٦٥. عام ١٩٧٠ أو ١٩٧١ لا أتذكر تماما تطلقت فاطمة من الأمير البرتغالي. تزوجت مرة ثالثة فى "ريو دي جانيرو" من "إدواردو باهوت" الذي توفى عنها عام ١٩٨٠. ظلت في البرازيل حتى وفاتها عام ١٩٩٠ فيما توفى زوجها، الأمير البرتغالي، عام ٢٠٠٥.

(١١٦)

"جاك وميتشا"

جال "جونا" بعينيه في الصور القديمة المعلقة على الجدران، ثم قال:

- بمناسبة الحديث عن الملك فاروق يقولون إن هذا المحل...
- "ديليس"؟
- أجل.
- ما به؟ إنه يعني "المتعة" باللغة الفرنسية.
- صحيح. هذا المحل هو من صنع كعكة التتويج للملك فاروق وكذا كعكة زواجه من الملكة فريدة.
- لم أكن أعلم ذلك. معلومة لطيفة يا "جونا".
- ومكان جميل.
- فعلا يا جونا. شهد قصة حب جميلة وحزينة في ذات الوقت.
- كيف؟
- أسس المحل عام ١٩٢٢ اليوناني "كلوفلوس موستاكاس". كان "موستاكس" أول من قدم الآيس كريم بنكهة المستكة. أبدع أيضا في تحضير الباذنجان باللحمة المفرومة والباشاميل فيما يُعرف هنا بالمسقعة.
- أريد أن أجربها.
- لا بأس سأطلبها لك.

أسند "جونا" ذقنه على يديه وهو ينظر إلى فدوى قائلا في محبة:

- حسن، وبعد؟
- ارتاد المحل مشاهير مثل نجيب محفوظ..
- صاحب نوبل في الآداب؟
- أجل، كما عمل هنا "ستيليوس كوموتسوس"..[ccxci]
- بطل قصة الحب؟
- لا، هذا نادل "جريكي" كان مهووسا بالبحث عن قبر الإسكندر.
- وقصة الحب؟!
- عام ١٩٥٠ انتقلت ملكية "ديليس" إلى سيدة يونانية شديدة المراس. كان لها ابن اسمه "جاك". وقع "جاك" في حب نادلة يونانية تعمل في المحل اسمها "ميتشا". كانا يتقابلان خارج الدوام في حديقة نازلي أو حديقة الخالدين، ليس بعيدا عن هنا. تأصلت جذور الحب بينهما. حين فاتح "جاك" والدته في الأمر، وأعرب عن رغبته في الارتباط بهذه الفتاة، "ميتشا"، بالغت في توبيخه وتعنيفه لأنها مجرد نادلة. ترك "جاك" الإسكندرية وسافر إلى اليونان. وأما "ميتشا" التي افتعلت معها الأم مشاجرة وطردتها فقد عملت في محل "سويس باستري" ونجحت فيه حتى استحوذت على إدارته.
- هكذا بكل بساطة تخلى "جاك" عن "ميتشا".
- لم يشأ أن يُغضب والدته.
- لا أدري، لكن كان عليه أن يفعل شيئا.

قالها "جونا" وهو يحرك قدميه في عصبية وينظر إلى صورة كعكة الملك فاروق معلقة على الحائط. عاد بناظريه إلى فريدة قائلا وهو يشير إلى الصورة:

- كعكة فاروق، هناك.
- أجل.
- بالمناسبة، ماذا كان رد فعل فريدة حيال زوجها، زير النساء؟
- كانت علاقاته متعددة في مصر والمنفي على حد سواء: الفرنسية "آني بربيه"[ccxcii] والإيطالية "إيرما ميناتولو"[ccxciii] والإنجليزية "باربرا سكيلتون"[ccxciv] والسويدية "بيرجن إستنبرج"[ccxcv] والأمريكية "باتريشيا وايلدر"[ccxcvi] واليهودية "إيرين جوينلي"[ccxcvii] و...[ccxcviii]
- هذا يكفي!
- حسن، أردت فقط أن أقول إن بعض النساء الأوربيات ربما اختلقن وجود علاقة مع فاروق طمعا في الشهرة أو خلافه، أو على حد قول الشاعر "الأعشى": كل يدعي وصلا بليلى.

(١١٧)

"فريدة وسيمون إلويس[ccxcix]"

ضحكت فدوى ثم أكملت:

- بالنسبة لفريدة يبدو أنها أقنعت نفسها في البداية أن فاروق نسخة من جده الكبير إسماعيل. تزرعت بالصبر، لكن حكاية فاطمة طوسون كانت القشة التي قصمت ظهر البعير.
- بمعنى؟
- قررت أن تنتقم على طريقة المرأة المجروحة، المطعونة في أنوثتها وكبرياءها.
- أي؟!
- أي الدخول في علاقة مماثلة.
- كيف ذلك؟ لقد خرجت مظاهرات شعبية عقب طلاقها. المصريون أعربوا عن حبهم لها؛ هذا ما قرأته على الأقل.
- هذه نقرة وتلك نقرة أخرى.
- فما سر النقرة الأخرى؟!
- علاقتها بالضابط البريطاني "سيمون إلويس".
- من هذا؟!
- ضابط بريطاني برتبة مقدم خدم في مصر أثناء الحرب العالمية الثانية. قرر المكوث في مصر عقب انتهاء الحرب. احترف رسم "البورتريهات" التي شملت شخصيات مصرية مهمة حتى انتهى إلى رسم الملكة فريدة. تحجج بأن زحام القصر يفسد قريحته

ويشتت تركيزه ويقضي على إلهامه فاقترح على فريدة استكمال اللوحة في مرسمه.

- ثم؟!
- ثم كان بينهما أشياء وهذا اللمم. بدأت القصة بالرغبة في الانتقام وانتهت بحب حقيقي، وعبر "سيمون" أحبت الملكة الرسم وشرعت في مزاولته.[ccc]
- وماذا فعل فاروق؟
- راقب فريدة وضيق عليها. أما "سيمون" فكان مشمولا برعاية الأسرة المالكة في إنجلترا، وعليه لم يكن بمقدور فاروق إلحاق الأذى به. لجأ "سيمون" للإنجليز النافذين في مصر الذين أرسلوه إلى جنوب أفريقيا وحالوا دون عودته لمصر، وصادروا خطابا أرسله من هناك إلى فريدة[cccl] التي دخلت في حالة ممتدة من الاختناق حتى نالت طلاقها. وهكذا الرجل الشرقي...
- يبيح لنفسه ما يحرمه على غيره.
- تماما يا "جونا"، وبالمناسبة والدة فاروق، الملكة نازلي، فعلت نفس الشيء مع والده، الملك فؤاد. لقد كانت تكرهه لخياناته المتعددة وأرادت أن تنتقم منه. قال لها الملك فؤاد ذات يوم: يقول المصريون: "العرق يمد لسابع جد".
- ماذا قصد من هذه العبارة؟!
- جد الملكة نازلي هو "سليمان باشا الفرنساوي" وجدتها المصرية مارية.
- الفرنساوي مؤسس للجيش المصري الحديث؟

- تماما. الخيانة هي الخيانة؛ ليس لها اسم آخر؛ لا فرق بين رجل وامرأة. كان الرجل محبا للنساء ويمتلك العديد من الجواري والقيان. في يوم من الأيام نزل بر مصر رجل فرنسي اسمه، "دومينيك تاجان روجيه"[cccii] عمل في كتابة وعزف الموسيقى المحفزة للعمال الذين يبنون القناطر الخيرية. اصطحب معه زوجته، "كلورينـد روجيه".[ccciii] تورط معها "سليمان باشا الفرنساوي" في علاقة آثمة. وهذا ما قصده الملك فؤاد. كتمت الملكة نازلي كل هذا في قلبها. بعيد وفاة فؤاد ومن شدة نفورها له ألقت بدلاته ونياشينه في سوق الكانتو، وكان بائعو الروبابيكا ينادون: "بدلة الملك بجنيه!"[ccciv]
- جنيه؟!
- نعم.

رد الخيانة بالخيانة انتقام صعب. لا أحد يحب الخيانة من أجل الخيانة، لكن بعض الناس يميلون إلى الاعتقاد بأنه: ما أشهى الطعام الذي لا تدفع ثمنه والمال الذي لا تتعب فيه والمرأة التي لا تربطك بها صلة! بعض الناس يرددون مع جبران:

الخيانة شيء جميل... نعم جميل... ما العجب؟
لو لم تكن الخيانة شيء جميل، فلم نخون؟
نخون ونقول إن الخيانة من أقبح ما يكون!

(١١٨)

"نظل أنا وهو الشيء ذاته"

في المساء جلس "جونا" يجتر أحداث اليوم الطويل. الأيام تمضي والأتراح تعتصره. لا يريد أن يغادر. هذه هي الحقيقة. نظر عبر النافذة إلى السلسلة. تُشبه إلى حد بعيد كماشة أو كلابة تمسك به. تناول جواله وكتب لفدوى:

- ماذا تفعلين؟
- لا شيء. وأنت؟
- انتهيت من كتابة التقرير، وأفكر في مشاهدة فيلما.
- جميل. ماذا ستشاهد؟
- فيلم أحبه.
- ما اسمه؟
- "سرندبتي". هل شاهدتيه من قبل؟
- كلا. عن ماذا يتحدث؟

شعر "جونا" بأن الكتابة عبئا عليه فاتصل بفدوى وتابع كلامه:

- قضية توءم الروح، وهل تبحث عنه أم يأتي إليك؟ وأن هناك من يجد توءم روحه وهناك من يتعثر. قد تجده صدفة وقد تظل تبحث عنه لسنوات. قد يكون في آخر العالم وقد يكون في الشارع الذي وراءك. المؤكد أن درب توءمك سوف يتقاطع مع دربك في نقطة واحدة في يوم من الأيام، وهنا قد يحدث اللقاء الذي لا فراق بعده وقد يكون الفراق الذي لا لقاء بعده.
- وكيف يهتدي الشخص إلى توءم روحه؟

- لا توجد وصفة معينة. هو فقط شخص لا يحتاج منك استفاضة في الكلام. نظرة واحدة من عينيك لعينيه تصله رسالة قلبك. سيقول لك: أفهمك، لا داعي للشرح، وصلت الفكرة.

تنهدت فدوى وهي تستمع إلى كلمات "جونا". سحرها صوته. عقبت بعد أن أدركت أنه قد توقف عن الكلام:

- جميل.
- يمكنني إرسال الرابط لك ونشاهده معا.

بينما انشغل "جونا" بمشاهدة الفيلم كانت فدوى تقرأ التعليقات عليه. في الحقيقة شاهدت الفيلم من قبل ربما أربع مرات، لكن أرادت أن ترى ما في جراب "جونا".

عنّ لها أن تضيف تعليقا. لا تدري هل سيراه "جونا" أم لا، لكنها أرادت أن تفعل ذلك. كتبت: "هو يشبهني أكثر مني، فبأي شيء تتشكل الأرواح والأنفس، نظل أنا وهو الشيء ذاته" (إميلي برونتي"- "مرتفعات ويذرنج")

(١١٩)

"وفي وجنتي سلمى أقبل لم أَمَلّ"

في ظهيرة اليوم التالي توجه "جونا" وفدوى لمقابلة الآنسة "هنريتا". كانت في اجتماع فانتظرا فراغها منه في مكتبيهما. جلسا صامتين، لكن كفت العيون الكلام. كلاهما يدرك أن المشروع في نهايته، وهذا يعني أنهما قد لا يلتقيا مجددا. قطع "جونا" الصمت قائلا:

- أتدرين يا فدوى؟ أرسل لي "ستيف" رسالة طويلة من إنجلترا؟
- حقا؟ وكيف هو؟
- قابل "إيريني".
- الملاك النائم؟!
- ليس تماما، لكنه يقول إنها شديدة الشبه بها.
- أنا حقا سعيدة من أجله، لكن كيف حدث ذلك؟
- في أنقرة. قادته الصدفة السعيدة، "سرندبتي"، إلى مقابلة فتاة تركية اسمها "سلمى". هما الآن معا في إنجلترا. ماذا يعنى هذا الاسم؟
- لا أدري تماما، لكنه اسم عربي قديم ذائع في الأدب، قديمه وحديثه، ومنتشر في الشرق الأدنى.

حل الصمت من جديد. انهمك "جونا" في فتح جهاز الحاسوب المحمول الخاص به ليُري فدوى رسالة "ستيف". في الأثناء أخذت فدوى تراجع في عقلها الأشعار وخلافه التي تتحدث عن سلمى: "إنا محيوك يا سلمى فحيينا"، و"وفي وجنتي سلمى أقبل لم أَمَلّ". وهناك سلمى التي كتب لها إيليا أبي ماضي:

السحب تركض في الفضاء الرحب ركض الخائفين
والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبين
والبحر ساج صامت فيه خشوع الزاهدين
لكنما عيناك باهتتان في الأفق البعيد
سلمى بماذا تفكرين
سلمى بماذا تحلمين

قطع "جونا" الصمت والتوتر قائلا:

- سألني "ستيف" في نهاية الخطاب: هل وجدت أنت أيضا ضالتك؟ فدوى... فدوى، أحدثك.

هذه المرة فشل "جونا" في إعادة فدوى من شرودها. نظر إليها ولسان حاله يرد على "ستيف" قائلا: وجدتها يا عزيزي، لكني لم أملك قلبها حتى الآن. انتبهت فدوى فوجدته يحملق في وجهها.

فهمت مغزى نظرات "جونا" فأشاحت بوجهها نحو باب غرفة الآنسة "هنريتا" قائلة:

- متى ينتهي هذا الاجتماع؟!

عادت تسأل نفسها وتجيب: هل أقول له إني أحبه الآن، لكن ما الضمانة الحقيقية على أن العلاقة قد تنجح؟ لا يوجد صك على بياض أنني سأكون سعيدة وأنني إذا طلبت المفقود لن أخسر الموجود.

(١٢٠)
"وكل أسير يُفتك إلا أسير النساء"

قطع "جونا" حبل أفكارها قائلا:

- هذه هي رسالة "ستيف". هل تحبين قراءتها؟
- هل سمح لك بذلك؟!
- لا.

شعر "جونا" بالخجل من نفسه. قرر أن يقرأ هو الرسالة في صمت وللمرة الثانية ريثما تفرغ الآنسة "هنريتا" من اجتماعها. كتب "ستيف":

عزيزي "جونا"، كما تعرف ذهبت إلى تركيا لاستكمال البحث عن عائلة "مونتناجو" حيث لها تاريخ في إسطنبول. نزلت أنقرة أولا لحضور فاعلية في جامعتها. أنقرة مدينة رائعة وأجمل ما فيها شارع (٧) الذي يعج بالمقاهي والفرق الموسيقية والرقص الشرقي والتركيات الجميلات.

قررت التوجه لأحد بيوت الهوى اسمه "كاتهاوس". أعرف أنك ربما تسبني الآن، لكن أترك عنك هذا إلى نهاية الخطاب. أنت لا تعلم ما حدث لي في هذا "الكاتهاوس". فقط أقول لك في هذا الموضع من رسالتي إنها صدفة سعيدة غيرت حياتي للأبد.

بعد أن سددت الرسوم وأخذت إيصال بالمبلغ والذي دُون عليه غرفة رقم (٢٢) نقرت الباب ثم فتحته لأجد امرأة لا يبدو عليها أنها غانية حيث كانت ترتدي سروالا من الكتان وحذاءً رياضيا وسترة كتلك التي يستخدمها المراسلون الصحفيون، زد على ذلك أنها كانت تدون بقلم رصاص في دفتر منتفخ الأوراق. تشوش عقلي وكدت أعود أدراجي لولا أن

صوت المرأة استوقفني: تفضل. إنك في المكان الصحيح. أنا من يتطفل عليك.

دخلت الغرفة وجلا. على الحائط مقابل السرير كان هناك لوحة منسوخة من رائعة رينوار "المرأة التي تمشط شعرها".[cccv]

- اسمي سلمى. أعمل باحثة اجتماعية.
- وما علاقتي بهذا الأمر؟!
- تستطيع أن تساعدني ريثما تنتهي فتاتك من الاستحمام والاستعداد لك.

أشارت إلى باب الحمام بزجاجه المصنفر فظهر من وراءه "كنتورات" امرأة فارعة ثم أكملت: المعذرة أنا من أخرتها فقد كنت أوجه إليها بعض الأسئلة. لم أدر كيف أتصرف في هذا المأزق الذي أوقعت نفسي فيه؟! فكرت في الفضيحة التي تنتظرني فبادرت بالمغادرة صائحا: هذا غش وخداع وتدليس. كان يجب عليهم أن يطرحوا عليّ المسألة لا أن يفرضوها كأمر واقع.

هرعت المرأة خلفي في الشارع صائحة:

- انتظر. أرجوك. أنا آسفة. لم أكن أتخيل أن هذا الأمر سيغضبك.

نظرت إليها باحتقار قائلا:

- طبعا ضايقني. يجب عليك أن تُبقي أنفك بعيدا عن خصوصيات الناس. كم دفعت لهذا الماخور القذر حتى تضيفي صفحتين لهذه الدراسة التي لن تضيف شيئا إلى المعرفة؟

جذبتني المرأة من يدي بقوة قائلة في غيظ شديد:

- من فضلك. أنا لا أسمح لك. ليس من حقك أن تتهم دراستي بالتفاهة. أنت لا تعرف خطورة هذا الموضوع.
- وأنت لا تعرفين كم يغيظني أن يقتحم أي شخص، مهما كان، حياتي الخاصة.
- حسن أنا آسفة.

أحسست بالحرج. نظرت إليها نظرة فاحصة فاكتشفت أنها جميلة. قلت بنبرة أكثر اعتدالا:

- لا بأس. يمكنني أن أجيب على أسئلتك، لكن دون الكشف عن هويتي.
- جيد جدا. اسمح لي أن أدعوك لتناول العشاء تعويضا عن المال الذي دفعته سدى.
- لا يهم المال؛ لا أقبل تعويضا عنه، لكن...
- مفهوم.

تعارفنا. على العشاء ناولتني نموذج استطلاع رأي يحوي نيف وعشرين سؤالا أجبت عليها جميعا. بدأت سلمى الحديث قائلة:

- هناك اعتقاد خاطئ بأن الدعارة هي أقدم مهنة في التاريخ، لكني شخصيا أعتقد أن الصيد سابق عليها. نشأ البغاء في المعابد الوثنية.
- الجنس المقدس؟
- تماما. خرجت الدعارة من المعابد وسكنت البيوت ذات الرايات. ومن أشهر البغايا في التاريخ والأدب والسينما راحاب التي ذُكرت في الكتاب المقدس، وكذلك "بيل وتلنج" في رواية "مرجريت

ميتشل" "ذهب مع الريح" و"فيفيان وارد" في فيلم "امرأة جميلة" والتي قامت ببطولته "جوليا روبرتس". لقد تكلمت كثيرا وسببت لك صداعا.

- على العكس فحديثك شيق وممتع.

بالرغم من التعارف الفاتر قرر كلانا تمضية بقية اليوم معا. في المساء وقفنا في حيرة بين الوداع وتمضية الليلة معا. أخبرتها أني سأطير في الغد إلى إسطنبول، وأني سأنتظرها في عطلة نهاية الأسبوع، يوم السبت، في منتصف جسر البسفور مع غروب الشمس لو أرادت أن تأتي.

في الموعد المحدد، بل قبله، وقفت على الجسر بين أوروبا وآسيا. لا أدري لماذا، لكني تذكرت كلماتك يا "جونا": لا ينجو كثيرون من فتنة المرأة؟ الجنس سجن وكلما انغمس الإنسان في الشهوة كلما ازداد جوعا. من كان لذته في النساء وقع في أعظم البلاء وكل أسير يُفتك إلا أسير النساء فإنه غير مفكوك، وكل مالك يملك إلا مالك النساء فإنه مملوك.

هل تتذكر يا "جونا" عامل المصعد البسيط، "شارلي" في فيلم "لديك بريد" حين عرف يقينا عند تعطل المصعد ماذا يريد بالضبط؟ أدرك أنه يريد أن يُمضي ما تبقى من عمره مع فتاته: إذا قُدر لي أن أخرج من هنا فسوف أتزوج "أوريت"، فأنا أحبها. لا أدري ما الذي منعني من القيام بهذا الشيء؟!

لقد قررت أنا أيضا أن أفعل ذلك. (قسمت) هي الكلمة التي تعلمتها في تركيا. قررت أنه لو أتت سلمى سأتقدم لخطبتها وأتزوجها. لقد ملكت شغاف قلبي عن حق. هذه أول مرة يخامرني هذا الشعور؛ أول مرة أنظر إلى امرأة بهذه الكيفية. حتما هذا هو الحب من النظرة الثانية، وربما كانت قدري وكنت قدرها.

شعرت بالتوتر والخوف ألا تأتي. بدأت الشمس في النزول وتسارعت دقات قلبي. مرت هذه اللحظات عليّ كدهور. كادت الشمس أن تغطس كلية في البسفور، لكن فجأة أشرقت من جديد مع نزول سلمى من سيارة أجرة. ابتسمت لي وهزت كتفيها. لا أدري كيف فعلت ذلك، لكني عدوت نحوها وعانقتها وقبلتها.

سوف تلحق بي سلمى في إنجلترا بداية سبتمبر ريثما ننتهي من جميع الإجراءات. أتمنى أن نراك في حفل زفافنا، أنت و(قسمت) الخاصة بك.

(١٢١)

"دوليب سنج وبمبة"

أطلق جونا زفرة حزينة وهو يغلق حاسوبه المحمول. ظلت فدوى تعاين الأشكال التي تتخيلها في أرضية الغرفة الخشبية. سقطت في دوامة الحيرة بين الرهبة من الوحدة والخوف من الفشل، وبين هذا وذاك تشيخ الآلاف من النساء. أعادها "جونا" إلى الواقع قائلا:

- هل تعلمين يا فدوى أن القنصلية البريطانية في الإسكندرية شهدت تتويجا لقصة حب عجيبة في منتصف عام ١٨٦٤.
- حقا؟
- هل تحبين سماعها.
- لا بأس، فما زلنا في الانتظار.
- اشترى السيد "توماس موللر"[cccvi] الذي كان يدير مصرفا هنا في الإسكندرية جارية حبشية أثناء زيارته للقاهرة وأنجب منها فتاة أطلق عليها اسم "بمبة". أرسلها للتعلم في مدرسة الإرسالية الأمريكية في القاهرة. زار المدرسة مهراجا هندي يُدعى "دوليب سنج"[cccvii] وشاهد "بمبة" ووقع في حبها. تقدم بعرضه للزواج منها فوافقت. أقيم حفل الزواج هنا، وحمل الأمير عروسه إلى إنجلترا حيث منفاه الاختياري. كان زواجهما من أسعد وأنجع الزيجات وباركته الملكة "فيكتوريا".[cccviii]
- قصة جميلة، لكن كيف تزوجت "بمبة" المسيحية من مهراجا من السيخ؟!
- تنصر.

- لا يحدث هذا دائما. أحسبك تعرف قصة "بوتا سينج" وزينب.
- أجل، شاهدت الفيلم الذي يتناول قصتهما.

عم الصمت والإحباط من جديد.

تقول الحكاية أن الجندي السيخي السابق، "بوتا سينج"، أنقذ الفتاة المسلمة زينب خلال الاضطرابات وأعمال الشغب التي عمت الهند فترة التقسيم عام ١٩٤٧. أحب "بوتا" زينب فتزوجها وأنجبا فتاة جميلة كأمها، لكن لاحقا اضطر "بوتا" إلى الانفصال عنها نتيجة لضغوط العائلة والتحيز الديني والمذهبي. تم ترحيل زينب إلى باكستان. لم يقو "بوتا" على فراقها. فدخل باكستان بشكل غير شرعي وتحول إلى الإسلام، إلا أن زينب رفضت في النهاية العودة معه. في حالة من اليأس، انتحر "بوتا" بالقفز أمام قطار في باكستان مع ابنتهما، التي نجت بمعجزة.

(١٢٢)

"أنا الحكاءة شهرزاد"

انتهت الآنسة "هنريتا" من الاجتماع، واستقبلت الباحثين اللذين أقرا أمامها بفشلهما في الوصول إلى مبروكة والطفل"الأنجلو-إيجيبشن"، عبد الله عمر أبو حلاوة. علق "جونا":

- لكن يا آنسة "هنريتا" أعددنا قصة حب بديلة لها علاقة بالإسكندرية في شق منها أو أكثر.
- حقا يا "جونا"؟!
- أجل.
- عن ماذا تتحدث؟
- الخديوي عباس حلمي الثاني.
- ممتاز، وهل انتهيتم من التقرير الخاص بها يا سيد "جونا"؟
- في الحقيقة نعم، لكن نحتاج إلى يومين أو ثلاثة لمراجعته ووضع اللمسات النهائية.
- حسن جدا. سأنتظر منكما التقرير بعد يومين. سنرسل بالقصة إلى أكسفورد، والقرار في النهاية سيكون في إنجلترا. بالطبع تعرف ذلك؟
- مفهوم طبعا. اتفقنا.

على الباب الخارجي للمجلس الثقافي البريطاني سألت فدوى "جونا":

- لماذا لم تسلمها التقرير؟ أنت تعلم أنه جاهز.
- كذبة بيضاء. أردت فقط تحسين الصور المرفقة.

- لقد فعلنا ذلك من قبل؟
- الحقيقة أردت الخروج معك. أوشكت على العودة، وأحببت أن أمضي بعض الوقت معك. أريد فقط أن أعرف منك يا فدوى: هل لدي فرصة معك؟
- دعنا نكمل حديثنا في السيارة.
- لا بأس نشرب القهوة في مقهى قريب.

ما إن جلسا وطلبا القهوة حتى بدأت فدوى في متابعة التلفاز الكبير المنسدل من سقف الكافيه. قالت وهي تشير إلى الشاشة:

- هل ترى هذا الممثل يا "جونا"؟
- لا بالطبع. ما به؟!
- له شعبية كبيرة في مصر. اسمه "ستيفان روستي".
- أعتقد أن الاسم ليس مصريا!
- صحيح. هو ابن السفير النمساوي في القاهرة.[cccix] تعرف السفير على راقصة من أب مصري وأم إيطالية. تزوجا وأنجبا "ستيفان" عام ١٨٩١ في الإسكندرية. عاشا لفترة في حي شبرا بالقاهرة. انتهت فترة السفير فعاد إلى فيينا ليفتح موضوع زواجه وإنجابه لطفل مع أسرته الأرستقراطية قبل أن يرسل في قدومهما. رفضت الأسرة الفكرة برمتها. انتقلت الأم بابنها إلى الإسكندرية وألحقته بمدرسة هناك. عندما حصل "ستيفان" على شهادته المدرسية، قرر محاولة مقابلة والده. في نفس الفترة، تعرف على راقصة باليه نمساوية في مسرح "تياترو عباس"، وسافر معها إلى فيينا. استطاع الوصول إلى والده، لكن الأخير عامله بجفاء

متحججا بأن السبب هو علاقته بتلك الراقصة، بالإضافة إلى ميوله الفنية. عمل "ستيفان" في أشياء مختلفة في إيطاليا قبل أن يعود إلى مصر ليستقر بها ويمتهن التمثيل.[cccx]

- كفانا قصص يا فدوى. كفانا بيانات ومعلومات.
- لا أستطيع؛ أنا الحكاءة شهرزاد، ثم أنك الوجه الآخر من العملة.
- للأسف هذا صحيح.
- لا تأسف على الوقت الذي تقضيه في القراءة والمعرفة. إنه قدرنا.
- أصبت، لكن لا أدري حقيقة ما الفكرة التي أردت إيصالها عبر حكاية "روستي"؟!

(١٢٣)

"نصفه صالح والنصف موريس"

أمسكت فدوى بخاتم صغير من الذهب في بنصرها وظلت تخرجه وتدخله بحركة لا إرادية ثم ردت على سؤال "جونا" قائلة:

- في الواقع يا "جونا" تولد لدي رهبة من فكرة الزواج المُهجن.
- قلت "مُهجن"؟! لا أستسيغ هذه الكلمة.
- نسميه إذن "المُستنسخ".
- أنت تتهكمين يا فدوى من الفكرة. الزواج بين البشر لا يصح نعته بالتهجين أو الاستنساخ؛ نحن بشر في النهاية ومن صنو واحد؛ هذه التعبيرات يا فدوى قريبة للحيوانات أكثر منها للإنسان؛ تتحدثين هنا عن البغال، لا البشر؛ ومكانها المختبرات وحدائق الحيوانات والغابات، لا مذبح الكنيسة. بالرغم من ذلك، أتفق معك في نقطة واحدة ضمن هذا السياق، ألا وهي أن الحيوانات ليست مؤدلجة. لقد تم تزويج خروف وخنزير فخرج لنا هجين "الخنزيروف" بينما، ربما، لا يستطيع مسيحي الزواج بمسلمة ويبقى على دينه. وعود على بدء، أفضل تسميته بـ "الزواج المختلط".
- حسن، لا بأس، بغض النظر عن التسمية فالمفهوم واحد. سمه ما شئت "الزواج المختلط" أو "الزواج خارج القبيلة"، أو "الزواج بين الأجناس" أو "الزواج بين الديانات" أو "الزواج بين الثقافات"، فكلها قد تؤدي إلى تفكك الأسر وضياع الأولاد وفقدان الهوية. هل شاهدت فيلم "ليس بدون ابنتي"؟

- ذكريني به.
- "سالي فيلد".
- ممثلة رائعة.
- أجل. يروي الفيلم قصة حقيقية مروعة لـ"بيتي"، امرأة أمريكية تسافر إلى إيران مع زوجها الإيراني، محمودي، وابنتها الصغيرة، ماهيتاب، في زيارة كان من المفترض أن تكون قصيرة. وهناك ومع التغيرات السياسية تكتشف أن زوجها لا ينوي العودة إلى الولايات المتحدة ويخطط للبقاء في إيران بشكل دائم. تجتهد "بيتي" التي لم تتقبل الحياة في إيران وتخاطر بكل شيء لتهرب من البلاد وتعيد ابنتها إلى الولايات المتحدة بأمان.
- هو لم يكن صادقا معها.
- بالضبط، وقرأت لروائي كويتي عملا يتناول التمزق والبحث عن الذات وتداعيات أخرى لهذا النوع من الزواج.[cccxi]
- الاختلاط له أيضا محاسنه يا فدوى: تقوية الجينات والانفتاح على الآخر وتقبل الاختلافات، وتقريب "الأنا" من "الآخر".
- هل تعلم أن أغلب الجيوش لا تجند من كان جده أو والدته أو .. أو.. أجنبيا؟
- لا أتفق مع هذا الطرح أيضا.
- أنت معترض دائما! لا تخدع نفسك يا "جونا"؛ هناك أشجار لا تنمو وتزدهر إلا في بيئتها فإذا انتقلت تموت. قرأت أبياتا للشاعر الجزائري محمد الأمين العمودي نظمها لصديقه، الطبيب أحمد الشريف سعدان الذي تزوج من فرنسية وأنجب منها غلاما سماه

"محمد الصالح" وسمته أمه "موريس"، يقول فيها، وأتمنى أن أفلح في الترجمة:

حيوا الحكيم ولا تنسوا قرينته فهو سليمان والمادام بلقيس

له غلام أطال الله مدته تنازع العرب فيه والفرنسيس

لا تعذلوه إذا ما خان أمته فنصفه صالح والنصف موريس

- كبرتي الموضوع يا فدوى.
- أبدا، ضخم نفسه بنفسه. وقع الطبيب في حرج عظيم؛ تذكر أن الجزائر وقتها كانت تحت الاحتلال الفرنسي. أحبها، ولا سلطان على القلوب. لسان حاله ردد مع الشاعر العربي، محمد ابن نصر القيسراني، المتوفي عام ١١٥٣ ميلادية:

لقد فتنتني فرنجية نسيم العبير بها يعبق

ففي ثوبها غصن ناعم وفي تاجها قمر مشرق

وإن تك في عينها زرقة فإن سنان القنا أزرق

- الشكر للرب، بريطانيا خرجت من مصر من ستين سنة وزيادة، وذهبت الغصة.
- غصة الاحتلال لا تزول.
- لا تبالغي!
- أبدا. تعرف المكان الذي نجلس فيه والذي تقع فيه قنصليتكم؟
- نعم، كفر عبده؛ ما به؟
- كلمة "كفر" عادة تُطلق على المناطق الريفية.
- لكن هذه المنطقة حضارية بامتياز.

- بالضبط، وهذا سر الحكاية. كفر عبده بالأساس منطقة في السويس شهدت عمليات ضد الإنجليز وسقط منها شهداء كثر. نكاية في الإنجليز قررت بلدية الإسكندرية تغيير اسم هذه المنطقة وشارعها الرئيسي من "المارشال اللنبي" إلى كفر عبده، وأما سكان بورسعيد فيحرقون دمية تمثل "اللنبي" كل سنة في عيد شم النسيم نكاية في هذا الجنرال.
- "اللنبي"، صاحب وقعة الإكليل الذهبي؟
- تماما.
- والرجل الذي دخل أورشليم؟
- أجل، دخلها قائلا: "الآن انتهت الحروب الصليبية".

(١٢٤)

"ألبرت جريفز ومها"

ضحكت فدوى بصوت مرتفع. نظرت من النافذة على ما أتاحته الرؤية لها من كفر عبده، ثم تابعت:

- عام ٢٠٠١ استخدم الرئيس الأمريكي، "جورج بوش الإبن" عبارة "الحروب الصليبية" من جديد، وتبخر حلم "اللنبي".
- فدوى، لا أستطيع أن أقول لك "دعك من الماضي" لأنك حرفيا تعيشين فيه، لكن دعينا ننظر إلى الجانب المشرق منه. حين نتحدث عن القنصلية البريطانية في كفر عبده تذكري قصة "بمبة" والمهراجا. النجاح موجود والفشل موجود.
- في العلاقات العاطفية الفشل أكبر.
- ما السبب؟!
- غير معروف، لكن طالما نتحدث عن العسكريين دونك قصة ضابط بريطاني اسمه "ألبرت جريفز" كان متمركزا في العقبة أتوقع في العقد الثاني من القرن العشرين. أحب فتاة من قبيلة الحويطات اسمها "مها" وأراد الارتباط بها، لكن والدها رفض، وفي الأخير هربا أو انتحرا لا أتذكر. سأراجع ما كتبه الأديب أحمد زكي أبو شادي عنهما. بالمناسبة، أبو شادي تزوج من الإنجليزية "آني بامفورد".
- تمام.
- وهناك أيضا قصة "موناليزا العراق" التي تعود لثلاثينيات القرن العشرين.

- وماذا عن هذه "الموناليزا"؟!
- خرجت فتاة عراقية لكنس عتبة الدار أثناء مرور رتل من الجنود البريطانيين. انبهر أحدهم بجمالها فتقدم لخطبتها، لكن أهلها رفضوا بطبيعة الحال. استقتل الضابط في الطلب وغير ملته ومارس ضغوطا حتى تزوج منها وأخذها إلى لندن. ولما اشتاقت لأهلها لم يستطع زوجها فراقها، وعوضا عن ذلك طلب من أحد الفنانين رسمها، وأرسل "البورتريه" لأهلها ليتصبروا بالصورة. تقول الروايات أن الفتاة لم تكن سعيدة بفراق دارها وعشيرتها. وهذه هي صورتها.

قالتها وهي تخرج هاتفها وتكتب في محركات البحث، ثم تدير الجوال ليتمكن "جونا" من رؤية النتائج.

- لكن ما يدريك يا فدوى أن هذه قصص حقيقية؟
- للأمانة هناك من يشكك في القصة الأخيرة، لكن حتى لو لم تكن حقيقية فإنها تؤشر إلى شيء مهم في العلاقات الإنسانية وهو التباين الثقافي والعرقي والمذهبي.
- الزواج المدني حل هذه المشكلة تماما كما هو حال "ستيف" و"سلمى". أنا أستغرب حقيقة من سماع هذا الكلام منك، منك أنت بالذات. تذكري كلامك عن شارع "لاجيتيه"، شارع البهجة يا فدوى. البهجة مع من تحب بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى. لقد فعلتها ملكة إنجلترا، إليزابيث الثانية، وهي سعيدة مع من تحب. فعلها الدكتور حسام مع زوجته المجرية. أنت تصادرين على حقنا في المحاولة وتعيدين اختراع العجلة.
- تذكر أنت قصة زبيدة البواب، "بوكاهونتاس"[cccxii] المصرية.

- تقارنين نفسك يا فدوى بـ"بوكاهونتاس" التي هربت إلى معسكر الأعداء؟! لسنا أعداء يا فدوى. لست زبيدة الميزوني ولا عايدة في الأوبرا الشهيرة ولا حتى دليلة في قصة شمشون الجبار. أقول لك نتزوج ولا داعي لأن تأتي إلى إنجلترا؛ سأتدبر وسيلة للتدريس في إحدى الجامعات الخاصة هنا يكون التدريس فيها باللغة الإنجليزية. يمكنني فعل ذلك. لست أول ولا آخر بريطاني يستقر في مصر. كاتبك المفضل كما أوضحت لي آنفا، "بيرسي هوارد نيوبي" عاش في مصر وحاضر في جامعة فؤاد أو القاهرة، وكتب روايات عظيمة عن مصر ليس أقلها شهرة "نزهة خلوية في سقارة".[cccxiii]
- المكان ليس العائق الوحيد يا "جونا"؛ هناك حسابات أخرى. توجد قصص ناجحة وأخرى فاشلة. وللتأكيد سأقص عليك قصة عكسية عن فتاة فرنسية تزوجت في الريف المصري.
- قصصك لا تنضب يا فدوى. أتمنى أن يكون لي نصيب منها. من هذه الفتاة؟ كلي آذان صاغية.

(١٢٥)
"جوليا وأبو قورة"

وضع "جونا" يده على فمه بينما ارتدت فدوى ثوب الحكي والروي والسرد. انطلقت قائلة:

- حسن، في عام ١٨٠٠ وأثناء جلاء الحملة الفرنسية عن مصر، هاجم سكان قرية ميت العامل الفرنسيين وسبوا امرأة إيطالية تُدعى "جوليا". كانت "جوليا" من البندقية وابنة لبائع قبعات اسمعه "بارتولي". ويبدو أن "جوليا" ووالدتها، "مارجريتا"، قد تركتا "بارتولي"، بل والبندقية كلها وجاءتا إلى مصر، البنت في صحبة الضابط الفرنسي "ديفو"، والأم أغلب الظن ضمن النساء اللاتي جئن مع الحملة للعمل في طهي الطعام وغسل الملابس والتسرية عن الجنود. لا يُعلم شيء عن مصير هذا الزوج "ديفو"، هل قُتل أو جُرح أو ظل يبحث عنها أو غادر إلى فرنسا؟ لا يُعلم شيء أيضا عن مصير الأم.
- و"جوليا"؟!
- تزوج كبير القرية، فؤاد أبو قورة، من "جوليا" الجميلة، وأسكنها قصرا فسيحا، وجعل في خدمتها الخدم والحشم، ومنحها الذهب والجوهر.
- لم تفكر في الهرب يعني أنها كانت سعيدة.
- لم تكن سعيدة على الإطلاق، لكن الهرب لم يكن سهلا.
- من يريد البقاء يبقى، ومن يريد الهرب يهرب.
- يهيأ لك.

- حسن وبعد؟
- أطلق عليها القرويين "السنيورة". لم يكن وضعها الجديد سيئا. كانت بمثابة سيدة القرية. أنجبت "جوليا" من أبي قورة صبيا اسمه منصور. ولما مات عنها عام ١٨٠٨ عقد عليها أخوه الصغير فأنجبت منه حفيظة وعلي.
- ربما كان ذلك بإرادتها.
- أسرها وزواجها كان أسود أيام حياتها، ثم انتقالها من الزوج إلى أخيه وكأنها سلعة تُورّث لم يكن شيئا جيدا.
- أتفق معك في هذه النقطة.
- وهكذا بين مرسيليا وميت العامل سقطت زبيدة و"جوليا" في مستنقع التعاسة والإخفاق. عاشت كلتاهما الصدمة الثقافية بكل أوجاعها وتفاصيلها.
- امرأة وقعت في الأسر وأجبرت على الزواج من كبير القرية. عاشت حياة رغيدة، لكنها خالية من الحب. الحب يا فدوى هو ما يغير المعادلة، الحب وحرية الاختيار واتخاذ القرار. جُبل الإنسان على بغض ما يُكره عليه. ما قيمة أن تُطعمي طيرا مكسرات وهو في الحبس؟
- أحسست أن هذا سيكون رد فعلك، لذا جهزت لك قصة تدحض وجهة نظرك.
- كيف؟!
- عمل البريطاني السيد "يونج"[cccxiv] كمأمور ضرائب في مصر، وأثناء إحدى جولات التفتيش الضريبية عام ١٩١٤، صُدم من

سوء معاملة امرأة إنجليزية متزوجة من مصري في القليوبية. كان المنزل الذي تعيش فيه بائسا ومبنيا بالطوب النيء. كانت المرأة الإنجليزية قد تزوجت ابن عمدة إحدى القرى عندما كان يدرس الهندسة في إنجلترا. استأجر الشاب المصري غرفة في منزل والدتها، ووقعا في الحب فتزوجا وعادت معه إلى مصر. بعد أن انتظر "يونج" قليلا، دخلت امرأة إنجليزية شابة... بدت في حوالي العشرين من عمرها... قالت: العمدة سيكون معك بعد دقائق قليلة. كيف تسير الحرب؟ يقولون إن ألمانيا متفوقة. لا توجد صحف إنجليزية هنا. لم تبد المرأة سعيدة. عرف منها أن زوجها، المهندس، المتعلم في إنجلترا يضربها.

- غريبة! أغلب من يعود من الدول المتقدمة نسبيا يمر بصدمة ثقافية عكسية وينقلب على موروث بلاده من التخلف والرجعية.
- هذا صحيح، وتناوله كاتب مصري اسمه "يحيى حقي" في قصة "قنديل أم هاشم". عاد إسماعيل من ألمانيا حيث درس طب العيون إلى منزله في السيدة زينب ليكتشف أن عدد حالات العمى قد زاد في الحي بشكل كبير. استقصى الأمر فوجد أن الناس يكتحلون بزيت قنديل أم هاشم طلبا للبركة، فما كان منه أن حطم القنديل.
- حطم الخرافة؟
- أجل صحيح.
- مؤكد صادق فتاة في ألمانيا غيرت وجهته وعدلت بوصلته.

- هذا صحيح أيضا. رفضت الفتاة الألمانية "ماريا" العودة مع إسماعيل. في قناعتي أنها خافت من خوض غمار التجربة. بالمناسبة كاتب القصة، يحيى حقي، كان متزوجا الفنانة التشكيلية الفرنسية، "جان ميري جيهو"
- جميل، جميل جدا. وماذا صار من أمر مواطنتي المكلومة في منزل العمدة؟
- لا أعرف. تقول القصة إن "يونج" راجع العمدة في هذا الأمر فجاء رده ألا بأس من ذلك فهو نفسه يفعل الشيء ذاته، والحب لا يتعارض مع الضرب! ما إن عاد "يونج" إلى القاهرة حتى توجه مباشرة إلى القنصلية البريطانية وحرر بلاغا عما شاهد وعاين.[cccxv]
- أحسن صنعا.

(١٢٦)

"الشرق شرق والغرب غرب"

قرر الباحثان إكمال حديثهما وهما يترجلان على "الكورنيش". صفا السيارة وانطلقا نحو الغرب. أخذ "جونا" نفسا طويلا حتى امتلأت رئتاه بالهواء ثم أخرجه على دفعات. نظر إلى البحر المتوسط والسفن الرابطة على خط السماء ثم التفت إلى فدوى قائلا بين الأمل والرجاء:

- فدوى قرأت ذات مرة عن طائفة من النابهين الفرنسيين. كان لديهم مشروع طوباوي. في مصر شجعوا الزواج بين الشرقيين والغربيين أو العكس. قالوا إن الشرق يمثل القيم الروحية والمعرفة الفلسفية بينما يمتلك الغرب الإنجازات الصناعية المادية والتقنيات الحديثة فإذا زاوجنا بين روح الشرق ومادية الغرب خلقنا حضارة جديدة متكاملة تجمع بين الأخلاق والصناعة. رأى هؤلاء أن المتوسط جدير بأن يسد الفجوة، ودللوا على ذلك باللغة المشتركة، "اللينجوا فرانكا" التي نشأت على شواطئه.
- مواطنك الشاعر "روديارد كيبلنج"[cccxvi] قال: الشرق شرق والغرب غرب، وأبدا لن يلتقيا. حتى اليهود الشرقيين والغربيين بينهم مماحكات رغم أنهم يعيشون في منطقة واحدة الآن.
- إدوارد سعيد، صاحب المدخلات العظيمة في الاستشراق، تزوج من الشرقية اللبنانية "مريم كورتاس" ومن الغربية "الإستونية" "ماري جانوس".
- زواجه من "ماري جانوس" جاء أولا، واستمر ثمانية أعوام من ١٩٦٢ إلى ١٩٧٠؛ هل تعلم أن زواج والدي استمر ٣٣ سنة؟

- فدوى أنا جوزائي، وأميل أكثر لفكرة برج الجوزاء: الصبيين، "كاستور وبولكس" وكيف أن أحدهما ينظر إلى الشرق والآخر إلى الغرب. كلاهما يسند ظهره إلى الآخر؛ لو قرر أحدهما أن يقف فجأة أو أن يتحرك نحو اليمين أو اليسار لانقلب الآخر.
- هذا صحيح، لكن الأسطورة الرومانية تقول يا "جونا" إنهما يقودان المواليد إلى الحياة والأموات إلى العالم الآخر، وأنهما يتبعان الشمس في شروقها وغروبها، يعني ميلادها وموتها.
- بغض النظر يا فدوى، فريق "سيرفايفر" الأمريكي لديه أغنية جميلة تعود للعام ١٩٨٥ تقول: "هل هو الشرق ضد الغرب، أم الإنسان ضد الإنسان".[cccxvii] وعود على بدء، رأت هذه الطائفة من النابهين الفرنسيين إن هذا الزواج يضيق الهوة بين الشرق والغرب. قالوا إن أحد الحلول التي وُضعت لإنهاء الحروب الصليبية هو زواج "جوانا"، أخت "ريتشارد"، قلب الأسد، من العادل، شقيق صلاح الدين الأيوبي.
- هذا زواج سياسي، زواج مصالح، ولم يتم أصلا.
- على الأقل جرى طرحه. الناصر محمد بن قلاوون تزوج من إحدى الأميرات المغوليات؛ وقبل ذلك تزوج الحسين بن علي من "شاه زنان" أو "شهربانو" ابنة الملك الفارسي "يزدجرد".
- زواج الحسين هناك من ينكره.
- عبد العزيز بن موسى بن نصير تزوج من أرملة ملك القوط، "رودريك"، واسمها "إيجيلونا".
- كان هذا الزواج أحد أسباب مقتله، وكما تزوج عبد العزيز بـ"إيجيلونا" تزوج "ألفنسو السادس"، ملك "ليون وقشتالة"،

من زائدة، زوجة المعتمد بن عباد. هذه بتلك و"إيجيلونا" بزائدة.

- بغض النظر، هناك عرق نشأ في الأندلس اسمه "المولدين" نتيجة زواج الإسبانيات بالعرب، الشرق بالغرب.
- أنت تعلم ما جرى في الأندلس من تعذيب تحت مظلة ما عُرف بمحاكم التفتيش. وأما مصاهرة الشرق والغرب فأنا أحيلك فيها يا "جونا" لتجربة الإسكندر الذي أراد دمج الشرق والغرب فتزوج من ثلاثة فارسيات، وسمح بزواج جنوده من شرقيات، لكن مشروعه لم يُفلح لأنه أتى غصبا. كاد قواده أن ينقلبوا عليه ويقتلوه. ما يضيق الهوة يا "جونا" حقا هو احترام الثقافات والتقاليد وتفهم الاختلافات والكف عن الانتقاد والتعالي. من هؤلاء على أي حال؟

(١٢٧)
"السانسيمونيان"

عض "جونا" سبابة يده اليمنى وكأنه يُفرغ شحنة من التوتر. دأب على فعل ذلك حين يستبد به القلق. نظر إلى فدوى قائلا:

- "السانسيمونيان".[cccxviii] أعتبرهم مشروع تنويري نهضوي وامتداد لعلماء الحملة الفرنسية. أرادوا ربط الشرق بالغرب عن طريق المشروعات الهندسية الضخمة مثل قناة السويس، وعن طريق إتمام زيجات بين الشرقيين والغربيات أو العكس، وشجعوا كذلك الحب الحر والمساكنة.
- الحب الحر والمساكنة وخلافه أمور لا يقبلها الشرقيون، لكن أخبرني هل تريد الارتباط بي لتطبق نظرية "السانسيمونيان"؟
- من قال هذا الكلام يا فدوى؟!
- أنت.
- غير صحيح؛ لا تضعي الكلام في فمي؛ هذه أفكارهم هم. استفادوا من المتخلفين من قوات "نابليون" عن العودة إلى فرنسا. كان منهم عبد الله "التولوزي" أو "ديرو"[cccxix] وسليم "كومب"[cccxx] وإسماعيل رشوان واسمه الحقيقي "بيير جاري"،[cccxxi] وكان منهم محمد أفندي "ماكرون" الذي عرجت أنت على ذكره آنفا. تزوج من مصرية، أنجبت له هانم وزهرة وحميدة وأسماء. أليس هذا شيئا جميلا؟
- بلى.

- وكان منهم الدكتور "دوساب"[cccxxii] الذي تخلف عن الحملة الفرنسية وعاش في القاهرة وتزوج من فتاة دارفورية اسمها حليمة.
- نعم، نعم. أعرف هذه القصة. لقد خانت حليمة زوجها الطاعن في السن مع شاب فرنسي أظن كان اسمه... كان اسمه... نعم تذكرت "توماس أوربين".[cccxxiii]

بهت "جونا" وامتقع وجهه. تمالك نفسه واحتوى انكساراته قائلا في نبرة تعلوها بعض الحدة:

- كما أسلفت، لديك رد محبط على أي أطروحة يا فدوى. على أي حال كما يوجد "ماكرون" يوجد "دوساب" والتعويل دوما على الشخص وتأهيله وقناعاته.
- تماما.
- دعيني أختم هذه الحديث عن "السانسيمونيان" بأنه عام ١٩٧٩ تزوج الدكتور المصري، سليم بيك فهمي، بفتاة فرنسية اسمها "جان بويش داليساك" في "مونبلييه" وعادت معه إلى مصر. هذه السيدة كانت مؤمنة بفكر "السانسيمونيان" وطبقته على نفسها بزواجها من شرقي وعملت في مصر على نشره بشكل عملي.
- تقصد أنها عملت خاطبة تزوج المصريين للفرنسيات.

نظر "جونا" إليها في استغراب ولم يعلق.

(١٢٨)
"بدونك أشعر أني أعمى حقا"

لم تُظهر فدوى حماسا لطرح "جونا" الذي تأفف قليلا. انهمك في تشبيك أصابعه، ثم استجمع شتات نفسه قائلا في ضجر واضح:

- لا أدري لماذا هذا التشاؤم يا فدوى؟!
- الكلام غير منطقي يا "جونا". هل تريد أن تقنعني أن ملياردير مثل عدنان خاشقجي الذي درس في كلية "فيكتوريا" هنا في الإسكندرية وتزوج من إنجليزية وإيطالية قرأ عن "السانسيمونيين" وطبق أفكارهم، أو أن ملياردير مثل محمد الفايد تزوج من الفنلندية، "هيني فيثين" من أجل نفس الأفكار؛ وينسحب ذلك على الملياردير القطري، وسام المانع، الذي تزوج من المغنية الأمريكية، "جانيت جاكسون".
- العلماء والمثقفون، لا الملياردريات، يدركون أهمية الزواج المختلط أكثر من غيرهم. أحيانا يُفضي زواج العلماء من آخرين وأخريات في نفس الحقل والمجال إلى نتائج مبهرة.
- كيف؟!
- الباحث المغربي، منصف السلاوي، تزوج من البلجيكية "كريستين بيلمونطي". كلاهما عمل في مجال الفيروسات، وتعاونا معا في إنجاز الكثير من الأبحاث وإنتاج العديد من الأدوية التي أنقذت آلاف البشر.
- هذا زواج مهني!!

- لا أقول إنه السبب الأساسي لهذه الزيجات، لكنه أمر يُؤخذ في الحسبان.
- حسن.
- والدكتور سعد الدين إبراهيم تزوج من الأمريكية "باربرا" وفاروق الباز على سبيل المثال لا الحصر تزوج من الأمريكية "باتريشيا سيتروك".
- فاروق الباز يا "جونا" يعيش في الولايات المتحدة ويحمل جنسيتها ويعمل فيها.
- استمعي إليّ يا فدوى، أنت دارسة للأدب، والأدب يجمع شتات النفوس. الدكتور طه حسين قال لزوجته الفرنسية "سوزان بريسو": "بدونك أشعر أني أعمى حقا".
- ليس طه حسين فقط يا "جونا" ودعني ألعب دور محامية الشيطان هنا: اللبناني أمين معلوف تزوج من الفرنسية "أندريه" والفلسطيني غسان كنفاني تزوج من "آني هوفر" السويدية والعراقي يونس بحري تزوج من الهولندية "جولي فان در فين". الأديب الصومالي، نور الدين فرح، تزوج من هندية. الأديبة الموريتانية، "متها بنت عبابه"، تزوجت من الحاكم الفرنسي بعد إسلامه. الطيب صالح، الروائي السوداني المشهور صاحب "موسم الهجرة إلى الشمال"، تزوج من الإسكوتلندية، "جوليا ماكلين" وأنجبت منها زينب وسميرة. وطالما نتحدث عن السودان فهناك أيضا قصة زواج الباحث والكاتب، عبد الله الطيب، من "دورثي جريذلدا"، و"ماركيز"، صاحب نوبل عن رواية "مائة عام من العزلة" تزوج امرأة من أصول سكندرية

قبطية أو مصرية-لبنانية، شيء من هذا القبيل اسمها "مرسيدس بارشا".

- ها أنت قد فندتي الفكرة أفضل مني. موسوعية أنت يا فدوى!
- لكن شكسبير يا سيد "جونا" لم يستطع إنجاح علاقة عطيل و"ديدمونة".
- هذا لا يعني أن الآخرين فشلوا. لا ينجح أحد في قصصك أنت... أنت وحسب!
- وهل هذا يعني أنك لن تسمع قصة اليوم؟!

(١٢٩)
"زليمة ومواريه"

أظهر "جونا" بعضا من عدم الارتياح ثم قال وهو يتوسل فدوى:

- لا أرجوك، لا مزيد من القصص المحبطة.
- كما تشاء.

عم الصمت الحذر لنصف دقيقة ثم أدرك "جونا" أنه يريد أن يسمع صوت فدوى بغض النظر عن المحتوي فانطلق قائلا:

- أقول لك... هات ما عندك.
- حسن. إنها قصة "زليمة"، امرأة مسلمة من أصول "جورجية"، وزوجة لأحد المماليك. قُتل زوجها في معركة "الأهرامات" خلال الحملة الفرنسية فهربت من القاهرة إلى دمياط لاجئة إلى صديق زوجها المقتول، وشريكه في التجارة، "أبي الفرو".
- "أبو قورة" و"أبو فرو"! ما هذه الأسماء العجيبة؟! ولماذا كل قصصك عن الحملة الفرنسية؟!
- فرغت لتوي من قراءة كتاب عن هذه الجزئية. هل تريدني أن أكمل القصة أم أتوقف ونغير الحديث؟
- لا فائدة، أكملي.
- سكن دمياط عام ١٧٩٩ ضابط فرنسي اسمه "جوزيف ماري مواريه".[cccxxiv] طلب منه أبو فرو أن يعلم "زليمة" الحساب حتى تصبح مسؤولة عن مراجعة تجارتهما. وقع "مواريه" في حبها. المهم اتفق "مواريه" و"زليمة" على الزواج، لكنه لم يشأ أن يختتن أو يترك الخمر. وهكذا انتهت القصة بالفشل.

- فدوى، هل أنت مدركة أنك تحكمين على الربع الأول من القرن الواحد والعشرين بمنطق نهاية القرن الثامن عشر أو بداية القرن التاسع عشر؟! هذا قياس فاسد. إنجلترا وأستراليا والولايات المتحدة وكندا وغيرهم من الدول تعج بالمصريين المتزوجين من أجنبيات.
- طبيعي.
- وحتى قبل وبعد التطبيع كانت هناك علاقات بين مصريين وإسرائيليات والعكس.
- مهلا تقصد مع يهوديات. الأمير أحمد فؤاد ابن الملك فاروق، أحمد فؤاد الثاني، تزوج من فرنسية من أصل يهودي هي "دومينيك فرانس لويب بيكار"،[cccxxv] وتطلقا عام ٢٠٠٦. الراقصة المصرية، تحية كاريوكا، تزوجت الضابط الأمريكي اليهودي "جيلبرت بول ليفي". قالوا أسلم من أجل تحية لا حبا في الإسلام، وعلى أي حال قُتل الرجل في حب فيتنام.
- أتحدث عن إسرائيل.
- أعطني مثالا يا "جونا".
- الأكاديمية الدكتورة سناء حسن سافرت إلى تل أبيب ووقعت في غرام ضابط إسرائيلي.[cccxxvi]
- سحب السادات جواز سفرها.
- وأعاده لها بعد توقيع معاهدة السلام.
- صحيح.
- ومحمود درويش، الشاعر الفلسطيني، وقع في حب "ريتا".

- أيضا صحيح. كتب لها: "إني أحبك رغم أنف قبيلتي ومدينتي وسلاسل العادات، لكنني أخشى إذا بعت الجميع تبيعيني وأعود بالخيبات"، ثم باعته. اكتشف أنها تعمل في الموساد! على أي حال، أخلع لك القبعة يا "جونا". عمل بحثي رائع.
- بعض مما عندك.
- في الحقيقة الإنسان الوحيد الذي أعرفه شخصيا وذهب إلى إسرائيل ووقع في حب فتاة إسرائيلية هو جارنا في الإبراهيمية، "مدحت".

(١٣٠)
"مدحت ونوريت"

زامل مدحت فدوى في الدروس الخصوصية. تمتع بعقلية فذة وحب جارف للعلم. حصل على مجموع كبير في الثانوية العامة يؤهله لكلية من كليات القمة، لكنه اختار الآداب، وقسم الاجتماع تحديدا. نبغ في دراسته وتم تعيينه بدرجة معيد في القسم الذي يحبه.

أنهى مدحت السنة التمهيدية وسجل لدرجة الماجستير. أراد أن يتناول حارة اليهود كنموذج اجتماعي، لكن الدكتور المشرف أبلغه أن هذا الموضوع قد قُتل بحثا، وأن حارات اليهود كانت منتشرة في العديد من العواصم العربية. قال له إن الذي ينقصنا حقا هو دراسة "الكيبوتس"، وهو عبارة عن مجتمع زراعي اشتراكي، ونموذج اجتماعي جيد وناجح وجدير بالدراسة، كما يمكن تطبيقه هنا في الأراضي الصحراوية المستصلحة.

بالفعل سجل مدحت في هذا الموضوع وأمضى قرابة الثلاث سنوات في الدراسة النظرية مع المشرف الذي رأي أهمية معاينة "الكيبوتس" على الطبيعة.

تحدث المشرف مع عميد الكلية الذي وعد بإنهاء الموافقات الأمنية، بينما تكفل رئيس قسم اللغات الشرقية بما يملكه من علاقة قوية بالمركز الثقافي العبري من الحصول على منحة باسم مدحت للإقامة في "كيبوتس دجانيا" بغرض دراسته وجمع المادة العلمية الخاصة بالشق العملي.

ظل مدحت مؤرقا لأيام. كلما استشار شخصا كلما وقع في حيرة أكبر. وافق والده قائلا إنه لم يعد بالإمكان إنكار إسرائيل فهذه الجدلية تجاوزتها

الأيام والأحداث بينما رفضت أمه؛ وافق جده من مبدأ "اعرف الآخر" ورفضت جدته التي فقدت أبيها في الحرب مع الصهاينة واصفة المعاهدة الحالية بأنها سلام حكومات، لا سلام شعوب.

بعد أسبوعين جلس مدحت غائبا عن الوعي في مطار القاهرة. حين نادوا على طائرة شركة العال المتجهة إلى إسرائيل جلس كل الواقفين دفعا للشبهة. تسحب مدحت خلسة نحو بوابة الركوب. بعد حوالي ساعة أو يزيد قليلا هبطت الطائرة في مطار "بن جوريون". انقبض صدر مدحت وأحس بالارتباك وكاد قلبه أن يتوقف تماما مثل ضابط الحراسة الخاصة بالرئيس السادات أثناء زيارته لإسرائيل والذي توقف قلبه وتوفى على الفور.

تمنى أن يجد أحد موظفي السفارة في استقباله، لكن يبدو أنه أفرط في التفاؤل. تنفس الصعداء حين وجد اسمه مكتوب باللغة العربية على لوحة حملتها فتاة من "كيبوتس داجانيا".

كانت "نوريت" تتحدث العربية الفصحى وتحب قراءة الروايات حيث درست الأدب العربي في جامعة تل أبيب. انطلقا إلى "كيبوتس دجانيا" في سيارتها. تعني كلمة "كيبوتس" "الجماعة" وفيه تختفي الملكية الخاصة إلى حد كبير فالكل في خدمة "الكيبوتس"، و"الكيبوتس" في خدمة إسرائيل.

مرت الأيام وامتلأ دفتر مدحت بالحبر وامتلأ قلبه بالحب لـ"نوريت". زاده القرب منها عشقا لها، وبادلته هي نفس الشعور. كان يعمل معها في الحقول ويقف بجانبها في نوبة الحراسة على الأبراج. كانت تهرب إلى غرفته يوم السبت أو "الشابات" فتستحم وتشاهد التلفاز وتأكل الطعام الساخن وتدخن السجائر.

ذهبا معا للسباحة في بحيرة طبرية. حين رآها بملابس البحر أدرك أن حبه لها قد فاض فملأ الكروم والزروع، وأنه لم يعد بمقدوره أن يبعد عنها. تذكر "لويزا"، وهي تسبح شبه عارية في بحيرة طبرية في فيلم "الناصر صلاح الدين" وتذكر السهم الذي أصاب عيسى العوام. قالت له "لويزا": "هذا درس لك يا عربي. المرة القادمة لن يصيب السهم كتفك بل قلبك." نعم أصاب سهم "نوريت" قلبه فلم يعد يرى غيرها ولا يسمع إلا صوتها.

نامت "نوريت" على الأريكة من شدة التعب جراء السباحة وراح مدحت يرقبها في حب وإعجاب. صحيح أن شكسبير كتب على لسان "أنطونيو"، تاجر البندقية: إنه لأيسر لك أن تتوجه نحو الشاطئ لتأمر ماء البحر أن ينخفض أو في وسعك أن تسأل الذئب لم أبكى النعجة بافتراس صغيرها؟ بل في مقدورك أيضا أن تمنع أشجار الصنوبر من تحريك أغصانها فلا يصدر عنها صوت إذا هاجت العواصف، لكنه ليس في وسعك أن تلين قلب اليهودي الذي لا نظير له في قسوته، لكن ما ذنب هذه المخلوقة أنها ولدت في "كيبوتس"؟!

من جانبها أدركت نوريت صعوبة الوضع، واستحالة الارتباط بينها وبين مدحت. حتى الروايات التي قرأتها لم تفلح بنسب متفاوتة في حل هذه المعضلة. لمست هذا في رواية وليد أسامة خليل "أحببت يهودية"[cccxxvii] "وفي رواية "مقدسية أنا" لعلاء مهنا[cccxxviii] ورواية خولة حمدي "في قلبي أنثى عبرية".[cccxxix] مرت رواية مراد الضفري "الوطن ليس هنا"[cccxxx] على نفس الفكرة حيث يدور هذا الحوار بين "أماليا" الإسرائيلية وطارق:

- ما ذنبي إن كنت إسرائيلية وأحبك يا طارق؟ هل نملك أن ننتقي مسبقا من نحب؟ هل أملك أن أشترط جنسية الرجل وديانته قبل أن أحبه؟ أنا لا أفهمكم أنتم العرب، تقتلون الحب بكل برود بسبب السياسة والعروبة والمبادئ القومية وكأن الحب آخر اهتماماتكم في اللائحة!
- ما يفرقنا يا أماليا أكبر مما يجمعنا.. التاريخ والهوية والمبادئ وكل الأشياء التي ننتمي إليها تفرقنا ولا تسمح لنا حتى بهذه اللحظات المسروقة من تاريخ أهلنا. بين أهلي وأهلك قصص مكتوبة من الرصاص والمجازر واحتلال وطن. لا يمكنني أن أمارس معك الحب يا أماليا وأهلك يمارسون القتل ومصادرة أحلام شعبي. سيل القبلات ولحظات العشق الجميل التي منحتني إياها لا يمكن أن تخنق أصوات دبابات الميركافا وطائرات الأباتشي وأضواء الفسفور الأبيض الذي أحرق شعبي. لا يمكنني وأنا أتلذذ بجسدك أن أنسى كيف رقصت عصابات الهجانا على أجساد أطفال شعبي."[cccxxxi]

تأزم وضع مدحت بعد أسبوع عندما وقعت عملية استشهادية في حيفا قُتل فيها عدد من الإسرائيليين. أحس أن نظرات سكان "الكيبوتس" قد تغيرت من ناحيته بعد أن كاد يكتسب احترامهم. بدا جليا أن الهوة بينه وبين "نوريت" تتسع، وأن الموروث الذي لا ناقة ولا جمل لهما فيه سوف يقول كلمته. على أي حال لم يبق له سوى أسبوع في إسرائيل.

قرر أن ينطلق وييمم شطره نحو القدس ويصلي في الأقصى. لم يشأ أن يودع "نوريت" فانطلق في الفجر ليستقل شاحنة دون علمها. ما لم يكن يعلمه أن "نوريت" وقفت تشاهده من وراء ستار النافذة وتبكي.

سجد مدحت في المسجد الأقصى وهطلت دموعه. طلب من الله أن يمنحه الصبر على فراق "نوريت". كانت كلما تغضب منه تقول له "ليخ لغزة" والتي تعني "اذهب إلى الجحيم" باعتبار أن غزة هي جحيم الإسرائيليين، وها هو في غزة يُنهي أوراق عودته لمصر برا.

(١٣١)

"يأكلها تمساح ولا يتزوجها فلاح"

أطبق الصمت على "جونا" فلم ينطق ببنت شفة. إذا كان كل حديثك عن الفشل فستفشل. قرر أن يحاول معها للمرة الأخيرة. نظر إلى العشاق الذين يجلسون على "الكورنيش"، ثم دعا فدوى للجلوس قليلا للراحة. بعد دقيقتين انطلق قائلا:

- العالم اختلف يا فدوى. هناك نسبة من الإخفاق لا أنكره، لكن هناك نسبة ربما أكبر من النجاح حتى في الأساطير وقصص الأطفال. يحتاج الأمر فقط بعض التضحيات. تذكري "إيريل"، الحورية الصغيرة التي قدمها "ديزني" معتمدا على قصة الدنماركي، "هانز كريستيان أنديرسون"، وكيف أنها ما إن رأت الأمير "إريك" حتى وقعت في غرامه ثم ضحت بأسرتها ومملكتها وصوتها وجسمها حتى تتحول إلى امرأة وتتزوجه.
- حسن سأتذكر ذلك سيدي الأمير.
- لا أمزح يا فدوى. أعود وأكرر نحن لا نعيد اختراع العجلة؛ المسلمون يقولون بإمكانية زواج الجن بالإنس أو هكذا فهمت.
- هذا صحيح وموجود في أدبياتهم.
- ها قد نطقت بها يا فدوى، فما بالك بنا نحن البشر. أتدرين ما هي مشكلتنا يا فدوى تحديدا؟
- ما هي؟
- أننا نُولد بختم المصنع ثم يجرى تصنيفنا إلى يهودي ومسلم ومسيحي وكاثوليكي وقبطي وشيعي وسفارديم ودرزي وهندوسي

وشرقي وغربي وألماني وسعودي وماليزي وكوبي وأفريقي وآسيوي وقوقازي وحامي وهكذا! بعد أن تتم عملية تصنيفك يأتي اتهامك بأنك تنتمي للتصنيف (أ) وأنك لا تنتمي للتصنيف (ب)، والويل لك لو فكرت أن تتجاوز تصنيفك ففي هذه الحالة سيتم الإشارة إليك بألقاب من قبيل "أفرو-آسيوي" و"أمريكي أسود" وأسترالي "أبورجي" وكندي "إنويتي" و"عراقي كردي" و"سوري درزي"...، وقد لا تُعجب هذه التصنيفات بعض البشر بطبيعة الحال فتنال رصاصة في رأسك فيما بات يُعرف بالقتل على الهوية. هويتك أحيانا تقتلك! لغتك أحيانا تقتلك! إثنيتك أحيانا تقتلك! أيدولوجيتك أحيانا تقتلك!

- هذا صحيح إلى حد بعيد يا "جونا"، ناهيك عن التنابز وإلقاء التهم الجاهزة. الإسرائيليون الذين يعيشون في فلسطين اليوم يتهمون العرب بمعاداة السامية، والحقيقة أن العرب تجري في شراينهم دماء أكثر سامية منهم. أنا جد فخورة بك وأنت تشرح هذه النقطة.
- أعود وأكرر يا فدوى مشكلتنا في التصنيف والتنميط والقولبة. آدم، أبو البشر، كان آدم وحسب، ونوح، الأب الثاني للبشرية، كان نوح وفقط. نقطة ولا يوجد أول السطر. وضعك في أي تصنيف لا يمنحك عقلين أو قلبين أو أنفين. حتى رقم الهوية القومية ورقم السيارة ورقم التأمين الصحي، مع أهميتهم، يُصنفونا إلى رجل وامرأة وحاصل على تعليم متوسط وعال، ويسكن المقاطعة (س) أو (ص) إلى آخره.

- فعلا، وهنا في مصر وأحسب في بلاد أخرى لدينا تصنيفات خاصة بنا بعضها "كوميدي" في الحقيقة فهذا إسكندراني وجهه كالح وذاك منوفي يحب الوظيفة الميري ودمياطي بخيل وقليوبي مزاجه متقلب وصعيدي قح إلى آخره، وبالطبع انعكس هذا التبويب والتقسيم على موضوع الزواج فالفلاح لا يمكن أن يتزوج بنات البنادر طبقا للمثل الذي يقول "يأكلها تمساح ولا يتزوجها فلاح" وهكذا.
- جميل، إضافة قيمة، وبالعودة يا سيدتي إلى موضوعنا السابق، هناك زيجات تتم بين التصنيفات السابق ذكرها، لكننا لا نعرف عنها شيئا لأن الأبطال هنا أشخاص عاديين وليسوا مشهورين مثل لاعبي الكرة والفنانين وخلافه.
- وهذا بالمناسبة أيضا تصنيف آخر يقسم الناس إلى عاديين ومشهورين. يبدو أننا لن ننجو من هذا الفخ.
- للأسف يا فدوى، لكن ربما ما قصدته المؤثرين وغير المؤثرين، وقبل أن تنطقي بها أعرف أن هذا أيضا تصنيف، لكن الناس يحبون المشاهير ويتابعونهم ويتكلمون عنهم و(يقلدونهم)، وهذه هي الكلمة المفتاح هنا.

(١٣٢)
"أؤمن بأي إله تؤمنين به"

أصاب "جونا" كبد الحقيقة في حديثه عن زواج المشاهير، لا سيما الفنانين. هكذا حدثت فدوى نفسها.

المخرج حسين فوزي تزوج من اليوغسلافية "بالميرا توبش"، والمخرج حسن الصيفي تزوج من الراقصة اليونانية "كيتي"، والمخرج السوري، مصطفى العقاد، تزوج من الأمريكية "باتريسيا". سعيد أباظة تزوج من الإيطالية "تريزا لويجي" وأنجبا رشدي أباظة الذي تزوج بدوره من الأمريكية "باربرا". الفنان جميل راتب تزوج من الفرنسية "مونيكا مونتيفير"، لكنه شبه منفصل عنها، وهي تعيش في فرنسا. الفنان إيهاب نافع تزوج أسترالية تُدعى "ديل جرندل"، كما تزوج الألمانية "فالترود بيتون"، أرملة رفعت الجمال، والمعروف باسم رأفت الهجان، جاسوس مصري زرعته المخابرات المصرية في إسرائيل.

المصري من أصل تركي، إبراهيم طوب صقال، تزوج من شركسية وأنجب الممثلة شويكار. المسرحي أمين صدقي تزوج من إيطالية وأنجب الفنانة لولا صدقي التي تزوجت بدورها الإيطالي "جياني دالمانو" بعد أن أعلن إسلامه. الفنان يوسف وهبي تزوج من الممثلة الإيطالية "إلينا لوندا"، ثم من مغنية الأوبرا الأمريكية "لويز لاند"، لكنه وقع في مشكلة كبيرة معها حين غازل صديقتها "ميريل باكستون". المخرج يوسف شاهين تزوج من الفرنسية "كوليت فافودون"، المولودة في الإسكندرية.

سألت فدوى نفسها: ما حكاية اسم يوسف مع الزواج بأجنبيات: يوسف شاهين ويوسف وهبي وآخرين. لا بأس أول من حمل الاسم، نبي الله يوسف، كان أيضا متزوجا من المصرية "أسينات".

عبد الفتاح جوهر، مهندس مصري، تزوج من بريطانية وأنجب منها عالم البحار، حامد جوهر، والممثل علي جوهر. الدكتور محمد مصطفى أمين تزوج من سيدة إسكوتلندية وأنجب منها الممثلة ميرفت أمين. أحمد علوي تزوج اليونانية "ستيلا" وأنجبا الممثلة ليلى علوي. الممثلة سميحة أيوب تزوجت من مهندس ديكور إيطالي. الفنان رياض القصبجي تزوج من إيطالية. محمد السيد عطا الله تزوج من سيدة روسية وأنجب منها "الباليرينا" والممثلة السكندرية نيللي كريم. الموسيقار هاني مهنا تزوج من الفرنسية "بيتي".

الراقصة سامية جمال تزوجت من الأمريكي، "شيبارد كينج" أو "عبد الله شيبارد"؟ قال لها: "شيبارد" أؤمن بأي إله تؤمنين به، فأنت لن تؤمني إلا بإله عظيم. بعد ذلك بدد ثروتها، وانتهى زواجهما بالطلاق. تزوج الفنان نجيب الريحاني من "لوسي دي فرناي"، فرنسية من أصل ألماني. الفنان عباس فارس تزوج من بريطانية، وبعد وفاتها تزوج من أختها. الفنان سمير صبري تزوج من إنجليزية تُدعى "مورين". تزوج الفنان أحمد خليل من سيدة ألمانية. الفنان كرم مطاوع تزوج من الإيطالية "ميريث فالجوم". الفنان محمود قابيل تزوج من أميركية. الفنان مصطفى فهمي تزوج من الإيطالية "ماريا بتريشيثا". الفنان شكري سرحان تزوج من الراقصة الأرمينية "هرمين" التي وُلدت وتوفت في الإسكندرية.

عادت فدوى تحدث نفسها: لكن الأرمن ذابوا في المجتمع المصري ومنهم من حصل على الجنسية المصرية والجيل الجديد منهم يتحدث العربية بطلاقة. نتحدث هنا عن الفنانتين: نيللي ولبلبة وأخريات.

(١٣٣)

"القسوة تقطع شرايين المحبة"

قبض "جونا" يده اليسرى عدة مرات ثم قال:

- أتوقع يا فدوى أن الإسكندرية، بما أنها مدينة "كوزموبوليتانية"، ومهد السينما المصرية كما علمت، شهدت معظم هذه الزيجات الفنية.
- هذا صحيح إلى حد بعيد.
- أتوقع أيضا أن الشخص الذي ينشأ في أسرة مختلطة يميل أكثر إلى الزواج المختلط.
- مؤكد. وهنا لدينا مثالان: محمود بيومي، والد الممثل المصري أحمد رمزي، تزوج من البريطانية "هيلين مكاي" وأحمد رمزي بدوره تزوج من اليونانية "نيكولا"، ومحمد فخري، مهندس ري في الفيوم، تزوج من المجرية "باولا" وأنجب الممثلة مريم فخر الدين والممثل يوسف فخر الدين الذي تزوج بدوره من يونانية.
- الزوجتان يونانيتان مؤشر على...
- .. على أن اليونانيين شكلوا أكبر جالية في الإسكندرية، بل ومصر كلها. التقطت إشارة من أحد الكتب سجلتها هنا تقول، واسمح لي بالقراءة من جوالي: عام ١٩٣٧ في الشاطبي بالإسكندرية تزوجت اليونانية "جارولا جورج" من أحمد شفيق محمد. في مايو ١٩٥٥ تزوجت "أنتيجوني جورج كامنسينو" من مدحت شاكر شكري في العطارين بالإسكندرية. هؤلاء أناس عاديين تماما.[cccxxxii]

- جميل، لكن الموضوع فرض نفسه؛ كنا نتحدث عن الفنانين.
- فعلا، والشيء بالشيء يُذكر الفنانة أمينة مصطفى جمال أو "ميمي جمال" والدتها يونانية هي "ستلا". لدينا أيضا الفنان عادل أدهم الذي وُلد في الإسكندرية لأب مصري وأم تركية، وتزوج من اليونانية "ديمترا".
- ممتاز تنطبق عليه نفس المعايير الثلاثة: إسكندراني وجاء إلى الحياة كثمرة لزواج مختلط وتزوج من يونانية.

ضحكت فدوى بشدة. سألها "دونا" متعجبا:

- ما الذي يُضحكك؟!
- طريقة تعاملك مع المعلومات وكأنك تستخلص نتائج بحثية. على أي حال قصة زواج عادل أدهم و "ديمترا" محزنة بعض الشيء.
- كيف؟
- جرى الزواج هنا في الإسكندرية حيث استقر العروسان. عصبية عادل أدهم المعروفة عنه دفعته إلى الشجار المتكرر معها وتحولت إلى الضرب والإهانة. صبرت "ديمترا" حتى مرضت، ولم تجد عادل بجوارها في مرضها. كانت حامل في الشهر الرابع. استيقظ عادل يوما فلم يجدها. حزمت حقائبها ورحلت.
- طبيعي القسوة تقطع شرايين المحبة.
- حقيقي. بعد مرور خمسة وعشرين سنة عرف عادل أن "ديمترا" أنجبت ولدا منه، وأنها تزوجت في اليونان. سافر إليها، ووجدها سعيدة مع زوجها، واقنع نفسه أنها لا تحتاج إلى طلاق منه

فالكنيسة لا تعترف أصلا بزواجهما، فضلا عن أنه تزوج بأخرى. الشيء المؤلم كان لقاءه بابنه الذي تحدث معه بجفاء.

- معذور الولد؛ مؤكد شعر بأن والده تخلى عنه.
- هو على أي حال أحسن حظا من بنتي الممثل يحيى شاهين الذي تزوج عام ١٩٥٩ سيدة مجرية مطلقة ولديها طفلان. بعد علاقة عاطفية قوية ربطتهما، وبعد أن أنجب منها ابنتين قررا الانفصال بعد ست سنوات من الزواج. أخذت طليقته ابنتيه وسافرت بهما إلى المجر، وحُرم منهما ولم يرهُما مرة أخري.

(١٣٤)

"فان جيلدرملسين ومحمد عثمان"

أخذ "جونا" يردد كلمات فدوى بصوت مسموع: الكنيسة لا تعترف أصلا بزواجهما. قال وكأنه يحدث نفسه:

- وطالما لا تعترف بالزواج فإنها لا تعترف بالطلاق.
- مؤكد. هل نسيت (متى ١٩: ٩) كل من يطلق زوجته يدفع بها إلى الزنا.
- لكن طالما الزواج المدني موجود فالطلاق المدني جائز.

صمتت فدوى ولم تعلق. حافظ "جونا" على خيط الحديث قائلا:

- بمناسبة الكلام عن السينما يا فدوى، التقى الملك حسين بزوجته البريطانية "توني أفريل"[cccxxxiii] خلال التحضيرات لفيلم "لورانس العرب" في الأردن عام ١٩٦٢ وتزوجها.
- معروف.
- في الأردن أيضا، تزوجت "مارجريت فان جيلدرملسين"[cccxxxiv] من محمد عبد الله عثمان. هذا الزواج عُد إعادة تجسيد وإحياء لقصة "جين ديجبي" والشيخ مجول المصرب.
- من "مارجريت" هذه؟!
- ممرضة نيوزلندية قامت برحلة سياحية إلى البتراء عام ١٩٧٨ وهناك تعرفت على هذا البدوي البسيط الذي يبيع التذكارات.
- نعم، نعم. تذكرتها.

- تزوجته وعاشت معه في كهف، واستمر زواجهما حتى وفاة زوجها عام ٢٠٠٢. حوالي ربع قرن من السعادة كما كتبت هي في مذكراتها "تزوجت بدويا".[cccxxxv]
- في قناعتي يا "جونا" استغلت هذا الزواج كثيرا في الدعاية لنفسها لدرجة أنها حظيت بزيارة الملكة، إليزابيث الثانية، بصحبة الملكة نور عام ١٩٨٤.
- أرى أنها تستأهل هذه الزيارة وزيادة.
- ربما كانت تبحث عن المغامرة والإثارة. البريطانية "إيما ماكيون"[cccxxxvi] كانت تعمل في الإغاثة في السودان وتزوجت من قائد المليشيا، "رياك مشار"، وفقدت حياتها بينما كانت حامل في طفلهما الأول. البعض يحب حياة الانطلاق والمفاجآت أو ما أسميه أنا "الجيفارية"، نسبة على "تشي جيفارا". والبريطاني "بيرسي كوريات"[cccxxxvii] هرب من المدرسة وانضم للجيش البريطاني في السودان. عاش وسط قبيلة "النوير" وتزوج منهم امرأة دفع لها مهرا من الماشية. كما أسلفت البعض يستمتع بانطلاق الأدرينالين في أجسامهم. إنها سطوة المغامرة. تابع هذا المقطع المصور..

قالتها وهي تخرج هاتفها وتفتح "الفيديو". واصلت:

- يعود تاريخه للعام ٢٠١٦ ويوثق زواج شاب إماراتي من فرنسية أصرت أن يكون في البر،[cccxxxviii] الأمر الذي يؤشر إلى أن الصحراء خلبت عقول الغربيين، ناهيك عن الرغبة في التفرد والتميز والإتيان بشيء مختلف.

- ليست "مارجريت". هذا إحساسي يا فدوى. الزواج في الصحراء شيء والإقامة فيها شيء آخر.
- هذه قناعتك، أما أنا فأرى أن كتاب، "تزوجت بدويا"، لا يختلف كثيرا عن رومانسيات الشيوخ.
- رومانسيات الشيوخ؟!

(١٣٥)
"ديانا وأحمد"

أعادت فدوى خصلات من شعرها انسدلت على جبهتها بفعل هواء البحر إلى الخلف وهي تقول:

- نعم، والمقصود تصنيف من الروايات يدور أغلبها، إن لم يكن كلها، حول فتاة شقراء أو بيضاء تسافر إلى بلد عربي، ثم تلتقي بشيخ، وتقع في حبه، وقد تتزوجه وتعيش معه في الصحراء، بل وتنجب منه. وفي ثنايا الرواية وبين جنباتها تظهر الاختلافات الثقافية وتتصدر الواجهة بينما يتراجع الحب إلى الخلفية. في بؤرة الحدث يشتد الصراع الثقافي والتنميط والاستقطاب وينتهي بموت البطلة أو هروبها أو شيء من هذا القبيل كعاصفة رملية أو خلافه تقتلع المخيم وكأن الطبيعة غير راضية عن هذا الارتباط ولا تباركه.
- أعطني مثالا.
- أول رواية ظهرت على هذه الشاكلة هي "الشيخ" للكاتبة الإنجليزية "إديث مود هلّ".[cccxxxix] تحولت الرواية إلى فيلم سينمائي صامت عام ١٩٢١. لدينا الآن حوالي مائتين رواية من هذه العينة نُشرت بين ١٩١٩ و٢٠١٨، بمعدل روايتين في السنة.
- أتوقع يا فدوى أنها روايات خفيفة لتمضية الوقت، ومع ذلك فالموضوع نفسه شيق وجدير بأن يتم تناوله في رسالة علمية.
- فكرة جيدة. رواية "هلّ" باعت أكثر من مليون نسخة.
- وما موضوعها؟

- تدور حول الإنجليزية، "ديانا مايو"، التي تهرب من قيود الحياة الأرستقراطية وتشرع في رحلة جريئة إلى قلب الصحراء المجهولة. تقع في أسر الشيخ أحمد بن حسن. تحاول الفتاة المتمردة الهرب، لكنها تفشل. في النهاية تستسلم لوسامة الشيخ، وتدريجيا، تبدأ مشاعرها تجاهه في التغير. تشعر بالانجذاب إليه، بل وتقع في حبه.
- هذا مثال جيد على متلازمة ستوكهولم، وقوع المخطوف في حب الخاطف حتى قبل أن تخرج المتلازمة نفسها إلى النور.
- بالضبط.
- ومثال على إمكانية التعايش بين الشرق والغرب.
- ليس مثالا جيدا لما فيه من الغصب والخطف والحبس والقيد.

(١٣٦)

"السيد والسيدة براندي"

بحركة لا إرادية أخذ "جونا" يقرع نعليه بعضهما ببعض وهو جالس على سور "الكورنيش" ثم قال:

- الأمثلة كثيرة على أي حال.
- وأنا مستمتعة بالحوار.
- حقا؟! إذن دونك ثلاثة أمثلة عن اندماج الشرق بالغرب. المثال الأول: عام ١٦٢١ ميلادية، تزوج هنا في الإسكندرية الفرنسي "أسيدون لوارنو" من النصرانية "أورشا بنت عبد الله"[cccxl]
- "أورشا" اسم بابلي قديم يعني "الخصوبة الزراعية".
- تمام، من ٣٩٧ سنة؛ والمثال الثاني وجدته في كتاب "إليزا فاي" "الخطابات الأولى من الهند" والمنشور عام ١٧٧٩.
- من ٢٣٩ سنة.
- بالضبط. نزلت هذه السيدة الإنجليزية الإسكندرية في طريقها إلى الهند. تناولت العشاء مع القنصل الألماني "براندي". دعيني أقرأ لك شيئا مما كتبت.
- جميل. تفضل.

فتح "جونا" جواله وما هي إلا بضع ثوان حتى بدأ يقرأ بنبرة من وضع يديه على كنز عظيم:

- ٢٥ يوليو: القيظ على أشده فبقينا في المسكن حتى المساء حين مر بنا السيد "براندي" ليصطحبنا إلى منزله. استقبلتنا زوجته بألطف مظاهر الكرم. تنتمي السيدة "براندي" لمواطني هذا

البلد، لكنها تتحدث بقدر قليل من الفرنسية الأمر الذي مكنا من التواصل معها فيما يُشبه المحادثة. تزينت من أجل هذه المناسبة على نحو يثير الفضول. لأنها قصيرة وبشرتها داكنة وبدينة في استدارة فقد بدت على بعضها أغرب كتلة متبرجة شاهدتها في حياتي. لفت "تربيعة" حول رأسها ترصعها صفوف من "الترتر" الكبير الذي يتداخل مع اللآلئ والزمرد وانسحبت هذه الزينة إلى رقبتها وصدرها، ناهيك عن حزام مزين بمشبكين من الذهب تصل مساحتهما إلى أربع بوصات مربعة تقريبا على ما أظن. تدلى من أذنيها قرطان هائلان في الحجم. وضعت غصين كبير على جبتها، ولبست خاتما ضخما وكلاهما من الماس. لك أن تتخيل أنها كانت أكثر الحاضرين توهجا ولمعانا. لديها بنت صغيرة لذيذة، في السابعة من عمرها أو نحو ذلك. خرجت في نفس البهرجة تقريبا، لكنها كانت جميلة حقا بالرغم من زينتها المتنافرة. سررت بشكل عام بالأم والطفلة. كانت نظراتهما وسلوكهما طيبا وعطوفا. إن أي اهتمام يناله الغريب في أرض غريبة (كما هو حالنا بالضبط) يدخل على النفس الطمأنينة ويجد فيه المرء السلوى والعزاء.[cccxli]

- جميل جدا.
- والمثال الأخير يا سيدتي العزيزة ساقه الفرنسي "بريس دافين"..
- إدريس أفندي؟
- أجل، وأحسبك تعرفين أنه أمضى في مصر سنوات وسنوات.
- صحيح.

- يقول في كتابه "إدريس أفندي في مصر"، ولا حظي أن ما سأتلوه عليك ليس علاقة بين رجل وامرأة، بل امرأتين، وأرجو ألا يذهب عقلك لبعيد؛ هي علاقة إنسانية طبيعية.
- تمام.
- كتب يقول: عرفت في مصر ضابطا فرنسيا كان قد تزوج على طريقة أهل البلاد فتاة قبطية ورزق منها ولدا. وكان يحبها حبا جما، ولكن بعد بضع سنوات من هذا الاقتران أحب فرنسية أثارت في نفسه جميع ذكريات وطنه، فطلب يدها ونالها. وحين علمت الزوجة القبطية استاءت، وانتهى بها الأمر إلى أن رضيت في إذعان أن ترى من وقت لآخر هذا الرجل الذي وهبته نفسها. وبفضل ثرثرة صديقاتها سرعان ما وقفت الزوجة الأوروبية على الأمر، فذهبت إلى بيت غريمتها متنكرة، وعاشرتها بعض الوقت فوجدتها ممتازة في عادتها بقدر ما هي ممتازة في تعلقها العميق بزوجهما المشترك. قررت أن تسكن معها، ونفذت قرارها في أثناء تغيب الزوج غيبة طويلة، فلما عاد، قدمت إليه الأم والولد، وقالت له: لقد عشنا منذ رحيلك كالأختين، وأرجو ألا تفرقنا! وهكذا عاشتا معا حتى فرق بينهما الموت.[cccxlii]

(١٣٧)

"أرشف قهوتي الصباحية من بنهما المحروق"

انتهى "جونا" من القراءة ثم وضع هاتفه على فخذه. ظلت فدوى ترقب الشاشة حتى أعتمت. علق "جونا"

- أرأيت يا فدوى من ربع ألفية إلا قليل، وقبل "الإنترنت" نجح السيد براندي وزوجته السكندرية من العيش معا وإنجاب طفلة جميلة. نجحا في التوافق والالتقاء في منتصف الطريق.
- يا "جونا" أنت تتحدث هنا عن نجاح فردين؛ وأنا أزيدك من الشعر بيتا، توجد عائلات أوروبية كاملة نجحت واندمجت في مصر: عائلة منشة الإسبانية وشيكوريل الإيطالية والأباظية الشركسية ولاجين (لاشين) الألمانية ومحمد علي الألبانية والدالي التركية والجريتلي الكريتية وغيرهم.
- جميل.
- المسألة تتوقف على الملابسات التاريخية والقناعات الشخصية والإرادة و..
- الإرادة، فعلا هذه هي الكلمة الصحيحة يا فدوى، ومفتاح القضية بالكامل. كما قلت لك النجاح ممكن سواء على مستوى الناس العاديين أو المشاهير أو حتى الملوك والأمراء والطبقة الحاكمة والنخبة الأرستقراطية. زوجة الرئيس ناصر كان والدها إيرانيا وزوجة الرئيس السادات كانت والدتها إنجليزية[cccxliii] وكذلك والدة زوجة الرئيس مبارك.[cccxliv] قرأت كثيرا أيضا عن زيجات مختلطة لمستشرقين.

- مثل من؟
- الفرنسيان: "ريني جنون"[cccxlv] الذي تزوج عام ١٩٣٤ من فاطمة وأنجب منها أربعة أطفال، وحصل على الجنسية المصرية، و"روجيه جارودي" الذي تزوج من الفلسطينية سلمى التاجي الفاروقي. الإنجليزي "جون فيلبي"[cccxlvi] تزوج من السعودية روزي العبد العزيز البلوشي وأنجب منها خالد وفارس.
- جميل.
- والنمساوي "ليوبولد فايس"[cccxlvii] أو محمد أسد تزوج في السعودية من منيرة الشمري بعد وفاة زوجته الأولى، "إلسا شيمان".[cccxlviii]
- تزوج مرتين بعد وفاة زوجته الأولى، ومنيرة هذه كانت الثالثة.
- أقول لك لندع المستشرقين جانبا؛ عملهم ربما أثر حقا على قراراتهم بخصوص الزواج. ماذا عن الأمراء المصريين والأميرات المصريات.
- مثل من؟
- حسن سأضطر لفتح نقالي من جديد.
- لا بأس. خذ وقتك.

تناولت فدوى هاتفها. هذه أول مرة منذ أمد تفتح "كاميرا" الهاتف وتلقي نظرة على وجهها. مؤخرا فقط أصبحت تهتم بالأنثى التي تعيش داخلها.

حلت عقيصتها وصففت شعرها ولمعت أظافرها ووضعت مساحيق تجميل خفيفة وابتاعت ملابس جديدة وقرطا كبيرا ومشدات

من النوعية التي تبرز الصدر، واستبدلت نعالها العملية بأخرى ذات كعوب مرتفعة نسبيا، واستعاضت عن نظارتها بعدستين لاصقتين تُبقي عينيها واسعتين، لكنهما أيضا بلون البن الغامق.

عيناك لحظتا شروق

أرشف قهوتي الصباحية من بنهما المحروق

وأقرأ الطالع

...

عيناك يا حبيبتي شجيرتا برقوق

تجلس في ظلهما الشمس، ترفو ثوبها المفتوق[cccxlix]

(١٣٨)
"آفات الأكاديميين"

أدارت الكاميرا إلى الخارج فوجدت "جونا" يحدق ويقلب في هاتفه باهتمام.

معضلة "جونا" في قناعتها أنه يحل مشاكله الشخصية بنفس الطريقة التي يحل بها مسألة علمية: يبحث ويجمع معلومات ويربط بعضها ببعض ويصنفها ويعنونها ويقسمها ويبوبها.

لا يمكن أن نتعامل مع المشاعر بنفس الطريقة التي نتعامل فيها مع الأطروحات العلمية. لا يمكن أن نُخضع أحاسيسنا للمعايير المختبرية.

هي أيضا تقع أحيانا في نفس الخطأ، لكن ربما بدرجات أقل. مشكلتها الأكبر هي التردد والخوف وعدم اليقين، ناهيك عن ميلها إلى رد الحجة بالحجة والقفز للنتائج المنطقية، وكل هذا يندرج تحت مُسمى "آفات الأكاديميين". لطالما كانت واعية بها، ولطالما نصحت الآخرين بالنأي عنها، لكنها وقعت فيها.

وصل "جونا" إلى مقصده فانطلق قائلا:

- خذي مثلا زواج الأمير علي فاضل[cccl] من الفرنسية "أليكس مارثا فريزيت".[cccli]
- هذه الزيجة انتهت بالطلاق عام ١٩٠٨.
- زواج الأمير إبراهيم حسن ابن الخديوي إسماعيل من الممثلة الأمريكية "بيرل همفري"[ccclii] عام ١٩١١.
- انفصلا.[cccliii]

- الأمير عباس محمد إبراهيم حليم الذي تزوج من الإنجليزية "جيسيكا دلما ماريا هارينجتون"؟[ccclxiv]
- أعرف هذا الأمير بالطبع. لُقب بنسر الإسكندرية ونصير العمال. لو جلس معه توفيق الحكيم ساعتين ما كتب "الأيدي الناعمة".
- من الحكيم هذا؟!
- لا عليك. أما جيسيكا فماتت بطلق ناري طائش في منطقة سابا باشا هنا. قيل إنها كانت تنظف المسدس،[ccclv] لكن لا أحد يصدق هذا الطرح، والأغلب أنها انتحرت. بالمناسبة عباس محمد إبراهيم حليم كان زوجها الثالث؛ تزوجت قبله من ضابط بريطاني وأمير مصري.
- الأميرة فوزية فؤاد وزواجها من شاه إيران.
- هذا الزواج انتهى بالطلاق وبأزمة دبلوماسية.
- زواج الأميرة فريال، البنت الكبيرة للملك فاروق، من السويسري، "جين بيير بيرتن"[ccclvi] عام ١٩٦٦ بعد أن أعلن إسلامه.
- هذا الزواج استمر لسنة واحدة تقريبا وانتهى بالطلاق.
- زواج الأمير محمد عبد المنعم ابن الخديوي عباس من "نسل شاه"، حفيدة السلطان عبد الحميد الثاني، وزواج الأمير محمد علي إبراهيم من الأميرة "هانزاده" بنت عمر فاروق ابن السلطان عبد المجيد الثاني.
- مصر وتركيا تقريبا نفس الثقافة؛ شيء قريب من زواج الممثلة الأمريكية، "جريس كيلي"، من أمير "موناكو".

- حسن، زواج الأميرة أوليفيا عباس حليم من الإيطالي "أورترو روتشيو سكاراميلا" وإنجابها منه طفلين.
- هذا زواجها الثاني بالمناسبة.
- وما الضير في ذلك؟!
- فقط أحببت أن أضيف معلومة.
- جيد، هناك أيضا قصة حب "أغاخان"، سلطان محمد شاه الحسيني، إمام طائفة الشيعة الإسماعلية "النزارية" والفرنسية "إيفيت بلانش لابروس" أو "البيجوم" أم حبيبة.
- تقول حب! هذه الزيجة الرابعة له.
- وزواج الزعيم المصري، محمد فريد، من الفرنسية، "رينيه" أو "مدام روشبرون" أو "عزيزة دي روشبرون".
- شكك البعض في هذا الادعاء.
- زواج الوزير ممدوح رياض باشا من الرومانية "ماري مكافاديا" وزواج عبود باشا من إسكوتلندية وزواج محمد محمود خليل، صاحب المتحف المشهور، من الفرنسية "إميلين هيكتور" وزواج أمين عثمان من الإنجليزية "كاترين جريجوري".
- أمين عثمان وصف علاقة مصر ببريطانيا بالزواج الكاثوليكي، ربما كان يُسقط هذه الجملة على زواجه من "كاترين".
- لم تكن كاثوليكية على أغلب الظن.
- أرجح ذلك أيضا. كلمتان طائشتان وتشبيه غريب تسببوا في مقتل أمين عثمان حيث اغتيل عام ١٩٤٤.

(١٣٩)

"سيريتسي وروث"

قام الزميلان من جلستهما وواصلا المشي. علقت فدوى:

- الذنب ليس ذنبنا يا "جونا". تقابلنا في المكان الخطأ والزمن الخطأ.
- ليس لنا دخل. هذه أمور قدرية يا فدوى. العجيب أننا ننسى أو نتغافل أننا جميعا من أصل واحد، وأننا لو نحينا اللون والجنسية والديانة والمذهب واللغة عادت إنسانيتنا إلى فطرتها السليمة.
- كلام جميل، لكنه نظري أكثر من اللازم، وحين يصطدم بالواقع يفقد معناه.
- سأحكي لك قصة طريفة.
- أراك أخذت دوري.
- قصة واحدة يا فدوى مقابل عشرات القصص التي قمت بسردها.
- أمزح فقط. تفضل.
- هل شاهدت فيلم "الملك وأنا"، إنتاج عام ١٩٥٦؟
- بالطبع. فيلم جميل ومعالجة رائعة لرواية "مارجريت لاندون" "آنا وملك سيام" عام ١٩٤٤.
- لسان حال "لاندون" يقول وأنا أردد معها: ما سبب هذه الخصومة المعقودة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب. لطالما تمنيت أن تكون هذه اتجاهات جغرافية وحسب.
- لا أختلف معك. لقد قيدنا أنفسنا بلون البشرة والعقيدة والعادات. أنا قبطية، وفي نظر الكاثوليك مهرطقة، وأنت

"أنجيليكان" لأن الملك هنري الثامن أراد أن يتزوج ويُطلق كما يحلو له. في ظل هذه المماحكات نسينا رسالة يسوع أن المجد لله في الأعالي وبالناس المسرة وعلى الأرض السلام.

- ممتاز يا فدوى أحيانا أشعر أننا نتكلم نفس اللغة.
- أين القصة؟!
- نعم.. القصة.. القصة: التقى "سيريتسي خاما"، وهو أفريقي كان يدرس القانون في لندن عام ١٩٤٨ بالإنجليزية "روث ويليامز". وقعا في الحب بالرغم من اختلاف لونهما. قررا الزواج، لكن أهل "سيريتسي" اعترضوا، كما تحفظت حكومة بريطانيا، لكن الحب انتصر، وأثمر الزواج ثلاثة من الأبناء. أصبح "سيريتسي" أول رئيس لبتسوانا وروث السيدة الأولى.
- السيدة الأولى. هذا أفضل تعويض بعد الحب. تذكرني هذه القصة بزواج "جاكلين أوناسيس"، ذات الأصول اليونانية، من الرئيس الأمريكي "جون كيندي" والمصرية القبطية، فتحية حليم رزق، و"نكروما"، أول رئيس لدولة غانا، وزواج الفرنسية "ماتيلدا لوران" من الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة والفرنسية "بياترس راين" من المنصف المرزوقي، وعلى نحو مشابه اليونانية "زوي جريجواكوس"،[cccLVII] والدة الأميرة مهرة المكتوم.

(١٤٠)
"ليس هنا وليس الآن"

رمقت فدوى "جونا" بنظرة يعتريها قدر من الإعجاب والغرابة ثم قالت:

- وكأني بك قد قمت ببحث مستفيض عن هذا الأمر.
- حدث بالفعل؛ من زواج أمنوحتب الثالث حتى "جورج كلوني".

ضحكت فدوى قائلة:

- ليس لدي مانع من الزواج من "جورج كلوني"، لكنه متزوج بالفعل.
- أنا أوسم منه.
- زد على ذلك أنه لا يباريك أحد في البحث كما برهنت اليوم.
- أنت تعلمين يا سيدتي أن التمحيص والتدقيق والتفنيد أدوات تعاملنا مع الأشياء، ثم أن البحث عن الحبيب والشريك هو أول ما قام به الإنسان.
- البحث عن حواء.
- البحث عن "رادوبيس"، عن فدوى.
- "البحث عن كوليت".
- من "كوليت"؟!
- هذا عنوان قصة قصيرة من تأليفي.
- وبالطبع كأغلب حكاياتك لم يستطع البطل العثور على "كوليت" وانتهت القصة بالفراق الأبدي.

- بالعكس. ربما يحتاج الأمر بعض الجهد.
- أكثر من هذا؟!
- أو ربما بعض الوقت.
- إذن أوجزي حبكتها؛ ربما كانت معينا لي على ما أنا فيه.
- سأرسلها لك.
- حقيقة لا أجد مزيدا من الكلمات يا فدوى.
- إذن دع فدوى تفتح قوسين هنا وتقول لك أنها تدرك كل ما ذكرت آنفا، لكنها تكلمك عن قناعتها الشخصية.
- كرهت كلمة "لكن". أريد الخلاصة.
- الخلاصة، وعودة للأدب، ما كتبه "فورستر" في نهاية روايته "ممر إلى الهند": ليس هنا، وليس الآن.
- دعينا نحاول.
- المحاولة في بعض الأشياء والأحيان انتحار. اسمع يا "جونا"، أنت هنا في مأمورية للكتابة عن قصص حب متعلقة بالإسكندرية، لا أن تدخل في قصة حب. هذه المشاعر تُسمى في بلادكم برومانسية الصيف والسفر. تذكر أن "كيث" و"ميلينا" التقيا أيضا في الصيف. فترة قصيرة للغاية لا تكفي لاختمار مشاعرنا وتجذر أحاسيسنا.
- وما المانع يا فدوى؟ أجمل الأشياء هي التي تأتي دون ترتيب. العالم تغير. الكرة الأرضية عادت "بانجيا" من جديد بفضل الطائرات والإنترنت. أنا صادق مع نفسي. المهم مشاعرك أنت يا فدوى.

- أخبرتك من قبل أني أشعر براحة معك وأكن لك معزة. لنبق على تواصل.
- سافري معي إلى لندن.
- لا أظن أن بإمكاني ترك الإسكندرية، ومؤكد أنك لا تستطيع ترك عملك في "أكسفورد"، ثم من أدراك أنني سأتوافق مع والديك. ألم تسمع بقصة مواطنك "جيمس بيرتون"؟[cccLviii]
- كلا، ولا أريد سماعها.
- لكني سأحكي. لا أستطيع التوقف عن الحكي.

(١٤١)
"أنونة وديستان"

نظرت إلى "جونا" بينما ثبت هو نظره إلى الأرض، ربما ليعد الخطوات الباقية لهما. رد قائلا:

- سأوافق فقط لأطيل المدة التي سنمكث فيها معا.
- لا بأس. وصل "جيمس بيرتون" مصر عام ١٨٢٢. أحب فتاة "كريتية" اشتراها اسمها "أندرينا".[ccclix] لاحقا تزوج الفتاة وعاد بها إلى إنجلترا. أظن عام ١٨٣٣، لكن أهله تبرأوا منه.
- عرفت النهاية قبل أن تبدئي.
- لا تلومني.
- فدوى، أنا ألقي باللوم على عائلة "بيرتون"، عائلة كبيرة ومثقفة كان ينبغي على أفرادها أن يقبلوا الآخر.
- أما أنا فألقي باللوم على الفتاة الكريتية وأتعاطف معها. بالمناسبة ما حدث مع "جيمس بيرتون" في إنجلترا هو نسخة مكررة ومتوقعة مما حدث مع الجنرال "ديستان"، من قادة جيش نابليون. أحب أنونة ميخائيل المصرية من النظرة الأولى. طلب الزواج منها فكان له ما أراد. تزوجا في كنيسة مصرية، أظن هنا في الإسكندرية. رحل "ديستان" مع الحملة. لحقت به أنونة وكانت على وشك الوضع. بالفعل تم لم شمل الأسرة: "ديستان" وأنونة والرضيعة ماريا.
- جميل.

- أجل جميل، لكن القبيح أن أهل "ديستان" لم يتقبلوا أنونة. توفي "ديستان". لم يكن بحوزة أنونة ورقة تُثبت أن الزواج قد تم، ولم يأخذ القاضي بالخطابات أو شهادة من حضر الزفاف من الفرنسيين في الكنيسة المصرية ومنهم الجنرال "مينو" نفسه. ظلت القضية في محاكم فرنسا من ١٨٠٠ على ١٨١٠. ظل محامي عائلة "ديستان" يتحايل فمرة يقول إنها كانت عشيقته وليست حليلته، وتارة يدفع بأنها كانت مجرد جارية اشتراها بماله، كما بين أنها أرثوذكسية بينما هو كاثوليكي.[cclx]
- مسكينة.
- نعم. الغريب أن القاضي كان مقتنعا بأنها زوجته، لكنه قضي بالأوراق والأدلة.
- شيء سخيف. تحليل "الدي إن إيه" غير كل شيء.
- قلت لك ليس لدينا فرصة.
- ذلك لأنك تتكلمين بعقلك لا قلبك.
- لسنا مراهقين طائشين نزقين.
- صحيح، لكن الحياة أيضا لا تمنحنا هذه الفرص كثيرا.

بمرور الوقت كان الصديقان قد وصلا إلى محطة الرمل. توقفا أمام الفندق الذي يقيم به "جونا". نظر كلاهما إلى الآخر في تلعثم واضطراب. عبرا الشارع إلى الجهة المقابلة من "الكورنيش": "جونا" إلى غرفته وفدوى في "تاكسي" إلى حيث صفت سيارتها. بقلوب شبه محطمة ودموع منهمرة، كما كتب "بايرون"، افترقا في صمت.[cclxi]

نام "جونا" تلك الليلة والكمد في فراش واحد. تكلم عشرين مرة في نفس الموضوع بلا نتيجة. عاد وزاد في الشرح حتى أصابه الصداع. استهلك طاقته، ولم يستطع التبرير أكثر من ذلك. اغرورقت عيناه بالدموع حتى سحت وهو يردد ما كتبه "كفافيس": وقل لها "وداعا"، للإسكندرية التي ضاعت من يدك.[ccclxii]

(١٤٢)
"البحث عن كوليت"

قبل ركوب الطائرة من مطار برج العرب أخذ "جونا" يعد كرانيف نخلة ويحاول حساب عمرها؛ هكذا فهم من فدوى. فحص بريده الإلكتروني فوجد رسالة فدوى والمرفق الذي وعدت به، قصة "البحث عن كوليت". قام "جونا" بتنزيل الملف وما إن جلس على مقعده في الطائرة حتى فتحه والتهم سطور القصة:

ولد عمر أو "عموري" في إيتاي البرود، شمال دلتا النيل في منتصف عام ١٩٤٢، في نفس السنة التي دحر فيها الإنجليز "روميل" في العلمين. قرر رشدي، أبو عمر، الرحيل شرقا بغرض الرزق وخوفا من وصول الصراع إلى الإسكندرية.

عمل رشدي مع الصيادين في "المنزلة". كان مصابا بالبلهارسيا التي مزقت كبده. عقب موته لم تستطع زوجته، فاطمة، تدبير أحوالها فنزحت شرقا من جديد حتى استقر بها الحال في بورفؤاد على الشاطئ الشرقي لقناة السويس مقابل بورسعيد.

تنتسب "بورفؤاد"، إلى الملك فؤاد. انتهى العمل في إنشائها عام ١٩٢٦. أقيمت المدينة على الطراز الفرنسي وسكنها في البداية حوالي ثمانمائة فرد من الأجانب الذين كانوا يعملون في ورش شركة قناة السويس، مع مرور الوقت أحضر شق من هؤلاء الأجانب، وجلهم من الفرنسيين، عائلاتهم. احتاجت هذه العائلات بطبيعة الحال عمالة محلية من خادم إلى طاهٍ وبواب وبستاني.

كانت أم عمر واحدة من هؤلاء، ساقتها الظروف وأولاد الحلال إلى بيت رجل فرنسي يعمل مشرفا على هذه الورش السابق ذكرها. كان السيد

"روشيتو" رجلا محترما ومحافظا، ترك "جرونوبل" وجاء للعمل في قناة السويس. اصطحب زوجته وابنته الصغيرة وأتى إلى الشرق لأنه كان مؤمنا بأفكار "ديليسبس".

حين ولجت السفينة التي أقلته وآخرين في المدخل الشمالي لقناة السويس نظر "روشيتو" إلى تمثال "ديليسبس" وهو يردد كلمات الأخير: "بدأت الحياة تدب في المعسكر... على يميني الشرق بكامل عظمته، وعلى يساري الغرب حالك وملبد بالغيوم، وفجأة يبزغ قوس قزح بألوانه البهية ويغوص بطرفيه شرقا وغربا."[ccclxiii]

فعلا اعتقد السيد "روشيتو" أن قناة السويس سوف تُقرب الشرق من الغرب وتخلق واحة من السلام والتجارة بينهما. ما لم يفهمه السيد "روشتو" أنه حتى أسماك البحر الأحمر رفضت الانتقال إلى البحر المتوسط، ما لم يفهمه أن قوس قزح الذي مثل جسرا بين الشرق والغرب بألوانه المتفاوتة التي ترمز لتباين البشر وثقافاتهم لا يعدو أن يكون ظاهرة فيزيائية عابرة.

أسكنت "مدام روشيتو" فاطمة وابنها في ملحق الحديقة. أحب آل "روشيتو" أم عمر لأنها كانت نظيفة ومخلصة ومنتجة. صنعت لهم الخبز والجبن والقشدة وزرعت الفجل والجرجير والنعناع في الحديقة. كانت أيضا جميلة ولها عينان بابليتان فاتنتان. ربما كانت من نتاج الفرنسيين والمصريين خلال الحملة الفرنسية، وربما لهذا السبب أحبتها عائلة "روشيتو" فالدم يحن كما يقولون.

شعر الزوجان بنوع من التعاطف والأسى لحالها، لذا حين بدأت "كوليت"، وهو اسم ابنتهما، في تلقي دروسها في البيت قرر الزوجان أن

يضما إليها عمر ليحصل على قدر من التعليم ويشجعها. برع عمر في كل المواد عدا الرسم الذي أحبته وأتقنته "كوليت".

مرت الأيام هانئة وجميلة، أصبح عمر و"كوليت" صديقين في اللعب وزميلين في الدراسة، أمضيا ساعات طوال يلهوان معا في حديقة المنزل. ارتبطا معا بوشائج قوية.

عام ١٩٤٧ حمل الجنود الإنجليز القادمون من الهند الكوليرا إلى معسكر التل الكبير فأتت على الآلاف، كانت منهم السيدة "روشيتو" التي لم تتمتع أبدا بمناعة قوية.

زلزل رحيل مدام "روشيتو" كيان "كوليت" وكاد أن يصيبها بانتكاسة نفسية لولا وقوف أم عمر بجانبها، دخلت الصغيرة في حالة من الصراخ والتكسير والرفض، لكن فاطمة ببساطتها وطيبتها احتوت غضبها وهدأت من ثائرتها.

انتابت عمر بين الحين والآخر حالات من الإرهاق أثناء لهوه مع "كوليت". احتارت أمه في حالته فقرر السيد "روشيتو" اصطحابه لمستشفى شركة قناة السويس. كان الرجل على استعاد لفعل أي شيء ليرد الجميل لأمه.

ذهب عمر مع السيد "روشيتو" إلى المستشفى. قال الطبيب الفرنسي المعالج للسيد "روشيتو": هذا الصبي لا يعرق على نحو جيد، يجب أن تحافظوا على حرارة جسمه؛ أبقوه في الظل في مكان جيد التهوية وألبسوه ملابس خفيفة، فضفاضة وفاتحة اللون. لا تجعلوه يتعرض للشمس أو يبذل مجهودا كبيرا. أحسبك تعرف أنه حين تصل درجة حرارة جسم الإنسان إلى واحد وأربعين مئوية يصبح بروتين المخ مثل البيض

المسلوق؟ لو أمكن إرساله إلى الشمال، كندا مثلا، سيكون ذلك معينا له أن يبقى على قيد الحياة.

أخبر السيد "روشيتو" فاطمة بالأمر. أضاف: يمكنني أن أستصدر لعمر أوراقا ونضعه على سفينة ذاهبة إلى كندا؛ عمر بشرته بيضاء وشعره أشقر ولون عينيه رمادي فلن يشك أحد فيه، سنُبقي على اسمه، لكن سننطقه بالفرنسية فبدلا من عمر سيصير "عموري". إنه يتحدث الفرنسية بشكل لا بأس به، بالطبع يحتاج استصدار هذه الأوراق بعض الوقت ومبلغا من المال. سأتكفل أنا بكل شيء.

بعد ثلاثة أسابيع كان "عموري" يحمل حقيبة يد صغيرة ويسير بصحبة السيد "روشيتو"، بدا كطفل تاه عن أهله فوقف مخطوف اللون متوجس الوجه، حاول أن يتماسك من أجل والدته. أما فاطمة فقد سارت وراءه منتحبة، مثل النسوة "السلافيات" في رواية "جسر على نهر درينا"،[cccLXIV] حتى المعدية التي تربط بين "بورفؤاد" وبورسعيد، ظل عمر يلوح لها وهو يستقل المعدية.

ودع عمر "المسيو روشيتو". نصحه الأخير أن يُبقي فمه مغلقا فالسمكة التي تفتح فمها يتم اصطيادها على حد قوله، سلمه إلى أحد قوارب الإرشاد الذي أَصعده بدوره إلى سطح سفينة فرنسية قادمة من الشرق الأقصى في طريقها إلى غربته الطويلة ومنفاه القسري. أوراقه سليمة والمال أصلح ما اعوج منها، أصبح اسمه منذ هذه اللحظة "عموري روشِدي".

في صباح يوم شديد الحرارة من شهر يوليو لعام ١٩٥٦ أمر السيد "روشيتو" بإعداد الحقائب على عجل. "سنعود إلى فرنسا. لقد أمم الجنرال ناصر القناة، ارتكب حماقة كبيرة"، كان هذا بعضا مما قال. لم

تفهم "كوليت" كثيرا، لكنها سارعت بسؤال والدها: "هل سنصطحب معنا أم عمر؟" جاء رد السيد "روشيتو" بالنفي.

***

وصل "جونا" إلى نهاية الملف، لكنه لم يدرك نهاية القصة. لا يمكن أن تنتهي الحكاية عن هذا الحد. ما إن عاد إلى إنجلترا واستعاد شبكة الاتصال حتى أرسل لفدوى قائلا: أين نهاية القصة؟!ردت فدوى: أنت من سيكتب خاتمتها. أنا في انتظار النهاية. لست متعجلة. أعرف أنك ستقوم بعمل رائع، أنا متأكدة.

(١٤٣)
"ريتا هيوارث وعلي أغاخان"

بعد مرور يومين كانت فدوى بمفردها في مكتب الآنسة "هنريتا" تُسلم تقرير القصة الجديدة. توجهت إلى المكتب الذي خُصص لها ولزميلها في المهمة، "جونا".

لمت أغراضها. توقفت عند اللوحة التي أهداها إليها "جونا". راحت تنظر إلى عنوانها، "مراحل اكتمال القمر". وضعتها تحت إبطها. حبست دموعها حتى لا يراها أحد في هذه الحالة، ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها.

ما إن فتحت والدتها لها باب الشقة حتى ألقت رأسها على كتفها وسحت دموعها. فهمت منجلية كل شيء. إنه الحب وأشياء أخرى.

في المساء جلست فدوى ووالدتها أمام التلفاز. التزمت فدوى الصمت. أرادت والدتها أن تخرجها من حزنها فقالت:

- ممثلة جميلة.

لم ترد فدوى. تابعت الأم:

- فدوى.. فدوى أحدثك.
- المعذرة يا أمي؛ ماذا قلتِ؟
- قلت: ممثلة جميلة.
- أجل يا أمي، هذه "ريتا هيوارث"، أمريكية من أصول إسبانية قدمت مصر حيث حلت ضيفة على الأميرة فايزة فؤاد في قصر إدفينا. تزوجت من علي أغاخان، أمير طائفة الإسماعيلية،

وأنجبت منه ياسمين. أهداها يوم الزفاف ماسة تبلغ ١٢٠ قيراط مما أثار غيرة الكثير من النساء، ومنهم "ليليان كوهين".

- الممثلة كاميليا، عشيقة الملك فاروق؟! قصة غرامهما في رودس معروفة.
- أجل يا أمي. يُشَّبه البعض قصتهما بتعلق الرئيس "كيندي" بـ"مارلين مونرو"، وهي مقاربة لا تصح لأنه لا ينسب القديم إلى الحديث، بل العكس.
- تقولين يا فدوى أن كاميليا غارت من "ريتا".
- صحيح، بل وصرحت أنها ستبحث عن مهراجا لتتزوجه.
- ثم؟
- بالفعل يا أمي وجدت ضالتها، واتفقت معه عام ١٩٥٠ على القيام بجولة حول العالم، وفي اليوم المحدد لسفرهما استقلا طائرة شركة "تي دبليو أيه" المتجهة إلى روما، وبعد الإقلاع بعشر دقائق تحطمت فوق الدلنجات، بمحافظة البحيرة وماتت كاميليا والمهراجا وسر تحطم الطائرة معهما.
- مسكينة. سمعت أنها كانت مريضة أو شيء من هذا القبيل.
- تقصدين الربو يا أمي؟
- ومرض آخر من أمراض النساء، نزيف مستمر نتيجة اغتصابها على يد جنود أستراليين في الإسكندرية.[cccLXV]
- شيء بشع يا أمي.
- بالطبع. وسمعت أنها عملت في الجاسوسية.
- لا أعرف.

- كانت جميلة مثلك يا فدوى، بل صارخة الجمال. شاهدت حلقة تلفزيونية عنها. وُلدت هنا في الإسكندرية عام ١٩١٩ وعاشت، أتوقع في "الأزاريطة"، وتعلمت في مدرسة السبع بنات الابتدائية و"المير دي ديو"، لكنها لم تكمل دراستها.
- أجل يا أمي. تعود جذور جدتها لأمها إلى قبرص حيث نزحت إلى مصر عام ١٨٨١، واستقرت هنا في الإسكندرية وتزوجت من وكيل مكتب بريد العطارين، الإيطالي "لويس أبنور"، وأنجبت منه والدة كاميليا، "أولجا"، وهي بالمناسبة مسيحية كاثوليكية. تزوجت "أولجا" من والد كاميليا، "فيكتور ليفي كوهين"، وهو يهودي يوناني.
- مهلا، لكن كيف حدث الزواج بين يهودي ومسيحية؟!
- في المحكمة الشرعية بالإسكندرية. لاحقا حدث خلاف بين الأب والأم حول ديانة المولودة، ولم يصمد الزواج طويلا.

(١٤٤)

"الكتابة مثل القبل، لكن بدون شفاه"

عاد "جونا" إلى لندن. قفل شخصا مختلفا. لوحته شمس المتوسط قليلا، والتاع قلبه كثيرا. لم يستطع نسيان فدوى ولا تجربته في الإسكندرية. ستة أسابيع غيروا حياته وقلبوها رأسا على عقب.

أرخى ستائر الحزن على حياته وكأني به يردد كلمات "لورانس داريل" في "جوستين": أنا وحيد جدا. لست سعيدا ولست تعيسا؛ أنا معلق مثل شعرة أو ريشة في خليط الذاكرة الغائمة.

صارت أيامه ظلالا لبعضها البعض، ظل يُسلمه إلى ظل وحزن يُسلمه إلى حزن ويأس يُسلمه إلى يأس. ماكينة الشجن في حياته تعمل بالنشوء الذاتي. متوالية من الألم و"إكتوارية" من العذاب. أين يهرب من كمده؟ كل الطرق تُسلمه له. حياة بنكهة الوجع.

أحس والداه بما ألم به. حكى لهما عما حدث له في الإسكندرية. قال له والده:

- بالطبع جامعتك ومستقبلك أولوية، لكن سلامك النفسي أيضا مهم. اقفز! تحتاج إلى قفزة الثقة تلك أو قفزة الضفدع القابع في الماء الدافئ. الانتظار احتضار.

وقالت له والدته:

- "جونا"، ما أعرفه أن "أنطونيو" ذهب إلى كليوباترا وليس العكس.
- كان مضطرا للذهاب يا أمي، وحياته تدمرت هناك.
- اذهب. لا تقلق علينا.
- لا أدري يا أمي.

- هل تتواصل معها؟
- ليس كثيرا.
- اكتب لها يا "جونا". الكتابة مثل القبل، لكن بدون شفاه.
- من أين لك بهذه العبارة يا أمي؟ وأين سمعت بها؟!
- من إحدى الروايات.[cccLxvi]
- تحبين الأدب يا أمي؟
- أجل.
- فدوى تحب الشعر.
- أرسل لها شعرا إذن.
- لا أجيد كتابة الشعر.
- أرسل لها شعر الآخرين. الشعراء والكتاب هم الوحيدون المخولون بالحديث عن الآخرين بدون توكيل أو تفويض.

فتح "جونا" "اللاب توب" وراح يبحث عن قصيدة مناسبة. اهتدى إليها بعد عناء. قرر أن يسجلها بصوته، ووضع في الخلفية صوره مع فدوى في الإسكندرية وبعض صور له في إنجلترا وقد أطلق لحيته وبدا عليه التغير والإرهاق، ثم أرسل الفيديو إليها.

تراني كيف أحبك؟ دعني أحصي لك
أحبك لآخر الأعماق وأقصى المسافات
أحبك لأعلى الارتفاعات التي تصلها روحي
حبي لك لا حجم له
إنه أكبر من كل الأشياء التي تراها عيني
وكل الأشياء التي لا تصل إليها يدي[cccLxvii]

(١٤٥)
"مجدي"

شاهدت فدوى "الفيديو" في حالة من الخدر والقشعريرة. شاهدته مرة أخرى وثالثة. قامت تعلق اللوحة التي أهداها لها "جونا" في غرفة نومها.

وقفت بلا حراك أمام الصورة وراحت تستدعي لحظاتها الجميلة مع "جونا". وبين مد وجزر انحسرت ذكرياتها في منطقة معتمة احتوتها وثقب أسود ابتلعها.

سر فدوى الأعظم الذي لم تخبر "جونا" به، والذي جعلها تتردد في قبول عرضه هو زواجها السابق من مجدي. الحقيقة هي لا تحب الحديث عن هذا الأمر لأنه يسبب لها آلام جمة. حاولت أمها إقناعها بأن الحياة لا تتوقف، وأن كل إنسان له الحق في فرصة ثانية، لكنها ظلت متشككة.

مجدي كان المحامي الذي تولى تسوية المعاش وإعلان الوراثة وخلافه بعد وفاة أبيها. أعجب بها. بعد مرور فترة على معرفتهما طلب منها الزواج. بعد عام من لقائهما كانت في بيته ترتدي فستان الزفاف.

أثناء فترة الخطوبة لم يظهر منه سوى الجانب اللطيف كأغلب المقبلين على الزواج. بعد الزفاف بدأت تتكشف أشياء غير جيدة فيه.

عانت معه من جراء بخله وغيرته وقصر نظره وضيق أفقه وانغلاق عقله. كانت غلطة كبيرة. تعجلت في قبوله. خافت ألا تلحق بقطار الزواج، لكن الاقتران من هذا الموتور يعني إلقاء نفسها تحت القطار فعليا. يقولون في مصر: "ظل رجل ولا ظل حيطة"؛ بالنسبة لفدوى ظل إبرة وقت الزوال أفضل من مجدي.

لم يكن متدينا بشكل كاف. لا يذهب إلى الكنيسة ولا يصلي البكور ولا يخرج العشور. لم يتمتع بأخلاقيات المهنة. يدافع عن أي شخص يبذل له المال. اجتمعت فيه رذائل عصره. يأكل السحت ويقبل بشهادة الزور. كان دنيء النفس وكثير الفحش.

الأسوأ من ذلك أنه بدد ورثها وخانها مع جارة لهما لا تمتلك عشر جمالها. كذب عليها وامتهن كرامتها وقلل من شأنها وزعزع ثقتها في نفسها ونفر منها وقارنها بغيرها وجرح أنوثتها وطعن كبريائها.

تبين لفدوى أن جارتها ليست الأولى ولا الأخيرة. الرجل، إن جاز لنا أن ننعته بهذا الاسم، عاشق لجموع المؤنث السالم. يرى أن النساء مثل المكسرات؛ لكل واحدة طعمها المميز.

الحمد لله أن الرجال ليسوا كلهم على شاكلة مجدي. كان والدها، فايز، مخلصا لأمها حتى الرمق والنفس الأخير. كما يوجد مجدي، يوجد فايز، وكما يوجد "برتييه"[ccclxviii] يوجد "ديزييه".[ccclxix]

في إيطاليا أحب رئيس أركان جيش "نابليون"، "لويس ألكساندر برتييه" "مدام فسكونتي". بعد قدومه مصر. اعتاد الرجل إطالة النظر إلى القمر في الوقت الذي يظن فيه أنها ترقبه. لاحقا نصب خيمة في الصحراء ووضع صورتها فيها. مع مرور الوقت بدأ في إشعال البخور والشموع للصورة والركوع أمامها! مثال بسيط للحب الذي يتحول إلى عشق ومن عشق إلى عبادة. في المقابل الجنرال "ديزييه"، حاكم الصعيد، كان يعاشر أي امرأة. كان لديه "إستير" "الجورجية" وسارة الحبشية و"مارا" وفاطمة وثلاث زنجيات وأخريات.

تذكرت فدوى عرضا مسرحيا تجريبيا قدمته فرقة شبابية منذ عام تقريبا في الإسكندرية تحت عنوان "أوزيريس وذكر الزيز". بطل القصة

هو مجدي آخر يصنع مجده بغراميات نسائية متعددة، ويطبل ويزمر لفحولته ويصول ويجول بذكورته.

أعجبها اختيار العنوان. تقول الأسطورة إن رمز الخصوبة الحقيقية، إيزيس، عندما بعثر ست جسد زوجها أوزوريس، ظلت تجمع أشلاءه فاهتدت إلى ثلاثة عشر جزءا، لكن الجزء الأخير وهو قضيب زوجها تبين أن سمكة قد أكلته فما كان من إيزيس إلا أن استعاضت عنه بمجسم خشبي حتى تتم عملية البعث والإحياء، وهكذا ضيعت سمكة صغيرة هذا الكبرياء والصلف الذكوري.

وأما ذكر حشرة "الزيز" فيتخذ لنفسه ست أو سبع زوجات. تقوم كل واحدة منهن بعمل حفرة في الثرى ثم تدلف فيها تاركة رأسها فقط ناتئا على وجه الأديم؛ وتبدأ في وضع البيض. عندما يتأكد سيدهن من وضعهن جميعا للبيض بشكل سليم يتنقل بينهن ويفصل رؤوسهن عن أجسادهن عن طريق العض بينما يبقى الجسم في الحفرة لتتغذى عليه الذرية بعد الفقس!

حقا... الحقير لا يكفيه دمارك، بل يبني نفسه من حطامك وبقياك وأشلاءك.

(١٤٦)
"هناك يكون أيضا كنزك"

في أحد الأيام لقى مجدي مصرعه في حادث سيارة على طريق الساحل الشمالي. كان منطلقا إلى إحدى نزواته. انشغل في مشاهدة مقطع خليع يساعده على إنجاز المهمة التالية وتشتت انتباهه. حمدت الله أنها لم تنجب منه، لكنها حملت منه غصة وألما وانكسارا.

دخلت منجلية على ابنتها فوجدتها تحملق في اللوحة وتمسك بالمدلاة التي تحمل أول حرف من اسمها، ودموعها تنهمر على خديها. أخذتها في حضنها وهي تقول:

- اذهبي إليه يا فدوى. في الإنجيل: لأنه حيث يكون قلبك، هناك يكون أيضا كنزك، أو شيء من هذا القبيل.
- صعب يا أمي صعب.
- خائفة؟ لأنه إنجليزي؟ ماذا فعل بك مجدي، ابن معموديتك؟! لم يترك لك شيئا ذا قيمة: شقة إيجار قانون جديد وسيارة مهشمة وألفي جنيه.
- لا أدري. أنت تعرفين ماذا حدث لزميلتي عائشة.
- نعم.
- سافرت إلى الكويت كمدرسة وتعرفت هناك على شاب أيرلندي. أعلن إسلامه ليتزوجها وأنجب منها طفلا. عادا إلى إيرلندا فعاد إلى الخمر وصادق فتاة من جنسيته. انفصلت عنه واضطرت أن تعيش هناك على الإعانة الاجتماعية من أجل الطفل.

- لا تقعي في فخ التعميم والتنميط يا فدوى. الناس مختلفون مثل أصابع اليد. عائشة كان همهما الحصول على الجنسية. ألم تقل لك ذلك صراحة؟
- بلى.
- تذّكرني بفتاة مصرية اسمها "أميمة عارف" قصتها ملأت الصحف عام ١٩٨٦. تزوجت أمريكي من أجل الجنسية أظن اسمه "روجر ستينبروك"، وبعد أن حققت نجاحا ملحوظا في تصميم الأزياء، وبعد أن حصلت على الجنسية تطلقت منه. تزوجت أمريكي آخر هو "بيل نيلسون" وانتهت علاقتهما بأن قتلته ومثلت به، وهي في اللحظة التي أكلمك فيها تقضي العقوبة في السجن.[cccIxx]
- هذه مريضة نفسية قولا واحدا وتحتاج علاجا. حسن يا أمي.. وماذا عنك أنت؟ لن أتركك للوحدة.
- لا تقلقي عليّ. سأكون بخير. لدي جارتنا خديجة. المسيح في قلبي والعذراء في بيتي؛ ثم أن وسائل التواصل الاجتماعي جعلت الناس يعيشون معا في قرية صغيرة أو بيت كبير. سآتي لزيارتك وسأنتظر زيارتكما في الأعياد والعطلات.
- لنغير الموضوع يا أمي.
- سؤال واحد أريد إجابة عليه: هل يحبك؟
- نعم.
- وأنت؟ هل تحبيه؟
- لا أدري.

- وهذه الدموع؟! أنت تخدعين نفسك يا فدوى. هذه دموع الحب.
- نعم يا أمي أحبه، لكني أعطيته الفرصة ليراجع نفسه بعيدا عن أي مؤثرات.

أخذتها أمها في حضنها وراحت تقبلها وتمسد شعرها وهي تقول:

- سيعود إليك. غدا ترين.
- حقا يا أمي؟ لم أحك له عن زواجي السابق. تألمت كثيرا.
- بل قولي "تعلمت كثيرا". لا بأس. لا تُنبش إلا الأشياء الميتة، ولا تُنكأ الجراح إلا لتُنظف وتُضمد. بقدر القوة التي ننطلق بها للأمام هناك قوة مساوية تشدنا للوراء. لذلك في بعض الأحايين نُضطر لأخذ خطوتين للخلف لننطلق بقوة إلى الأمام؛ وقديما قالوا: لن ينطلق السهم بقوة للأمام ما لم تمعن في شد وتر القوس للخلف. الماضي يعني الاستفادة من التجربة والحرص قدر المستطاع على عدم تكرار الخطأ.
- والذكريات المؤلمة.
- دعيها في كفنها. لا تستفزيها فتخمشك.
- ذاكرة الإنسان يا أمي ليست كذاكرة الحاسب الآلي فلا يمكن مسحها أو استبدالها، لا يوجد ترياق للذاكرة ولا جبر لها، الحل الوحيد أن تفقدها كلية أو أن يصيبك الخرف أو أن تموت.
- صدقيني نحن من نختار بين ذاكرة الفيل أو الجمل وذاكرة السمك.
- كيف؟

- بالإصرار على استدعاء الماضي أو بالتغافل عنه.
- أحيانا يا أمي حين نتحدث عن تجاربنا المؤلمة نستريح؛ نفرغ صدورنا. هذا ما فعلته قريبتنا سعاد حين حكت لي عن زواجها.
- مسكينة.
- من دون شك.
- و"جونا"؟
- إذا كنت متأكدة من مشاعرك، أرسلي له. المهم أنك واثقة في الشخص الذي قررت الارتباط به.
- "جونا" يا أمي إنسان نبيل. هو كثير التأمل، قليل الكلام والضحك، لا يبدأ الحديث ولا ينهيه. في حديثه رقة وعذوبة وغزارة معني. يفرط في التدبر وإمعان النظر حتى في أبسط الأمور، تلك التي تمر على ملايين الناس فلا يلتفتون إليها.
- ما هو أكثر شيء أحببته فيه؟
- صمته.
- صمته؟!
- صمت وفي الصدر مائة حكاية. نعم يا أمي، صمت نبيل يقترن بشرود عجيب، وعلامات الاستفهام والتعجب التي تقفز في مقلتيه. أحب هذه النظرة.

(١٤٧)

"ولا يرتقي مصعده إلى الدور الأخير"

في المساء اجترت فدوى حكاية قريبتها سعاد. آلمها ما سمعت منها. الأكثر إيلاما أنها لم تستطع مساعدتها.

لم تُكمل سعاد دراستها. كانت حظوظها قليلة تقريبا في كل شيء إلا حب الحيوانات. رحل أهل الدار وبقيت هي للوحدة.

شاخت سعاد. وقعت في شرك العنوسة. تفقد كل شهر بويضة وتتضاءل فرصتها في الأمومة. شبت غير جذابة وغير مرغوب فيها.

أخذت تسرف في الأكل أمام التلفاز. انكبت على الطعام فنمت أفقيا. كان جسمها مترهلا وبشرتها مجعدة.

تمنت سعاد لو تحولت إلى امرأة كاملة الفتنة. تمنت لو رققت حاجبيها واستبدلت الملابس التقليدية تلك التي ترتديها إلى ملابس أكثر فتنة. تمنت لو اختفت تلك الهالات تحت عينيها وهذه العروق الزرقاء من يديها. تمنت لو اختفت هذه البثور في خديها وصفار أسنانها وخشونة ركبتيها ومرفقيها وتشقق كعبيها. أمنيات مشروعة.

حرصت على الحضور في كل الأفراح والمناسبات الاجتماعية، لكن لم يلتفت إليها أحد. لماذا تحصل امرأة على كل شيء وتحصل أخرى على الفتات ورجع الصدى وحصاد الهشيم؟ لماذا تحظى امرأة بطريق فسيح ومشمس ومفروش بالورود بينما تطأ أخرى الشوك في درب متعرج ومظلم؟

أخيرا وافقت أن تتزوج من أبانبوب، صاحب ورشة إصلاح دراجات. هو الوحيد الذي تقدم لها. كان اختيارها هو اختيار الواقع، لا الأحلام.

كان أبانوب أميا كمن خرج من رحم أمه. لم يسبر غور التفكير. لم تثر عقله غرائب الحياة ولم يكن استثنائيا في أي شيء. لم يتلق أي نوع من التعليم. لا يفك الخط بالمرة، بل أنه يحفظ أرقام هواتف أصدقائه ومعارفه بالشبه!

كان أصلع الرأس، عاقد الحاجبين، كبير البطن. أسنانه متنافرة وأذناه متباعدتان وأنفه مفلطح ومنخاراه منفرجان. يمشي كذكر البط ويجلس كالزكيبة ويغط في النوم والشخير كالبغال. كان شديد العرق كريه الرائحة، لا يحسن اختيار ملابسه ولا انتقاء ألفاظه. يتكلم بيديه أكثر من لسانه ويأكل بعينيه أثر من فمه.

صحيح أنه لا يعرف الألف من "كوز الذرة"؛ وصحيح أنه يعاني من النسيان وله ذاكرة مثل المنخل؛ وصحيح أنه لا يمتلك شيئا قيما بين أذنيه ولا يرتقي مصعده إلى الدور الأخير؛ وصحيح أن لديه حول بسيط في عينه اليسرى؛ وصحيح أن بعض بقع "التينيا" تنتشر في رقبته؛ وصحيح أنه لا يتكلم كثيرا، وعندما يتكلم يكون صمته أفضل من حديثه؛ وصحيح أنه لا يغسل وجهه بعد الاستيقاظ ولا يمشط شعره ولا يربط سيور حذاءه ويرتدي أشياء عجيبة، وملابسه متنافرة ومتسخة؛ وصحيح أنه لا يهتم بنظافته الشخصية ولا يغسل يديه بعد الأكل؛ وصحيح أنه كثير العرق ورائحة قدميه لا تطاق؛ وصحيح أنه ينظف أسنانه بأظافره الطويلة المتسخة؛ وصحيح أنه يتجشأ ويبصق في الشارع؛ وصحيح أنه يطفئ سجائره فيما تبقى من أكواب الشاي؛ وصحيح أنه يمضغ الطعام بصوت مرتفع ويلحس ملعقة الشاي بعد تقليبه؛ وصحيح أنه يجز على أسنانه وهو نائم محدثا صريرا مزعجا، لكنه كان أفضل الموجودين لأنه ببساطة لا وجود لهم.

مع مرور الوقت بدأ أبانوب يصفعها ويسبها ويركلها ويجرها من شعرها ويمتهن كرامتها. ولأنها تزوجت في بيت عائلة، كان يجبرها على خدمة أمه وإخوانه؛ تعد لهم الطعام وتغسل ملابسهم.

هل من الرجولة أن يتحكم الرجل في هذا المخلوق المهيض بدعوى القوامة أو الذكورة؟ كم من فتاة فقدت الرغبة في الحياة وأوشكت أن تقتل نفسها بسبب رجل غبي متعجرف منحط ومتكبر؟! كم من فتاة أمست باكية مكسورة متوجعة بسبب رجل فظ خسيس متسلط ومتنطع؟!

نهش السرطان ثدي سعاد وأصبح الهواء يلهو في مشد صدرها! تخلى عنها "العجلاتي" فماذا سيفعل بامرأة بلا صدر؟! ما أُوفي هذا المخلوق المسمى بالرجل حين يستبدل زوجته لأن عارض قد أصابها! ما أوفى هذا المخلوق المسمى بالرجل حين يتزوج على امرأته بعد انقضاء شهر على وفاتها! ما أوفى هذا المخلوق المسمى بالرجل حين "يأكل زوجته لحما ويرميها عظما"!

(١٤٨)

"آمال عراض وأوقات عصيبة"

عاد "جونا" إلى غيوم بريطانيا وجامعته، أوكسفورد. آب شخصا مختلفا وصامتا وحزينا. حل بقلبه كسوف كامل؛ حزن دائم وفرح غائب وقلب مفجوع.

من الصعب أن تشعر أن وجودك وفقدك وحضورك وغيابك وجوعك وشبعك وابتسامك وحزنك وألمك وفرحك وهزيمتك ونصرك لا يفرق كثيرا! أن تفعل المستحيل ولا تنال الممكن.

ما أقسى ألا تجد من يشاطرك الحلم، أن تنام كل يوم على أمل أن تجد الفرحة، ثم تفتح عينيك على نفس الأثاث ونفس المتاع ونفس الأشياء.

لماذا لا يأتي هذا الغد الذي يقولون عنه أنه أفضل؟! لماذا يأتي غد خال الوفاض فنضطر إلى أن ننتظر غدا غيره؟! نمضي كالحملان في طريق مرسوم ونسأل في خجل مع القطيع: كم غدا تبقى لنا في هذه الحياة؟!

بعض الناس يعيشون، لكنهم لا يحيون. يضعون المبتدأ وينتظرون الخبر، ويطول انتظارهم؛ يفتحون قوسا ثم تفشل الكلمات في غلقه، بعض الناس هم المستثنى بإلا وغير وسوى وخلا وعدا؛ بعض الناس هم المستثنون من الفرح.

صقيع القلب أشد من صقيع القطب، وهكذا مضت أيام "جونا" بالإيقاع البطيء كفيلم صامت بدون موسيقى تصويرية.

رافق طلابه في رحلة أكاديمية مُخططة إلى المتحف البريطاني. انتهت الجولة في الحجرة رقم ٤ بجناح المصريات حيث يقبع حجر رشيد المهيب.

في الجولة الحرة وجد "جونا" نفسه في القاعة ٦٢-٦٣. تسمر أمام لوحة خشبية لوجه من وجوه الفيوم، وانفرجت شفتاه المنطبقتان عن كلمة واحدة: "فدوى".

صدق من قال: يخلق من الشبه أربعين. هل ممكن أن تتكرر العيون بهذا الشكل العجيب؟! شعر بالهيبة وهو يتقدم نحو الصورة، ويقرأ الكلمات المكتوبة تحتها: عُثر على هذه القطعة الخشبية مقاس ٤٤x٢٠ في مقبرة الروبيات، مركز طامية، شرق الفيوم في مواجهة هرم سيلا.

ارتدت الفتاة فستانا أزرق اللون بحواف مذهبة ووضعت على كتفها شال أبيض. يوجد على شعرها إكليل مذهب من أوراق الشجر. تتدلى من قرطيها حبتان من اللؤلؤ، أما عقدها فمن الزمرد الأحمر.

لاحظ انبهار زوار المتحف بالصورة، لكن حماسه لها فاق كل الحدود لأن إحساسه بها كان مختلف. أراد أن يقول لهم: هذه حبيبتي. شاهدت هذه العيون في الإسكندرية، لكن للأسف فقدتها.

تحدث مع الصورة وسألها: من الذي خاط لك هذا الثوب الرائع؟ من الذي زجج حاجبيك الجميلين؟ من الذي مشط شعرك الفاحم؟ من الذي كحل عينيك البراقتين؟ أخرج "جونا" هاتفه وأخذ لقطة خلسة للصورة.

أرسل "بورتريه" الفيوم إلى فدوى. مع الصورة بعث لها بهذه الكلمات: لو أني فنان تشكيلي لرسمت لك يا فدوى "بورتريه" أجمل من لوحة " **أديل بلوكباور".**[cccLxxi] **لو أني نحات لصنعت لك تمثالا أروع من تمثال**

"أفروديت". لو أني شاعر لكتبت لك قصائد أعذب من "سونتات شكسبير". أعرف أنك تحبين "تشارلز ديكنز". نعم هي "قصة مدينتين"، لندن والإسكندرية؛ وأجل بدأت القصة بـ "آمال عراض" وانتهت بـ "أوقات عصيبة"، لكني لازلت أرنو إلى "ترنيمة عيد الميلاد".[cccLxxii] كل عام وأنت بخير.

سرعان ما جاءه رد فدوى بعبارة: رأيت "البورتريه" من قبل، وحقا يوجد بيننا بعض الشبه، لكنها أجمل. عيد ميلاد سعيد.

أرسلت فدوى صورة لها في محطة سكك حديد "سانت بانكراس" أثناء زيارتها للعاصمة الإنجليزية آنفا. كانت تقف تحت منحوتة برونزية ضخمة صممها الفنان البريطاني "بول داي" لرجل وامرأة في عناق كثيب.

فرح "جونا" بصورة فدوى، بل وقبلها غير مرة. أخذ يدقق في التمثال ليستجلي هل يعكس لحظات اللقاء أم الوداع، لكنه فشل. الجميل في الصورة أنها لفدوى في إنجلترا مما يعني أنها قد... قد... توقف "جونا" ولم يتماد في التفكير؛ مشكلته دائما هي الإفراط في التحليل.

(١٤٩)

"لقد صار ابننا عاشقا"

في عطلة نهاية الأسبوع أخذ "جونا" تمشية على جسر "وستمنستر". وأمام أقفال العشق وقف يغالب دموعه. تقدم أكثر من الأقفال. شعر أنها تتكلم معه. أخذ يعاين الحروف المحفورة عليها. هذه الحروف هي قصص لبشر أحبوا ونالوا أو أحبوا وتعذبوا. العامل المشترك بينها جميعا هو الحب.

(إم – إس)، ربما "ماربل وسام". لا بد وأنهما كانا متحابين للغاية؛ يبدو هذا جليا من الطريقة التي حُفر بها اسميهما يدويا على القفل. قابل "سام" "ماربل" في مترو الأنفاق. تبادلا النظرات المطلوبة. وقع "سام" في حبها. دق قلبه كالقنفذ. كتب شيئا في دفتره الصغير. دس وريقة في يدها ونزل محطته. كان رقم هاتفه وتلك الكلمات: لا أعرف اسمك، لا أعرف رسمك؛ لكني أعرف أنك عمري، أنك قدري. تلقى رسالة منها على الهاتف: اسمي "ماربل". بعد شهر من هذا الحدث كانا يعلقان قفلهما على الجسر تماما كما فعل أبطال رواية "أريدك" للإيطالي، "فيديريكو موتشي"، على جسر "بونتي ميلفيو" في روما.

"دي-تي"، "تيد وديان"، زوج وزوجة جمعتهما قصة حب شعواء. ماتت ديان بمرض تسمم الدم تاركة طفلا وكثيرا من الأسى. يزور "تيد" قبرها بانتظام. اعتاد كتابة الخطابات ثم دسها في ثنايا القبر. كان مما كتب لها: اليوم حصل ابننا "مارك" على شهادة إتمام الدراسة الثانوية. يريد أن يلتحق بالجيش. هل قلت لك أنه يواعد "ماريان"، بنت جيراننا؟ هل تذكرينها؟ شبت جميلة جدا. عندما أخبرني "مارك" بحبه لها دق قلبي

وعانقته. لقد صار ابننا عاشقا. يا له من شعور جميل! ليتك كنت معنا يومها، لكني لا أشك لحظة أنك تأتين لزيارتنا. أفتقدك كثيرا يا "ديان".

غدا نبرأ وغدا ننسى. هكذا تمضي الكذبة الكبرى. استمر "جونا" في المسير حتى أجلسه التعب أمام نهر "التيمس" بجوار مسلة كليوباترا حيث جلس يعاقر حزنه.

قرر العودة إلى البيت. في الطريق شاهد "فيليستي" وصديقها الكيني في حالة سكر شديدة. يترنحان في مشيتهما ويضحكان بشكل هستيري بينما أمسك كل منهما بزجاجة خمر. سقطا على الأرض المبتلة بشتاء لندن، واتسخت ملابسهما. اقترب "جونا" منهما. ظلت "فيليستي" تنظر إليه وكأنها تحاول تَذّكر من يكون؟ أعطى ظهره لهما ومضى إلى الأمام.

(١٥٠)

"الأميرة سالمة وهاينريش"

في معرض للكتب أقيم في الجامعة وجد "جونا" كتابا بالإنجليزية أو لنقل النسخة الإنجليزية من كتاب "مذكرات أميرة عربية" فابتاع الكتاب وألم بمحتواه على عجل، ثم أرسله بالبريد السريع إلى فدوى على عنوان القنصلية الثقافية البريطانية. استلمت فدوى الكتاب وضمته إلى صدرها في سعادة بالغة. في المساء التهمت صفحاته.[cccLxxiii]

والأميرة محل الحديث هنا هي سالمة بنت سعيد، سلطان عمان وزنجبار وبندر عباس، وأمها، "جولفيدان"، من أصول شركسية. وُلدت سالمة عام ١٨٤٤ وتوفت عام ١٩٢٤. كأميرة تمتعت بكل ما تشتهيه النفوس عدا الحرية.

أحبها تاجر ألماني كان يقيم قريبا من قصر والدها السلطان اسمه "هاينريش رويته". بادلته سالمة المشاعر، وتورطت معه في علاقة غير شرعية. ولعلمها بعدم وجود فرصة أمامهما، وخوفا على حياتها هربت إلى عدن على متن سفينة إنجليزية وهي في الثانية والعشرين من عمرها.

التقت "هاينريش" في عدن وسافرا معا إلى "هامبورج" حيث تنصرت وتعمدت وتزوجت وغيرت اسمها إلى "إيملي رويته".[cccLxxiv] أنجبت سالمة من "هاينريش" بنتين وصبي: "أنطونيا وروزاريا ورودولف".

عام ١٨٧٠ انزلقت قدم زوجها ودهسه قطار فمات من فوره وهو في الواحد والثلاثين من عمره. تنقلت "إيملي" بين المدن الألمانية بحثا عن عمل لإعالة أولادها حيث حُرمت من ميراث أبيها وواجهت عنتا في

الحصول على ميراث زوجها. بالفعل عملت معلمة للغة العربية ومترجمة منها وإليها.

ثم أتت السياسة لتفسد كل شيء حيث استغلها حاكم ألمانيا، "بسمارك"، وأعادها عام ١٨٨٥ في بارجة حربية إلى زنجبار ليتولى ابنها "رودولف" الحكم، وبذلك يكون لألمانيا موطأ قدم في أفريقيا تنطلق منه للتوسع.

فشلت الخطة وقوبلت "إيملي" بالرفض من الجميع: الإنجليز وعائلتها وشعبها. كانت في نظرهم مرتدة تزوجت من كافر، وعاصية خرجت عن طوع أسرتها، لذا لا تستحق الشفقة، بل القتل.

قبل الرحيل عن زنجبار على متن البارجة الألمانية طلبت من قبطانها التريث لتزور القصر الذي ولدت فيه. وهناك انهمرت دموعها وهي تبكي على الأطلال.

الغريب أن الأميرة سالمة كانت تبث أحزانها وأشجانها لصديقها المستشرق الهولندي، "سنوك هرخرونيه"،[cccLxxv] وصدق المثل القائل "الطيور على أشكالها تقع"، فهذا الرجل ادعى الدخول في الإسلام وتزوج بامرأتين من جاوة أنجب منهما خمسة أطفال تركهم كلهم لمصيرهم وعاد إلى أوروبا بلا ندم ولا أسف.

في صباح اليوم التالي كتبت فدوى إلى "جونا" على الجوال:

- لقد قصدت إدخال الطمأنينة إلى نفسي فزادت مخاوفي. قصة حزينة ومبكية تعلمت منها أنه من خرج من داره قل مقداره. تقول الأميرة في نهايات الكتاب: إن الإنسان في شق كبير منه هو فقط ما تصنع منه الحياة والتجارب والأوضاع القائمة: لقد

تركت وطني كعربية تماما ومسلمة مؤمنة، وماذا أنا الآن؟ مسيحية رديئة وأكثر قليلا من نصف ألمانية.

رد "جونا" بعد ثلاث ساعات:

- لم أقرأ الكتاب للنهاية. أعتذر منك، أنا فعلا غبي. أخفتك وروعتك بسبب رعونتي وافتقاري للحكمة. أرجوك تخلصي من الكتاب...، لكن مهلا لقد تنصرت سالمة من أجل الحب وهذه تضحية كبيرة.

في المساء علقت فدوى:

- أتوقع بسبب حملها؛ لقد أوقعت نفسها في ورطة. كان أمامها خياران كلاهما مر: الفضيحة والعقاب في زنجبار أو التنصر والزواج من رجل رفض أن يغير ملته. وبالمناسبة تكررت القصة في البحرين عام ١٩٩٩ حين التقت أميرة بحرينية في الثامنة عشر من عمرها تُدعى مريم عبد الله في مجمع تجاري بالبحرين بـ "جيسون جونسون"، عريف في الجيش الأمريكي يعمل في وحدة لمكافحة الإرهاب. اشتعل الحب بينهما فقام "جيسون" بتهريب مريم إلى الولايات المتحدة بعد أن وفر لها ملابس عسكرية أمريكية ووثائق مزورة. لم تخبر مريم "جيسون" أنها تنتمي للعائلة الحاكمة. تزوجا في كنيسة "لاس فيجاس" في الغالب زواج مدني. عوقب "جيسون" بتهمة تزوير أوراق رسمية بتسريحه من مشاة البحرية، كما جرى احتجاز مريم لبعض الوقت لدخولها الولايات المتحدة بطريقة غير شرعية. ما حلحل الموقف هو تعرض مريم للاغتيال، ومن ثم تقدمت بطلب لجوء لدفع الضرر حيث تزوجت من غير مسلم وهربت من بلدها

بشكل غير قانوني، ومن ثم قد تواجه القتل في حال تم ترحيلها. بالفعل حصلت مريم على حق الإقامة الدائمة. عام ٢٠٠٤ جرى الطلاق بين مريم و"جيسون" الذي بررره بأنها انغمست كثيرا في الحياة الليلية في مدينة "لاس فيجاس". لم يرد أن يُفسر أكثر من ذلك فالمقولة الأمريكية تقول: ما يحدث في "فيجاس" يبقى في "فيجاس".

.

(١٥١)

"أنيليس وإسماعيل"

فتح كتاب الأميرة سالمة شهية فدوى للقراءة عن الزواج المختلط باستفاضة. القراءة كانت دوما أكبر معين لها على حل مشاكلها واتخاذ القرارات الصعبة في حياتها. ولأنها دارسة للأدب وعاشقة له فقد بدأت بالروايات.

الزواج المختلط حاضر في السرد الروائي العربي مثل رواية "لن أعيش في جلباب أبي" لإحسان عبد القدوس، ورواية "إلا فاطمة" لأنيس منصور ورواية "بيت العائلة" لسامية سراج الدين حيت تتزوج "جيجي" من صحفي فرنسي، ورواية "تويا" لأشرف العشماوي بين الطبيب المصري والفتاة الكينية التي أعطت اسمها للرواية.

في رواية سليمان فياض "أصوات"[cccLxxvi] يقلد سكان القرية "سيمون"، زوجة حامد البحيري الباريسية، في طريقة أكلها بالشوكة وخلافه. بالرغم من ذلك تنتهي هذه الرواية بفاجعة حيث استاءت نساء القرية من لبس "سيمون" وجلوسها على المقهى ومخالطتها الرجال واحتساءها الجعة فقمن عليها وأزلن شعر عانتها وختن حرها لينتهي بها المآل إلى الموت.

في رواية هيام مصطفى قبلان "رائحة الزمن العاري"[cccLxxvii] يسافر نبيل إلى الخارج بعد زواج حبيبته "هزار". في الغربة يتزوج من أجنبية وينجب منها أطفالا. يعود بعد عشرين سنة، لكن الزوجة الأجنبية وأولاده لا يطيقون الوضع الجديد فيقفلون عائدين، أما هو فيحقق حلمه القديم بالاقتران من حبيبته الأولى.

تقدم لنا نادية الكوكباني طرحا مثيرا بالنسبة للزواج المختلط على لسان بطلة روايتها "صنعائي": الزواج من جنسية أخرى لم يكن يشكل لشقيقي أو لأمي، أو حتى لوالدي، مشكلة؛ لكنه بالنسبة لي كان كارثة؛ كيف أتزوج من رجل لا يشبه أبي في تربيته وبيئته في موطنه، رجل غريب عني، رجل لا يعرف عن بلدي غير ما سمعه عنها، رجل لم يشاركني يوما السير في شوارعها واللعب في حواريها والاختباء في أركان أزقتها، رجل لا يتذوق نكهة ذكرياتي عندما أحكيها له، ولا يصله نبض فرحها وحزنها وخيباتها وآمالها؟![cclxxviii]

قرأت فدوى الفقرة الأخيرة عشرات المرات. شعرت أنها تخاطبها وتقول لها "لا تفعلي". ظنت أن الروايات ستسعفها، لكنها أوقعتها في حيرة أكبر.

هداها البحث إلى كتاب خطته الألمانية "أنيليس" تحت عنوان "زوجي رجل من مصر"، تسرد فيه قصة زواجها هي وطائفة من الأوروبيات من مصريين: التحديات والاختلافات وهلم جره.

خرج الكتاب في البداية بالألمانية ثم تُرجم إلى الإنجليزية والعربية. عام ٢٠٠٦ تعرفت "أنيليس" في الإسكندرية التي تعيش فيها مع زوجها المصري إسماعيل على أبطال الحكاية، أوروبيات تزوجن مثلها من مصريين ويعشن في مدينة الحب، الإسكندرية.

قابلت "أنيليس" "إسماعيل" عام ١٩٦٥ وتزوجا وعاشا معظم حياتهما في ألمانيا ثم انتقلا إلى الولايات المتحدة ففرنسا، وأخيرا استقرا في الإسكندرية.

تصف وتُقّيم المؤلفة تجربتها بالناجحة. أقرت أن حياتها رائعة وثرية ومتنوعة. صحيح أنها جابهت بعض الصعوبات نتيجة لتباين الثقافات

والبيئات وفكرة مجتمع الوفرة والبحبوحة ومدى تحققه، لكنهما تمكنا معا من تذليلها بالتسامح والتفاهم والحب.

لا يحتاج الأمر إلى فلاسفة ولا مُنّظرين ولا "سانسيمونيين" للجمع بين البشر. انفلقت القارات وانفصلت، لكن البشر قادرون على مد الجسور ورأب الصدوع. شخص بسيط مثل السعودي القصيمي، خليل إبراهيم الرواف، حقق المعادلة الصعبة بدون جلبة ولا صخب.

تزوج مرتين من أمريكيتين، واستطاع الوصول إلى "هوليود". صحيح أن الطلاق كان مصير الزيجتين، لكنه يحدث حتى بين أهل البلد.

وُلد الرواف عام ١٨٩٥. خلال إقامته في فندق ببغداد عام ١٩٣٢ قابل الأمريكية "فرانسيس أليسون". سافر معها إلى الولايات المتحدة. تزوجا ثم زالت بهجة العرس فدب الخلاف بينهما وتطلقا. تعرف خليل على الأمريكية "كونستانس ويلمان" وتزوجها وأنجب منها ولده، نواف، لكن زواجهما استمر ثمانية أشهر وحسب وانتهى بالطلاق.

الغريب أن كلا من الرواف و"كونستانس ويلمان" تزوجا بعد انفصالهما من مصر، البلد التي تطبطب على الجميع. تزوجت "كونستانس" من الأديب المصري أحمد زكي أبو شادي، صاحب قصة "مها"، بينما عاد الرواف إلى السعودية وتزوج من امرأة سكندرية.

الجميل في القصة أن الرواف ظل يبحث عن ابنه نواف بلا ملل ولا كلل حتى عثر عليه. تبين أن ابنه غير اسمه إلى "كلايف ويلمان" وأنه شارك في حرب فيتنام مع القوات الأمريكية. لا يهم الاسم كثيرا سواء نواف أو "كلايف". وسواء كان سعوديا أو أمريكيا، مسلما أم مسيحيا، يبقى في النهاية ابنه.

"الرهان دائما على الإنسانية. الضمانة الحقيقة هي الحب"، هكذا تحدثت فدوى مع فدوى.

(١٥٢)

"الدكتور إبراهيم زكي والآنسة بار"

وافقت اللجنة على قصة الخديوي عباس بعد أن قامت باختصارها والتركيز على الشق المرتبط بالإسكندرية. أصدرت جامعة أكسفورد الكتاب المنتظر. حضرت الآنسة "هنريتا" حفل تدشين الكتاب في الجامعة. قابلها "جونا" معانقا. سألها عن فدوى.

- للأسف لم يرسلوا دعوات لكل المشاركين في الكتاب. الأعداد كبيرة؛ أتوقع لضغط النفقات.
- وكيف هي؟
- ليست على ما يرام. أشعر أنها متغيرة بعض الشيء وأكثر صمتا.

في "كافيتريا" الكلية، حكى "جونا" للآنسة "هنريتا" عن قصته مع فدوى وحبه لها وترددها في الارتباط به والعقبات التي تقف في طريقهما. ردت:

- هل تتواصل معها؟
- ليس كثيرا. لا تمنحني دوما هذه الفرصة، ولا أريد أن أكون سمجا، وأتطفل عليها.
- هل أخبرتك بموضوع زواجها السابق؟
- أجل، من فترة قصيرة وحسب.
- هذا تطور لافت. كانت مضغوطة، وأتوقع أنها تشعر بالراحة الآن.
- ربما، رددت عليها بأنه لا غضاضة لدي؛ أنا أيضا كنت أعرف فتاة وحدث بيننا ما يحدث بين الأزواج.

- متى تناقش الدكتوراة؟
- الأسبوع القادم.
- اسمع يا "جونا" ودع هذا الأمر بيننا. أنت تعرف أني أستعد للتقاعد في ظرف أيام.
- أجل، ذكرت شيئا عن هذا الأمر خلال تعارفنا الأول.
- سأكتب لك خطاب تزكية لتخلفني. نريد خطابا آخر من مشرفك. يمكنك الحصول على انتداب من الجامعة وتولي المنصب لمدة خمس سنوات. سيحل هذا مشكلتك مع فدوى، وبعد خمس سنوات لكل حادث حديث. أهم شيء أن يبقى هذا الموضوع سرا بيننا، أنا وأنت؛ لا تخبر به فدوى ولا حتى نفسك.
- لا أعرف كيف أشكرك يا آنسة "هنريتا". لقد أدخلت السرور على قلبي.
- كان طبيعيا أن تقعا في الغرام وسط كل قصص الحب التي قمتما بتحقيقها. الحب لا يستأذن ليدخل القلوب؛ إنه يخترق كل الجدر والحواجز. الحب لا يعرف لغة المنطق ولا يستمع لصوت العقل. ليس للحب مقدمات؛ ليس للحب دين أو مذهب، لكن له إله هو من أوجده؛ هو من أودعه الحشايا والأفئدة.
- لطالما سألت نفسي حقا عن هذا الكائن الذي يدغدغ ويهدهد أحاسيسنا ويسحر عيوننا ويهز وجداننا، عن هذا المخلوق الرقيق الذي يهذب مشاعرنا ويجّمل حياتنا.

- ما أريد أن أقوله هنا يا "جونا" إن الزمن قد تغير. فهم الناس أن الحب ليس محرما، وأنه شعور إنساني ليس له علاقة بالتاريخ أو الجغرافيا أو أي من الأبعاد الأخرى. آنفا عوقب أشخاص على مشاعرهم. قرأت عن طبيب مصري يُدعى "إبراهيم زكي" شعر بحب بريء تجاه الآنسة "بار"، ممرضة إنجليزية في مستشفى قصر العيني بالقاهرة، والتي بادلته نفس الشعور. تعاهدا على الزواج، لكن الآخرون أرادوا لهم التعاسة فإذا بالآنسة "بار" تغادر غصبا على عجل إلى إنجلترا، وينُقل زكي على الفور إلى المنصورة عقابا له.[ccclxxix]
- شيء محزن حقا.
- بالطبع. لكن كما قلت لك آنفا، ولا تتعجب من كلامي: زواجك من فدوى أسهل من زواج مصري مسلم بها!
- حقا؟! قلت إن الزمن تغير.
- صحيح يوجد تغير مرصود في أشياء كثيرة، لكن تبقى قضية الدين دوما مسألة شائكة. لقد كنت شاهدة عيان على واحدة من قصص الحب تلك التي انتهت بشكل حزين في الإسكندرية.
- كيف؟!

(١٥٣)

"رامز وأسماء"

القصة معروفة ومكررة: شاب قبطي يقع في حب فتاة مسلمة أو العكس. نعم... أحب رامز فتاة مسلمة وأحبته أسماء. أفاقا من نشوتهما وهيامهما ليجدا صليبا مدقوقا برسغ رامز و"ما شاء الله" معلقة برقبة أسماء فأدركا أن الله محبة، لكن البشر يقسّمون هذه الحب ويقطعون منه ويزايدون عليه. أحب الله العالم، لكن الناس كرهوا بعضهم البعض!

ولأن رامز لم يكن بالسامري الصالح، ولا حتى متدينا، ولا يعرف الفرق بين اللاهوت والناسوت أو العهد الجديد والعهد القديم أو الكنيسة والكاتدرائية أو الأسقف والمطران والقمص والشماس، قرر أن يعلن إسلامه في المشيخة لا عن قناعة، بل ليفوز بأسماء، لكن أحجم بعد أن خوّفه الجميع من مغبة هذا القرار.

حاول رامز غير مرة أن يجفف نبع الحب الذي تدفق في قلبه تجاه أسماء، لكنه فشل. كانا جارين وزميلين في المدرسة. صحيح أنه تعين عليهما أن يفترقا في حصص الدين، لكن روحيهما ظلتا متعانقتين... لعبا معا وأكلا معا واستذكرا دروسهما معا.

لكن ما نهاية هذا الحب؟! غالبا ما تهتم المرأة بهذا السؤال أكثر من الرجل لأن معظم الفتيات تتلهفن للحظة التي تتركن فيها بيت العائلة إلى ممالكهن الخاصة بصحبة من أحببن واخترن. جلست أسماء ذات مساء تفكر في نهاية ومصير حبها لرامز. كانت مولعة بالروايات وتحب إحسان عبد القدوس. ابتاعت له مجموعة قصصية بعنوان "حائر بين الحلال والحرام" وبدأت تقرأ قصة "الله محبة" التي تتناول قصة حب جمعت بين شاب قبطي وفتاة مسلمة.

في منتصف القصة وحين كانت أم كلثوم تصدح بكلماتها الرائعة "الله محبة، الخير محبة، النور محبة" سحت دموعها وهي تقرأ هذا الحوار الذي دار بين بطلي الحكاية والذي بدأته الفتاة قائلة:

- قلت إننا يجب أن ننتهي إلى حل...
- لنترك الله يختار بيننا فهو صاحب دينك وديني.
- وكيف يختار الله؟!
- لنجرب الحظ فهو أبسط مظاهر حكم القدر.

وأخرج من جيبه قطعة نقود فضة، وقدمها إليها قائلا:

- اختاري لك وجها.

ابتسمت أو حاولت أن تبتسم، واختارت أحد وجهي قطعة النقود، واختار هو الوجه الآخر، ثم وضع النقود في يدها قائلا:

- اقذفي بها في الهواء، والوجه الذي يسقط إلى أعلى يغير صاحبه دينه!

وحاولت مرة أخرى أن تبتسم، لكنها لم تستطع، وعندما قذفت بقطعة النقود في الهواء أحست أنها تقذف قلبها، وانحنت تنظر إلى الأرض وقد جحظت عيناها وكتمت أنفاسها، ثم شهقت شهقة خافتة ورفعت رأسها وقد تصلب وجهها وتاهت نظراتها. أصبح عليها أن تغير دينها وتعتنق المسيحية. وارتبك هو بجانبها، ولم يدر ماذا يقول؟! ثم افتعل ضحكة جافة قائلا:

- هل صدقت؟! لقد كنت أهذر. إنها نكتة أردت أن أسليك بها. لا تأخذيها على محمل الجد. إن الإنسان لا يقامر بدينه، وهذا نوع من المقامرة.

أغلقت أسماء القصة وأخذت نفسا عميقا ثم استعدت للنوم وهي تردد في سرها "تمسي نارا، تُصبح رمادا." في نفس اللحظة كان رامز يطالع صورة لأسماء. كبيرة هي في عينيه. ليس غريبا أنه وقع في حب هذه الفتاة الجميلة والذكية والرائعة. كانت أسماء تفهمه قبل أن يتكلم وتحاوره قبل أن ينطق؛ وكان رامز يرى العالم بعينيها ويحب يومه من أجلها. أسماء هي الأمل والحب والحياة؛ هي الآذان وترانيم عيد الميلاد. أسماء هي رجب وشعبان ورمضان؛ هي مسري وبرمودة وبرمهات.

تكرر اللقاء بين المحبين المتيمين، ثم تبين لهما أن قصة حبهما مقضي عليها بالفشل، وأن هذا هو "العشق الحرام" أو "العشق الممنوع". الكل يقف ضدهما. الصورة لم ولن تكتمل، والبحث عن القطع المفقودة هو العبث بعينه. في يوم من الأيام كتب رامز لأسماء:

لا أريدك تشقي
كما يشقى قلبي بعقلي
ويومي بأمسي
لا أريد هذه العيون تبكي
لا أريدك إيزيس التي راحت تلم شتات رجُلها
فأنا هو أوزوريس قطع منثورة
بات من المستحيل تجميعها.

(١٥٤)

"إذا قرع الحب بابك افتح له"

خلعت الآنسة "هنريتا" نظارتها وقامت بمسح العدستين السميكتين بمنديل ورقي من على المائدة ثم قالت وهي تلبس النظارة من جديد:

- على أي حال يا "جونا"، أنا سعيدة من أجلكما وستزيد سعادتي حين يجتمع شملكما. لا تدع فدوى تضيع من يدك. أنا شخصيا هربت إلى مصر بعد أن ضيعت حب حياتي بسبب التُرهات والسخافات.
- كيف؟ آسف، إذا جاز لي أن أسأل. لست مضطرة للإجابة. فقط أردت أن أستنير.
- قابلته في زيارة إلى "كوبنهاجن". كان يرعى والدته المشلولة ويعيش في "جرينلاند". ترددت في الذهاب حيث يقيم، ولم أجد نصيرا من أهلي. أقول لك الصدق كان ينقصني وقتها الحزم والإرادة والقدرة على اتخاذ القرار في الوقت المناسب، أو ربما علينا أن نستعير من المصريين عبارتهم المشهورة "قسمة ونصيب" كي نرتاح وترتاح ضمائرنا. هي المقادير فما يغني الحذر / إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر.[cccIxxx]

قفزة دمعة حائرة من مقلتي الآنسة "هنريتا". ربت "جونا" على يديها. أكملت وهي تفرك عينيها:

- آسفة.
- لا بأس.

- والآن وبعد مرور كل هذه السنوات أقول لك يا "جونا": اتخذت القرار الخاطئ وندمت ودفعت ثمنا فادحا. الأديب اللبناني، ميخائيل نعيمة، أحب سيدة روسية متزوجة أثناء دراسته في الاتحاد السوفيتي. لم تستطع المرأة الحصول على الطلاق فكان الفراق
- لم يتزوجها؟
- لا هي ولا غيرها. المهم، الرجل وبعد مرور ثمانين عاما، كتب في وصيته: اتركوا باب الضريح مفتوحا لعلها تأتي.
- لعلها تأتي.
- الشاهد يا "جونا"، إذا قرع الحب بابك افتح له.
- إذا قرع الحب بابك فافتح له.
- مؤكد، المهم عليك بالعجلة قبل إغلاق المجال الجوي الذي يبدو أنه آت قريبا.
- الكورونا؟!
- أجل. تحرك يا "جونا". تحرك! أنت لست شجرة. كلمة السر "الطائرة".

ودع "جونا" السيدة "هنريتا" وكلماتها تتردد في جوفه: "تحرك! أنت لست شجرة". حتى النباتات تلف وتميل نحو الضوء. في أمريكا الوسطى والجنوبية يوجد نوع من الأشجار اسمه "النخيل الماشي". وفي مسرحية "ماكبيث" تحركت غابة "بيرنام" نحو قلعة "دانسينان" أو هكذا كانت النبوءة.

(١٥٥)
"البحث عن كوليت - الخاتمة؟"

فتح "جونا" ملف القصة القصيرة. غير لون الخط من الأسود إلى الأحمر حتى يميز بين عمل فدوى ومدخلاته. أخذ الكثير من الوقت لتختمر الفكرة في عقله. كتب قائلا:

عاد السيد "روشتو" وابنته إلى "جرونوبل". رحلت أم عمر عن الدنيا بسبب الحزن والكمد على ابنها الغض، ورحل السيد "روشتو" هو الآخر بعد أن أتلفت الخمور كليتيه.

لم يعرف "عموري" بكل هذا. انحصرت حياته في تكسير الثلوج بحنق والنوم. وأما "كوليت" فقد أهملت نفسها وتوقفت عن التعليم وزاد وزنها وأمست شخصية كئيبة وقليلة الكلام. تقوقعت بشكل عجيب وأهملت نفسها. أسدلت ملاءة على مرآة غرفة النوم؛ كرهت حتى الاستحمام حتى لا ترى جسمها. عاشت على رسم اللوحات الرخيصة وبيعها.

قرر "عموري" البحث عن أمه و"كوليت" والسيد "روشيتو". توجه إلى القنصلية الفرنسية بـ "مونتريال". استفسر عن "آل روشيتو". طلبوا منه مراجعتهم بعد أسبوعين. فعلا ذهب في الموعد المحدد. أمدوه بتسع عائلات تحمل اسم "روشيتو"، في "نيس" و"كان" و"كاليه" و"ستراسبورج" و"جرونوبل" وغيرها. مر على الأسماء والوظائف. التهم السطور في لهفة. قرأ قرب نهاية الورقة: "السيد ريمون روشيتو. عمل بقناة السويس. توفى عام ١٩٦٣. دفن في مسقط رأسه بجرونوبل".

"توفى عام ١٩٦٣". آلم "عموري" هذا السطر، لكنه تنفس الصعداء. إنه هو. نعم هو. إحساسه يخبره بذلك. المشكلة الآن هي

المال. عاد إلى البيت مسرعا، أخرج حصالته التي يضع فيها نقوده منذ سنين. يكفي المبلغ بالكاد لرحلة ذهاب وعودة إلى فرنسا. من حسن حظه أنه أوان فصل الشتاء فيمكنه التنقل دون قلق على حالته الصحية، ثم إن "جرونوبل" تلك كما فهم من موظف القنصلية باردة حيث تقع في منطقة مرتفعة على حدود جبال "الألب".

استعد نفسيا لمهمته القادمة، "البحث عن كوليت". تصلح هذه العبارة كعنوان لرواية أو فيلم سينمائي. ربما أمكنه عن طريقها الاهتداء أيضا إلى أمه. من المحتمل أن يكون السيد "روشيتو" قد اصطحبها إلى فرنسا. لو أن هذا صحيح لتأكد أن الزمن قد تصالح معه. لا بد وأن أمه قد أصبحت طاعنة في السن، من المؤسف أنه لا يحتفظ بصورة لها، لكن يمكنه أن يتعرف عليها حتى لو وقفت بين مليون امرأة.

تقدم بإجازة من عمله، جمع أغراضه في حقيبة صغيرة وتوجه إلى المطار، بعد أقل من ساعتين كانت الطائرة فوق الأطلنطي متجهة صوب القارة العجوز. يا ترى ماذا تُخبئ له الأيام في جعبتها؟

وصل هناك في ساعة مبكرة. اتجه إلى البلدية مستفسرا عن منزل "آل روشيتو". أعطوه خريطة مشى عليها حتى وصل إلى غايته. حين اقترب من البيت خفق قلبه بشدة، عرف أنه البيت الصحيح من السياج الخشبي الذي يشبه نفس السياج الذي لف بيت السيد "روشيتو" في بورفؤاد، لا بد أنه صنعه بنفسه.

كانت بعض اللوحات ظاهرة للعيان من وراء الزجاج. وقعت عيناه قدرا على إحداها فتسمر مكانه. لقد كانت صورة لمعدية بورفؤاد. نعم... يعرفها جيدا. لا يمكن أن يخطئها. كانت اللوحة موقعة بحرفي الكاف والراء بالأبجدية اللاتينية الأمر الذي يؤشر إلى "كوليت روشيتو".

دق قلبه بشدة. علم أنه في المكان الصحيح. خلع الحقيبة التي أثقلت ظهره وجلس على عتبة الباب ينتظرها. استعرض شريط حياته البغيض. أثقل الإرهاق عينيه فنام كالأطفال.

عادت "كوليت" إلى المنزل ومعها بعض الأغراض التي خرجت لشرائها. وجدت شخصا ممدا عند باب بيتها. في البداية وجلت وخافت وأوشكت على الاتصال بالشرطة، لكنها أعادت هاتفها إلى جيبها حين أمال الرجل رأسه فظهرت معالم وجهه.

لم تصدق نفسها. هل هذا حلم أم حقيقة؟! تقدمت من "عموري" بشعور مضطرب، اقتربت منه بهدوء حتى صار لا يفصلها عنه سوى خطوتين. فضحها ورق الشجر اليابس على أرضية الحديقة. فتح "عموري" عينيه على الصوت. قام من فوره.

تعانقا دون ينطقا بكلمة واحدة. فتحت "كوليت" الباب ودلفا إلى الداخل.

(١٥٦)

" البحث عن كوليت - الخاتمة الأصلية؟"

استلمت فدوى ملف القصة القصيرة، أو بالأحرى خاتمتها. أعجبت بشدة بأسلوب "جونا" في السرد، وكذا الكيفية التي أغلق بها القصة. وكما وعدت "جونا" أرسلت له خاتمة القصة كما دونتها هي:

قررت "كوليت" أن تشرع في البحث عن عمر. سمعت من والدها أنه ذهب إلى كندا، لكن أين تحديدا في هذه الدولة الشاسعة؟!

فتشت في صندوق والدها الخشبي الذي اعتاد الاحتفاظ بالأوراق الهامة فيه. وجدت غليونه وعلبة سيجار من كوبا. كان هناك أيضا خريطة لقناة السويس وصورة لـ "دليسيبس". عثرت كذلك على وثيقة زواجه من أمها. وجدت آلة تصوير من طراز "رويفليكس".[cccLxxxi] تذكرت أن أباها أرسل في طلب هذه "الكاميرا" من فرنسا، وأنه التقط بها صورا عديدة. بالفعل وجدت صورة لأمها وصورة لفاطمة وهي تحملها على ذراعيها، وقعت في يديها تحاليل طبية تُشير إلى أن عمر يعاني من عدم التعرق. وجدت وريقة بها ثلاثة سطور: الاسم: "عموري روشِدي"، اسم السفينة: "رودرا"، الوجهة: "إم تي أر". اتصلت بهيئة الموانئ الفرنسية فعلمت أن هذا الاختصار يعني "ميناء مونتريال". أخيرا وجدت شيئا آخر لم يكن على البال أو الخاطر، الصورة التي رسمتها لعمر بالقلم الرصاص على ورقة من كراسة رسم. تمتمت شفتاها بصوت خافت: عمر. جاءها صوته عبر السنين وهو يقول: "لماذا جعلت أنفي يبدو على هذا النحو؟!" قبلت الصور جميعا وقربتها من صدرها. دققت النظر في صورة عمر، قررت أن تبر بوعدها له وترسم له "بورتريه" كبير بأنف أقل حجما.

لكن ما مصير عمر؟! ربما غلب عليه المرض، ربما تزوج وأنجب، ربما رحل عن كندا إلى أي بلد آخر، ثم إنها لا تعرف اسمه الجديد، ولا مهنته، وهل تمكن من إكمال تعليمه من عدمه؟ من المؤكد أنه لم يذهب إلى الجامعة، ماذا لو كان يمتهن عملا يدويا؟ ماذا لو كان لا أحد؟ شخص بلا وضع اجتماعي أو حيثية.

عادت "كوليت" فسَخَّفَت تفكيرها، ما هذا التخريف؟ كل هذه الأشياء لا تهم بالمرة. حين عرفته في طفولتها كان ذلك بلا قيود أو شروط. المهم أن تجده.

بعد أسبوع رن الهاتف. كان الاتصال من كلية الفنون الجميلة بجامعة "السوربون". رُشحت للاشتراك في المعرض الخارجي لخريجي الكلية والذي سيقام في ربيع ١٩٧٦ في "بروكسيل" وصيف نفس العام في "جينيف" وخريف نفس السنة في "مونتريال" بعد انتهاء "الأولمبياد" التي تحتضنها المدينة. طلبت الاشتراك في معرض "مونتريال" فنالت ما طلبت. حداها الأمل أن تعثر على عمر خلال فترة المعرض التي لا تتجاوز الأسبوع.

ومرت الأيام والشهور حتى جاء الموعد المنتظر. في "مونتريال" لم تعرف "كوليت" من أين تبدأ؟ المدينة كبيرة والوقت ضيق. لم تهتد لخيط تسير وراءه. تتواجد في المعرض بجانب لوحاتها من العاشرة صباحا حتى الخامسة بعد الظهر، بعدها تسير في الشوارع تتطلع في وجوه البشر على أمل أن تجد عمر وسطهم. تفكير ساذج، لكنه يريحها. تعود إلى الفندق متعبة فتُسلم نفسها للفراش.

في منتصف الأسبوع كانت "كوليت" تغير ملابسها استعدادا للنوم حين دخلت عليها "نيكول" التي تشاركها الغرفة. بادرتها قائلة:

- "كوليت"، أشعر أنك تبحثين عن شيء ضائع منك.
- ما الذي جعلك تعتقدين ذلك؟
- لا أدري... مجرد إحساس.
- الحقيقة...
- الحقيقة أنني لن أجعلك تنامين الليلة قبل أن تخبريني بحكايتك. ربما استطعت مساعدتك.

حكت "كوليت" قصتها كاملة لـ "نيكول". شعرت بالراحة وهي تتكلم معها. شعرت بالرغبة في الحديث ووجدت أذانا صاغية وقلبا متعاطفا. حكت لها عن عمر وعن بورفؤاد وعن والدها وأمها بكت على صدرها فاحتضنتها "نيكول" قائلة:

- هوني عليك. أواثقة أنت أنك ستجدين عمر هنا؟
- لا أدري. أحيانا أشعر أني سأجده، وأحيانا أخرى أشعر أني أسبح في بحر من الأوهام.
- لا تنجري إلى الأوهام فتخسري أيامك وسنواتك. إذا لم تجديه، وهو احتمال ضعيف عودي إلى فرنسا شخصية أخرى، مولودة جديدة. الحياة لا تمهلنا كثيرا فسرعان ما نكبر ونشيخ ونمرض ونموت.

في اليوم الأخير للمعرض تساقطت الثلوج بشدة. أوقف "عموري" المنبه يومها وقرر ألا يذهب للعمل. انتابه إرهاق بسبب نوبة العمل المسائية في الليلة الفائتة، ورغب في تمضية اليوم في السرير. توطدت العلاقة بينه وبين فراشه، أصبح يحب النوم حتى يهرب بإخفاقاته. تذكر أن رصيده من العطلات قليل للغاية فقاوم رغبته وقام متثاقلا.

نتيجة لهطول الثلوج بشدة طلبت البلدية من الشركة تكثيف تواجدها أمام معرض الفنون الحديثة بسبب وجود الزوار والأجانب. بالفعل أرسلت الشركة مجموعة إضافية من نازحي الثلوج، وصل "عموري" إلى الشركة متأخرا بعض الشيء فطلب منه المشرف ركوب السيارة رقم خمسة.

وصل "عموري" إلى المكان المحدد وبدأ في نزح الثلوج مع أترابه. كانت بعض اللوحات ظاهرة للعيان من وراء الزجاج. وقعت عيناه قدرا على صورته، فتسمر في مكانه وأخذ يردد في سره: "كوليت... كوليت".

دق قلبه بشدة. ترك الجاروف يسقط من يده وانطلق حول زجاج المبنى عله يراها. لم يستطع تبينها وسط الحاضرين، ربما اختلف شكلها، لكنه مازال قادرا على التعرف عليها فقط لو أتيحت له الفرصة.

وقف في مقابل صورته لا يتحرك. التفتت "كوليت" إلى الزجاج فشاهدت عمر. سارت نحوه ذاهلة. اقتربا بوجهيهما حتى تراكم بخار الماء من أنفاسهما المتلاحقة على الزجاج. مسحا البخار بأيديهما، ثم ابتسم كلاهما للآخر.

(١٥٧)
"لا أحد يعلم خيباتك"

استعد "جونا" لمناقشة رسالة الدكتوراة. تمنى لو أن فدوى كانت معه في ذاك اليوم. أبلى بلاء حسنا. سأله البروفسير "بيترسون"، عضو لجنة الحكم على الرسالة، في نهاية المناقشة: هل تعرف كيف وصلت إلى هنا؟

إنها حقا رحلة طويلة. لا أحد يعلم خيباتك. لا أحد يعلم انكساراتك وإحباطاتك. لا أحد يعلم كم عدد الخلايا التي انفجرت في مخك وأنت تبحث. لا أحد يعلم عدد أقداح القهوة التي احتسيتها لتبقى متيقظا. لا أحد يعلم كم مرة تعين عليك أن تبدأ من جديد. لا أحد يعرف مرارة الفشل أمام نقطة لا تستطيع أن تُبلورها وتُمنطقها. لا أحد يعرف عدد الأوراق التي مزقتها كمدا. لا أحد يعرف الهواجس التي انتابتك. لا أحد يعرف عدد الساعات التي أمضيتها حبيسا في غرفتك. لا أحد يعرف كيف تجمد الدم في عروقك ودقات قلبك كأجراس الكنيسة أو المدش النحاسي وأنت تتلقى أسئلة لجنة المناقشة والحكم على الرسالة.

المهم، حصل "جونا" على خطابات التزكية المطلوبة وتقدم للحصول على الوظيفة. كان معه منافسة قوية من جامعة "ليدز"، وكانت حظوظها في الحصول على الوظيفة أكبر بسبب حصولها على الدكتوراة قبله، وقيامها بالتدريس في ستة فصول دراسية، ناهيك عن الإشراف الأكاديمي وخدمة المجتمع.

تعقدت الأمور من جديد. اتصل "جونا" بالآنسة "هنريتا" وأسر لها بالأمر. أخبرها كذلك أنه يحاول إقناع "البروفسير جوروج" بالإشراف الخارجي على رسالة فدوى كحل بديل يُمَكّنها من الحضور إلى إنجلترا.

حاولت الآنسة "هنريتا" طمأنته. طلبت بعض الوقت للتفكير والتصرف بشكل مناسب.

عن طريق أحد معارفها في جامعة ليدز، حصلت الآنسة "هنريتا" على رقم مكتب الدكتورة "شارلوت"، المتقدمة الأخرى للوظيفة. هاتفتها، وشرحت لها الأمر واتفقتا على اللقاء في لندن.

كان اللقاء في شارع العرب "إيدجوير رود"، حيث تُقدم القهوة العربية الأصيلة والنرجيلة. كان اختيار "شارلوت". في البداية تعجبت الآنسة "هنريتا"، لكنها شعرت بالراحة في المكان.

بعد اللقاء والتعارف شرحت الآنسة "هنريتا" الأمر برمته للدكتورة "شارلوت"، وحاجة "جونا" إلى هذه الوظيفة. قالت الأخيرة:

- يبدو أن كلينا في حاجة إلى الوظيفة!
- كيف؟
- لا أدري ماذا أقول لك؟
- يمكنك أن تثقي فيّ وأن تُخرجي ما في صدرك؛ أشعر أنك مهمومة بعض الشيء.
- في الحقيقة أنا في ورطة، وأشعر حقا بالرغبة في الحديث.
- صحيح أننا تعرفنا منذ دقائق، لكن يمكنك الاعتماد عليّ. "سرك في بئر" كما يقول المصريون.
- المصريون. مشكلتي سببها أحدهم.
- كيف؟!

(١٥٨)
"رحم يتسع للشرق والغرب"

أخرجت "شارلوت" علبة سجائرها النسائية واستأذنت الآنسة "هنريتا" في التدخين. هزت الأخيرة رأسها بالموافقة؛ دخان النرجيلة بنكهة التفاح يعبأ الهواء على أي حال. أجبت "شارلوت":

- ربما لن تصدقيني لكن هذا ما حدث لي. تزوجت من شخص إنجليزي، لكني حياتي معه لم تكن موفقة لأسباب يطول شرحها. في الأثناء تعرفت على طبيب مصري يقوم في "ليدز" بدراسات ما بعد الدكتوراة. تطورت العلاقة بيننا، وشعرت معه بسعادة حقيقية. استعدت الثقة في نفسي خاصة بعد أن شعرت أن زوجي يتجنب معاشرتي.

تنهدت "شارلوت" وهي تشرب قهوتها التركية. أظهرت الآنسة "هنريتا" تعاطفا معها ثم سألتها:

- ولماذا لم تطلبي الطلاق، وتتزوجين من الطبيب المصري؟!
- حاولت، لكن ترددي أوقعني في مشكلة أكبر.
- ما هي؟
- الحمل.
- ممن؟
- من كلاهما.
- في وقت واحد؟!
- أجل.
- تمزحين، أليس كذلك؟!

- أبدا.

أصابت "شارلوت" كبد الحقيقة. قال العلم كلمته... في حالات معروفة تنتج المرأة بويضتين في دورة شهرية واحدة. تبقى البويضتان صالحتان للتخصيب لمدة قد تصل إلى يوم كامل، بينما يستطيع الحيوان المنوي أن يبقى على قيد الحياة في جسم المرأة ضعف هذه المدة. إذا ضاجع المرأة رجلان في فترة زمنية متقاربة فيمكن أن تحمل من كلاهما.[cccLxxxii]

حاول "لوكاس"، زوج "شارلوت"، استرضاءها بعد أن فاتحته في موضوع الطلاق. عاشرته جبرا قبيل سفره ثم أكمل الطبيب المصري، أحمد، الحكاية. حملت في طفلين جاءا إلى الدنيا مختلفين تمام الاختلاف؛ أحدهما أشقر والآخر قمحي.

في الحقيقة، كان رحم "شارلوت" يضم العفة والإثم ويجمع بين الشرف والخطيئة. رحم يتسع للشرق والغرب.

طلب "لوكاس" تفسيرا فنال الصمت. صمم على إجراء تحليل الحمض النووي فعرف أن الطفل الحنطي ليس ابنه. كان متأكدا فعائلته حافظت على الزواج من بريطانيين للجد العشرين. ظن في البداية أن هناك خطأ، وأن ابنه الآخر قد تم استبداله في المستشفى. لم يبد أي تقبل للنظرية العلمية. وافق على الطلاق واعترف بأبوة طفله وحسب.

وأما أحمد، ولأنه طبيب، فقد سلم بصحة الفرضية العلمية التي تحولت إلى واقع. عرض على "شارلوت" السفر إلى مصر والزواج والاعتراف بابنه، لكنه رفض وجود الطفل الأشقر فليس لديه تفسيرا يقدمه لأسرته المحافظة في القاهرة.

أنهت "شارلوت" اللقاء بقولها:

- على أي حال يا آنسة "هنريتا". وصلت مع أحمد أمس إلى تسوية. وجدت وظيفة شاغرة له في "شيفلد". إذا نالها يمكننا الزواج والاستمرار هنا بمعية الطفلين.
- متى تظهر النتيجة؟
- يومين أو ثلاثة. قمنا بجميع الإجراءات منذ أسبوعين.

بعد مرور ثلاثة أيام بالتمام والكمال من لقائهما تلقت الآنسة "هنريتا" اتصالا هاتفيا من "شارلوت". نال أحمد وظيفة طبيب في إحدى مستشفيات "يورك"، وليس "شيفلد"، على بعد أربعين كيلومتر من "ليدز". كانت "هنريتا" سعيدة من أجل "شارلوت" التي اعتذرت رسميا عن وظيفة الإسكندرية وتمنت التوفيق لـ "جونا".

(١٥٩)
"هل عدت من أجلي؟"

لم يصدق "جونا" نفسه والآنسة "هنريتا" تحكي له قصة "شارلوت". شعر أن في الأمر قدرية عجيبة، وأنه على الطريق الصحيح. كما بقي الدكتور أحمد في "يورك" على "جونا" أن ينطلق إلى الإسكندرية. حزم "جونا" أمره وحقائبه وودع والديه وانطلق إلى فدوى. كانت الآنسة "هنريتا" قد سبقته إلى هناك.

طلبت الآنسة "هنريتا" من مساعديها بقاء الخبر سرا حتى لا تَفسد المفاجأة التي يجهزها "جونا" لفدوى. ومن باب الاحتياط أرسلت الآنسة "هنريتا" فدوى إلى القاهرة في مأمورية للمقر الرئيسي للمجلس الثقافي البريطاني في منطقة العجوزة.

وصل "جونا" واستلم العمل من الآنسة "هنريتا" ورتب مكان الإقامة وخلافه. زار أيضا "منجلية" وناقش معها كل شيء. أوضح لها أن زواج فدوى السابق أمر عادي ولا يستحق كل هذه الجلبة، وأنها تستحق التعاطف والمواساة لأنها اقترنت بشخص غير مناسب لها. فهم منها أيضا أن فدوى تحبه وأنه قد ملك شغاف قلبها.

عادت فدوى من القاهرة إلى مقر المجلس الثقافي مباشرة. أبلغها زملائها بأن المدير الجديد يريدها. كانت الآنسة "هنريتا" قد أفهمتهم كل شيء، وخططت معهم لحفل بسيط في مقر المجلس.

طرقت فدوى الباب ثم فتحته لتجد شخصا يرتدي كمّامة. في البداية لم تلتفت إليه، لكن حين نظرت إلى تلك العينين البراقتين التي تعرفهما جيدا تسمرت مكانها. حقا؟! إنه "جونا" يجلس على المكتب.

انعقد لسانها وجرت الدموع من مقلتيها. سألت وهي تغالب مشاعر التأثر التي ظهرت عليها والرجفة التي سارت بجسمها:

- "جونا"! ماذا تفعل هنا؟!
- أمارس مهام عملي الجديد. لماذا تأخرت؟
- فعلا تأخرت كثيرا.
- أن تصل متأخرا خير من ألا تصل البتة.

سألها "جونا": "كيف حالك؟". يقصد "اشتقت إليك". تجمع خلفها زملاؤها والآنسة "هنريتا" التي لم تكن قد غادرت بعد ووالدتها. تقدم "جونا" نحوها. لا حظ أنها تلبس المدلاة التي أهدها لها آنفا. اطمئن قلبه.

أخرج من جيب حلته عليبة وفتحها وأخرج منها خاتما جميلا. انتظر رد فعل فدوى. لحظات مرت عليه وكأنها قرون.

نظرت فدوى حولها فوجدت الرؤوس تومئ ولسان حالها يقول: نعم يا فدوى؛ إنه يحبك؛ فعل المستحيل ليكون معك.

مدت يدها اليمنى. وضع "جونا" الخاتم في بنصرها. ناولها باقة من زهور النرجس البري التي تحبها ونسخة من الكتاب الذي أصدرته جامعة "أوكسفورد". ارتمت في حضنه وهي تسأل: هل عدت من أجلي؟

(١٦٠)

"وصنع النهايات هو صنع البدايات"

في المساء كان "جونا" وفدوى يعلقان قفلهما على جسر ستانلي. قالت فدوى وهي تتشبث بيد "جونا":

- أخيرا أصبح لي قفلا على كوبري "ستانلي"، أليس ذلك أمرا رائعا يا "جونا"؟
- بلى. أخيرا أصبح لي قصة حب في الإسكندرية. فدوي هل يمكنني أن أقارن بين لون عينيك الواسعتين ولون الليل الحزين؟ وهل يمكنني أن أقول لك أن شعرك المموج تحت وهج الأضواء هو كالمرآة العاكسة لضوء الشمس، وأن جبهتك قدت من لوح مرمري جميل، وأن حاجبيك أشد سوادا من جناحي الغراب وفمك أحمر كحبات الكريز، وان أنفك روماني وقدميك مثل أقدام النبيلات؟

طارت فدوى من السعادة وهي تُصغي لهذه الكلمات التي طالما تاقت لسماعها. أمسكت بيد "جونا" وقبلتها قائلة:

- نعم، يمكنك.
- في مطلع الألفية الرابعة أو ربما قبل ذلك يا فدوى ستكون قصتنا في كتاب آخر لجامعة أوكسفورد، لكن علينا أن نشرع في تدوينها.
- ومن قال لك أني لم أفعل؟
- كيف؟!
- لقد شرعت بالفعل في كتابة رواية عنا: أنا وأنت.

- لم أكن أعلم أنك تكتبين الروايات؟ هل يمكن أن ألقي نظرة عليها؟
- ليس قبل أن أنتهي منها.
- حسن اقرئي عليّ جزءا منها.
- لا بأس.

أخرجت فدوى هاتفها وفتحته ووصلت إلى الملف وبدأت في القراءة: لا تتركني. قل إنك لي للأبد. قبلني وأنا نائمة. حين تستيقظ في الصباح عانقني. اتصل بي لتسألني عن أحوالي، وعن طعام غذائنا. لا تغلق الهاتف دون أن تقول لي كم تحبني. تلهف لرؤيتي. اشتر لي ورودا. عد سريعا إلى البيت. شاهدني كل يوم امرأة جديدة. اطر عطري. أطعمني بيدك. ساعدني في ترتيب البيت. شاهد معي المسلسل الذي أحبه. اكتشف كهوفي. عاملني كأميرة. افتح لي باب السيارة. قل لي كم أبدو جميلة. قل لي أنك تكتفي بي ولا تكتفي مني. أخبرني أنك سعيد معي، وأنني هديتك من السماء. حافظ على أسراري. احترم خصوصياتي ودموعي وخلوتي ونقاط ضعفي. تجاوز عن حماقاتي وجنوني. دغدغ مشاعري. خذني للسينما. اشتر لي الشكولاتة التي أحبها. قل لي أننا سنلف العالم معا. احجز غرفة في فندق ساحلي لنقضي فيه عيد زواجنا. ابتع لي قرطا متدليا. كن كريما معي. راقصني. امتدح خصري وملمسي وبشرتي. قل لي أنك تحب هذا النمش في خدي. قل لي أنني متجددة كل يوم. دللني، زلزل كياني. غار عليّ. اجر ورائي في البيت متوعدا. ابحث عني حين أغيب عن وجهك. افتخر بي. قدمني إلى أصدقاءك. قل لهم أنني لوحتك وقصيدتك، وأني ملهمتك ومحبوبتك. عدني ألا يطول خصامنا. تقبل عيوبي. اقبلني في حياتك كما أنا. غازلني أمام أهلي وأهلك. أرسل لي خطابات حب. اختر

لي ألواني. شاهد معي صور عرسنا. قل لي أنني لم أتغير. تأملني وكأنك تراني لأول مرة.

- جميل جدا يا فدوى.
- هذه النهاية.
- انتهيت من الرواية؟!
- كلا. بدأت بالنهاية كما يقول "ت. س. إليوت": ما ندعوه البداية هو في الغالب نهاية/ وصنع النهايات هو صنع البدايات/ النهاية هي حيث نبدأ.[ccclxxxiii]

في هذه اللحظة توقفت سيارة بيضاء يقودها شاب وسيم ليصطحب فتاة جميلة. كان صوت مُسجل السيارة عاليا وصدحت منه أغنية فيروز: شو بيبقى من الرواية؟ شو بيبقى من الشجر؟ شو بيبقى من الشوارع؟ شو بيبقى من السهر؟

سأل "جونا":

- وما هو العنوان الذي اخترته للرواية؟
- خمن.
- "قفل على جسر ستانلي"؟
- لا. أعد المحاولة.
- "فاء: فدوى"؟
- لا. آخر فرصة. الثالثة ثابتة.
- "سرنديبية"؟

السيرة الذاتية للمؤلف

د / محمد السيد علي عزب

القائمة القصيرة لجائزة رفاعة الطهطاوي للترجمة لعام ٢٠١٩ عن ترجمة كتاب "ذكريات أميرة مصرية"

القائمة القصيرة لجائزة كتارا للرواية فئة الروايات التاريخية غير المنشورة عن العام ٢٠٢٤

القائمة القصيرة لجائزة كتارا للرواية فئة الروايات التاريخية غير المنشورة عن العام ٢٠٢٥

- مدرس الأدب الإنجليزي "المنتدب" بكلية التربية، جامعة الإسكندرية وجامعة فاروس.

- الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود وجامعة شقراء.

نشر له:

- **الأساس في الترجمة**. الإسكندرية: حورس، ٢٠٠٨.
- **اضحك وتعلم الإنجليزية**. الإسكندرية: دار الإبداع، ٢٠١٠.
- **الرحالة البريطانيون والأمريكيون في مصر من ١٦٧٣- ١٩١٦: مقتطفات من مشاهداتهم**. ترجمة محمد السيد علي عزب ومي موافي. الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٢١.
- بتلر، ألفريد جاشوا. **الحياة في البلاط الملكي المصري**. ترجمة محمد السيد علي عزب ومي موافي. الإسكندرية: دار ليليت، ٢٠١٣.
- **بين الحب والحرب**: (رواية). الإسكندرية: دار ليليت، ٢٠١٣.
- **تأثير المفاهيم الثقافية على دراسة اللغة الثانية: مع التركيز على اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة الأمريكية**. الإسكندرية: البراء، ٢٠٠٩.
- ثاير، إيلا شيفر. **الحب عبر أعمدة البرق**. ترجمة محمد السيد علي عزب. بيروت: دار طوي، ٢٠١٢.
- **رحلة سناء حسن إلى إسرائيل**. القاهرة: دار روافد، ٢٠١٩.
- **روايات محظورة**. الإسكندرية: البيطاش للنشر، ٢٠١٠.
- **ست مسرحيات تبحث عن ناشر**. الإسكندرية: دار الإبداع، ٢٠١٠.
- **سيوة في كتابات الرحالة البريطانيين من ١٧٩٢- ١٩٢٠**. ترجمة محمد السيد علي عزب ومي موافي. القاهرة: دار العربي للنشر والتوزيع، ٢٠٢٣.

- شانيل، إلين. **ذكريات أميرة مصرية**. ترجمة محمد السيد علي عزب ومي موافي. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٨.
- **شعراء الجيش الثامن البريطاني: من العلمين إلى أورتونا، ١٩٤٢-١٩٤٥: آرائهم وموقفهم من الحرب**. ألمانيا: لامبرت للنشر الأكاديمي، ٢٠١١.
- عزب، محمد السيد علي، ومي موافي، مترجمون. **إسلاموفيليا**. القاهرة: دار التقوى، ٢٠١٩.
- عزب، محمد السيد علي، ومي موافي، مترجمون. **إلى القاهرة عبر ميناء الإسكندرية**. القاهرة: دار غراب، ٢٠٢٠.
- عزب، محمد السيد علي، ومي موافي، مترجمون. **طريق القاهرة السويس**. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٢٣.
- **عقدة سليمان**: (رواية). القاهرة: دار إبداع، ٢٠١٥.
- **قاموس المجاز المصور للغة الإنجليزية**. الإسكندرية: البيطاش للنشر، ٢٠١٠.
- عزب، محمد السيد علي، ومي موافي. **كيف تُزيد حصيلتك من مفردات اللغة الإنجليزية وتثريها**. الإسكندرية: دار الوفاء، ٢٠١٣.
- **اللغة الانجليزية كما يتكلمها أهلها**. الإسكندرية: البيطاش للنشر، ٢٠١٠.
- **اللغة العالمية الموحدة: مقومات النجاح وعوامل الفشل**. كفر الدوار: مكتبة بستان المعرفة، ٢٠١٠.
- **مختارات من الأدب الأنجلو-أمريكي**. كفر الدوار: مكتبة بستان المعرفة، ٢٠١٠.
- **من مسرح الحرب: أمهات الرجال، رادا** "ترجمة". سلسلة المسرح العالمي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٠.
- **الهوس والتوهم والرهاب والعقد النفسية والمتلازمات الثقافية في السرد الروائي العربي**: دراسة تتبعية. القاهرة: دار غراب، ٢٠١٧.
- ويفل، آرثر. **حاج في مكة**. ترجمة محمد السيد علي عزب ومي موافي. الإسكندرية: دار ليليت، ٢٠١٤.
- **Brush upon your English**. الإسكندرية: البراء، ٢٠٠٨.

- **English Poetry**. الرياض: دار الناشر الدولي، ٢٠٢٠.
- **Enhance your English Vocabulary**. الإسكندرية: البراء، ٢٠٠٨.
- عزب، محمد السيد علي، ومي موافي، مترجمون. **ينبع وجدة والمخا في كتابات طائفة من الرحالة والمسافرين البريطانيين من ١٧٨١ إلى ١٨٤٦**. القاهرة: دار غراب، ٢٠٢٥.
- **ماكآدم**: (رواية). القاهرة: دار غراب، ٢٠٢٥.
- ألكساندر، فرانسيس جوردون. **رحالتان في الفيوم عام ١٩١٢**. ترجمة محمد السيد علي عزب ومي موافي. القاهرة: دار الزيات، ٢٠٢٥.

تحت الطبع

- عزب، محمد السيد علي، ومي موافي، مترجمون. **الأزهر المعمور "أوكسفورد الشرق" في الكتابات البريطانية والأمريكية الفترة من ١٨٤٤ إلى ١٩٢٨.** القاهرة: مركز الحكماء بالأزهر.

مراجع الرواية

قصة كيث وميلينا:

https://www.youtube.com/watch?v=F٥yTX٠eWW٦s

-Crawford, Robert John, I Was An Eighth Army Soldier, Victor Gollancz, ١٩٤٤.

-Curry, R.N, Poets of the ١٩٣٩-١٩٤٥ War, Longman, ١٩٦٠.

-Douglas, Keith. From Alamein To Zem Zem, ed. Lawrence Durrell, Faber, ١٩٦٦.

-El Sadda, Hoda English Poets in Egypt, ١٩٣٩-١٩٤٥, a Ph.D thesis, Facutly of Arts, Cairo, ١٩٨٨.

-Fraser, G.S. 'Keith Douglas: A Poet of the Second World War', Chatterton Lecture on an English Poet, Proceedings of the British Acadmey, Vol. XIII, ١٩٥٦.

-Graham, Desmond. Keith Douglas: ١٩٢٠-١٩٤٤, A biography, Oxford Univ. Press, ١٩٧٤.

-Rifaie, M. The Experience of Death in the Poetry of Wilfred Owen and Keith Douglas, Mansoura Univ., ١٩٩٥.

-Rifaie, M. The Personal Landscape Group, Ph.D. thesis, Univ. of Wales, ١٩٨٠.

-Rifaie, M. The Poetry of Keith Douglas: An Approach, Dar Al Wafaa, Mansoura, ١٩٨٦.

-Keith Douglas, From Alamein To Zem Zem, Intro. By Lawrence Durrell, Faber, ١٩٦٦, p.١٢.

قصة عمر وسالي:

-Kate Pullinger, The Mistress of Nothing (a novel), New York, Touchstone, ٢٠٠٩.

-Katherine Frank, Lucie Duff Gordon: A Passage to Egypt, London, Tauris Parke Paperbacks, ٢٠٠٧.

-أحمد خاكي، رسائل من مصر: حياة لوسي دوف جوردون في مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦.

-ليدي دوف جوردون، رسائل من مصر، الترجمة الكاملة للرسائل مع ذكريات ابنتها جانيت روس ومقدمة لجورج ميريديث، ترجمة: إبراهيم عبد المجيد، القاهرة، بيت الياسمين، ٢٠١٩.

-ليدي لوسي دوف جوردون، رسائل من مصر، المرأة التي أحبت مصر، ترجمة وتقديم ماجد محمد فتحي، القاهرة، إصدارات سطور الجديدة، ٢٠١٣.

قصة عباس وإقبال وجويدان و"ألكساندرا" وصالحة و"أندريه دي لوسانج":

-Arden Hulme Beaman, The Dethronement of the Khedive, London, George Allen & Unwin Ltd, nd.

-Edward Dicey, The Story of the Khedivate, London, Rivingtons, ١٩٠٢.

https://www.rootschat.com/forum/index.php?topic=٦٤٣١٦٢,٠

http://www.egy.com/historica/١١-٠٧-٢٨.php

https://nlc.hu/szabadido/cikk/torok-marianna-egyiptomi-kiralyne/

http://www.egy.com/historica/

أرشيف أوراق الخديوي عباس في جامعة درهام.

https://reed.dur.ac.uk/xtf/view?docId=ark/٣٢١٥٠_s١٨٠٤٩g٥٠٤c.xml

-عباس حلمي الثاني، عهدي، ترجمة دكتور جلال يحيي، القاهرة، الشروق، ١٩٩٣.

-أحمد شفيق باشا، مذكراتي في نصف قرن، الجزء الثاني، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٣٦.

-لورد كرومر، عباس الثاني، ترجمة فؤاد صروف، القاهرة، مطبعة التوفيق، ب ت.

-جويدان، مذكرات الأميرة جويدان، بيروت، دار المدى للثقافة والنشر، كتاب السفير، ٢٠٠٤.

-مروة علي حسين، نساء الأسرة العلوية، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٢٢.

-صلاح عيسى، حكايات من دفتر الوطن، القاهرة، دار الكرمة، ٢٠٢٠، ص ٣٧٧-٣٧٨.

-فالتر جروند، ثلاثة رجال (رواية)، ترجمة طارق عبد الباري، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، ٢٠١١.

-عبد المنعم إبراهيم الجميعي، عباس الثاني: خديوي مصر الأخير، القاهرة، مكتبة التاريخ، ٢٠٠٨.

إحالات الرواية

[i] الروايات، دار التنوير، بيروت، ٢٠١٤، ص ٦-١٠.

[ii] Khediva.

١٨٥٨-١٩٣١.[iii]

١٨٧٤-١٩٤٤.[iv]

١٨٧٦-١٩٤١.[v]

١٨٧٧-١٩٦٨.[vi]

١٨٨٣-١٩٥٣.[vii]

١٨٧٢-١٩٢٧.[viii]

[ix] Serendipity.

[x] Nostos.

[xi] Samuel Selig Kusel (١٨٤٨-١٩١٧).

[xii] An Englishman's Recollections of Egypt, ١٨٦٣ to ١٨٨٧, London, John Lane Company, ١٩١٥.

[xiii] Elvira Cleto Chini.

[xiv] ترجمها من اليونانية الدكتور نعيم عطية.

[xv] Gloomy Sunday.

[xvi] الأبيات لصلاح عبد الصبور ووضعها على لسان الشبلي في مسرحية "مأساة الحلاج".

[xvii] مت ٧:٧.

[xviii] Naches.

[xix] Phaistos Disk.

[xx] Shroud of Turin.

[xxi] Nazca Lines.

[xxii] Sedelik Church.

[xxiii] Crop circles.

[xxiv] Stonehenge.

[xxv] Lanver mak, The British Community in Occupied Cairo, ١٨٨٢-١٩٢٢, a Ph. D. thesis, The University of London, ٢٠٠١, PP. ١٥٣-١٥٤.

[xxvi] Deja Reve.

[xxvii] جون ماندفيل، أسفار السير جون ماندفيل ورحلاته ١٣٢٢-١٣٥٦م، ترجمة أنس الذهبي، ورنا جزائري، تحرير وتعليق أحمد إيبش، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة-دار الكتب الوطنية، ٢٠١٢.

[xxviii] The Rats of Hamelin.

[xxix] Mouton de Panurge.

[xxx] Sheeple.

[xxxi] https://www.alwasatnews.com/news/٤٧٨٢١١.html

[xxxii] عبد الغني محمود عبد العاطي، "صليبية الأطفال ١٢١٢"، ندوة التاريخ الإسلامي والأوروبي الوسيط، تحرير الدكتور قاسم عبد قاسم والدكتور رأفت عبد الحميد، ج. ٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣): ١٤٥-١٨٥.

George Zabriskie Gray, The Children's Crusades, Boston & New York, Houghton, Mifflin & Company, ١٨٩٨.

[xxxiii] To push up daisies.

[xxxiv] ماري إليزابيث فراي "لا تقف على قبري وتنتحب".

[xxxv] من مسرحية "الخديوي".

[xxxvi] دار الفرات – دار بترا، بيروت – دمشق، ٢٠٠٩.

[xxxvii] عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٢.

[xxxviii] مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٥.

[xxxix] دار الساقي، بيروت، ٢٠١٠.

[xl] رياض الريس الكتب والنشر، لندن – قبرص، ١٩٩١.

[xli] Henry Morton Stanley (١٨٤١-١٩٠٤).

[xlii] Eduard Schnitzer (١٨٤٠-١٨٩٢).

[xliii] Charles Bulkeley.

[xliv] Fidelis.

[xlv] Adelard of Bath.

[xlvi] Huangshan.

[xlvii] Raška.

[xlviii] Nada.

[xlix] Relja.

[l] شاعر ولد في مدينة عكا عام ١٨٧٢ وتوفى عام ١٩٤٢.

[li] وفي رواية أخرى "المليح".

[lii] راجع كتاب الدكتورة نانسي كاليش Nancy Kalish "Lost and Found: Facts and Fantasies of Rekindled Romances", New York, William Morrow and co.,١٩٩٧.

[liii] Arthur Henry Seton Hart Synnot (١٨٧٠-١٩٤٢).

[liv] Suzuki Masa (١٨٧٨-١٩٦٥).

Peter Pagnamenta and Momoko Williams, Sword and Blossom: A British Officer's Enduring Love for a Japanese Woman, London, Penguin Books, ٢٠٠٧.

[lv] Leslie Heath.

[lvi] Lieselotte Heberle.
[lvii] Eric Newby.
[lviii] Wanda Bobulova.
In Love and War (movie), ٢٠٠١.
[lix] Kara Troy Robbins.
[lx] Jeannine Ganaye.
[lxi] Eugenie le Brun (١٨٧٣-١٩٠٨).
[lxii] محمود سعيد عبد الظاهر، يهود مصر: دراسة في الموقف السياسي (١٨٩٧ – ١٩٤٨)، سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية، العدد (١٧)، القاهرة، مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٩٠، ٩٦ -٩٧.
[lxiii] Desmond Graham, Keith Douglas, ١٩٢٠-١٩٤٤: a Biography, OUP, ١٩٧٤.
[lxiv] Wilfred Owen.
[lxv] Dulce Et Decorum Est Pro Patria Mori.
[lxvi] Agarithe Caussidiere.
[lxvii] John Prax.
[lxviii] https://maitron.fr/spip.php?article٢٨٢٤٤
[lxix] Robert Grenville Gayer-Anderson (١٨٨١-١٩٤٥).
[lxx] Pum.
[lxxi] Louise Foxcroft, Gayer-Anderson: The Life and Afterlife of the Irish Pasha, Cairo, The American University in Cairo Press, ٢٠١٦.
[lxxii] Mary Stout Shaw (١٨٨٠-١٩٦٢).
[lxxiii] رقم القطعة هو: EA ٦٤٣٩١.
[lxxiv] Henry Wellcome (١٨٥٣-١٩٣٦).
[lxxv] James Ewing Cooley, The American in Egypt: With Rambles Through Arabia Petraea and the Holy Land, During the Years ١٨٣٩ and ١٨٤٠, New York, D. Appleton, ١٨٤٢, PP. ٥٨٧- ٥٨٨.
[lxxvi] John Gardner Wilkinson (١٧٩٧-١٨٧٥).
[lxxvii] Amalia Marucchi Nizzoli (١٨٠٥-١٨٤٥?)
[lxxviii] Wilhelm Peter Edward Simon Ruppell (١٧٩٤-١٨٨٤).
[lxxix] James Augustus St. John (١٧٩٥-١٨٧٥).
[lxxx] Bayle St. John.
[lxxxi] السيناريو لمحمد جلال عبد القوي.
[lxxxii] https://gate.ahram.org.eg/News/٣٦١٥٧٣٤.aspx
https://gate.ahram.org.eg/News/٢٩٤٤٠٣٠.aspx

[lxxxiii] https://www.darelhilal.com/News/٩٣٥٥٠٩.aspx

[lxxxiv] Jonathan Cott & Hanny El-zeini, The Search for Omm Sety, New York, Doubleday, ١٩٨٧.

[lxxxv] الكويت، دايموند للنشر، ٢٠٠٩.

[lxxxvi] Rosemary of Blackpool.

[lxxxvii] أنيس منصور، أرواح وأشباح، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٣، ص ٢٤٩-٢٥١.

[lxxxviii] دار مشارق، الجيزة، ٢٠٠٩، ص ١٦٣.

[lxxxix] .Princess Caraboo

[xc] Not Waving but Drowning by Stevie Smith (١٩٠٣-١٩٧١).

[xci] Saccone & Speed.

[xcii] I Listen to the Desert Wind.

[xciii] Enfidaville.

[xciv] Edna St. Vincent, ١٨٩٢-١٩٥٠.

[xcv]https://www.qaranc.co.uk/british_military_hospital_egypt_bmh_alexandria.php

[xcvi] Hugh Houston.

[xcvii] Gabe Agion.

[xcviii] Chloe.

[xcix] Lord Killearn (Sir Miles Lampson).

[c] Noel Coward.

[ci] Ake.

[cii] Paolina.

[ciii] E. M. Forester.

[civ] Ralph Abercromby (١٧٣٤-١٨٠١).

[cv] Richard Jones & John Mason, Myths and Legends of Britain and Ireland, Australia, New Holland Publishers. PP. ٢٨–٢٩.

Cecily Gould, Tapestry of Time, New York, Writers Club Press, ٢٠٠١.

[cvi] Lucy Lightfoot.

[cvii] Edward Estur.

[cviii] صفي الدين الحلي.

[cix] ترنيمة "تائه في غربة" للبابا شنودة الثالث.

[cx] Walter Bower (١٣٨٥-١٤٤٩).

[cxi] Claude Marie Dubufe (١٧٩٠-١٨٦٤).

[cxii] العدد ٢٣، ١٧ سبتمبر ١٩٠٩.

[cxiii] Jane Digby (١٨٠٧-١٨٨١).
[cxiv] Charles James Erskine (١٧٦٨-١٨٠١).
[cxv] Arthur Brice (١٧٦٨-١٨٠١).
[cxvi] Cardross.
[cxvii] Alexander Cameron (١٧٨١-١٨٥٠).
[cxviii] Journal of Society for Army Historical Research, Vol. (s) ١٣-١٥, London, ١٩٣٤, P. ٢٢٠.

Marchioness of Tullibardine (ed.), A Military History of Perthshire: ١٦٦٠-١٩٠٢, Perth, R. A. & J. Hay, ١٩٠٨, pp ٤٧٠-٤٧٤, PP. ٤٧١-٤٧٤.

[cxix] A Passage to India, a novel by E. M. Forster.
[cxx] https://www.alsabahalyoum.com/١٠٦٢٥٧
[cxxi] https://www.dostor.org/٣١٩٣٢٤٣
[cxxii] Edward Wortley Montagu (١٧١٣-١٧٧٦).
[cxxiii] John feroe.
[cxxiv]https://oac.cdlib.org/findaid/ark:/١٣٠٣٠/tf٥n٣٩nVxv/entire_text/
[cxxv] Sally Naldrett.
[cxxvi] Kate Pullinger, The Mistress of Nothing (a novel), New York, Touchstone, ٢٠٠٩, p. ٣.
[cxxvii] Duff Gordon, Lady Lucie. Lady Duff Gordon's Letters from Egypt. ٣rd ed. London: Johnson, ١٩٠٢. P. ١٦٤.
[cxxviii] كان يعمل رئيسا لتحرير جريدة "الإيجبشن جازيت" في القاهرة.
[cxxix] Letters from Egypt, ed. Gordon Waterfield, New York, Praeger, ١٩٦٩. P. ١٩٤.
[cxxx] Ellen Naldrett.
[cxxxi] صفي الدين الحلي.
[cxxxii] Marianna Torok.
[cxxxiii] Marguerite Pauline Foures (١٧٧٨-١٨٦٩).
[cxxxiv] Jean Noel Foures.
[cxxxv] Eugene Beauharnais (١٧٨١-١٨٢٤).
[cxxxvi] Louis Charles Antoine Desaix (١٧٦٨-١٨٠٠).

[cxxxvii] Bernardino Michele Maria Drovetti (١٧٧٦-١٨٥٢).
[cxxxviii] Nathaniel Pearce (١٧٧٩-١٨٢٠).
[cxxxix] Saint Andre of Lyon.

[cxl] Arsana.

[cxli] Louis Maurice Adolphe Linant de Bellefonds (١٧٩٩-١٨٨٣).

[cxlii] Edmond Combes (١٨١٢-١٨٤٨).

[cxliii] Philippe-Joseph Machereau.

[cxliv] Puckler Muskau (١٧٨٥-١٨٧١).

[cxlv] Bilillee (?- ١٨٤٠).

[cxlvi] Gerard de Nerval (١٨٠٨-١٨٥٥).

[cxlvii] Peter Stanley, Bad Characters: Sex, Crime, Murder and Mutiny in the Great War, Sydney, ReadHowYouWant, ٢٠١٢.

[cxlviii] https://mideasti.blogspot.com/٢٠١٥/٠٤/today-is-١٠٠th-anniversary-of-battle-of.html

[cxlix] Religious Toleration in Egypt, official correspondence related to the indemnity obtained for the maltreatment of Farsi El-Hakim, an agent of the American missionaries in Egypt.

[cl] كانت تتبع البداري قبل أن تصبح مركزا مستقلا. يُقال إنها تنتسب لبني سليم وهي قبيلة عربية حجازية.

[cli] Arthur Conan Doyle, The Tragedy of Krosko.

[clii] Thudicum.

[cliii] Theresianum.

[cliv] آرثر ويفيل، حاج في مكة، ترجمة: محمد عزب وي موافي، القاهرة، دار غراب، ٢٠٢١.

[clv] كارل رسوان، الخيام السود في بلاد العرب، ترجمة: عبد الهادي عبلة، دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣

[clvi] Captain Seymour Clarke Bull.

[clvii] George Bernard Shaw, John Bull's Other Island, New York, Brentanos, ١٩٠٧, P. li.

[clviii] Anthony Gerard Moorhouse (١٩٣٥-١٩٥٦).

[clix] Herbert P. Ribton.

[clx]

https://encyclopedia.adventist.org/article?id=BJCD&highlight=y

[clxi] في صفحة ٤٠ وصفحة ٢٢٩ من كتابه "باشوات وسوبر باشوات" وصف الدكتور حسين مؤنس الخديوي عباس بألفاظ نتعفف عن ذكرها (القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط ٢، ١٩٨٨).

[clxii] بعد أن يموت الملك.

[clxiii] المؤلف مجهول، بداية الحركة الصهيونية في مصر العربية، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧، ص ١٨.

[clxiv] عادل حمودة، الملك أحمد فؤاد الثاني: الملك الأخير وعرش مصر، القاهرة، سفنكس للطباعة والنشر، ١٩٩١، ص ١١٨.

[clxv] من قصيدة The Rosebush Trembles للشاعر المجري Alexander Petofi(١٨٢٣-١٨٤٩).

[clxvi] https://archive.alsharekh.org/Articles/٣٥٣/٢٢٣٨٣/٥٠٧٥٠٤

[clxvii] إلهام محمد علي ذهني، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، ص ٢٦٤.

[clxviii] Madam Ricochette.

[clxix] Walter Tyndale, An Artist in Egypt, London, Hodder & Stoughton, ١٩١٢.

[clxx] https://www.gutenberg.org/cache/epub/٦٤٦٨٨/pg٦٤٦٨٨-images.html

Jokai Mor, The Baratfalvi Levita, Budapest, The Reva Brothers, ١٨٩٨, P. ١٤١.

[clxxi] Young love like a fisherman spreadeth his net, And Nuzleh's sweet lips are the bait that he set, All eagerly bite, the Frenk-fish that swim by, And then in the fierce flames of desire they fry. Emmeline Lott, Emmeline Lott, The grand Pasha's Cruise on the Nile in the Viceroy of Egypt's Yacht, Vol. I, London, T. Cautley Newby, P. ٢٢٠.

[clxxii] د. أمل محمد فهمي، أمراء الأسرة المالكة ودورهم في الحياة المصرية: ١٨٨٢-١٩٢٨، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٧، ص ١٦.

[clxxiii] Louis Rouiller.

توفي عام ١٨٩٧.

ميخائيل شاروبيم، الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث، المجلد الأول، القسم الأول، تحقيق الدكتور عبد الوهاب بكر، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٩٨، ص ١٦٧.

[clxxiv] أحمد رمضان الديباوي، محمد عياد الطنطاوي: الأزهر الليبرالي، مجلة أفكار، العدد ٣٦٠، يناير ٢٠١٩، ص ٦٢.

[clxxv] أحمد عطية الله، الأزهري الذي قابل بسمارك، مجلة الهلال، العدد ٦، يونيو ١٩٥٣.

[clxxvi] Wilfreid Scawen Blunt.

[clxxvii] Sir Eldon Gorst.

[clxxviii] لاحقا حاول الخديوي عباس نفسه وبمساعدة " بولو باشا" بيع امتياز قناة السويس.

[clxxix] Kyriakos Mikhail (١٨٨٧-١٩٥٦).

[clxxx] Mohamed Duse (١٨٦٦-١٩٤٥).

[clxxxi] اللورد كرومر، تقرير عن المالية والإدارة والحالة العمومية في مصر وفي السودان ١٩٠٦، القاهرة، إدارة جريدة المقطم، ١٩٠٧، ص ٧.

[clxxxii] ١ بط ٢:١٧.

[clxxxiii] Peter Mellini, Sir Eldon Gorst: the overshadowed proconsul, California, Hoover Institution Press, ١٩٧٧, P. ٧١.

[clxxxiv] حنفي المحلاوي، حريم ملوك مصر من محمد علي إلى فاروق، القاهرة، دار الأمين، ١٩٩٣، ص ٩٧.

[clxxxv] جوديث تاكر، نساء مصر في القرن التاسع عشر، ترجمة وتقديم هالة كمال، القاهرة، المجلس القومي للترجمة، ٢٠٠٨، ص ٤١٧.

[clxxxvi] Slough.

[clxxxvii] Kyriakos Mikhail, Copts and Moslems under British control, London, Smith, Elder & Co., ١٩١١.

[clxxxviii] محمود سعيد عبد الظاهر، يهود مصر: دراسة في الموقف السياسي (١٨٩٧ – ١٩٤٨)، سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية، العدد (١٧)، القاهرة، مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٠٧.

[clxxxix] المرجع السابق، ص ١٠٥.

[cxc] (١٩٠٧-١٩٤٣).

[cxci] Paul Bolo Pasha (١٨٦٧-١٩١٨).

[cxcii] صبري أبو المجد، محمد التابعي، الجزء الثاني، القاهرة، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر، ١٩٩٣، ص ١٣٤.

[cxciii] Marie La Fargue (١٨٧١-١٩٣٢).

[cxciv] Despina Davidovitch Storch (١٨٩٤-١٩١٨).

George Barton, Celebrated Spies and Famous Mysteries of the Great War, Boston, The Page Company, ١٩١٩.

[cxcv] Mata hari (١٨٧٦-١٩١٧).

[cxcvi] Évian-les-Bains.

[cxcvii] أحمد شفيق، مذكراتي في نصف قرن، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٣٦، ص ١٦٢.

[cxcviii] Cecile Chabot (١٩٠٧-١٩٩٠).

القصيدة من ترجمة د. إحسان هندي.

[cxcix] "طبقات الصوفية" للشعراني.

[cc] "الكواكب السيارة".

[cci] عبد الوهاب الشعراني، لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، ج ٢، طبع بمصر، بدون تاريخ، ص ٨٧.

[ccii] محمد الصادق الأريلي، تفريح الخاطر في ترجمة الشيخ عبد القادر، طبع بمصر، بدون تاريخ، ص ٢٢.

[cciii] راجع تاريخ الإمام ابن حجر "أنباء الغمر".

[cciv] راجع "السلوك" في أحداث شهر ذي القعدة سنة ٧٩٦هـ.

[ccv] Ahmed Fakhary, the Egyptian Desert, Siwa Oasis. Its History and Antiquities, Cairo ١٩٤٤, P. ٩٧.

[ccvi] Samuel Langhorae Clemens, The Innocents Abroad; or, the New Pilgrim's Progress, Hartford, CT, American Publishing Company, ١٨٦٩, P. ٦٣٢.

[ccvii] Howard Hopley, Under Egyptian Palms: or, Three Bachelors' Journeyings on the Nile, London, Chapman and Hall, ١٨٦٩, P. ١٨٢.

[ccviii] Abraham V. Salame, A Narrative of the Expedition to Algiers in the Year ١٨١٦: under the Command of the Right Hon. Admiral Lord Viscount Exmout, London, John Murray, ١٨١٩, P.cxii.

[ccix] George Robbins Gliddon, A Memoir of the Cotton in Egypt, London, James Madden & Co., ١٨٤١, P. ١٤١.

[ccx] John William Clayton, Letters from the Nile, London, T. Bosworth, ١٨٥٤, PP. ٨٥- ٨٦.

[ccxi] Henry James Curtin.

[ccxii] Cora Randolph.
https://chroniclingamerica.loc.gov/lccn/sn٩٠٠٥٩٥٢٣/١٨٩٩-٠٥-٢٨/ed-١/seq-٢٣/

[ccxiii] Comanos Pasha, Memoires du Comanos Pasha, Cairo, Societe Orientale, ١٩٢٠, PP. ٤٨-٦٢.

[ccxiv] W. Fraser Rae, Egypt Today, London, Richard Bentley, ١٨٩٢, P.١٢

[ccxv] الأعراف، ٥٦.

[ccxvi] الأمير محمد عبد المنعم (١٨٩٩-١٩٧٩) والأمير محمد عبد القادر (١٩٠٢-١٩١٩).

[ccxvii] أمينة هانم وعطية الله هانم وفتحية هانم ولطيفة شوكت هانم.

[ccxviii] Jozef Szendoi Torok.

[ccxix] راجع كتاب: مصطفى أمين، الآنسة هيام، القاهرة، نهضة مصر، ٢٠١٨.

[ccxx] ياسر قطامش، عشرة طاولة مع الملك فاروق، القاهرة، دار أخبار اليوم، ٢٠١١، ص ٣٢.

[ccxxi] Isabelle Contal.

[ccxxii] أحمد شفيق باشا، مذكراتي في نصف قرن، الجزء الأول، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٣٦، ص ٤٩٩.

[ccxxiii] Rudolf Franz Karl Joseph.

[ccxxiv] Emin Arslan, "Bolo Pacha y Sus Comparsas", in Nota: revista semanal, Ano III, Issues ١٢٦-١٤٢, Num. ١٤٢, Buenos Aires, ٢٧ de Abril ١٩١٨, P. ٢٩٩٠.

[ccxxv] نعمت الله هانم وخديجة هانم ونازلي هانم التي توفت وهي بنت عامين.
[ccxxvi] الصافات، ١٠٩.
[ccxxvii] Warren Isham, "Land of the Pyramids," in Magazine of Travel: a Work Devoted to Original Travels in Various Countries, Both of the Old World and the New, Detroit, H. Barns, ١٨٥٧, P. ١١٤.
[ccxxviii] محمد توفيق، الغباء السياسي، القاهرة، دار المصري للنشر والتوزيع، ٢٠١٢، ص ٣٢.
[ccxxix] Miltiades di Avierino.
[ccxxx] Princess Gabriella Wiszniewska.
[ccxxxi] https://www.hindawi.org/books/٦٢٦٨٢٩٣٧/١/
سيد علي إسماعيل، حافظ نجيب: الأديب المحتال، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٦.
[ccxxxii] قاسم أمين، تحرير المرأة، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٢، ص ١٥.
[ccxxxiii] طلعت حرب، تربية المرأة والحجاب، القاهرة: مطبعة المنار، ١٣٢٣ هـ، ص ٢١.
[ccxxxiv] شاعر أمريكي (١٨٠٧- ١٨٨٢).
[ccxxxv] The Song of Hiawatha (١٨٥٥).
[ccxxxvi] أمانة الحب.
[ccxxxvii] Ellen Chennells.
[ccxxxviii] أحمد شفيق، مذكراتي في نصف قرن، الجزء الثاني، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٣٦، ص ٢٦٢.
[ccxxxix] المرجع السابق، ص ٢٦٢.
[ccxl] Lola Montez ٩١٨٢١-١٨٦١).
[ccxli] Ludwig I of Bavaria (١٧٨٦-١٨٦٨).
[ccxlii] هاري وبستر، فضائح العائلات المالكة، القاهرة، بيروت، الانتشار العربي، ١٩٩٧، ص ٧١.
[ccxliii] Paul Draneht (١٨١٥-١٨٩٤).
[ccxliv] Adele Casati.
[ccxlv] Sofie, Countess Vetter Von der Lilie.
[ccxlvi] Theodor Puskas.
[ccxlvii] Emil Von Sauer.
[ccxlviii] Khan Neriman.
[ccxlix] Arthur Von Klingspor.
[ccl] Hess Von Wyss.
[ccli] Lady Evelyn Cobbold (١٨٦٧-١٩٦٣).
[cclii] جابرييل بيير، دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة، ترجمة عبد الخالق لاشين وعبد الحميد فهمي الجمال، القاهرة، مكتبةالحرية الحديثة، ١٩٧٦، ص ٣٢٦.

[cclxiii] Frances Gordon Alexander.

[cclxiv] ١٨٢٢ - ١٩١١.

[cclxv] Mary Elizabeth (A'Court) Herbert, Cradle Lands, New York, The Catholic Publication Society, ١٨٦٧) PP. ١٥-١٦.

[cclxvi] ١٨٥٠ – ١٩٥٠.

عملت كمربية للأمير إبراهيم حلمي ابن الخديوي إسماعيل.

[cclxvii] Emmeline Lott,The Governess in Egypt; Harem Life in Egypt and Constantinople, London, R. Bentley, ١٨٦٦, P.١١.

[cclxviii] ١٨١٤ – ١٨٩٦.

قدمت مصر للعمل كمربية للأميرة زينب بنت الخديوي إسماعيل.

[cclxix] Ellen Chennells, Recollections of an Egyptian Princess, London: W. Blackwood and Sons, ١٨٩٣, P. ٦.

[cclxx] Mary Georgina Emma Seymour Dawson Damer, Diary of a Tour in Greece, Turkey, Egypt and the Holy Land, vol. II, London, H. Colburn, ١٨٤١, P. ١٧٨- ١٨٠.

[cclxxi] راجع مقال السير "مالكوم ملكويث" في مجلة "الفورت نايتلي"، ترجمة جريدة الأفكار في ٦ مايو ١٩١٨.

[cclxxii] Mary Louise Fuller (Louie Fuller).

[cclxxiii] بريس دافين (إدريس أفندي)، إدريس أفندي في مصر، القاهرة، كتاب أخبار اليوم، ١٩٩١، ص ١٠٩.

[cclxxiv] Amelie Karapow.

[cclxxv] https://chroniclingamerica.loc.gov/lccn/sn٨٨٠٦٣٢٩٤/١٩٤٥-٠٩-٠٢/ed-١/seq-٦٤/

https://chroniclingamerica.loc.gov/lccn/sn٨٨٠٦٣٢٩٤/١٩٤٥-٠٩-٠٢/ed-١/seq-٦٥/

[cclxxvi] Vladimir Vasilievich Yourkevitch.

[cclxxvii] إسماعيل الذي ترأس الجمعية الإسلامية في بريطانيا من سنة ١٩٣٣ لسنة ١٩٥٣.

[cclxxviii] حدث هذا في ٢٣ ديسمبر عام ١٩١٣، وسمى نفسه "عبد الرحمن شيخ جلال الدين محمد".

[cclxxix] Lucia A. Chapman Palmer, Oriental Days, New York, The Baker and Taylor Co., ١٨٩٧, PP. ٤٤-٤٥.

[cclxxx] Alfred Joshua Butler, Court Life in Egypt, London, Chapman and Hall, Limited, ١٨٨٨, P. ٢٠٤.

[cclxxxi] عام ١٩٢٠ تم إعدام "دراجوميس" لاتهامه بالمحاولة الفاشلة لاغتيال رئيس وزراء اليونان في باريس. أُصيبت "بينيلوبي" بالشلل وأنهت حياتها عن طريق تناول السم عام ١٩٤١.

[cclxxii] عماد أحمد هلال، الرقيق في مصر في القرن التاسع عشر، القاهرة، دار العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٩، ص ٢٣٧.

[cclxxiii] D. A. Cameron, Egypt in the Nineteenth Century, London, Smith, Elder & Co., ١٨٩٨, P. ١٦٢.

[cclxxiv] Robert Hay (١٧٩٩-١٨٦٣).

[cclxxv] في نهايات عمرها بحثت عن وظيفة كطاهية، وعملت مسؤولة عن ملابس الإمبراطور هيلا سيلاسي في الحبشة.

[cclxxvi] من قصيدة لـ "مروة رخا".

[cclxxvii] Kelemen Arvay (Clement d' Arvay)
https://www.egy.com/historica/١١-٠٧-٢٨.php

[cclxxviii] Georgette Misny (Mesny) (Merly) (Messie).
Andree de Lusange (Luzanges) (١٨٨٩-١٩٥٩).

[cclxxix] Marguerite Marie Alibert. (١٨٩٠-١٩٧١).
عُرفت لاحقا بمارجريت فهمي.

[cclxxx] Maggie Meller.

[cclxxxi] Mme Denant.

[cclxxxii] David B. Rosten,The Last Cheetah of Egypt: A Narrative History of Egyptian Royalty from ١٨٠٥ to ١٩٥٣ , Bloomington, iUniverse, ٢٠١٥.

[cclxxxiii] Edward Marshal Hall (١٨٥٨- ١٩٢٧).

[cclxxxiv]Simon Henry Leeder, Veiled mysteries of Egypt and the Religion of Islam, New York, Charles Scribner's Sons, ١٩١٣.

[cclxxxv] مصطفى أمين، الآنسة كاف، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٨، ص ٨٣٧-٨٤٦.

[cclxxxvi] Carton de Wiart.

[cclxxxvii] Pierre Orloff.

[cclxxxviii] مصطفى أمين، ليالي فاروق، القاهرة، دار أخبار اليوم، ١٩٩٦، ص ١٧١- ١٩٢.

[cclxxxix] Rosita Forbes (١٨٩٠-١٩٦٧).

[ccxc] محمود فوزي، خفايا فاروق وناريمان في المنفى، القاهرة، الجداوي للنشر، ١٩٩٤، ص ١٢٥.

[ccxci] Stelios Koumoutsos.

[ccxcii] Annie Berrier.

[ccxciii] Irma Capece Minutolo.

[ccxciv] Barbara Skelton.

[ccxcv] Birgitta Stenberg.

[ccxcvi] Patricia "Honeychilde" Wilder.

[ccxcvii] Irene Guinle.

[ccxcviii] أشرف مصطفى توفيق، نساء الملك فاروق، القاهرة، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٠، ص ١٢.

[ccxcix] Simon Edmund Vincent Paul Elwes (١٩٠٢-١٩٧٥).

[ccc] https://www.albayan.ae/opinions/٢٠٠٠-٠٧-٢٢-١.١٠٩٦٢٢٤

[ccci] Artemis Cooper, Cairo in the War ١٩٣٩-١٩٤٥, London, Penguin Books, ١٩٩٥, PP. ٢٢٩-٢٣٢.

[cccii] Dominique Tajan-Roge (١٨٠٣-١٨٧٨).

[ccciii] Clorinde Tajan Roge (١٨٠٧-١٨٥٧).

[ccciv] محمد الشماع، السرايا الصفرا، القاهرة، دار المصري، ٢٠٢٢، ص ١٧٣.

[cccv] Woman Combing her Hair.

[cccvi] Thomas Ludvig Muller (١٨٢١-١٨٩٩).

[cccvii] Duleep Singh.

[cccviii] Henry Whitney Bellows, The Old World in its New Face: Impressions of Europe in ١٨٦٧-١٨٦٨, vol. II, New York, Harper & Brothers, ١٨٦٨-٦٩, PP. ١٠٩- ١١٠.

[cccix] Sigismund von Rosty (١٨٨٧-١٨٩٠).

[cccx]https://www.bibalex.org/alexcinema/actors/stephane_rosti.html

[cccxi] "ساق البامبو" للكاتب سعود السنعوسي.

[cccxii] Pocahontas (١٥٩٥-١٦١٧).

[cccxiii] P. H. Newby, "Picnic at Sakkara".

[cccxiv] J. W. A. Young.

[cccxv] Lanver Mak, The British in Egypt: Community, Crime and Crises, ١٨٨٢-١٩٢٢, London, I. B. Tauris, ٢٠١٢, P. ٧٨.

[cccxvi] Rudyard Kipling (١٨٦٥-١٩٣٦).

[cccxvii] Burning Heart (survivor Band).

[cccxviii]John David Ragan, A Fascination for the Exotic Suzanne Voilquin, Ismayl Urbain, Jehan d' Ivray and the French Saint-Simonians…, A Ph.D. Thesis, Department of History, New York Univ., ٢٠٠٢.

مصطفى عبيد، الفكر الاستعماري السانسيموني في مصر والجزائر ١٨٣٣-١٨٧٠: دراسة في مشاريع ونشاط السانسيمونيين بمصر وتجربة توماس (إسماعيل) أوربان وأثرها في الجزائر، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.

[cccxix] Dereau.

[cccxx] Gombe.

[cccxxi] Pierre Gary.
[cccxxii] Charles Dussap (?-١٨٣٥).
[cccxxiii] Thomas Urbain (١٨١٢-١٨٨٤).
[cccxxiv] Joseph- Marie Moiret.
[cccxxv] Dominique France Loeb Picard.
[cccxxvi] Enemy in the Promised Land, New York, Pantheon Books, ١٩٨٦.
[cccxxvii] الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٤.
[cccxxviii] رام الله، مؤسسة عبد المحسن القطان – المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠١١.
[cccxxix] القاهرة، دار كيان للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
[cccxxx] الدار البيضاء. مطبعة سوماكرام، ٢٠١٤.
[cccxxxi] الوطن ليس هنا، ص ٢٩.
[cccxxxii] عبير إبراهيم قمرة، المرأة والمدينة الكوزموبوليتانية: تاريخ الجندرية في المجتمع السكندري، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، ص ٩٩، ٢١٨.
[cccxxxiii] Toni Avril.
[cccxxxiv] Marguerite Van Geldermalsen.
[cccxxxv] مارجريت فان جيلدرملسين، تزوجت بدويا، الرياض، العبيكان، ٢٠٠٩.
[cccxxxvi] Emma McCune (١٩٦٤-١٩٩٣)
[cccxxxvii] Percy Koriat (١٨٩٨-١٩٦٠).
[cccxxxviii] https://sarabic.ae/٢٠١٦٠٤٢٠/١٠١٨٤٤١٦٣٠.html
[cccxxxix] Edith Maud Hull (١٨٨٠-١٩٤٧).
[cccxl] علي صلاح أحمد هريدي، الجاليات الأوربية في الإسكندرية في العصر العثماني، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩، ص ٩٧.
[cccxli] Eliza Fay, The Original Letters from India, Calcutta, Thacker, Spink & Co., ١٩٠٨, PP. ٤٠-٤١.
[cccxlii] بريس دافين (إدريس أفندي)، بريس دافين في مصر، القاهرة، كتاب أخبار اليوم، ١٩٩١، ص ٤٢.
[cccxliii] جلاديس تشارلز كوتريل.
[cccxliv] ليلي ماي بالمز.
[cccxlv] René Jean-Marie-Joseph Guénon (١٨٨٦-١٩٥١).
[cccxlvi] John Phillby (١٨٨٥-١٩٦٠).
[cccxlvii] Leopold Weiss (١٩٠٠-١٩٩٢).
[cccxlviii] Elsa Schiemann.
[cccxlix] أمل دنقل "البكاء بين يدي زرقاء اليمامة".
[cccl] (١٨٧٥-١٩٢٥).

[cccli] Alix Marthe Frezet ٩١٨٧٣-١٩٢٨).

[ccclii] Pearl Ola (Olga) Jane Humphrey (١٨٧٥-١٩٤٨).

[ccliii] Nell Shipman, Under the Crescent, New York, Grosset & Dunlap, ١٩١٥.

[ccliv] Jessica Delma Maria Harrington (١٨٩٧-١٩٢٣).

[cclv] صلاح عيسى، حكايات من دفتر الوطن، القاهرة، كتاب الأهالي، ١٩٩٢، ص ٣٧٦.

[cclvi] Jean Pierre Perreten.

[cclvii] Zoe Grigorakos.

[cclviii] James Burton (١٧٨٦-١٨٦٢).

[cclix] Andreana.

[cclx] https://www.alaraby.co.uk/culture/%D٨٪AA%D٨٪AV٪D٨٪B١٪D٩٪٨A%D٨٪AE-%D٨٪BV٪D٩٪٨١٪D٩٪٨٤٪D٨٪A٩ تاريخ طفلة مصرية في حملة نابليون

[cclxi] When We Two Parted.

[cclxii] من قصيدة "الرب يتخلى عن أنطونيو".

[cclxiii] رسالة بعث بها ديليسبس إلى مودموزيل "ديلامال" في ١٥ نوفمبر ١٨٥٤.

[cclxiv] للكاتب اليوغسلافي Ivo Andrić.

[cclxv] محمود معروف، عمارة الإيموبيليا، القاهرة، كتاب الجمهورية، ٢٠١٠، ص ٢١١.

[cclxvi] "Love Virtually" by Daniel Glattauer, ٢٠١١.

[cclxvii] "How Do I Love Thee" by Elizabeth Barrett Browning.

[cclxviii] Louis Alexandre Berthier (١٧٥٣-١٨١٥).

[cclxix] Louis Charles Antoine Desaix (١٧٦٨-١٨٠٠).

[cclxx] سامح سند، أغرب الحكايات، القاهرة، عصير الكتب للترجمة والنشر والتوزيع، ٢٠٢٤، ص ١٨٦.

[cclxxi] للفنان النمساوي "جوستاف كليميت"، ١٩٠٧.

[cclxxii] "A tale of Two Cities", "Great Expectations", "Hard Times" and "A Christmas Carol".

[cclxxiii] سالمة بنت سعيد ابن سلطان، مذكرات أميرة عربية، ترجمة: عبد المجيد حسيب القيسي، ألمانيا، منشورات الجمل، ٢٠٠٦.

[cclxxiv] Emily Ruete.

[cclxxv] Christiaan Snouck Hurgronje (١٨٥٧-١٩٣٦).

[cclxxvi] القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦.

[cclxxvii] القاهرة، دار التلاقي للكتاب، ٢٠١٠.

[cclxxviii] صنعاء، مركز عبادي للدراسات والنشر، ٢٠١٣، ص ٢٣.

[cclxxix] Joseph Williams (McPherson), Bimbashi McPherson, a life in Egypt, London, British Broadcasting Corp, ١٩٨٣, P. ٨١.

[cccLxxx] من الأشعار التي وردت في "ألف ليلة وليلة".

[cccLxxxi] Royflex.

[cccLxxxii] Hetero-paternal super-fecundation.

[cccLxxxiii] Little Gidding.